دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكّمة

«تعنى بتاريخ العرب»

تصدر عن لجنة كتابة تاريخ العرب ـ جامعة دمشق

السنة السابعة عشر/ العددان / ٥٥ ـ ٥٦ / آذار ـ حزيران/ ١٩٩٦

الاشتراكات	للافراد	للمؤسسات	للطلاب
في القطر العربي السوري	(٢٠٠) ل.س.	(٤٠٠) ل.س.	(١٠٠) ل.س.
في الاقطار العربية	(٢٠) دولار امريكي	(٤٠) دولار امريكي	
في البلاد الاجنبية	(٣٠) دولار امريكي	(٦٠) دولار امريكي	

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة منذ عام ١٩٨١ بالبدل نفسه لكل عام، ويتم تسديد بدل الاشتراك بشيك الى لجنة كتابة تاريخ العرب، أو بتحويل المبلغ الى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٢٣/٣٣٢٣.

المراسلات: لجنة كتابة تاريخ العرب- مجلة دراسات تاريخية- جامعة دمشق.
المكاتب: جامعة دمشق- هاتف /٢١٢٤٤٦١/

تصدرها وتشرف على تحريرها

لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المدير المسؤول — أ.د. عبد الغني ماء البارد
رئيس جامعة دمشق

رئيس التحرير — أ. محمد محفل

مدير التحرير — أ. عبد الكريم علي

هيئة التحرير والاشراف:

د. عبد الغني ماء البارد — د. حامد خليل — د. سهيل زكار
د. عادل العوا — د. خيرية قاسمية — د. عيد مرعي
د. نور الدين حاطوم — د. طيب تيزيني — د. فيصل عبد الله
د. شاكر الفحام. — د. سلطان محيسن — د. علي احمد
د. محمد خير فارس — أ. محمد محفل — د. ابراهيم زعرور
أ. عبد الكريم علي

تصميم الغلاف د. بثينة ابو الفضل

شروط النشر في المجلة

ان مجلة دراسات تاريخية هي جزء من مشروع كتابة تاريخ العرب، وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الغرض الاساسي، وهو كتابة تاريخ العرب من منطلق وحدوي، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيد بأسلوب البحث العلمي، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي، وتسليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الامة العربية واعطته خط مساره الخاص، وايضاح ماالفه الغموض، وتصحيح ماشوه وكشف الزيف ان وقع، وكل مايمكن ان يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية.

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها وبكل مقترحا ورأي يساعد في مسيرتها، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب ومايتصل به، على ان يراعى فيها مايلي:

آ: ان تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي.
ب – ان لايكون البحث منشورا من قبل.
جـ – ان يكون مطبوعا على الآلة، خاليا من الاخطاء الطباعية.
د – تعرض البحوث، في حال قبولها مبدئيا، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتها للنشر، وفق المعايير المذكورة اعلاه، والتعديلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء. وتبقى عملية التحكيم سرية.

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف أو الاختزال، بما يتوافق مع اغراض الصياغة.

ولاتنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع، ولذلك يحسن ان يتقيد السادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها، على النحو التالي:

أ – في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الاولى):

ذكر اسم المؤلف كـاملا وتاريخ وفاته بين قوسين ( ) ان كـان متوفى، اسم المصدر او المرجع وتحته خـط، عد د المجلدات أو الاجزاء، اسم المحقق ان وجـد، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

ب – في محاضر المؤتمرات:

ذكر اسم البـاحث كاملا، عنوان الـدراسة كاملا بين قـوسين مزدوجين « »، عنوان الكتاب كاملا، اسم المحرر او المحرريـن، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

جـ – في المجلات:

اسم البـاحث كامـلا، عنوان البحث بين قوسين مـزدوجين « » اسم المجلة كـاملا وتحته خط، رقم المجلد او السنة، رقم العدد وتاريخه، الصفحة.

ثم ذكر الرمز الذي يشار به الى المجلة في المرات التالية:

د – في المخطوطات (للمرة الاولى):

اسم المؤلف كـاملا، عنوان المخطوط كامـلا، الجهة التي تحتفظ به، تـاريخ النسخة وعدد أوراقها، رقم الـورقة من الاشارة الى وجهها (آ) وظهرها (ب). ثم ذكـر مايشار به الى المخطوط في المرات التالية.

وتكتـب الاسماء الاجنبيـة بـالعـربيـة والـلاتينيـة بين قـوسين ( )، ويشـار الى الملاحظات الهامشيـة بنجمة *. وتـرقم الحواشي بارقـام تتسلسل مـن اول البحث الى آخره، دون التوقف عند نهاية الصفحات.

يمنح البـاحث نسخـة من العدد الـذي نشر فيه بحثه والاعـداد الصادر خـلال ذلك العام، مع عشرين (مستلة) من البحث.

محتويات العدد

* ملاحظات عن الكتابة المسمارية في إبلا ص٧
د. عيد مرعي
* دور مملكة كندة السياسي ص١٧
في شمال الجزيرة العربية
(في القرنين الخامس والسادس الميلاديين)
د. محمود فرعون
* الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة ص٣٣
قبل الهجرة وأثر الهجرة عليها
د. شكران خربوطلي
* من تاريخ اللغة العربية ص٥١
أدوات الكتابة والوراقة
د. مسعود بوبو
* المظاهر السياسية والحضارية ص٦٣
للدولة الرستمية في المغرب
د. صالح محمد فياض أبو دياك
* التنظيم الاداري لديوان العرض(الجند) ص١٠٦
في عهد الدولة الغزنوية
د. أحمد محمد الجوارنة
* أثر تجارة المحاصيل الزراعية ص١٤٢
على نشوء الطرق التجارية
في غور الأردن (درب القفول)
د. جمعة محمود كريم
* الصهيونية في مرآة الفكر العربي المعاصر ص١٧٨
العلاقة بين الصهيونية والتاريخ اليهودي
د. أحمد برقاوي
* قراءة في كتاب ص٢٠٧
د. محمد محفل

ملاحظات عن الكتابة المسمارية في إبلا

ملاحظات
عن الكتابة المسمارية في إبلا

● د. عيد مرعي
قسم التاريخ — كلية الآداب
جامعة دمشق

أدت الحفريات الأثرية الإيطالية في تل مرديخ، الواقع على بعد ٥٥كم جنوب شرقي حلب مابين عامي ١٩٧٤ — ١٩٧٦، إلى الكشف عن آرشيف ملكي ضخم يتألف من أكثر من ستة عشر ألف رقيم وكسرة طينية، تؤرخ بالنصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، حيث قامت في شمال سورية آنذاك مملكة مزدهرة قوية هي مملكة إبلا Ebla، التي تعد أقدم مملكة عامرة عرفتها سورية. وبذلك تغيرت النظرة السابقة إلى سورية القديمة في الألف الثالث قبل الميلاد، القائلة أنها منطقة نزاع دائم بين ملوك بلاد الرافدين وفراعنة مصر القديمة؛ فقد تبين نتيجة دراسة الأرشيف الملكي أن إبلا كانت مملكة قوية، تمتد حدودها من الفرات في الشرق حتى سواحل المتوسط في الغرب، ومن جبال طوروس في الشمال حتى سهول حمص في الجنوب. وقد تمتعت بقوة عسكرية وسياسية واقتصادية كبيرة مكنتها من مد نفوذها إلى بعض المناطق المجاورة ومن إقامة علاقات سياسية واقتصادية متينة مع العديد من مدن بلاد الرافدين وممالكها. يضاف إلى ذلك أن إبلا كانت مركزاً حضارياً متقدماً له إنجازاته الحضارية المتميزة. فقد عرف الإبلويون أول قاموس لغوي في التاريخ، دونوا فيه الكلمة السومرية أولاً وتحتها معناها في اللغة الإبلوية. وأحياناً كانت تذكر تهجئة الكلمة السومرية(١). وقد ارتبط هذا المركز الحضاري المتقدم بعلاقات ثقافية وثيقة مع مناطق جنوبي بلاد الرافدين، حيث كانت تقوم هناك في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد حضارتان هما: الحضارة السومرية في بلاد سومر، والحضارة الكيشية(نسبة إلى مدينة كيش،حالياً: تل الأحيمر) في المنطقة الممتدة بين كيش وماري وماجاورهما.

وتجلت تلك العلاقات مابين إبلا وكيش في قيام اتصالات ثقافية قوية، نجد أبرز مثال عنها زيارة أستاذ الرياضيات من كيش إلى إبلا(٢). أما العلاقات مابين إبلا وبلاد سومر فتظهر بأوضح صورها في تبني الإبلويين نظام الكتابة المسماري لتدوين وثائقهم وسجلاتهم.

من المعـروف أن الكتابـة المسمارية ظهـرت أول ماظهـرت في بلاد سـومر ، في أقصـى جنوب بلاد الرافديـن، في أواخر الألف الرابع وبداية الألف الثـالث قبل الميلاد. ويعزى ذلك الاختراع الهام في تاريخ البشرية إلى السومريين. وقد مرت الكتابة المسمارية بمراحل تطور متعددة قبل أن تصل إلى الشكل المقطعي المعروف، وهذه المراحل هي(٣):

١ —المرحلة التصويريةPICTOGRAPHY:

وهي أقـدم مراحـل الكتابـة على الإطلاق، وفيهـا كان يتـم التعبير عن الأشيـاء المراد التعبير عنها برسم صورها أو أجزاء منها. فصورة المحراث تعني محراثاً، وصورة السمكة تعني سمكة، وصورة السنبلة تعني شعيراً، ورأس الثور يعنى ثوراً، ورأس الإنسان يعنى إنساناً.

وتمثل أقدم شواهد هذه المرحلـة في النصوص المكتشفة في أوروك—الطبقة— الرابعة بـUruk IV B، والبالـغ عددها أكثـر من ألف لوح يـرقى تاريخهـا إلى نحو ٣٣٠٠ق.م. وهي في معظمها نصـوص اقتصادية وإدارية قصيرة تتعلق بحســاب واردات المعابد(٤)، لأن المعبد في سومر كان في تلك الفترة مـركزاً للنشاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي بالإضافة إلى الـديني. ومن شواهد هذه المرحلة في سوريـة لوحان صغيران من الطين غير المشوي اكتشفا في تل براك عام ١٩٨٤(٥)، وبضعة ألواح في حبوبة كبيرة(٦).

٢—المرحلة الرمزيةIDIOGRAM/LOGOGRAM:

وقـد تطـورت الصورة فيهـا إلى رمـوزأو اشـارات مسماريـة لاتعبر فقط عـن المعـاني الأصلية للصورة الأصلية المرسـومة بل أيضاً عن أفكار ومعان لها عـلاقة بالمعنى الأصلي للشيء المرسوم. فالـرمز الدال على الشمس لم يعـد يعني الشمسّ فقط بـل الضوء والنهار واليوم والحرارة، أي كل المعاني المرتبطة بالمعنى الأول.

وللتعبير عن معان جديدة صارت تدمج إشـارتان أو أكثر للحصول على معنى جديد مثل:

فم + خبز = يأكل KA + NINDA = KU

رجل + كبير = ملك LU + GAL = LUGAL

٣—المرحلة المقطعية أو الصوتية PHONETICS

وفيها أخذ كل رمز صوتاً معيناً يتناسب واللغة المستخدمة بغض النظر عن مدلوله الصوري. وكان كل رمز يحمل عدة معان، ويمكن أن يؤلف كلمة أو جزءاً من كلمة بإضافته إلى رمز أو رموز أخرى. وقد عرفت هذه المرحلة من مجموعة نصوص اكتشفت في أور، ويرقى تاريخها إلى نحو ٢٨٠٠ق.م.

لم ينحصر استخدام الكتابة المسمارية في بلاد الرافدين، بل شاع وانتشر في مختلف بقاع الشرق القديم بدءاً من الألف الثالث وحتى الألف الأول قبل الميلاد. ودونت بها لغات متعددة كالسومرية والإبلوية والأكادية والعيلامية والحثية والحورية والأورارتيه.

وقد استخدم سكان إبلا في شمال سورية هذا النظام الكتابي في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، لكتابة لغتهم وتدوين وثائقهم بطريقة تشبه الطريقة المستخدمة في مدن جنوب بلاد الرافدين.

فنصوص إبلا تظهر تشابهاً كبيراً من حيث الكتابة مع النصوص المكتشفة في موقعي (شوروباك القديمة) وأبو صلابيخ في جنوب بلاد الرافدين، وهما موقعان سومريان تظهر في نصوصهما المكتشفة تأثيرات كيشية واضحة. وقد دونت بالخط المسماري بثلاثة أساليب هي(٧):

١—نصوص كتبت بإشارات مقطعية فقط، ويلاحظ ذلك بشكل أساسي في بعض التعاويذ والنصوص الدينية كما في النص التالي(٨):

du11- ga	قرار
en	الملك
gis-ba-tuku	سمع
dKu-ra	الإله كورا
wa	و
(d) UTU	إله الشمس
gis-ba-tuku	سمع
wa	و
gis-ba-tuka	سمع
DA-DA	الإله هدد
WA	و
gis-ba-tuka	سمع
dingir-dingir	(كل)الألهة

٢—نصـــوص كتبــت بشكــل رئيسي بــإشــارات مقطعيــة مــع بعــض الرموز(اللوغوغـرامات واللغوغرامLOGOGRAM,إشارة مسمارية تمثل كلمة واحدة) مثل الرسـائل والنصوص التاريخية والمعـاهدات والنماذج المختلفة من المؤلفـات الأدبية، ونورد فيما يلي كمثال على ذلك رسـالة إركب داموIrkab-Damu ملك إبلا إلى زيزي Ziziملك خمازي، وهي منطقة تقـع إلى الشرق من بلاد الرافدين، والمتعلقة بـإقامة حلف بين المملكتين(٩).

الوجه الأمامي:

I	1)	en-ma	هكذا
	2)	i-bu-bu	إبو بو
	3)	agrig	ناظر
	4)	é	قصر
	5)	en	الملك
	6)	li-na	إلى
	7)	sukkal-dug-<si-mà>	الرسول(اسمع)
	8)	an-ta	أنت
	9)	ses	أخـ(ـي)
	10)	u	و
II	1)	an-na	أنا
	2)	ses	أخـ(ـوك)
	3)	lu-ses	(لك) رجل أخ
	4)	mi-nu-ma	ما
	5)	al-dul1-ga	ترغب
	6)	si	ويخرج
	7)	Ka	من فمك
	8)	an-NA	أنا
	9)	in-na-sum	أعطي
	10)	u	و
III	1)	an-TA	أنت

	2)	al-du11-ga	الرغبة
	3)	si	الخارجة(من فمي)
	4)	i-na sum	تعطي(تلبي)
	5)	BAR-AN-SA6	جنوداً جيدين
	6)	hi-mu-tum	أرسل إلي، فأنا أصلي:
	7)	an-tà	أنت
	8)	ses	أخـ(ـي)
	9)	u	و
	10)	an-na	أنا
	11)	ses	أخـ(ـوك)
IV	12)	10gis ÉS	عشر قطع أثاث خشبي
	1)	2gis asud- gis ÉS	حليتان
	2)	i-bu-bu6	(أنا) إبوبر
	3)	in-na-sum	أعطيتهم
	4)	sukkal-du8	إلى الرسول
	5)	ir-kab-da-mu	إركب دامو
	6)	EN	ملك
	7)	eb-laki	إبلا
	8)	ses	أخو
V	9)	zi-zi	زيزي
	10)	en	ملك
	1)		خمازي
	2)		زيزي
	3)	HA-MA-ZI-IM^{Ki}	ملك
	4)	zi-zi	
	5)	en	خمازي
	6)	ha-ma-zi-imki	أخو
	7)	ses	إركب دامو
	8)	ir-kab-da-mu	ملك
VI	1)	en	إبلا
	2)	eb-laki	و
	3)	u	هكذا
	4)	en-ma	تيرا—إل
	5)	ti-ra-il	الكاتب
	6)	dub-sar	كتب
	7)	(i)k-tub	وإلى
	8)	li-na	رسول
	9)	sukkal-du8	زيزي
		(zizi)	الوجه الخلفي:
I	1	i-na-sum	أعطي(الرسالة)

٣—نصوص كتبت بشكل رئيس بعلامات رمزية(لوغوغرامات) ووشيت بإشارات مقطعية مثل النصوص الإدارية. وقد استخدم اللوغوغرام بشكل رئيس للتعبير عن أعداد ومقاييس وبضائع مختلفة وتسميات خاصة بالممارسات الإدارية(دخول بضائع وخروجها واستلامها..إلخ)

علماً ان معظم نصوص إبلا إدارية تتعلق بإدارة القصر الملكي. أما الاشارات المقطعية فقد استخدمت للتعبير عن أسماء أعلام وضمائر وظروف وأدوات جر وبعض الأعداد (مئة، ألف، عشرة آلاف) وأسماء بضائع ليس لها مقابل لوغوغرامي في اللغة السومرية.

وقد قاد هذا الاستخدام المكثف للوغوغرامات في نصوص إبلا بعض الباحثين إلى الافتراض أن معظم نصوص إبلا كتبت باللغة السومرية وليس باللغة المحلية المعروفة حالياً بالإبلوية(١٠).

غير أن الدراسات اللاحقة والدقيقة لأرشيف إبلا، وبخاصة تلك التي قام بها عالم الدراسات الآشورية المعروف Gelb، أظهرت أن القسم الأعظم من نصوص إبلا كُتب باللغة الإبلوية وليس السومرية. ويقتصر ماكتب بالسومرية على المؤلفات الأدبية والنصوص المدرسية المستوردة من الخارج(١١).

من الجدير بالذكر أن الأساليب الثلاثة المذكورة لاستخدام الخط المسماري في إبلا كانت معروفة في المصادر الرافدية العائدة إلى الألف الثالث قبل الميلاد. ويشبه توزيع اللوغوغرامات والمقاطع في نصوص إبلا الادارية أو مطابق لمثيله في النصوص الإدارية الرافدية من العصرين ماقبل الشاروكيني (٢٧٠٠—٢٣٥٠ق.م) والشاروكيني(٢٣٥٠—٢٢٨٤ق.م).

غير أن كتّاب إبلا استخدموا هذه الأساليب لكتابة لغة إبلا ونصوصها بشكل مختلف تماماً عن استخدامها لكتابة أية لهجة أكادية أو لغة أخرى، وينطبق هذا الشكل بشكل خاص على المعاهدات والنصوص التاريخية التي أثارت قراءتها وترجمتها كثيراً من المشاكل والصعوبات.

ففي الرسالة من إركب دامو ملك إبلا إلى زيزيZiziملك خمازي، نقرأ مايلي:

أنت شيش و أنا شيش ومعناها الحرفي : أنت أخ وأنا أخ، غير أن ترجمة بيتيناتو، أنت أخـ(ـي) وأنا أخـ(ـوك) : صحيحة فهذا هو المعنى المقصود.

وتكتب كلمة أخ الواردة في هذه العبارة الآكادية القديمة:

«أخي وأخوك»، (أو ربما شيشي أو شيشخي، وشيشكا)(١٢).

هناك أيضا صفة أخرى للكتابة المسمارية التي استخدمت في إبلا لم تعرف خارجها في الفترات التاريخية الأولى وهي ربط الشكل السومري للفعل مع ضمير ملكية إبلوي كما في المثالين التاليين(١٣):

I.NA.SUM-kum: هو أعطى لك.

I.NA. SUM-sum: هو أعطى له.

فالفعل السومري إناسوم: أعطى اتصل بـه ضمير الملكية المتصل للمخاطب المفرد المذكر في حالة الجر في المثال الأول، وضمير الملكية المتصل للغائب المفرد المذكر في حالة الجر أيضاً في المثال الثاني.

نخلص مما سبق إلى القول أن سكان إبلا استخدموا الكتابة المسمارية بشكل يتناسب مع خصائص لغتهم وصفاتهم، كما هي الحال حالياً في استخدام الحروف العربية لكتابة اللغة الفارسية بشكل يلائم تلك اللغة، واستخدام الحروف اللاتينية لكتابة العديد من اللغات الأوربية الحديثة بشكل يتناسب مع قواعد تلك اللغات وصفاتها.

الهوامش:

★ألقي هذا البحث في الندوة الاقليمية الأولى عن الكتابات في بلاد الشام حتى ظهور الاسلام التي نظمتها جامعة اليرموك بالاردن مابين٢٥—٢٧ / ٤/ ١٩٩٤ .

١— Pettinato,G.,the Archives of Ebla, an empire inscribed in clay, Garden City, New york 1981,P.235.ff

٢— -Ibld.,P.239.

٣—حول نشوء الكتابة المسمارية وتطورها أنظر: مرعي، عيد، الكتابة والتعليم في بلاد الرافدين، دراسات تاريخية ٤١—٤٢، ١٩٩٢ ، ص٧ومايليها.

٤—أنظر حول نصوص أوروك:

Falkenstein, A., Archaische Texte aus Uruk(Ausgrabungen der deutschen Ftorschungsgemeinschaft in Uruk-Warka, Band2) , Berlin 1936 .

٥— Finkel, I. L., Inscription from tell Brak 1984, in: Iraq 47(1985), P.187.

٦— -Strommenger, E., Habuba kabira, eine stadt vor 5000 Jahren , Mainz am Rhein 1980,S.63 ff.

٧— Gelb, I. J. Ebla and the Kish Civilization, in: L. Cani(ed.) La lingua di EBLA NAPOLI, 1981, P11.ff.

٨— -Pettinato, G, The archives of Ebla, an empire inscribed in clay, Garden City , New York 1981, P.246 ff.

٩—ترجم بيتيناتو هذه الرسالة في كتابه:

The arvhices of Ebla, P. 97-98p Ebla Nuovi orrizzonti della Storia, Milano, 1986; P. 397. 398 .

١٠— Pettinato , G., Gli archivi Reali di Tell Mardikh-Ebla: Reflessioni e prspettive, in: Rivista Biblica Italiana 25(1977), p. 238; Biggs, R, D .. the Ebla Tablets, an Interim prespective, in Biblical archaelogist 43 (1980), P. 83.

١١— -Gelb, op. cit., P.11,13ff;

١٢— ibid, P. 17.

١٣— ibid, P. 18.

دور مملكة كندة السياسي

في شمال الجزيرة العربية

(في القرنين الخامس والسادس الميلاديين)

دور مملكة كندة السياسي في شمال الجزيرة العربية
(في القرنين الخامس والسادس الميلاديين)

د. محمود فرعون
كلية الآداب ـ جامعة دمشق

شغلت قبائل كندة دوراً هاماً في تاريخ الجزيرة العربية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين بوصفها، دولة ذات شأن لها مصالحها الخاصة، سواء داخل الجزيرة أو على الحدود مع بيزنطة وفارس في الشمال. وأظهرت الاكتشافات التي تمت في وسط الجزيرة وجنوبها، المكانة الخاصة لعاصمة كندة القديمة ودورها على طريق التجارة بين جنوب الجزيرة والشمال الشرقي، وحظيت الكتابات والنقوش الجنوبية التي اكتشفت في قرية «الفاو» بأهمية بالغة، فقد أفادتنا في التعريف على إسم عاصمة دولة «كندة» وأن اسمها «قرية» ووصفتها بأنها «ذات كهل» نسبة لمعبودها. وعن طريقها تعرفنا أيضاً لأول مرة في التاريخ العربي على عاصمة هذه الدولة التي لم تشر الكتب القديمة اليها من قريب أو بعيد. كما لم تشر الى معبودها الرسمي بشكل قاطع، وقد حدد العلماء الذين درسوا هذه الكتابات انها تعود الى مابين القرنين الأول والخامس بعد الميلاد.(١)

فالحديث عن كندة على حدود بيزنطة وفارس يعد محاولة لرسم صورة عن التاريخ السياسي العام لهذه الدولة، وتظهر الأبحاث التي نشرت منذ عدة سنوات، عن نتائج آثار «قرية الفاو» صورة من صور الحضارة العربية قبل الاسلام(٢).

فمملكة كندة: هي مجموعة من القبائل تعود في أصلها إلى الجنوب العربي، حسب رأي الهمداني(٣)، وياقوت(٤)، وابن خلدون(٥)، ولكن هذه المصادر لم تحدد بالضبط موطن تلك القبائل ومتى هاجرت الى غمر ذي كندة الذي يقع في الطرف الجنوبي الغربي من نجد على مسافة يومين من مكة(٦).

وقد ورد ذكر كندة في النقوش السبئية أكثر من مرة(٧)، وقراءة هذه النقوش ألقت الضوء على تاريخ هذه القبائل، وأيدت ماورد في المصادر العربية بأن كندة مجموعة قبائل جنوبية انتقل قسم منها نحو الشمال باتجاه نجد، وتحركها نحو الشمال، انما كان جزءاً من عملية انتقال للقبائل العربية باتجاه وسط الجزيرة نتيجة للإضطرابات التي كان مسرحها

الجنوب العربي(٨)، وربما كان انتقال كندة الى المناطق التي شغلتها قبائل معد في نجد استمراراً لعملية انسياح عام للقبائل العربية، من الجنوب العربي إلى وسط وشمال الجزيرة العربية، امتدت لعدة قرون، ودور هذه القبائل في الجنوب غامض، فالمصادر لاتشير الى أي اتصال بين كندة والدول المجاورة قبل هجرتها الى غمر ذي كندة ،سوى رواية اليعقوبي عن الحرب الطاحنة بين كندة وحضرموت(٩).

وخلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين قامت على الحدود الشمالية لجنوب الجزيرة العربية عدد من الممالك البدوية، أكبر هذه الممالك مملكة كندة القديمة بمركزها في مدينة«قرية» ذات كهل، والتي أكتشفت منذ زمن غير بعيد في وادي الدواسر على الطريق بين نجران واليمامة(١٠). ويبدو أنه لم يكن لكندة أي وزن سياسي كبير في هذه الفترة يؤهلها للاتصال بالدول الكبرى كدولة الفرس والروم، أو بسبب سيطرة ملوك سبأ وحمير عليها لوقوع عاصمتها على الطريق التجاري الذي يربط بين جنوبي الجزيرة العربية والشمال، وشمالها الشرقي حيث كانت القوافل تبدأ من ممالك الجنوب باتجاه نجران ومنها «قرية» الفاو وبعدها باتجاه اليمامة والخليج، وشمالاً الى وادي الرافدين وبلاد الشام، فهي بذلك تعتبر مركزاً تجارياً، واقتصاديا هاما في وسط الجزيرة العربية(١١). ولذلك تعرضت للغزو من قبل ممالك الجنوب أكثر من مرة، وتشير النقوش الجنوبية (Ja. 635)(١٢) ان كندة وعاصمتها تعرضتا لهجوم من قبل جيوش شعرم أوتر، ملك سبأ وذي ريدان ،في القرن الأول ق.م، وكذلك نص النقش (Ja. 660)(١٣) الذي يعود إلى بداية القرن الرابع للميلاد يشير إلى أن كندة ومذحجا، كانتا ضمن القبائل القوية في جيش شمريهرعش ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة. كما نجد كندة في نقش (Ry.509)(١٤) الذي يعود إلى فترة الملك أبي كرب أسعد الكامل الذي عاش في أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلادي. ويظهر هذا النقش ان كندة كانت من ضمن قوات حمير التي غزت وسط وشمال الجزيرة العربية.

وتؤيد هذه النقوش مايرد في المصادر العربية عن العلاقة بين حمير وكندة(١٥) ويفترض بتروفسكي(Piotrovsky)أن في زمن أبي كرب أسعد كانت البداية لتأسيس كندة الجديدة(١٦)التي فرضت سيطرتها على قبائل معد وربيعة ونزار وأصبحت كقوة في وسط الجزيرة العربية يحسب حسابها في زمن أسرة حجر الملقب بآكل المرار(١٧).

ويبدو أن نفوذ الحيرة على وسط الجزيرة العربية وشمالها قد تقلص مع ظهور كندة من الجنوب العربي«حمير» كقوة في وسط الجزيرة، ووصلت الى أوج سلطتها وتوسعها في ظل الملك الحارث بن عمرو(١٨) الذي يعد أشهر ملوك كندة وفي زمنه ارتفع شأنها ووصلت إلى ذروة عظمتها وقوتها، فامتدت سلطتها لتشمل وسط وشمال وشرق الجزيرة حتى شمل قبائل البادية مابين سورية والعراق، مما أدى إلى الاصطدام مع بيزنطة ويذكر

ثيوفانس أن الملك الكندي الحارث بن عمرو، بعث بحملة عسكرية كبيرة بقيادة ولديه «حجر وجبلة» عام (٤٧٩م) لمهاجمة الحدود الجنوبية لبلاد الشام، التابعة للامبراطورية البيزنطية، ثم اتبعها بحملة ثانية بعد أربع سنوات قادها ابنه «معد يكرب» ونجحت الحملة وتمكن الامير الكندي من تخريب مناطق واسعة من بلاد الشام(١٩). ويصف ثيوفانس (Theophanes) حملة معد يكرب بأنه «انقض كالريح على هذه المواضع وابتعد بسرعة بالغنائم، حتى أن «القائد» رومانوس تعقبهم ولم يستطع اللحاق بهم» (٢٠).

فطموحات الحارث بن عمرو أثارت خوف الدول المجاورة ودفعتها إلى التقرب من كندة آملة قيام نوع من التحالف معها لتحقيق مصالحها وأهدافها السياسية. وقد حاولت بيزنطة كسب كندة إلى جانبها أو على الأمل لتفادي تحرشها بالحدود الجنوبية للامبراطورية، أو للاستفادة من كندة، في التحرش بالحدود الغربية للساسانيين واضعاف نفوذ الحيرة وبالفعل تم عقد صلح بين الحارث بن عمرو والامبراطور البيزنطي انستاسيوس عام(٥٠٢م).

لكن بنود الاتفاق لم يذكرها ثيوفانس(Theophanes) لكن المفروض أنهما اتفقا على انهاء النزاع بينهما والتحالف ضد فارس وحلفائهم المناذرة(٢١).

ويؤيد هذه الروايات مايرد عند المؤرخ يوشع العمودي، عن الحوادث في الحيرة في بداية القرن السادس الميلادي، بأن ملك الحيرة النعمان، اشترك مع الشاه الفارسي، قباذ، في المعارك التي وقعت بين الفرس والروم.

ففي عام ٥٠٢ م تقدم النعمان، بقواته من الجنوب الى منطقة حران فنهب وسبى وخرب حتى حدود اذاسا«الرها»، وفي عام ٥٠٣ شارك النعمان، في الهجوم على شمال سورية، فأصيب في احدى المعارك على الخابور ومات على أثرها(٢٢).

وقبل موت النعمان تلقت الحيرة ضربة شديدة، فقد زحف عرب الروم من بني ثعلبة على حيرة النعمان فعثروا على قافلة، وابل محملة كانت متجهة إليها، فانقضوا عليها وقتلوا جميع من كانوا هناك واقتادوا الإبل.(٢٣) وبنو ثعلبة الذين قاموا بالهجوم على الحيرة، هم بطن من بطون قبيلة بكر بن وائل التي ينتسب إليها الحارث بن عمرو الكندي من جهة أمّه(٢٤) ويفهم من وصف يوشع العمودي المعاصر للأحداث أن بني ثعلبة قد اضطلعوا منذ عام ٥٠٣م بمهمة حراسة الحدود البيزنطية وأن غارتهم على الحيرة كانت بمثابة ضربة مضادة رداً على غارات اللخميين. وكان الصلح الذي تم عقده في عهد الامبراطور انستاسيوس مع الحارث الكندي عام ٥٠٢م هو الذي يسر لقبيلة ثعلبة الخاضعة له الاغارة على الحيرة عام(٥٠٣م)(٢٥). وتتحدث المصادر العربية عن الوضع الخاص الذي شغله في تلك الأعوام الحارث الكندي بالعراق وبالمناطق المتاخمة بوضعه منافساً للمنذر اللخمي، ويظهر أن الحارث استطاع أن يبسط سلطانه على الجزء الأعظم من بلاد اللخميين في أثناء أعوام الاضطراب مابين عام ٥٠٣و٥٠٦ أثناء فترة الحرب بين بيزنطة وفارس(٢٦).

أما عن تقدم كندة نحو الحيرة واتصالها بالفرس فقضية يكتنفها الغموض، فالمصادر العربية تذكر عدة روايات تناقض بعضها بعضاً، فمنها، مايذكر ان ملك الفرس قباذ، طرد المنذر، من مملكته وأحل الحارث محله(٢٧). ومنها مازعمت أن المنذر استرضى الحارث، بعد أن رأى عجزه وعدم مساعدة الفرس له فتقرب إليه وتزوج ابنته هند(٢٨). وهناك رواية تذكر أن الحارث بن عمرو ،قتل ملك الحيرة النعمان بن المنذر بن امرىء القيس بن الشقيقة وأن المنذر ابنه فر ونجا بنفسه. وأن الحارث تملك بالقوة ماكان يملكه اللخميون، وأن قباذ داراه واسترضاه لما وجد فيه من القوة والبأس(٢٩). ويبدو أن الحارث الكندي، كان يتوق إلى اللقاء مع الفرس. بعد أن أفهم بيزنطة أنه ليس بالقوة الصغيرة في المنطقة العربية، وليس بالامكان السيطرة عليه بسهولة، وربما كانت رغبته في التعامل مع الفرس والملك الفارسي محصلة ظروف دولية كانت تخيم على شبه الجزيرة العربية وافقت مصالح كل من الملك الكندي الذي كان يسعى للسيطرة على الحيرة، ورغبة الملك الفارسي قباذ بالتحالف مع مملكة بيزنطة وفارس عام ٥٠٦(٣٠). وبسبب موقف الحيرة من الحركة المزدكية، (٣١) التي تبناها قباذ(٣٢)، أضف إلى ذلك رغبة الحارث الكندي في التحالف مع الفرس، ربما جاءت نتيجة تحرك قبيلتي بكر وتغلب باتجاه الشمال، تاركتين مناطقهما القديمة في اليمامة ونجد، لتستقرا في العراق على مقربة من الحدود الفارسية، وأن هاتين القبيلتين كانتا تشكلان عماد قوته العسكرية وبدونهما كان لايستطيع فرض شيء من رغباته السياسية(٣٣)، لذا وجب عليه أن يتلاءم مع الوضع المستجد ويقبل بالتقارب مع الملك الفارسي، أما مايتعلق بالجانب الفارسي وملكه قباذ، فقد رأت هذه الدولة لدى عاملها في الحيرة في تلك الاثناء المنذر بن ماء السماء انحرافاً عن ولائه التقليدي للفرس وميلاً نحو بيزنطة(٣٤).

وقد أيد قيام التقارب بين المنذر اللخمي وبيزنطة المفاوضات التي جرت بين الجانبين اثر الحملات العسكرية التي قام بها المنذر بن ماء السماء ضد ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في بلاد الشام وآسية الصغرى، وأسفرت فيما بعد إلى عقد صلح وتحالف مع المنذر من خلال وفد أرسل للمفاوضة عام ٥٢٤(٣٥). فالتقارب بين المنذر وبيزنطة لم يرض بالطبع الملك الفارسي قباذ وسياسته، ولذلك سارعت الدولة الفارسية الى اتخاذ اجراء سريع ضد المنذر وأنزلت به العقوبة المناسبة بطرده من الحيرة، وتولية الملك الكندي الحارث بن عمرو مكانه واتخذته حليفاً لها. بينما يرى روزشتينRothstein أن ضعف الدولة الفارسية بسبب الاضطرابات المزدكية هي التي أتاحت للحارث بن عمرو الكندي أن يطرد المنذر من عرش الحيرة ويغتصب الملك(٣٦). ويظهر أن الظروف الدولية قد ساعدت في قيام التحالف بين كندة وفارس في هذه الفترة، لأن فارس كانت ترى في تحالفها مع كندة تحقيقاً لمصالحها الاقتصادية وطرق تجارتها المارة في الجزيرة

العربية بـالإضافة إلى تأمين حدودها الجنـوبية من هجمات القبائل العربيـة، لأن كندة من بني الجون(٣٧) هي المسيطـرة على شرق الجزيرة ويمكن الافتراض أن التقارب مـع كندة كان موجهـاً ضد بيزنطة التي كـانت تحث حليفتها الحبشة على غزو اليمـن لحرمان الفرس من مد نفوذهم إلى هناك(٣٨).

ولاتذكر المصادر العربية مكاناً ثابتـاً للحارث بعد اغتصابه ملك اللخميين، فاليعقوبي (٣٩) يذكر أنه استقر في الحيرة، بينما يرى ابـن الأثير(٤٠)، أنه أقام في الأنبار، ويورد حمزة الأصفهاني،(٤١) أن الحارث كان بمعزل عن الحيرة التي كـانت دار المملكة، ولم يعرف له مستقر، انما كان سيارة في أرض العرب.

هذا وتـربط المصادر العـربية مـدة حكم الحارث للحيرة بفترة ظهور المزدكيـة في ايران وقبول الحارث الدخول فيها(٤٢). ويفترض أولينـدر ،أن حكمه كان قصير الامد، مابين ٥٢٥و٥٢٨م أي حتى نهايـة سلطة قبـاذ، وتولية أنـوشروان ونكبة المزدكيـة نهاية ٥٢٨أو بداية ٥٢٩م(٤٣).

وباعتـلاء كسرى أنوشروان، قيادة العـرش تغيرت السياسـة الفارسية بشكـل جذري تجاه كندة(٤٤)، وبمجرد تسلمه السلطة أصدر أمراً بـإعادة المنذر بن ماء السماء الى عرش الحيرة، وطرد الملك الكندي الحارث بن عمرو منها (٤٥). عندئذ لم يكن أمام الحارث إلا التقرب من خصـوم الفرس البيزنطيين(٤٦). ويعود المنـذر بن ماء السماء ثانيـة إلى عرش الحيرة، بـدأت صفحة جـديدة مـن الصراعات العسكـرية بين مملكـة الحيرة بقيادة المنـذر وملوك كندة، ويذكـر ابن الاثير أن أنوشروان طلب الحارث بن عمرو،«فبلغـه ذلك وهو بالانبار فخرج هـارباً في صحابته وماله وولده، فـرّ بالثوية فتتبعه المنذر بـالخيل من تغلب وإياد وبهراء، فلحق بـأرض كلب ونجا وانتهبوا مالـه وهجاينه وأخذت بنـو تغلب ثمانية وأربعين نفسـاً مـن بنـي آكـل المرار فقـدمـوا بهم على المنـذر فضرب رقـابهم بجفـر الاملاك(٤٧).

ويروي ملالا Malala وثيوفـانسTheophannes أن ديوميـدس، القائد الـروماني في فلسطين تحارب مع رئيس يدعى الحارث وأجبره على التراجع اتجاه«الهند»، ويقصد بذلك جنوب الجزيرة العربيـة، حيث كان يطلق عليها المؤلفون البيزنطيـون« الهند» فلما بلغ ذلك المنذر رئيس الأعـراب التابعين للفرس، هاجمه وقتلـه واستولى على ماله وأهـل بيته(٤٨). ويبدو أن المنذر بن ماء السماء لم يقف عند حـد مطاردة الحارث بن عمرو الكندي، أو قتله في شمال الجزيرة العربيـة(٤٩). بل تابع الصراع مـع ابنائه من بعده الـذين بقوا متمسكين بملكهم والـدهم في حيـاته ،على بعـض القبائل العـربية وصبروا على قتـال المنذر الـذي حاول تشتيـت أمرهم بـالخديعة والمكر ،تارة وبـالقتال مرة أخـرى(٥٠). وهكذا انهارت كنـدة بانتهـاء الحارث بن عمـرو وابنائه مـن بعـده، بفعل الصراعـات والنزاعـات بينهما

وفشلت محاولة الامير الكندي أمرىء القس بن حجر(٥١). الذي بذل جهداً كبيراً للثأر لأبيه وإعادة سلطان كندة تحت قيادته، لأنها اصطدمت بسياسة كسرى أنوشروان المناوئة لكندة وملوكها، كونه عهد إلى المنذر بن ماء السماء بأمر العرب، بالاضافة إلى حقد ملك الحيرة المنذر الذي أراد بدوره إخماد شعلة كندة والقضاء عليها بكل الوسائل المتاحة، لذلك نجده بمجرد التجاء قبيلة بني أسد إليه طالبة الحماية والنجدة ضد أمرىء القيس الكندي يعلن لها حمايته، ويعد العدة مع القبائل العربية الموالية له، بالاضافة الى جيش الاساورة الذي أرسله أنوشروان إليه، لسحق الاماني والرغبات التي حلم بها الامير الكندي، وحول هذا الجانب من ملاحقة الدولة الفارسية وعاملها على الحيرة لكندة وملوكها يذكر اين خلدون في كتابه العبر:

«ان امرأ القيس بعد أن انفضت عنه قبيلتا بكر وتغلب التجأ الى معشر الخير بن ذي جدن» أحد ملوك حمير، حيث أمدّه بخمسمائة فارس، وجنود آخرين لمقاتلة بني أسد فلما علمت أسد بهذه الحملة التجأت إلى ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء، الذي وجه في طلبه الفرسان من قبائل اياذ وبهراء وتنوخ. وأمده أنوشروان بجيش من الاساورة، فسرحهم في طلبه فتفرقت حمير ومن كان معه امام تفوق جيش العدو هذا، فنجا من المنذر في عصبته من بني آكل المرار ومعه شيء من ماله وأدرعته كان قد ورثها عن آبائه»(٥٢).

ونجد في المصادر العربية (٥٣) الكثير من الروايات التي تناقض بعضها بعضاً حول مغامرات امرىء القيس وماقيل فيها من الشعر، ومحاولته الثأر لابيه واعادة مجد كندة كما كان، وماتمخض عنها من معارك، يظهر من خلالها فشله الذي دفعه إلى السفر إلى القسطنطينية، لطلب المساعدة من القيصر، مستغلاً كونه مناوئاً لملك الحيرة المنذر، وتنتهي مغامرته بالموت قرب أنقرة(٥٤).

هكذا كانت العلاقة بين ملوك كندة من بني آكل المرار وبيزنطة، ودولة الفرس، وعمالهم المناذرة(٥٥)، علاقة غزو ونزاع ثم تحالف وصراع، انهارت بعدها مملكة كندة، وانسحب من بقي منها باتجاه حضرموت ثانية. بينما استمر حكم كندة من بني الجون لليمامة وماحولها إلى فترة متأخرة نسبيا(٥٦)، انتهت بتعرض كندة إلى يومين من أشهر أيام العرب في الجاهلية(٥٧). قاتل فيهما الكنديون في اليمامة بكل مالديهم من قوة هما يوم جبلة(٥٨)، ويوم ذي نجب(٥٩). وفي هاتين الوقعتين كانت الضربة القاضية لكندة وما لها من أثر سياسي في شرق ووسط الجزيرة العربية، وغادر أرض اليمامة والبحرين على اثرها قسم كبير من الكنديين الى حضرموت(٦٠) ويعتبر أوليندر عودة آخر فلول الكنديين الى ديارهم السابقة بعد ماأصابها من مصائب في نجد واليمامة بأنها مرتبطة

بالتطلعات التوسعية الفارسية نحو جنوب الجزيرة العربية، ورغبة كندة أن تلعب دوراً جديداً كحليفة للفرس في منازلها الأولى(٦١). لكن لم نجد في المصادر مايؤيد وجهة نظر أوليندر هذه، لأن الفرس في زمن أنوشروان اعتمدوا على اللخميين في فرض سيطرتهم وسياستهم على القبائل العربية، وقد ذكر الطبري أن أنوشروان«ملك المنذر بن النعمان على العرب وأكرمه» (٦٢) وفي رواية أخرى يورد الطبري أن كسرى ملك المنذر بن النعمان على مابين عمان والبحرين واليمامة إلى الطائف وسائر الحجاز ومن فيها من العرب.(٦٣) والمنذر هذا هو الذي تتحدث عنه المصادر البيزنطية باسهاب وبأنه ألقى الرعب والفزع في الأراضي البيزنطية لمدة خمسين عاماً (٦٤).

وفي عهد المنذر الثالث بلغت دولة اللخميين أقصى درجات الازدهار والقوة، حتى ان الامبراطور جوستنيان حاول استمالته والتأثيرعليه بالاموال والهدايا لكي يكف عن مهاجمة الحدود البيزنطية. لذلك يصعب قبول وجهة نظر أوليندر. وقد أدى توسع اللخميين في وسط الجزيرة بعد القضاء على كندة إلى الاصطدام بمصالح حمير، ولذلك نجد أبرهة الحبشي حاكم اليمن وحليف بيزنطة يحاول اعادة مدّ نفوذ حمير على وسط الجزيرة بعد انهيار كندة، ويحتمل أنه قام أكثر من مرة بمحاولات غزو وسط الجزيرة العربية لارهاب سكانها المتحالفين مع ايران ولايقاف تحرك اللخميين نحو الجنوب(٦٥)، ويرد في نقش (Ry.506) لعام ٥٤٧م أن أبرهة حارب قبيلة معدّ في حلبان على الطريق المؤدي إلى اليمامة في وسط الجزيرة العربية وهزمها، واضطر عمرو بن المنذر الثالث الذي كان عاملاً للخميين على معد تقديم رهائن لابرهة أثناء مفاوضات الصلح(٦٦). ويذكر بريكوبيوس ذلك، ويتحدث عن حملة واحدة لابرهة، ثم قفل عائدا على الفور(٦٧). لذلك يفترض أن حملة أبرهة على المناطق الواقعة تحت نفوذ اللخميين حلفاء الفرس، كانت تهدف إلى الضغط على فارس واضعاف موقف حلفائها، ثم إعادة السيطرة على الطريق التجاري الواصل الى الحجاز ، من أجل حماية مصالح حمير الاقتصادية. وربما كانت محاولة لاحياء مملكة كندة أو اقامة مملكة بدوية موالية على غرارها، أو أن الحملة كانت نتيجة للصراع بين بيزنطة وفارس وحلفائها للسيطرة على الجزيرة العربية لما لها من أهمية استراتيجية في التجارة العالمية، في تلك الفترة(٦٨).

وكما يظهر فان حملة ابرهة لم تحقق أهدافها، وانتهى آخر أمل لاحياء مملكة كندة أو اقامة مملكة على نمطها، تلك المملكة التي تعددت ولاءاتها ولم يكن لها مبدأ سياسي في حياتها منذ ان بدأت تشارك في الاحداث السياسية للجزيرة العربية، فسعت لفرض وجودها كدولة مستقلة معتمدة على قوة اتحادها القبلي وعلى تأييد حمير، فخاصمت

المناذرة في الحيرة وحالفت الفرس، واصطدمت مع البيزنطيين حيناً، وحالفتهم أحياناً ضد فارس، ثم انقلبت على نفسها، حيث دب الخلاف بين أبنائها فانحلّت عراها ولم تعمر هذه المملكة طويلاً، وهكذا انتهت أولى المحاولات لتوحيد العرب في قلب الجزيرة العربية تحت سلطة سياسية واحدة.

الحواشي

(١)—عبد الرحمن الطيب الانصاري، «قرية الفاو» صورة للحضارة العربية قبل الاسلام في المملكة العربية السعودية ، جامعة الرياض١٩٨٢ ،ص٣١ .

(٢)— المرجع السابق.

—عبد الرحمن الطيب الانصاري، «أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها»، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، مطبوعات جامعة الرياض ١٩٨٣،ص٣—١١ .

—عبد الرحمن الطيب الانصاري، «كتابات عن الفاو»، مجلة كلية الاداب، جامعة الرياض العدد الثالث ١٩٧٤،ص٢٧—٧٠ .

(٣)—الهمداني، يذكر(وبلد كندة مرتفع كانه سراة وتصب أوديته في حضرموت) ص١٦٨وفي مكان آخر(بلدة كندة من أرض حضرموت) ص١٦٦ .

الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن على الاكوع،ط٣،صنعاء ١٩٨٣ .

(٤)— ياقوت الحموي يذكر(ان كندة هو مخلاف باليمن).

ياقوت الحموي، معجم البلدان،ط ليبزج ١٨٦٩،ج٤،ص٣٠٩ .

(٥)—ابن خلدون،كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، بيروت ١٩٥٦م، ج٢،ص٢٥٧ .

(٦)—جوناز اوليندر، ملوك كندة من بني آكل المرار، ترجمة وتحقيق د. عبد الجبار المطلبي ط.جامعة بغداد١٩٧٣،ص٦٦ .

(٧)— Jamme A. Sabaean Inscriptions from Mahram Bilgis. Baltimore, 1962. PP. 136...137.

(٨)—جوناز أوليندر، ملوك كندة،ص٦٥ .

(٩)— اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي،ط ليدن ١٨٦٩ج١ ، ص٢٤٦ .

(١٠)محمد عبد القادر بافقية، في العربية السعيدة ، صنعاء ١٩٨٧، ص٢٦—٢٧ .

(١١)— عبد الرحمن طيب الانصاري ، قرية الفاو ......، ص١٦ .

---

(١٢)— Jamme, A. Sabaean Inscriptions from Mahram Bilgis(Marib) Baltimore, 1962, P. 136 .

(١٣)— Jamme, A. oP . cit., 164-165.

(١٤)— Jamme, A. oP. cit., P. 394

انظر أيضا ترجمة نقش RY 509 عند ميخائيل بتروفسكي M.Piotrovsky النص الروسي ص ١٧٥ ، أما الترجمة العربية.م. بتروفسكي، اليمـن قبل الاسلام، تعريب محمد الشعبي، بيروت١٩٨٧، ص٣٢٥ .

(١٥)— الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (ط ليـدن ١٨٧٩ — ١٨٩٠مج(١—٣)، ج١ ص ٨٨٠—٨٨١ .

حمزة الأصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء، ط الأوربية ص١٤٠

الانيوري، كتاب الاخبار الطوال، ط بريل ١٨٨٨ ، ص ٥٤—٥٥

ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ...، ج٢ ص ٢٧٦ .

(١٦)—بتروفسكي، اليمن قبل الاسلام ، ص٧٣ .

(١٧)—قيل: سمي حجـر آكل المرار لكشر كان به، وقيل قصص أخـرى، حول ذلك انظر:

جـواد علي، تـاريـخ العـرب قبـل الاسلام، مـط المجمـع العلمـي العـراقـي، بغـداد ١٩٥٤ومابعد. ج٣ ص ٢١٩.

(١٨)—يفترض صاحـب ملوك كندة أن حكـم الحارث الكندي يبـدأ تقريباً مـن عام ٤٩٠م

جونار اولیندر، ملوك كندة، ص ١٠٠

حول نسب الحارث انظر:

ابن حزم الاندلسي، جمهـرة انساب العرب، نثر وتحقيق ليفي بـروفنسال ، دار المعارف بمصر، ١٩٤٨ ، ص ٤٠١

(١٩)—جونار أوليندر ، ملوك كندة، ص ٨٩٣

(٢٠)—انظـر: نينا بيغـوليفسكيا، العـرب على حدود بيـزنطة وايـران، ترجمة صـلاح الدين عثمان هاشم الكويت ١٩٨٥ ، ص ١٦٩

(٢١)—جونار اوليندر، ملوك كندة ، ص ٩٣

(٢٢)— Pigulevlevskia N, Mecopotamia na rubeje V i VI VV.
Siriskia, Khronika Jeshu Stilita kak Istoricheskii istochnik, M, L,. 1940, str. 153, No, 57

(ترجمة روسية لحوليات يوشع العمودي ، القسم ٥٧ ،ص ١٥٣)

(٢٣)— المصدر السابق ، القسم ٥٧، ص ١٥٣
(٢٤)—هناك خلاف بين الباحثين حول انتماء ثعلبة الى كندة أم الى الغساسنة. روتشتين يعدّ ثعلبة من قبائل كندة، وأوليندر يؤيده أيضاً بينما نولدكه وعرفان شهيد يرون بأنهم ينتمون إلى الغساسنة ، وجواد علي يشك في صلتهم بكندة. انظر
Rothstein C. Die Dynastie der Lahmiden in al- Hira. B,. 1899 . C. 91
نولدكه ، أمراء غسان، ترجمة بندلي الجوزي وقسطنطين زريق ، بيروت ١٩٣٣ ص٤
جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام ، بغداد ١٩٥٤، ج ٣ ، ص ٢٢٧
جونار أوليندر، ملوك كندة ، ص ٩٤
(٢٥)— نينا بيغوليفسكيا، العرب على حدود بيزنطة وايران، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت، ١٩٨٥ ، ص١٧٠
(٢٦)— جونار أوليندر، ملوك كندة، ص ١٠٧ ، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، بيروت، ١٩٧٩ ، ج٤ . ص ٧١
(٢٧)— ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، ليدن، ١٨٦٧، ج ١ ص٣١٤
(٢٨)— المفضل بن محمد الضبي، المفضليات، شرح ابن الابياري، تحقيق لايل ، بيروت ١٩٢١ ، ص٤٢٧
(٢٩)— الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ١ ص٨٨١—٨٨٢ ، أبو علي مسكويه الرازي تجارب الامم، تحقيق د. ابو القاسم امامي، طهران ١٩٨٧ م ، ج ١، ص ٩١
يذكر أبو علي مسكويه «وملك الحارث بن عمرو الكندي ماكان يملك النعمان ، فبعث قباذ بن فيروز ملك فارس الى الحارث بن عمرو الكندي أنه:« قد كان بيننا وبين الملك الذي كان قبلك عهد وأني أحب لقاءك» ، ج١، ص٩١
(٣٠)— جونار أوليندر، ملوك كندة، ص١١٤
(٣١)—المزدكية: تنسب إلى مزدك : مصلح اجتماعي، هاجم نظام التملك الشخصي ودعا إلى اعادة توزيع الثروة بالتساوي بين الناس ومنح المرأة حقوقها، لكن اراء مزدك اتخذت طابعا مشاعيا أثناء التطبيق، فاعتبرها المؤرخون حركة زندقة . انظر:
آرثر كرستنسن، ايران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب وعبد الوهاب عزام بيروت ، ١٩٨٢، ص ٣٤٣ ومابعدها.
برهان الدين دلو، مساهمة في اعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٢٠١
المطهر بن طاهر المقدسي، كتاب البدء والتاريخ، ط مصورة لدار صادر عن ط باريز ١٩٠٣، ج٣، ص ١٦٧

البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخالية، ط مصورة لدار صادر عن ط ليبزج ١٩٢٣ ، ص٢٠٩

---

(٣٢)— يذكر ابن الاثير ان الملك قباذ«قد اتبع مزدك على دينه ومادعاه إليه وأطاعه في كل مايأمره به من الزندقة وغيرها مما ذكرنا أيام قباذ وكان المنذر بن ماء السماء يومئذ عاملاً على الحيرة ونواحيها فدعاه قباذ إلى ذلك فأبى فدعا الحارث بن عمرو الكندي فأجابه فسدد له ملكه وطرد المنذر عن ملكه».

ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص ٣١٤

(٣٣)—جونار أوليندر، ملوك كندة، ص ١١٤

(٣٤)— محسن يونس، كندة وعلاقتها بملوك الفرس وعمالهم ملوك الحيرة، مجلة دراسات تاريخية ، العدد ٢١—٢٢، دمشق ١٩٨٦، ص ١٩٨ .

(٣٥)—نبيه العاقل، تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي، دمشق ١٩٨٥، ص ١٧٥

يوسف رزق الله غنيمة، الحيرة: المدينة والمملكة العربية، بغداد ، ١٩٦٣، ص ١٦٧

(٣٦)—Rothstein C. die dynastie der Lahmiden in al-hira B. 1899. C. 87 .

(٣٧)— الجون: لقب معاوية الكندي، وقد سمي بذلك لشدة سواده انظر:

أبو الفرج الاصفهاني ، كاب الاغاني، ط مصورة عن دار الكتب المصرية، نشر دار احياء التراث العربي ، بيروت، د. ت ،ج ١١ ، ص ١٣٣

(٣٨)—لطفي عبد الوهاب يحيى، العرب في العصور القديمة، بيروت ١٩٧٩، ص ٤٣٩ .

(٣٩)— اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ط ليدن ١٨٦٩ ، ج ١ ، ص ٢٤٧

(٤٠)—ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ١ ، ص ٣٧٥ .

(٤١)— حمزة الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، ط الاوربية، Lipsia Mdcccxliv ١٨٤٤ ، ص ١٠٨

(٤٢)— ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ١ ، ص٣١٤ .

(٤٣)— جونار أوليندر، ملوك كندة ، ج١، ص ١١٤ .

لكن د. خالد العسلي يقول:« من الصعب قبول الروايات العربية التي تقول ان كندة حلت محل المناذرة في الفترة التي أيد فيها قباذ المزدكية» دون أن يعلل رفضه لقبول الروايات العربية؟

انظر: د. خالد العسلي، «العلاقات السياسية بين المناذرة والجزيرة العربية» المجلة التاريخية ، العدد الثاني ، بغداد ١٩٧٢، ص ١٨٧

(٤٤)— انظر خطبة كسرى انوشروان عند الطبري، ج ١ ص ٨٩٧ ومابعدها. كذلك يذكر الثعالبي أن كسرى قال: يوما لجلسائه (تمنيت على الله ثلاثا، الملك وقد أتانيه وتمليك هذا الفتى على العرب وقد ملكته وبقيت واحدة فقالوا : ماهي أيها الملك قال: قتل الزنادقة

الثعالبي ، غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، ط باريس ١٩٠٠ ، ص ٦٠٤

(٤٥)— ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، ج ١ ، ص ٣١٥، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك، ج١ ، ص ٨٩٩—٩٠٠ . حمزة الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، ص ١٤٠ ، أبو علي مسكويه ، تجارب الامم، ج١ ، ص٩٧ .

(٤٦)— جونار أوليندر، ملوك كندة ، ص١١٥

(٤٧)— ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ط دار صادر المصورة عن ط ليدن ١٩٠٢ ، ص ٤٤ ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، ج ١، ص ٣١٥ . وقد خلد شاعر كندة امرؤ القيس هذه الوقعة وفيهم يقول:

ملوك من بني حجر من عمرو
يساقون العشية يقتلونا

فلو في يوم معركة اصيبوا
ولكن في ديار بني مرينا

ولم تغسل جماجمهم بغسل
ولكن في الدماء مرملينا

تظل الطير عاكفة عليهم
وتنتزع الحواجب والعيونا

أبو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٩ ، ص ٨٠

(٤٨)— جونار أوليندر، ملوك كندة ، ص ٩٥

(٤٩)— حول موت الحارث بن عمرو الكندي روايات عديدة ومختلفة في المصادر العربية

أنظر : حمزة الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، ص ١٤١ المفضل بن محمد الضبي، المفضليات ، ص ٤٢٩

ابو الفرج الاصفهاني، الاغاني ، ج ٩ ، ص ٨١

ويعلق جواد علي حول هذه الروايات فيقول:«لاتخلو هذه الروايات المتعلقة بموت الحارث ونهايته من مؤثرات العواطف القبلية... فكلب تدعي أنها هي التي قتلته ، وكندة تنكر ذلك مدعية أنه مات كما يموت سائر الناس، وأهل الحيرة يقولون أنهم هم الذين قتلوه» . جواد علي، تاريخ العرب القديم، ج ٣، ص ٢٤٢

(٥٠)— انظر قصة الحرب بين أولاد الحارث شرحبيل وسلمة في معركة الكلاب الاولى. عند اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ص ٢٤٧—٢٤٨

المفضل بن محمد الضبي، المفضليات ص ٤٣٠—٤٣١

(٥١)—امرؤ القيس بن حجر ولد عام ٥٠٠م تقريباً، يعدُّ من أشهر شعراء العرب قبل الاسلام، وتسمح لنا أشعاره بتتبع سيرة حياته، وكثير من القصائد تلقي الضوء على محاولاته التي قام بها من أجل استعادة مجد كندة ، والثأر لمقتل والده، انظر: ابن قتيبة ، الشعر والشعراء، ص ٣٧ ومابعدها. أبو الفرج الاصفهاني ، الاغاني، ج٩ ، ص ٧٧ ومابعدها.

---

(٥٢)— ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر. دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٦م ج٢ ، ص ٬ ٢٧٥

ابن الاثير ، الكامل في التاريخ، ج ١ ، ص ٣٧٩

(٥٣)— حول هذه الروايات انظر:

اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص ٢٤٩ ومابعدها، ابن خلدون ، كتاب العبر ج٢، ص ٢٧٤—٤٧٥ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٤٣—٤٤ .ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج١ ، ص ٣٨١

(٥٤)— اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، ص ٢٥١ (يفترض فيليب حتي أن موت امرىءالقيس كان عام ٥٤٠م تقريباً) . فيليب حتي، تاريخ العرب ترجمة محمد مبروك نافع، ط ٣، القاهرة ١٩٥٢ ، ج ١ص ١٠٢ ويؤيد د. عمر فروخ ذلك، لكنه يرفض الرواية التي تقول: ان امرأ القيس مات مسموماً بحلة أرسلها له الامبراطور البيزنطي، ويمكن ان يكون قد مات بالجدري لما مر بأنقرة في زمن الشتاء القارس، نحو ٥٤٠ م . د. عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، ط ٢،بيروت ١٩٨٤ ، ص ٩٤

(٥٥)— أنظر مقال محسن يونس، كندة وعلاقتها بملوك الفرس وعمالهم ملوك الحيرة، مجلة دراسات تاريخية، العدد٢١—٢٢، دمشق، دمشق ١٩٨٦، ص ١٩٥—٢٠٢

(٥٦)— يفترض د. خالد العسلي أن حكم كندة لمنطقة اليمامة استمر حتى عام ٥٧٠ . خالد العسلي، العلاقات السياسية بين المناذرة والجزيرة العربية،.....ص ١٨٨

(٥٧)— يقول د. نبيه العاقل: يبدو ان نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلاديين في الجزيرة العربية كانت فترة اتسمت بالصراع الدموي بين القبائل بسبب عوامل عديدة قد يكون من بينها شح الارض بالقوت والماء و الكلأ ، فلا يجدون إلا الغارة على جيرانهم وسيلة للقيام بأودهم وأود أولادهم ، وأدى ذلك إلى كثرة الحروب، وماتستتبعه هذه الحروب من ثارات، ومايترتب على الثارات من معارك جديدة، هذا فضلاً عن التنافس على السيادة والزعامة والجاه الذي جر الى الكثير من الحروب وأريقت في سبيله الدماء الغزيرة».

د. نبيه عاقل، الوفود والسفارات في الجاهلية وعصر الرسول(ص) ، مجلة دراسات تاريخية، ١٩٩١ ، العدد ٣٩—٤٠، ص ٩

—أيام العرب: هي أيام المعارك التي وقعت بين القبائل البدوية في الجاهلية والتي كانت أسبابها في أغلب الاحيان اقتصادية.

أنظر: عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، ص ٧٧ ومابعدها. فيليب حتي، تاريخ العرب ، ج١ ، ص ١٠٥ ويذكر صاحب الاغاني أن أعظم أيام العرب ثلاثة، يوم كلاب، ويوم شعب جبلة، ويوم ذي قار. الاصفهاني، الاغاني، ج١١ ، ص١٣١ ومابعدها.

(٥٨)— الاصفهاني، الاغاني، ج١١ ، ص ١٣٣—١٤٨ . ابن الاثير الكامل في التاريخ ، ج ١ ، ص ٤٣٥ — ٤٣٦

(٥٩)— نقائض جرير والفرزدق ، ط بريل — ليدن، ١٩٠٥ ، ص ١٠٧٩ . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ، ج ١ ، ص٤٤٥ .

(٦٠)— الهمداني، ضفة جزيرة العرب ، ص ١٧١ .

(٦١)— جونار أوليندر، ملوك كندة ، ص ٢٠٧ .

(٦٢)— الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ١ ، ص ٨٩٩ .

(٦٣)— المصدر السابق ، ص ٩٥٨ .

(٦٤)— نينابيغوليفسكيا، العرب على حدود بيزنطة وايران ، ص ١٣٢ .

(٦٥)— م. بتروفسكي، اليمن قبل الاسلام، ص ٧٩

(٦٦)— انظر ترجمة النقش عند بتروفسكي، المرجع السابق، ص ٣٢٧ ، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج٣ ، ص٤٩٥

(٦٧)— بروكوبيوس القيصري، تاريخ حروب الرومان ضد الفرس، ترجمة يو.دستونيس، سانتبطرسبورغ، ١٨٧٦ ، ١، ١٩،ص٨١ .

ترجمة روسية لتاريخ بروكوبيوس .

(٦٨)— د. نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، دمشق ١٩٨٥ ، ص ١٥٩ .

الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة قبل الهجرة وأثر الهجرة عليها

الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة قبل الهجرة وأثر الهجرة عليها

● د.شكران خربوطلي
قسم التاريخ ـ كلية الآداب
جامعة دمشق

عناصر الموضوع

مقدمة
البيئة الطبيعية للمدينة
اقتصاد المدينة
الزراعة
الثروة الحيوانية
الصناعة والحرف
التجارة
الأسواق
الخاتمة

الحيـاة الاقتصاديـة لأي مجتمع، هـي الدعـامة الأسـاسية في وجـوده واستمرار بقـائه وارتقائه ، وقد فسرّت هـذه الدعامة على أنها الفعاليـات الزراعية والصناعيـة والتجارية فيه، وترتبط الفعالية الرعوية وتربية المواشي بتلك الفعاليات في بعض الأحيان.

ولعلنا نجد ارتباط الاقتصـاد بالزمان والمكان، فالإنتـاج الإقتصادي رهين البيئة بكل تفاصيلها، لـذا فرضت على الأوائل من بنـي البشر التكيف غير المحدود مع المكـان الذي عاشوا فيه، فاتبعـوا نمطاً خاصاً من الحياة الاجتماعية والاقتصاديـة والسياسية يتواءم من واقعهم، ثم عملوا بدأب ونشاط لاستثمار امكانات التربة.

لذا وقبل الحديـث عن الحياة الاقتصاديـة في المدينة المنوّرة لابدّ مـن التعرف على بيئتها الطبيعية.

تقع المدينـة المنوّرة إلى الشمال مـن مكة المكرّمـة، وكانت مـدينة صغيرة تعـادل نصف مكة،(١) وتبعد عن الجار وهـو ميناؤها على البحر الأحمر يوم وليلة، (٢) ويبـدو أنه مثّل دوراً هاماً بـالنسبة لها، خاصة وأن جزيـرة صغيرة يقال لها قراف، وقعت على مقـربة منه، وكانت ملتقى التجار القادمين من سواحـل أفريقية والمحيط الهندي،(٣) وكانت التجارة مزدهرة في ميناء الجار، بحيث لم يكن بالحجاز بعد مكة أكثر مالاً وتجارة منه.(٤)

وأرض المدينة بركـانية بين حرتين، وقد اشتهـرت بالخصب والنماء، يحدّها جبـل أُحد من الشمال(٥) وجبـل عير من الجنـوب الغربي، وهو عبـارة عن جبلين أحمريـن متقاربين ببطن العقيق، أحدهما عير الوارد والآخر عير الصادر، (٦) وإلى الشرق منها بقيع الفرقد، وإلى الجنوب قـرية قباء وكـانت على بعد ميلين منهـا ممايلي القبلة، وهـي شبيهة بالقـرية ، وكان الفرع من المدينة على أربعة أيام في جنوبها.(٧)

يوجد في المدينة وديان كثيرة،(٨) أخصبها وادي العقيق وهو « يشق من قبل الطائف، ثـم يمر بـالمدينـة، ثم يلقـى في أضـم البحر، (٩) وهـو عقيقـان، العقيق الأكبر والعقيـق الأصغر، وبه آبار لاتزال آثار بعضها بادية ظاهرة، ولكنها مطمورة كبئر رومه، وبئر عروة بن الزبير» ، (١٠) وقد عرف وادي العقيق بعيونه ومزارع نخيله. (١١)

ومن أودية المدينة، وادي بطحان، ووادي رانون، الـذي يبدأ من جبل عير قبلي المدينة، ويمر بقباء ثم يختلط بوادي بطحان، ووادي مذينيب، في الجنوب الشرقي، وهو شعبة من بطحان، وعليـه كانـت منازل بنـي النضير، ويقع إلى الشمال الشرقـي وادي قناة، ووادي مهزور، وهـو موضع مـاء على أربعين ميلاً من المدينة، ويـأتي من الحرة الشرقية المعـروفة

باسم حرة واقم،(١٢) على أنه في الحقيقة حرّات المدينة ثلاث هن: حرة واقم في الشرق، وهي أشهرها وأخصبها، وحرة الوبرة في الغرب. وحرة قباء في الجنوب، ثم أنه بالقرب من المدينة ثلاث حرات أخريات هن: شوران، وتقع على يسار الواقف ببطن العقيق يريد مكة،(١٣) وحرة ليلى، وكانت لبني مرّه بن عوف بن ذبيان يطؤها الحاج في طريقهم إلى المدينة، وحرة النار بالقرب من حرة ليلى. (١٤)

ومناخ المدينة حار صيفاً، بارد شتاءً، يؤيد ذلك قوله(ص) « من صبر على لاوائها وشدتها كنت له شهيدا—أو شفيعا— يوم القيامة» ،(١٥) وتسقط أمطارها في أوقات قصيرة، وقد تحدث سيولاً في كثير من الأحيان، لأنها تهطل بعنف، لذا فان ظاهرة انتشار الاوبئة والامراض بالمدينة كانت من الظواهر المألوفة، فالرسول (ص) حين قدم إليها« وهي أوبأ أرض الله » أصاب أصحابه منها بلاء وسقم فدعا (ص):(اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشدّ، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مدّنا وصححها لنا وأنقل حماها الى الجحفة)(١٦).

وعلى العموم، اذا قيس مناخ المدينة بمناخ مكة فيمكن القول أنه معتدل، فضلا عن أن ترتبتها خصبة، وقد أتاح—مع توفر المياه— جعل الحالة الاقتصادية في المدينة متنوعة الجوانب. وكان سكانها في أواخر القرن السادس للميلاد عبارة عن تجمع قبلي كبير يعرف ببني قيلة ضم قبيلتين هما الأوس والخزرج(١٧) إلى جانب عشائر من يهود بني قريظة وبني النضير، وبني قينقاع.

وطالما توفرت في المدينة مقومات: التربة والمياه من الآبار والأودية،(١٨) فمن الطبيعي أن يعمل السكان بالزراعة وفق نظام خاص، فقد ذكر أنهم كانوا يقسمون المياه بينهم بأن يحبس الماء صاحب الأرض العالية حتى تسقي نخيله فتصل إلى جذوعه بارتفاع الكعبين، ثم يرسلها إلى من أرضه أسفل فيسقي،(١٩) وقد قضى رسول الله (ص) في سيل مهزور ومذينيب «أن يحبس الماء حتى يبلغ الكعبين، ثم يرسل الاعلى على الاسفل»(٢٠) وفي الأوقات التي تشح فيها الوديان أو تجف، وفي الأماكن التي كان الماء لايصل إليها، كان الناس يستخدمون مياه الآبار في ارواء مزروعاتهم، وقد أشار ياقوت إلى ذلك بقوله:«نخيل المدينة وزرعها تسقي من الآبار عليها العبيد»(٢١).

واستخرجت المياه من الآبار بالدلاء، وكان الزراع يستخدمون الحيوان في متح الماء بالدلاء من الآبار الكبيرة الواسعة لري البساتين والحقول ، وقد كان لاحيحة بن الجلاح تسع وتسعون بعيرا كلها ينضح عليها.(٢٢)

كان جلّ أهل المدينة يعملون بالزراعة كل على قدر حاله، لكن أوسع الأراضي وأخصبها، وأكثرها غلة كانت بأيدي اليهود، ووجهاء الأوس والخزرج حيث «ان الحبر اليهودي مخيريق كان غنياً كثير الأموال من النخيل»، (٢٣) وقيل «كان مخيريق أحد بني النضير حبراً غنياً له سبع حوائط وبساتين». (٣٤)

لقد عمل اليهود بالزراعة، وكانـت زراعتهم تأتي عليهم بمال طيب، جعل بعضهم من الأثريـاء، وقد استفيـد من «شراح الحرة» وفي سقـي المزارع ، وكانـت تستمد مـاءها مـن الحرة.

وأفقد التركيب السكاني غير المتجانس يثرب المبادرة، وأعاق تبوأها دوراً أكثر أهمية في الحجاز، فـانطوت بصورة شبـه دائمة على صراعات داخلية ضـارية قضت على جـزء من طـاقاتها، فكثيراً مـاقامـت الحروب بين الأوس والخزرج بتشجيـع من اليهـود من أجـل الرئاسـة والزعـامة، والعصبية القبليـة، والثأر، والاعتداء على الممتلكـات الخاصة ، فـأثر ذلك على الزراعة وأفسح المجال واسعاً أمام اليهود لاستغلال امكانات المدينة لصالحهم. وهذا يفسر لنا مقدار الجهد الذي تحمله عرب المدينـة حين نزل عليهم المهاجرون من أهل مكة، وأقـاموا معهم في ضيافتهـم، وكيف وجد الـرسول(ص) حلاً لتلك الأزمـة بايجاد نظام المؤاخـاة، والدليل على ذلـك أنه لم تتحسن الأوضـاع إلا بعد اجلاء بعـض العشائر اليهوديـة عن المدينة واستقـرار أمر المهاجـرين، فـأموال بني النضير مثـلاً كانت خـالصة لـرسول الله(ص) فكـان يزرع تحت النخيـل في أرضهـم، فيـدخـل من ذلـك قوت أهلـه وأزواجه سنة، والباقـي كان يجعله في الكراع والسلاح، وقد قسمهـا(ص) على المهاجرين دون الأنصار الا انـه أعطى سهـل بن حنيـف، وأبادجـانة سماك بـن خرشـة الساعـدي، وغيرهما. (٢٥)

لقد قسم رسول الله (ص) أرض بني قريظة بين المسلمين على السهام(٢٦) «وأعلم في ذلك اليـوم سهمان الخيل وسهمان الـرجال، وأخرج منهـا الخمس، فكـان للفارس ثـلاثة أسهـم: للفرس سهمان، ولفارسـه سهم، وللراجل من ليس له فرس سهـم، وكانت الخيل يوم بني قريظة ستاً وثلاثين فرساً....»(٢٧)

وقد انتعشت الزراعة بالمدينة بعد الهجـرة والقضاء على المنازعات الداخلية فيها، حتى أنها استوعبت عدداً كبيراً من المهاجرين اليها والوافدين عليها من قبائل العرب.

وكان النخيـل أهم المزروعـات وعليها اعتمـد أهلها بـالدرجـة الأولى(٢٨) يأكلـون ويبتاعون ويبيعون منـه ويدفعون الأجور ويسددون الديـون(٢٩) ففي صحيح البخاري باب كامل عن البيوع وأغلب الحديث به عن النخل.(٣٠)

وبما أن معظـم المزارع كـان يملكهـا يهود المدينـة، فقـد أثـرى الكثيرون مـن زراعتـه والمتاجرة به ، واعتمد معظم السكان عليه، فكان جل طعامهم منه وبه كانوا يتعاملون لذا أصبح تمر المدينة من أجود الأنواع، فالصيحاني منه لم يوجد مثله في بلد من البلدان.(٣١) وبتمر يثرب ضرب المثل، وقد أشار امرؤ القيس بشعره إلى نخل يثرب بقوله:

علـــون بــــأنطـــاكيـــــة فــــوق عقمــــة
كجــرمـــة نخـــل أو كجنـــة يثـــرب(٣٢)

وكان عندهم العجوة ونخيل اللون.(٣٣)

واهتم المدنيون بالنخيل لفوائده الجمة، حيث كانوا يستخدمون جذوعها أعمدة لبيوتهم، وحوامل معترضة لسقوفهم، ويستعملون جريدها في سقوف منازلهم ويرضخون النوى بالمراضخ حتى تتكسر، فيكون علفا للابل، ويعملون من خوصها المكاتل والقفف.(٣٤)

والجدير بالذكر أن الشعير والتمر كانا طعام الناس، وقد عدّ الشعير المصدر الثاني لثروة المدينة الزراعية، فأثناء الحديث عن الخندق ورد:«عملنا مع رسول الله (ص) في الخندق فكانت عندي شويهة غير جد سمينة قال: فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله (ص) قال: فأمرت امرأتي فطحنت لنا شيئا من شعير، فصنعت منه خبزاً وذُبحت تلك الشاة».(٣٥)

وإلى جانب هاتين الغلتين الرئيسيتين، زرعوا التين، والسفرجل، والخوخ، (٣٦) والسلق والبصل والثوم(٣٧) وكان من مزروعاتهم الهامة حبّ اللبان، فكان يحمل إلى سائر البلدان.(٣٨)

ومن عاداتهم أنهم كانوا يأخذون ورق السلق فيجعلون فيه حبات من الشعير ويطبخونه فيكون طعاماً لذيذاً.(٣٩)

أضف إلى ذلك أنهم أحاطوا الحدائق بأسوار مرتفعة قدر الامكان لحماية ومنع الانسان والحيوان من دخولها سميت بالأطم.(٤٠)

ولعلهم كانوا يكرُون الأرض لأجل قصير، أو لأجل طويل، فاذا كروا الأرض لأجل طويل غرسوا الشجر على نصيب معلوم من الثمر، لأنه لم يكن هناك معاملة بالدنانير والدراهم، قال رافع بن حديج« كنا أكثر أهل المدينة مزدرعاً، كنا نكري الأرض بالناحية منها مسمى لسيد الأرض قال: فمما يصاب ذلك وتسلم الأرض ومما يصاب الأرض ويسلم ذلك فنهينا، وأما الذهب والورق فلم يكن يومئذ (٤١)

وكانوا يتعاملون على الشطر مما تغله الارض فلما جاء المهاجرون زارعوا الانصار حتى ماكان في المدينة بيت هجرة الا وزرع على الشطر أو على التين، أو على أوسق من تمر أو بر أو غير ذلك.

ولم يكن :«بالمدينة أهل بيت هجرة إلا ويزارعون على الثلث والربع...»(٤٢) وقد عامل النبي (ص) أهل خيبر بشطر مايخرج منها من تمر أو زرع، وكرى بعضهم أرضه بطريقة المؤاجرة أو المغارسة أو المزارعة بالربع أو الثلث أو نصف الناتج، أو أقل من ذلك أو أكثر فنهى الرسول (ص) عن ذلك بقوله:«من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه، فان أبى فليمسك أرضه»(٤٣)

وذلك لأن المؤاجرة والمغارسة والمزارعة شكل من أشكال الاستغلال بالمدينة ومنطقتها تؤدي إلى منازعات وخصومات بين صاحب الارض والمستأجر أو العامل فيها. أضافة إلى ذلك أنهم باعوا ثمار نخيلهم وأعنابهم بطريقة المزابنة والمحاقلة فنهى رسول الله(ص) عن ذلك(٤٤).

ولهذا نجد اقبال المهاجرين على الزراعة، فحفروا الآبار وجنوا منها ثمراً طيباً وفي هذا دليل أنه كان من بين المهاجرين قوم يحسنون الزراعة فضلا عن أن جلّهم كانوا يريدون عملاً يعتاشون منه، وبحسب العادة المتبعة حاقلوا أصحاب الأرض، على زرع أرضهم في مقابل نصيب معلوم، كانوا يتفقون عليه، وقد نجح بعضهم في استغلال الأرض وكسبوا منها، غير أن قسماً منهم اختصم مع الملاك بسبب توزيع الحاصل أو الماء، فكان رسول الله (ص) يتدخل بنفسه في حسم الخلافات التي كانت تنشب بين الملاك ومن يعمل عندهم، ولعله بسبب هذه الخلافات تم الغاء ايجار الارض بقوله:«من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها ، فان لم يفعل فليمسك أرضه»(٤٥)

وبهذا أوجد الرسول(ص) حلاً للمشكلة الاقتصادية التي واجهته بعد الهجرة، والتي نبعت من واقع أصحابه المهاجرين الذين تركوا أموالهم في مكة، وغادروها دون أمل بالعودة واسترداد مايملكون، اضافة إلى أنه أوجد نظام المؤاخاة، أفادت هذه المؤاخاة من الناحية الاقتصادية بدليل إن عملية الميراث التي قامت على المؤاخاة توقفت بعد النصر في بدر ومأأفاء الله عليهم من غنائم وأموال سدّت عوز المحتاجين منهم، فلم يعد له مايسوّغه.(٤٦)

وكانت الثروة الحيوانية ركن آخر من أركان الحياة الاقتصادية حيث امتلك أهل يثرب ثروة من الابل كانوا يرعونها مما تنبت المدينة من أشجار وشجيرات رعوية.(٤٧)

فعندما رأى رسول الله (ص) ابلا في السوق وأعجبه سمنها، قال:«اين كانت ترعى هذه؟ فقالوا: بحرة شوران فقال:«بارك الله في شوران» (٤٨)وقد ذكر حسان بن ثابت الانصاري الابل في شعره قائلا:

بيثـــرب قـــدشيـــدوا في النخيـــل
حصـــونـــا ودجـــن فيهـــا النعـــم(٤٩)

وقد اتخذت الابل مقياسا للثروة والمال، فكانوا يقدرون بها أثمان السلع، والاشياء ويتعاملون بها في تجارتهم، وفي أسواقهم وبها تم تقدير الديّات والفدية والمهور، فأول قتيل وداه رسول الله بمئة ناقة،(٥٠) فقد كان لرسول الله (ص) لقاح في الغابة .(٥١)

وكان عدد ابل المسلمين يوم بدر سبعين بعيراً(٥٢) وهذا العدد قليل إذا قيس بعدد المسلمين ، لذا كانوا يتعاقبون الابل الاثنين والثلاثة والاربعة،(٥٣) وبعد بدر كثر عدد ابل المسلمين من الغنائم ومن النتاج، فمثلاً كانت النعم في غزوة قرارة الكدر خمسائة بعير(٥٤) وغنم المسلمون في غزوة حنين من الابل«أربعة وعشرين ألف بعير، وكانت الغنم لايدري عددها ،قالوا: أربعين ألفا وأقل وأكثر»(٥٥) ومما يدل دلالة واضحة ازدياد عدد الابل في المدينة بعد أمد من هجرة الرسول اليها امداد عثمان بن عفان جيش تبوك بثلاثمائة بعير.(٥٦)

ووُجدت الخيول في المدينة، ولكنَّها كانت قليلة العدد(٥٧) وهي ان وجدت كانت بحوزة أهل اليسر والغنى، وبالمقارنة مع عددها بعد الهجرة نجد أنها زادت شيئا فشيئا، وذلك تبعاً لحاجة المسلمين اليها في حروبهم نظراً لسرعة الخيل وخفتها ومرونتها في القتال وفي الكر والفرّ، فهي سلاح لنجاح الغزو، وإلحاق الأذى بالعدو، فكثر جلب الخيل من البادية للبيع وقد كانت لها سوق خاصة بالمدينة «كانت بنو سليم يجلبون اليها الخيل...»(٥٨) وفي القرآن الكريم ذكرت الخيل في آيات متعددة على أنها مصدر من مصادر الثروة والزينة وبهجة الحياة الدنيا يرهب المسلمون بها أعداءهم.(٥٩)

وعندما كثر عدد الخيول في المدينة جعل لها الرسول(ص) موضعاً خاصاً للرعي فحمى النقيع أحماه لخيل المسلمين وركابهم»(٦٠)

أضف إلى ذلك أن الرسول (ص) ابتاع بسبايا بني قريظة خيلاً وسلاحاً من نجد،(٦٠) فكثرت أعداد الخيول في المدينة حتى بلغ عددها في جيش المدينة عند فتح مكة مايقارب الألفي فرس،(٦٢) وبلغ ماااستطاع أن يمدّ رجل واحد من المسلمين «هو الصحابي عثمان بن عفان» (٦٣) جيش تبوك، بثلث ماكان يملكه ذلك الجيش الذي بلغ عشرة آلاف فرس(٦٤) الأمر الذي يبرهن على نمو عدد الخيول وكثرتها في المدينة بعد الهجرة.

وعدت الأغنام المادة الرئيسة لتموين الناس باللحوم والصوف، ومن الواضح أن أهل المدينة قد عملوا بتربيتها، وكانت تربى في منطقة اسمها الغابة، ففي غزوة ذي قرد جاء: قالت بنو حارثة من الانصار«يارسول الله ههنا مسارح ابلنا ومرعى غنمنا ومخرج نسائنا يعنون موضع الغابة، فقال رسول الله(ص): من قطع شجرة فليغرس مكانها ودية، فغرست الغابة»(٦٥)

وفي غزوة بدر الاولى أغار كرز بن الفهري على سرح المدينة«أي على الابل والمواشي»(٦٦) وبمعرض الحديث عن أسر عمرو بن أبي سفيان واطلاقه جاء«فبينما هو محبوس بالمدينة عند رسول الله (ص) اذ خرج سعد بن النعمان بن أكال أخو بني عمرو بن عوف، ثم أحد بني معاوية معتمراً ومعه مريه له، وكان شيخاً مسلماً في غنم له بالنقيع»(٦٨)

وعاشت الأغنام في حمى الربذة، فقد «كان يرعى فيه أهل المدينة»(٦٩) على هذا حوت المدينة الأغنام، وكانت تربى في الغابة والنقيع والربذة، وقد أمدت السكان باللحم والصوف واللبن.

ولقد كانوا يتهادون الشياه، فالرسول(ص) عندما نزل الأبواء أهدى ايماء بن رحضة جزراً ومائة شاة.... ولقد ضحى رسول الله (ص) بالمدينة، وخرج بالناس الى المصلّى، وذبح بيده شاتين وقيل شاة.(٦٩)

لم تكن الثروة الحيوانية نامية في المدينة قبل الاسلام فكما أسلفنا القول، كثيراً ماكانت تتعرض للغزو السلب والنهب من قبل القبائل المتنازعة، خاصة الاوس والخزرج، وبالمقابل لم نسمع عن سلب أو نهب بين القبائل المتعددة بعد الاسلام، لكن ماأوردته المصادر هو أنه عقب كل غزوة كانت هناك غنائم توزع على المقاتلين، من المسلمين، فتحسنت أحوالهم، وأصبح لهم ثروة بعد أن هجروا ديارهم وأقبلوا على المدينة صفر اليدين.

ومما يذكر أن رسول الله(ص) لما فتح خيبر، وصارت الأموال بين يديه لم يكن عنده من العمال مايكفيه عمل الأرض، فدفعها إلى اليهود يعملون بها على نصف ماخرج منها...(٧٠)

وقامت في المدينة بعض الصناعات التي تعتمد على الانتاج الزراعي مثل صناعة الخمر من التمر، وكان معظمها في منطقة الحصون الخيبرية،(٧١) واعتمد أكثرها على خليط من البسر والتمر، وبعضها على خليط من الزبيب والتمر، أو الرطب واليسر،(٧٢) وكانت تحفظ هذه الخمور في جرار، أطلق عليها اسم الحنتمة، والمزفت، والدباء، والنقير.(٧٣)

وقامت أيضاً على سعف النخل صناعة المكاتل والقفف، والنجارة من شجر الطرفاء، والاثل، وهو شجر كان يكثر في غابة يثرب.(٧٤)

واحتكر اليهود العمل في الحرف المالية، والصناعية، مستغلين من ناحية الطبيعة الاجتماعية لأهل المدينة من الأوس والخزرج، ومن ناحية أخرى لصلاتهم الطيبة مع قبيلة سليم، التي كانت تمتلك المصادر المعدنية كالذهب والفضة،(٧٥) والحديد،(٧٦) فعملوا بها، وربحوا ربحاً طيباً كما وربحوا من انتاجهم الادوات والمعدات والآلات الزراعية، وعملوا أيضا بصناعة الدباغة وآلات الزراعة، وأدوات الصيد هذا وان عمل غيرهم من أهل المدينة بالحدادة(٧٧)، فقد كانت هذه الحرفة شبه حكر عليهم.

ففي غزوة خيبر، خرج اليهود«بمساحيهم ومكاتلهم»(٧٨) وفي غزوة الخندق استعار المسلمون من بنى قريظة آلات كثيرة من مساحي وكرازين، ومكاتل يحفرن بها الخندق»(٧٩)

ولقد غنم الرسول(ص) كل مالدى بني النضير من سلاح، الحلقة والدروع(٨٠) وذلك بعدما حاصرهم طويلاً حتى نزلوا على الجلاء، على أن لهم ماأقلت من الابل من الأمتعة والأموال الا الحلقة»(٨١)

كما غنم المسلمون عندما أجلوا بني قينقاع عن المدينة كثيراً من الدروع والسيوف والقسيّ، في أطمهم أيضاً آلة للصاغة(٨٢)، ففي قرية زهرة وحدها، وهي أعظم قرى يثرب بين حرة واقم والساقلة، ثلثمائة صائغ.(٨٣)

وكـان في المدينة سـوق لبنـي قينقاع اختـص بالصيـاغـة احتوى على الكثير مـن الحلي والمجوهرات،(٨٤) اعتادت النساء من أهل المدينة على غشيـانه يشترين مايلزمهن، وقدم إليه الناس من حواضر الحجاز، وأهل البادية لشراء ماتطلبه نساؤهم وفتياتهم من مصاغ.

ومن الطبيعي ألا تشذّالمدينة عن حياة الحواضر الأخرى، خاصة وأن موقع يثرب على طريق القـوافل كان يؤهلها للإسهـام بالضرورة في نطاق الدائرة الحيويـة من تجارة الشام المهمـة، وفي ضوء ذلـك أسهمـت المدينة فيهـا بنصيـب، سـواءً في المواد المنتجة محليـاً، أم المستورد منها عبر ميناء الجار.

وفي الـوقت الـذي احترف فيـه السكـان الزراعـة، وذلـك لخصـوبة الأرض وتـوفـر الامكـانات المطلـوبة، فمـن غير المستبعد ألا يكـونوا قـد ضربوا بسهـم وافر في النشـاط التجـاري في الحجاز، وفي الـرحلات التجـاريـة الخارجية ومهما يكـن من حـال، احترف اليهود التجارة إلى جانـب الصناعة، وتحدثت المصادر عن رجـل يهودي اسمه اذينة، كان بارعاً في التجارة، أغضـب حرب بن أمية بن عبد شمـس بن عبد مناف فألّب عليـه فتياناً من قريش، تخلصوا من منافسته بقتله.(٨٥)

ومن المؤكـد أن قوافـل مكة كانـت تمر بالمدينة في رحـلاتها التجاريـة(٨٦) وأن أهلها كانوا يتعاملون مع هذه القوافل المكية، ولقد وصفت خيبر، وسوقهم الشهير «نطاة خيبر» بأنها واحدة مـن أهم مراكز التجارة، واشتهـرت أسواقها الموسمية، ليس في بلاد الحجاز فحسب بل في جزيرة العرب أجمع(٨٧)

فقد صنفهـا ابن حبيـب ضمن أسواق العـرب المشهورة، كـات مبايعتهـم فيها(٨٨)، وكانت مقـر اليهود في الحجاز قبل الاسلام(٨٩)، وقـد أعدها اليهود لتكـون واحدة من أهم المحطـات التجاريـة للقوافل التـي كانـت تجوب شبه الجزيرة العـربية مـن سوق إلى سوق(٩٠)، وكان لليهود علاقات تجارية واسعة خارج منطقة خيبر، وأسهموا بدور هام في التجارة الخارجية لشبـه الجزيرة، وكانت التجارة الـدولية من الأعمال التي بـرعوا فيها وكان التاجر اليهودي الجوال معروفاً في كل بلدة ومدينة ومعروفاً في كل سوق(٩١).

وكانت التجـارة الداخلية نشيطة في يثرب، وسلـف أن ذكرنا أنه كـان بها عدة أسواق كسوق بني قينقاع لبيع الحلي، ثـم سوق أخرى بزبالة وكان بالصفـاصف بالعصبة سوق، وسوق قـام في موضع زقاق ابـن حيين، كان يقال لـه مزاحم(٩٢). وسوق قـرب البقيع عرفت ببقيع الخيل وسوق الطحاء(٩٣)، ولانعدام الامـن والرقابة المنظمة «كان الراكب ينزل بسـوق المدينة فيضعَ رحلـه ثم يطوف بالسـوق، ورحله بعينه يبصره ولايغيـب عنه شيء»(٩٤)

ويبدو أيضاً أنه لم تكن هناك رقابة مفروضة على البيع والشراء وتنظيم التعامل في هذه الأسواق فالغش والمخادعة وسوى ذلك كانت من الأمور المعتادة، فقد كانوا يبلون الحنطة والشعير ليكثر كيلها أو يخفون الرديء داخل الطيب، ذكر عن النبي (ص) أنه«مر برجل يبيع طعاماً، فسأله كيف تبيع؟ فأخبره فأوحى إليه أن أدخل يدك فيه، فأدخل يده فإذا هو مبلول، فقال رسول الله (ص) «ليس منا من غش»(٩٥)

كما كانوا يرفعون الأسعار، ويحتكرون البضائع، فعندما مر الرسول (ص) برجل يبيع طعاماً بسعر أعلى من سعر السوق... قال«ابشروا فان الجالب الى سوقنا كالمجاهد في سبيل الله، وان المحتكر كالملحد في كتاب الله»(٩٦)

وكانوا يتصرفون في مزروعاتهم ببيعها قبل أن يبدو صلاحها كما سلف ذكره.

وتعامل أهل المدينة بالربا: ممارسة العرب واليهود على السواء، فقد ذكرت الروايات أن أصيحة ابن الجلاح أحد زعماء الا وس، كان يتعامل بالربا مع قومه من الاوس، كاد ان يحيط بأموالهم(٩٧). وقد نزل القرآن يندد باليهود ويلومهم لأخذهم الربا، وقد نهوا عنه، وعن أكلهم أموال الناس بالباطل(٩٨).

وعلى الرغم من وجود هذه التجارة في يثرب، إلا أنها لم تستطع منافسة مكة بوجه عام في الفترة التي سبقت الهجرة، وقد تبدل الوضع بعد هجرة النبي اليها، فنقل المهاجرون خبرتهم الى المدينة، فأبو بكر وعثمان كانا بزازين، وعمر كان تاجرا في الجاهلية(٩٩). وبعد الهجرة أخذوا يتاجرون من المدينة مع بلاد الشام، واذا نظرنا إلى غزوات الرسول(ص) كغزوة دومة الجندل وتبوك وغيرهما وجدنا أنها كانت من بعض الجوانب لحماية الطرق التجارية أو لاحتكارها لصالح المدنيين(١٠٠)، وقد عدّ انتصار المسلمين في بدر حلقة أولى في الحصار الاقتصادي لمكة، هدد قوافل قريش، وشيئاًفشيئاً تبوأت المدينة مركز مكة التي تطوقت في حصار اقتصادي هدّد مصالحها الحيوية، ولم يكن الأمر مجرد حصار تجاري ضد الفئات القرشية الميسورة، ولكنه انعكس على مختلف فئاتها الاجتماعية سواء في ارتزاقها اليومي. أو في تموينها بالمواد الغذائية الاساسية، فقد كان هذا الطريق الجزء الأهم منها لاسيما الحبوب التي كانت تأتيها من بلاد الشام، وأخذ الأنصار والمهاجرين يتاجرون معاً في الأسواق، وظهرت النتائج الكبرى لهذه التجارة بعد فتح مكة، ودخول القبائل في الاسلام.

المصادر والمراجع:

١ —ابن الاثير،عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بـن عبد الكريم الجزري؛ اسد الغابة في تمييز الصحابة. منشورات المكتبة الاسلامية.
٢ —الاصبهاني،(أبي الفرج علي بن الحسين)
الاغاني، مصور عن طبعة دار الكتب
٣ —الافغاني،(سعيد)
أسواق العرب في الجاهلية والاسلام—دار الفكر ط ٣
٤ —امرؤ القيس،
ديوان امرؤ القيس. دار صادر—بيروت
٥ —الانصاري،(عبد القاوس)
آثار المدينة المنورة— مطبعة الترقي دمشق١٩٣٥م .
٦ —البخاري،(أبي عبد الله محمد بن اسماعيل).
صحيح البخاري. مطبعة الهندي ج٢—ج٣
٧ —البلاذري،(أحمد بن يحيى بن جابر)
أنساب الأشراف—تحقيق محمد حميد الله — دار المعارف مصر.
٨ —البلاذري(أحمد بن يحيى بن جابر)
فتوح البلدان— دار الكتب العلمية— بيروت ١٩٧٨ .
٩ —ابن حبيب، (ابي جعفر محمد)
المحبر، مكتبة المثني—بغداد ١٩٤٢
١٠ —حسان بن ثابت
ديوان حسان
١١ —الحموي، (ياقوت)
معجم البلدان — دار احياء التراث العربي— بيروت١٩٧٩
١٢ —ابن حوقل، (ابي القاسم النصيبي)
صورة الأرض. مكتبة الحياة— بيروت١٩٧٩
١٣ —ابن خرداذبة،(ابي القاسم عبيد الله بن عبد الله)
المسالك والممالك — دار المدينة. مطبعة بريل١٨٨٩ م
١٤ — دائرة المعارف الاسلامية، أصدرها بالعربية أحمد الشنتاوي وابراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس— مراجعة. محمد مهدي علام.
١٥ —سالم، (عبد العزيز).
تاريخ العرب في عصر الجاهلية—دار النهضة العربية١٩٧١م

١٦—سلام،(شافعي محمود سلام)
النشاط التجاري في خيبر— منشأة المعارف— الاسكندرية
١٧—السمهودي،(نور الدين علي بن أحمد)
وفاء الوفا— دار احياء التراث العربي ط٤ ١٩٨٤م
١٨—السيوطي،(جلال الدين عبد الرحمن)
تاريخ الخلفاء— تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم—دار الفكر العربي مصر.
١٩—شريف،(أحمد ابراهيم)
مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول— القاهرة ١٩٦٧
٢٠—عاقل وخماش،(نبيه ونجدة)
تاريخ الدولة العربية الاسلامية الاولى— دار الكتاب —دمشق ط٣
٢١—علي،(جواد)
المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٦ .
٢٢—الكتاب المقدس
القرآن الكريم
٢٣—لوبون(غوستاف)
حضارة العرب— ترجمة عادل زعيتر— مطبعة الحلبي ١٩٦٩م
٢٤—ابن منظور،(ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)
لسان العرب— دار صادر—بيروت.
٢٥—المقريزي،(تقي الدين أحمد بن علي عبد القادر)
امتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفدة والمتاع— تحقيق محمد شاكر —مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر— القاهرة١٩٤١ .
٢٦—الواقدي،(محمد بن عمر)
المغازي النبوية— تحقق مارسدن جونز— مؤسسة الاعلمي للمطبوعات — بيروت
٢٧—ابن هشام،(ابو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري؛ السيرة النبوية— تحقيق مصطفى السقا وغيره— دار احياء التراث—بيروت.
٢٨—الهمداني،(ابو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب)
صفة جزيرة العرب— تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي— دار اليمامة— الرياض.
٢٩—اليعقوبي، (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح)
تاريخ اليعقوبي — دار صادر —بيروت.

الحواشي:

١—ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.

٢—ياقوت ، معجم البلدان مادة جار.

٣—ياقوت معجم البلدان مادة جار.

٤—ابن حوقل، صورة الارض ص ٣٩

٥—ياقوت، معجم البلدان مادة أحد ، ومادة مديثة يثرب.

٦—ياقوت ، معجم البلدان مادة عير.

٧—ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.

٨—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٦٨ ومابعدها.

٩—سمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٦٨ .

١٠—ياقوت، معجم البلدان مادة بئر.

١١—ياقوت، معجم البلدان مادة عقيق.

١٢—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٧١ ومابعدها ، الانصاري، آثار المدينة ص ١٤٠—١٥١—١٥٥ .سالم ، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ص ٣٨٧ .

١٣— ياقوت، معجم البلدان مادة حرة.

١٤—ياقوت ، معجم البلدان مادة حرة.

١٥—سمهودي، وفاء الوفا ١ / ٣٩ .

١٦—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٦٦٧ .

والجُحْفة، كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مصرِ والشام ان لم يمروا على المدينة فان مروا بالمدينة فيمقاتهم ذو الحليفة، وكان اسمها مَهْيعة ، وانما الجحفة لان السيل اجتحفها وحمل أهلها في بعض الاعوام وهي الآن خواب. ياقوت، معجم البلدان مادة الجحفة.

١٧—ابن منظور، لسان العرب مادة قيل، سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية—ص ٣٩٢ .

١٨—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ٩٤٢ ومابعد.

١٩—البخاري، صحيح البخاري ٣ / ٨٣٣ ، البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٤ السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٧٩ .

٢٠البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٤ .

٢١—ياقوت ، معجمَ البلدان مادة يثرب.

٢٢—الاصبهاني، الاغاني ١٥ / ٤٨ —الافغاني ، اسواق ص ٦٢ .

٢٣—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ١٦ .

٢٤—البلاذري، فتوح البلدان ص ٣١ ، السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ٩٩٠ .
٢٥—ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٢٠١ — ٢٠٢قارن البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٣
٢٦—البلاذري، فتوح البلدان ص٣٥ .
٢٧—ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٢٥٦ .
٢٨—اليعقوبي، البلدان ص ٣١٣ ، ياقوت معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
٢٩—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ٩٩٠ ومابعد، شريف، مكة والمدينة ٣٥٧ .
٣٠—البخاري، صحيح البخاري ٣ / ٨١٧ومابعد.
٣١—ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
٣٢—ديوان امرؤ القيس ص ٦٥، ابن منظور، لسان العرب مادة جرم.
٣٣—الواقدي، المغازي ١ / ٣٧٢ .
٣٤—شريف، مكة والمدينة ص٣٥٧ .
٣٥—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٢٢٩ .
٣٦—سمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٢٣٨ وينظر ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب .
٣٧—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ١٤٤ .
٣٨—ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
٣٩—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٨٢٧ .
٤٠—ياقوت، ، معجم البلدان مادة الاطم والاطم والاجم بمعنى واحد والجمع أطام وأجام وهي الحصون ، واكثر مايسمى بهذا الاسم حصون المدينة.
٤١—البخاري/ صحيح البخاري ٢ / ٨١٩ .
٤٢—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٨٢٠ .
٤٣—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٨٢٥ .
٤٤—البخاري، صحيح ٢ / ٧٦٣ ، الافغاني أسواق ٥٠—٥١ .
المزانبة، وهي بيع الثمر بالتمر ، وبيع الزبيب بالكرم، وبيع العرايا وهي اشتراء الثمر بالتمر في رؤوس النخل.
المحاقلة، بيع الحنطة في سنبلها بحنطة صافية.
٤٥—البخاري، صحيح البخاري٢ / ٨٢٥ .
٤٦—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ١٥٠ ومابعد ، ٢ / ٢٥٧ ومابعد.
٤٧—المقريزي، امتاع الاسماع ١ / ٢٤٧ .
٤٨—السمهودي، وفاء الوفا ٤ / ١٢٤٧ .

٤٩—ديوان حسان بن ثابت ٢٢٢ .
٥٠—ابن هشام، السيرة النبوية ٤ / ٥٨ .
٥١—ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٢٩٤ ، واللقاح «الابل الحوامل ذوات الالبان».
٥٢—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ٢٦٤ .
٥٣—ابن هشام السيرة النبوية ٢ / ٢٦٤ .
٥٤—الواقدي، مغازي الواقدي ١ / ١٨٣ .
٥٥— الواقدي، مغازي الواقدي٣ / ٩٤٣ .
٥٦—السيوطي، تاريخ الخلفاء ١٦٧ .
٥٧—ابن هشام، السيرة النبوية. كانت خيول المسلمين يوم بدر فرسين بينما كانت خيول أهل مكة مائة فرس.
٥٨—السمهودي، وفاء الوفا٢ / ٧٥٤ .
٥٩—سورة آل عمران آية ١٤ ، الانفال، ٦١ ، سورة النحل، ٨ ، سورة الحشر، ٦ ، سورة الاسراء، ٦٤ .
٦٠— السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٨٥ .
٦١— ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٢٥٦ ، الواقدي، مغازي الواقدي ٢ / ٥٢٣ .
٦٢—الواقدي ،مغازي الواقدي ٢ / ٨٠٠ .
٦٣— الواقدي ، مغازي الواقدي ٣ / ٩٩١ .
٦٤— الواقدي، مغازي الواقدي ٣ / ١٠٠٢ .
٦٥—البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٣ .
٦٦—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ٢٥١ .
٦٧—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ٣٠٥ .
٦٨—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٥٩٢ .
٦٩—الواقدي، مغازي الواقدي ٢ / ٥٧٧ ، ابن الاثير، أسد الغابة ١ / ٢٢ .
٧٠—البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٩ .
٧١—سلام، النشاط التجاري في خيبر ص ٢٧ .
٧٢—جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٧ / ٥٤٠ .
٧٣— ابن منظور، لسان العرب مادة حنتم ومادة زفت ومادة دبي ومادة نقر .
٧٤—شريف، مكة والمدينة ص ٣٧٦ ، سالم ، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ص ٤٠٥ .
٧٥— الهمداني، الصفة ص ٢٩٩ ، دائرة المعارف الاسلامية ١٢ / ١٤٤ .
٧٦— ابن الاثير، أسد الغابة ١ / ٣٨—٣٩ .

ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ص ١٣١ .
٧٧— ابن الاثير، أسد الغابة ١ / ٣٨—٣٩ .
٧٨—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٣٤٣ .
٧٩— الواقدي، مغازي ٢ / ٤٤٥ . والمساحي جمع مسحاة وهي المجرفة من الحديد، وكرازين جمع كرزون وهو الفأس . وكاتل جمع مكتل وهو الزنبيل الكبير . الواقدي ، مغازي الواقدي ٢ / ٤٤٥ حاشية .
٨٠—البلاذري، فتوح البلدان ٣١ .
٨١—الواقدي، مغازي الواقدي ١ / ٣٧٣ .
٨٢—الواقدي مغازي الواقدي ١ / ١٧٩ .
٨٣—السمهودي، وفاء الوفا ٤ / ١٢٣٠ .
٨٤—الواقدي، مغازي الواقدي ١ / ١٧٦ .
٨٥—البلاذري، أنساب الاشراف ١ / ٧٣ .
٨٦—ابن هشام، السيرة ٢ / ٢٥٧ .
٨٧—الافغاني، اسواق٣٥٦ .
٨٨—ابن حبيب، المحبر ١٦٩ .
٨٩—لوبون، حضارة العرب ١٠٧ .
٩٠—الافغاني، أسواق ٣٥٦ .
٩١—سلام، النشاط التجاري في خيبر ص ٢٢ .
٩٢—سمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٤٧ .
٩٣—السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٥٤ .
٩٤—السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٤٩ .
٩٥—السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٥٦ .
٩٦—السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٥٧ .
٩٧—الاصبهاني، الاغاني١٥ / ٤٨ .
٩٨—سورة النساء، ١٦٠—١٦١ .
٩٩—الافغاني، أسواق ص ٣١ .
١٠٠—عاقل وخماش، تاريخ الدولة العربية الاسلامية الاولى ص ٦٣—٧١ .
١٠١—البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٨ .قارن السمهودي ، وفاء الوفا٢ / ٧٤٨ .

من تاريخ اللغة العربية
أدوات الكتابة والوراقة

من تاريخ اللغة العربية(*)

● د. مسعود بوبو

أدوات الكتابة والوراقة

سبقت الإشارة إلى أن أدوات الكتابة والتدوين كانت بدائية وفق حاجات العرب إليها في ذلك الزمن المبكر، كالحجارة بأنواعها والعظام والأقتاب والعسيب والجلود والمهارق والطوامير.. ثم القرطاس والورق.

وإذا أردنا الحديث عن الكتابة والوراقة بمفهومها الواسع، فلا بدّ من الحديث عن الورق بشيء من التفصيل، بصفته الأداة الرئيسة في هذا الميدان.

والورق اختراع قديم، يعود تاريخه إلى ماقبل الميلاد، ومن المرجح أن الصينيين عرفوا صناعة الورق منذ عام ١٠٥م،ومن الصين انتقلت هذه الصناعة إلى سمرقند التي فتحها العرب سنة ٨٧هـ. والمشهور عملياً أن معركة العرب بقيادة زياد بن صالح مع الترك وحلفائهم الصينيين ،عام ١٣٤هـ على ضفاف نهر طراز، جاءت بأسرى صينيين إلى سمرقند، كان فيهم من يعرف صناعة الكاغد الذي كان أحسن وأنعم من القراطيس البرُديّة المصنوعة من ورق البردي، والتي عرفها المصريون منذ أقدم العصور، وعنهم عرفها الفينيقيون وأوصلوها إلى العرب، انطلاقاً من ثغرهم المعروف بيبلوس(قرب بيروت في لبنان). واشتقّ اليونان من اسم هذا الثغر كلمتي «بيبْليُون BIBLION» بمعنى الكتاب عامة، ومنها الانكليزية BIBLIOTHECA والفرنسية BIBLIO-THEQUE، وتعني الكلمة في مختلف اللغات الأوربية: خزانة كتب، دار كتب، مكتبة عامة... BIBLIOGRAPHYبيبليوغرافية، بمعنى الفهرسة، وعرافة الكتب.

ومن الواضح والمتفق عليه، أن تسميتي «الكاغد» و«القَراطيس» غير عربيتين، فالكاغد كلمة فارسية في معجم «لسان العرب» وغيره، والقراطيس: جمع «قرطاس» يونانية الأصل بلفظ«خَارْتس». وعندما عرف العرب هذين النوعين من أدوات الكتابة استخدموا التسميتين بتغييرَ صوتي يسير، أي بتعريب نطقيهما، ثم أصطلحوا على تسميتهما أو ترجمتهما بالورق، على التشبيه بورقٍ النبات، ولم يكن العرب قد عرفوا ورق الكتابة،

★نشرت الحلقة الأولى من هذه الدراسات في العدد٣٣/ ٣٤(١٩٨٩)، والثانية في العدد٣٧/ ٣٨(١٩٩٠)، والثالثة في العدد٤٧/ ٤٨(١٩٩٣)، والرابعة في العددين ٤٩/ ٥٠(١٩٩٤)، والخامسة في العددين٥٠/ ٥١(١٩٩٥).

ومن الثابت تاريخياً أن العرب عرفوا القراطيس قبل الكاغد، يقول كلود كاهن: «..ومنذ العصر البيزنطي انفردت مصانع في مصر خاصة بإنتاج ورق البردي، أو بإنتاج الأقمشة الفاخرة التي عرفت باسم «الطراز» في العالم العربي وإيران. ولم تتوقف هذه الصناعات، بل ظلت قائمة في ظل الحكم العربي في مصر»(١)

والذي يعنينا هنا هو أن الروم البيزنطيين كانوا يستوردون القراطيس من مصر(٢)، ولأنّ أرض الشام كانت امتداداً لامبراطوريتهم، فمن المحتمل أن العرب كانوا قد عرفوا القرطاس بطريق الشام، ومن الشواهد القديمة على ذلك قول طرفة بن العبد يصف ناقته:

وخــدٌّ كقِــرطــاس الشــآمــي ومشْفَــرٌ
كسبْــــــت اليماني قــــــدُّه لم يجُرَّد(٣)

وطرفة من الشعراء الجاهليين، أي أن العَرب كانوا قد عرفوا القرطاس منذ العَصر الجاهلي. ولكن، من المؤكد أن العرب—بعد الفتوحات الإسلامية— هم الذين كانوا يصدرون القراطيس والطوامير(٤) إلى بلاد الروم. فقد جاء في كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة:

«كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض العرب، وتأتي من قبلهم الدنانير، وكان عبد الملك(ابن مروان بن الحكم ت ٨٦هـ) أول من كتب(قُلْ هو الله أحد) وذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الطوامير، فكتب إليه ملك الروم: إنكم أحدثتم في طواميركم شيئاً من ذكر نبيكم نكرهه، فانْهُ عنه وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذكره ماتكرهون. فكبر ذلك في صدر عبد الملك وكره أن يدع شيئاً من ذكر الله قد كان أمر به، أو يأتيه في الدنانير من ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم مايكره. فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية فقال: ياأباهاشم! إحدى بنات طبق(أي داهية معضلة)، وأخبره الخبر. فقال: ليفرح روعك (ليذهب فزعك)، حرِّمْ دنانيرهم واضرب للناس سككاً ولاتُعفهم (يعني الروم) ممايكرهون. فقال عبد الملك: فرجتها عني فرج الله عنك»(٥).

وأما الكاغد الصيني الذي كان يصنع من الكتان والقنّب، فقد كان العرب يستوردونه من سمرقند بطريق بلاد فارس. ومن الفرس عرف العرب المهارق، وكانت من قماش يسقى بالصمغ ثم يصقل بالخرز ويستخدم في الكتابة عليه(٦).

خلاصة القول: إن مصر والصين كانتا أشهر مصادر إنتاج الورق في العالم القديم، وإن العرب كانوا مستوردين له قبل الاسلام وفي بدايته من إحدى الجهتين أو منهما جميعاً، ثم ازدهرت صناعة الورق في ديارهم فصارت متجراً لهم، وسبباً من أسباب تقدم الحركة العلمية وتنشيطها.

ففي عهد هـارون الرشيد(١٧٠—١٩٣هـ) انتقلـت صناعة الورق إلى بغـداد«خاصة بعد أن أمر لأن لايكتب الناس إلا في الكاغد، لأن الجلـود ونحوها تقبل المحو والإعادة، فتقبل التزوير، بخلاف الورق»(٧).

ويقال إن الفضل بن يحيى البرمكي أنشأ هـذه الصناعة في الجودة ووفرة الإنتاج، وناها على أيدي المسلمين التغيير الـذي كان يعتبر حادثاً في تـاريخ العالم، فإن المسلمين نقـوه مما كان يستعمـل في صناعتـه من ورق التـوت ومن الغـاب الهندي وكـان من الأنـواع التي اتخذوها:

١—السليماني، نسبـة إلى سليمان بـن راشـد الذي كـان على خـراج خـراسـان لهارون الرشيد.

٢—الجعفري، نسبة إلى جعفر البرمكي.

٣—الطلحي، نسبة إلى طلحة بن طاهر ثاني الأمراء الطاهريين.

٤—الطاهري، نسبة إلى طاهر الثاني.

٥—النوحي، نسبة إلى نوح الساماني.(٨)

أي إن صناعة الورق في العصر العباسي صارت بيدالحكومة المركزية التي اتسعت بهذه الصناعـة، فأنشأت مصـانع في دمشق وطبريـة وحلب وطرابلس من بلاد الشـام. وإبان الحروب الصليبية، تعلّـم أسيران فرنسيان في دمشق سر صنـاعة الورق، وعندمـا عادا إلى أوروبة نشرا هـذا السر، وعمت بعد ذلـك صناعته في فرنسـة وأوروبة. كما كان لصنـاعة الورق في صقلية والأندلس أكبر الأثر في نقل هذه الصناعة إلى إيطالية وبقية ا لغرب.(٩)

ويذكر الإدريسي أنـه كان يعمل بمدينة شـاطبة بالأندلـس من الكاغد مالا يـوجد له نظير بمعمـور الأرض، وأنه يعـم المشارق والمغـارب(١٠). وقد مـدح المؤرخون الـروم والمسلمون الورق الدمشقي الذي صار يصدر منهـا ومن طرابلس على البحر المتوسط إلى مصر، وكـانـت أوروبة الشرقيـة تبتـاع ورقهـا مـن بـلاد الشرق العربي كما يـدل الـورق الدمشقي:(كارتا دا مسكنا CHARTA DAMASCENA)، وكذا عرف عندها ورق الطير الذي كان رقيقاً تكتب فيه البطائق وتعلّـق في أجنحة حمام الزاجل. وصُنع الورق في حلب، ولشهرته سمّي حـيّ فيها باسم«حي الوراقة»، ومازالـت هذه التسمية معروفة إلى اليوم.

ومامن شـك في أن الإقبال على اقتناء الكتب ونموالاهتمام العلمـي، وشيوع المكتبات قد عـزّز صناعة الورق ورواج الاتجار بـه، ودفع الحكام إلى زراعـة القنب لدعم صنـاعته وتـوفيره حتى صـار في متناول المحتـاج بسعر زهيـد، يـرجح هـذا ماذكـره ابن سعـد في الطبقات(٦/ ١٦) من أن علي بن أبي طـالـب قام يخطب في أهل الكوفـة فقال: من يشتري علماً بـدرهم؟ فـاشترى الحارث الأعور صحفـا بدرهـم، ثم جـاء بها علياً رضي الله عنـه فكتب له علماً كثيراً.

ويذكـر الجهشياري أن الخليفة أبـا جعفر المنصور، باني مـدينة بغداد، وقـف على كثرة القراطيس في خـزائنه، فدعا بصالح صـاحب المصلىّ فقال له: إني أمرت بإخـراج حاصل القراطيس مـن خزائننا فوجدته شيئـاً كثيراً جداً، فتول بيعه، وإن لم تُعط بكـل طومار إلا دانقاً، فإن تحصيل ثمنه أصلح منه.

قال صالح، وكان الطومار في ذلك الوقت بدرهم.(١١)

ولقد كان حـرياً بتجارة الورق أن تزدهـر تمشياً مع اتساع التدويـن والتصنيف وإقبال الناس المتـزايد على الاشتغال بـالكتابة والاهتمام بـالكتب وبـالتحصيل العلمي عـن هذا الطريق الجديد، ومن هنا حرص الحكام على توفير الورق، خدمة للعلم والدين، وتوجيهاً للناس إلى مافيـه صلاحهم وخيرهم وخدمـة لغتهم. وفي هذا الصدد يُذكـر قول الألمانية زيغريد هونكه:

«فأصبحت الكتـب هي مطلب كل مـن يستطيع تحمل نفقات الحصـول عليها، وأقبل النـاس في البلـدان العربيـة على اقتنـائهـا بلهفة متـزايـدة لم يعـرف لها التـاريخ مـن قبـل مثيلاً».(١٢)

ومع تنامي هذا الاتجاه الصناعي —التجـاري —العلمي فرز التطور التاريخي للعرب ظاهرة جديـدة في حياتهم ومجتمعاتهم هي حرفة الوراقة. واصطلـح القوم على أن الوراقة تعني حرفة صناعة الورق، ونسخ الكتب، والاتجار بها، وهي عند ابن خلدون:«الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور المكتبية والدواوين»(١٣).

وقد فرز هذا التطور فئـة جديدة في المجتمع عرفت باسم«الـوراقين»، واشتغل بحرفة الوراقة عدد من أعلام الحفـاظ والنحاه والمؤرخين والقضاة والعلماء والأدباء، وفي طليعة هؤلاء الجاحظ(عمـر بن بحر بن محبوب، ت ٢٥٥هـ) وابن النديم(أو النـديم٤٣٨هـ)، وياقوت الحموي(ت٦٢٦هـ) وغيرهم.. ولقّب بعض هؤلاء بالقـراطيس والكراريس، واشترك معهـم في هذه الحرفـة المشتغلـون بصناعـة الأحبـار والأقـلام وأدوات الكتابـة والخطـاطـة والتجليـد، كما جـذبـت هــذه الحرفـة التجـار وأصحـاب رؤوس الأمـوال ونظراءهم ممن اتخذوها وسيلة للرزق وكسب العيش والشهرة.

وكان للوراقة أسـواق مشهورة في سائر أنحاء الدولة الاسلاميـة، «ففي سوق الكتب عند بوابـة البصرة ببغداد، التي كانت تضم أكثـر من مئة متجر (مثلاً) كـان المتعلمون من كل أنحاء العـالم الاسلامي يجتمعون. هنـا يفتش الفيلسوف والشاعـر والفلكي عما صدر حديثاً من الكتب، وهنا ينقب الطبيب والمؤرخ وجـامع الكتب عن النسخ القديمة، وهنا وهناك يتنافسون جميعاً ويتبادلون المعرفة أو تُقرأ عليه برمتهم مقتطفات مما كتب»(١٤).

وأثر هذه الأسواق في تاريخ اللغة العربية يظهر جلياً في الانتقال من الأسواق الشعرية ومنابر الخطابة ومنتديات القوم ومجالسهم التي كانت أدواتها الأولى المادة الشعرية والمنافرات والإصلاح، وطابعها الكلامي الإلقائي — إلى أسواق الوراقة التي حفلت بالعلوم المتنوعة، والمعارف المتشعبة، والتي دونت في الأوراق والكتب بلغة علمية رصينة متأنية..

وصار للوراقة محترفون مهرة استقلّ بعضهم، أو تخصّص بفن بعينه في هذا الميدان، كالجغرافي المقدسي، من جغرافيي القرن الرابع الهجري، الذي برع في فن التجليد على الطريقة الشامية، وكان في رحلاته يجلّد الكتب، وعندما زار اليمن ونزل في عدن كانوا يدفعون له دينارين عن تجليد كل مصحف.(١٥) وازدهر فن التجليد بالجلود حتى أخذته البندقية عن العرب ونشرته في أوربة.

وارتبطت بالوراقة مهنة «الخطاطة»، واشتهر خطاطون، وصار يذيّل الكتاب باسم الخطاط للرفع من قيمته. كما رافق الوراقة «التذهيب» والزخرفة، وخاصة للفاتحة أو الديباجة،من كلمة ديباج بالفارسية، ثم أخذ الأوربيون كذلك هذا الفن. وظهر مع الوراقة «الدلالون» الذين كانت مهمتهم البحث عن الكتب النادرة وشراءها وبيعها، فكانوا يجوبون المدن ويزورون كل تاجر للبحث عن النادر منها وللاطلاع على آخر ماأنتجه الفكر العربي تأليفاً وترجمة. فكانوا بذلك همزة الوصل بين تجار الكتب في العالم العربي(١٦).

وهكذا امتلأت حوانيت بيع الكتب وأسواقها بالناسخين والخطاطين، وغدت الوراقة مصدر رزق لطائفة كبيرة من الناس. وألحق بالمساجد مكتبات عامة لطلاب العلم، وصار أصحاب الاختصاص يلتمسون الكتب كل وفق اختصاصه. وفي هذه الدائرة عرف ابن النديم العام صاحب «الفهرست» ندماءه وخلانه، ومن هنا استقى مادة كتابه وعنوانات أقسام الكتاب وفصوله، وكان هو نفسه عالماً فذاً له شهرته، كما كان، كأغلبية زملائه من تجار الكتب، قد تلقى تربية علمية واسعة، فسمع محاضرات الأعلام من فلاسفة عصره، وزار منازلهم وتعرف بالأوساط العلمية التي انتشرت على شكل جماعات ومدارس في أنحاء العربية.. ولم يكن هذا الرجل المثقف تلك الثقافة العالية إلا نموذجاً للكثير من زملائه ناشري العلم والمعرفة في تلك العصور.(١٧) وهو الذي خبر خفايا حرفة الوراقة وأسرار أصحابها وماكان يدفعهم إلى الاشتغال بها، أو يؤرقهم جرّاءها، وفي هذا الصدد يقول:

«وكان العالم إذا لم يكن فقيهاً صاحب منصب، ولم يجد مايعيش منه اشتغل بنسخ الكتب، كما حكي عن أبي زكريا يحي بن عدي(ت٣٦٤هـ) وكان من أكبر فلاسفة القرن الرابع الهجري.. وذكر عنه أنه نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبري، وأنه كان يكتب في اليوم والليلة مئة ورقة»(١٨).

وتتحدث زيغريد هونكـه عن عالم الوراقة وعن الكتب التي «نسخت باليد وبذل فيها كـاتبوهـا مجهوداً مضنيـاً دام أشهراً طـويلة، بـل وأحيانـاً بضع سنـوات.. وكم رزم مـن الأوراق، وليترات مـن الحبر صنعت مـن السنـاج والصمـغ العربي استهلكتهـا الأيـدي الدائبـة على الكتابـة في كل عـام. وكم مـن جلود أمـدتهم بها صغار الغـزلان والماعز قـد استنفدت في هذا الغـرض. وهكذا أصبحت تجارة الكتب تماماً كـالصيدلة، هديـة قدمتها العرب للبشرية. والواقع أن تـاجر الكتب لم يعرف كوسيط لنقل الثقافـة، ومتاجر الكتب كمراكز للثقافة في المدينة قبل أن يفعل العرب ذلك»(١٩).

إلى جـانب العلماء والتجـار والنسّاخ اشتغـل القضاة بـالوراقـة، كأبي سعيـد السيرافي القاضي الـذي كان يأكـل من كسب يده، ولايخرج مـن بيته إلى الحكم إلا بعـد نسخ عشر ورقات يأخـذ أجرتها عشرة دراهم(٢٠). وكان الأعراب الرواة يـأتون الحواضر لعرض ألسنتهـم أو بضاعتهـم اللغويـة ولاسيما الغريـب، وبعضهم يعلّـم الصبيان أو يـورّق في الحضر كأبي مالك عمر بن كركرة٨(٢١)

ويستخلص مما قيّد عـن الورَاقة في كتب التراث أن دورها كان شبيهـاً بدور المطابع في هذا العصر مـن حيث إخراج الكتـب للناس، كما كانـت في ا لوقـت نفسه بمنزلـة المراكز الثقافيـة يشع منهـا نور العلـم والمعرفة، ومصـدراً للرزق ضئيـل المورد، ومن هنـا ذمت أحياناً، وحلم بعضهم بالخلاص منها كـأنها رمز لبؤس العلماء، يستوي في ذلك الفلاسفة والشعراء الذين قال عليهم أبو الحسن بن الفرات(ت٣١٢هـ):

«ولعل الواحـد منهم يبخل على نفسه بدانق ودونـه يصرف ذلك في ثمن ورق وحبر، وأنـا أحق بمـراعـاتهم ومعاونتهـم على أمرهـم، وأطلـق لهم من خـزانتـه عشرين ألـف درهم»(٢٢).

وكان القاضي أبو المطرف(ت٤٠٢هـ) قاضي الجماعـة بقرطبة، وقد جمع من الكتب في أنواع العلم مالم يجمعـه أحد من أهل عصره بالأندلس، وكان لـه ستة وراقين ينسخون له دائما، وكان متى علم بكتـاب حسن عند أحد من الناس طلبه ليشتريه منـه وبالغ في ثمنه، وكان لايعير كتـاباً مـن أصوله البتـة، وإذا سألـه أحد ذلك وألحف عليـه أعطاه للنـاسخ فنسخه، وقابله ودفعه إلى المستعير.(٢٣)

ويستخلص من هـذا الخبر أن« النِّساخة » صارت وظيفـة، وأنّ المهتمين بجمع الكتب كهذا القـاضي كانوا يجنّـدون فريـق عمل من الـوراقين الذين اتّسعـت مهامهـم فشملت «مقابلة» المنسوخ على الأصل إلى جانب عملية الانتساخ.. ويبدو أن بعضه أمضى سحابة عمـره في الوراقـة حتى أوشـك أن يحال على المعاش، أو التقـاعـد، ومن هنـا جاء السـأم والشكوى من هذه الحرفة، من ذلك ماروي من أنـه كان بنيسابور وراق يسمى أبَا حاتم، ورّق بها خمسين سنة، وهو القائل:

إن الـــوراقـــة حـــرفـــة مـــذمـــومـــة
محرومـــــــــة عيشي بها زمـــــــــنُ
إن عشـــت عشـــت وليـــس لي أكـــل
أو مـــــتّ مـــــتّ وليـــس لي كفـــن

ويروي ياقوت الحموي، أحد الوراقين المؤرخين الثقات خبر أحدهم فيقول:

«وكان أبو بكر الـدقاق المعروف بابن الخاضبة(ت٤٣٩هـ) يعـول والدة وزوجة وبنتاً من الوراقـة، وفي سنة واحدة كتب صحيح مسلـم سبع مرات، وهو يقـول: فلما كان ليلة من الليـالي رأيت في المنام كأن القيـامة قد قامـت، ومناد ينادي ابن الخاضبـة، فأحضرت، فقيل لي: ادخل الجنة، فلما دخلت الباب وصرت من داخل استلقيت على قفاي ووضعت إحدى رجلي على الأخرى وقلت: آه!. استرحت والله من النسخ»(٢٤).

وقد تعـدّى مفهوم الـوراقة هـذه الدائرة التجـارية والحرفيـة حين تحولت إلى ملتقـى للعلماء ومحفل لنشـاطهم المتنوّع في بيـع الكتب وتبـادلها واكترائها.. مما سـاعد على رواج المؤلفات، وازدهار التأليف، وكثرة المخطوطات. وهذا كله أفضى إلى هواية اقتناء الكتب وإحداث المكتبات والخزائن.

ولاتعني الوراقـة وتلك الكثرة في الكتب والمكتبـات أن العربية أصبحت تحصَّـل عن هذا الطريـق حصراً، أو أن الناس اتجهوا كلية إلى الكتـب في التحصيل، بل كانـت هنالك حلقات للـدرس والتدريس في المسـاجد، وكانت هنـالك القراءة على الشيـوخ في مختلف ضروب العلـم من تفسير وحـديـث ولغـة وشعر وأخبـار، وكـانـت طريقتهـا أن يختـار الشيـخ«قـارئاً» عـرف بـالضبط والحفـظ ليقـرأ والحاضرون يستمعـون، أو يتـابعـون في نسخهـم، والشيخ يصحـح الأغـلاط، ويضبط النـص، ويوثّقـه، ويشرح مـاغمض منـه ووجوه احتمالاتـه، دلالةً وتـراكيب، ويكتـب الحاضرون مايضيفـه الشيخ مـن زيادات، ومايجيب به عن الأسئلة، إما من كتاب بين يديه أو من حفظه.

ومن الأمثلـة على ذلك مـارواه ياقـوت الحموي نقـلاً عن أبي الحسـن العباس ثعلـب (ت٢٩١هـ)، قال:

«شاهدت ابن الأعرابي (ت٢٣١هـ) وكان يحضر مجلسه زهاء مئة إنسان، كلٌّ يسأله أو يقـرأ عليه، ويجيـب من غيرَ كتـاب. قال: ولـزمته بضـع عشرة سنة مـارأيت بيـده كتابـاً قط»(٢٥)

وتعليل الإقبـال على حلقات الـدرس والقراءة على الشيوخ مـرده إلى استمرار التـأثر بالـرواية الشفهية عن الثقـات من العلماء من جهة، وعـدم الثقةبالصحف والـوراقين من جهـة أخرى، وتعليـل ذلـك احتمال عدم فهـم الناسـخ لبعـض الألفاظ أو العبـارات أو المسـائل والموضوعـات، أو لأن المكتوب قـد يكون منطـويـاً على خطأ لايحسـن الناسـخ اكتشـافه وتـوجيهه فيـأخذه على عـلاته، ومـن هنا نشـأ الخوف أو الحذر من التصحيـف والتحريف.

ويعرّف السيـوطي التصحيف فيقـول:«أصل التصحيف أن يأخـذ الرجل اللفـظ من قراءته في صحيفة ولو لم يكن سمعه من الرجال، فيغيره عن الصواب»(٢٦).

ويقرب من ذلـك التحريف، وهو إبدال حـرف بحرف لتشابههما في الرسـم. ومن هنا قال أبـو منصور الأزهـري، صاحب معجـم الصحاح: «والصحفـي إذا كان رأس مـاله صحفاً يقرؤهـا فإنه يصحّف كثيراً، وذلك أنـه يخبر عن كتب لم يسمعها، ودفـاتر لايدري أصحيح ماكتب فيها أم لا، وإن أكثر ماقرأنا من الصحف التي لم تضبط بالنقط الصحيح، ولم يتولّ بصحيحها إلا أهل المعرفة السقيمة لايعتمدها إلا جاهل»(٢٧).

وقال الشريـف الجرجاني(ت٨١٦هـ):«التصحيف أن يُقرأ الشيء على خـلاف ماأراد كاتبه أو على خلاف مااصطلحوا عليه»٨(٢٨)

والتحـريـف:تغيير اللفـظ دون المعنـى(٢٩). وفي «الكليـات» لأبي البقـاء الكفوي(ت١٠٩٤هـ): التصحيـف: تغيير اللفظ والمعنى، والتحريـف: تغيير اللفظ دون المعنى.(٣٠).

ومـع مـاستـدعته الـوراقـة مـن تطـور في تحصيـل العلم، ومـن إنفـاق ومشكـلات ومصطلحات، ومع كل هذا التحفظ والحذر، فإن الزمـن والعرب قد انتقلا باللغة العربية من مرحلـة الشفهية الصوتية إلى المرحلة الصـورية الكتابية، وصـار العرب يعكفون على تحصيل لغتهـم من الصحف والكتـب والمخطوطـات ويحفظونها في تضاعيـف المصنّفات والخزائن، بعد ماكانت تؤخذ بالسماع والتلقي والرواية، وتحُفظ في الذواكر والصدور.

الحواشي والإحالات:

١—انظر: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية:٣٥ ، كلود كاهن. ترجمة د. بدر الدين القاسم. دار الحقيقة—بيروت، ط٣، ١٩٨٣ وانظر أيضاً: ص١٣٧منه.

٢—انظر: فتوح البلدان للبلاذري: ٢٤١ ، عني بمراجعته: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية— بيروت ١٩٨٣ .

٣—المشفر للناقة كالشفة للإنسان وكالجحفلة للفرس. والسِّبْت (بكسر السين) جلود البقرِ المدبوغة. بشجر القَرَظ، ومن هذه الجلود كانت تصنع النعال السِّبْتية أو نعال السِّبْت، وكان ينتعلها عليه القوم.

والقد: النعل لم تجّرد من الشعر، لذا تكون ألين للمحتذي.

٤—َالطوامير: جمع طومار، وهو الصحيفة كما في لسان العرب(طمر)،وهو دخيل بمعنى الصحيفة الملفوفة، وفي التركية طومار معناه دفتر(كتاب تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية للقس طوبيا العنيسي ط/ ٤٨) عني بنشره وتحقيقه الشيخ توما البستاني—مكتبة العرب بالفحالة. ط ٢ سنة ١٩٣٢ . وقيد صاحب لسان العرب: وقيل:(هو دخيل، ثم قال: وأراه عربياً محضاً لأن سيبويه قد اعتدّ به في الأبنية فقال : هو ملحق بفسطاط). والاعتداد به في الأبنية يكون في الشيوع والاطراد، وليس بناء«فوعال» كذلك. والإلحاق يقتضي أن يكون بوزن أو أصل عربي صحيح، وفسطاط ليست بعربية. وانظر«المعرب من الكلام الأعجمي» للجواليقي:١٧٣ . بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، مطبعة دار الكتب ط ثانية، القاهرة ١٩٦٩ . والكلمة في الفارسية (ان) فقالوا: طوماردان.

ويبدو أنها دخلت اليونانية بحكم الجوار فتوهّم د.التونجي يونانيتها انظر(معجم المعربات الفارسية في اللغة العربية). نشر دار الأدهم. دمشق ١٩٨٨ .

٥—عيون الأخبار: ٢١٩—٢٢٠ ، أعدته للطبع ونشرته وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٧ ، وفي فتوح البلدان: ٢٤١مع بعض اختلاف في الرواية. وانظر: كلود كاهن(مرجع سابق): ٣٥ .

٦—كوركيس عواد، مجلة مجمع دمشق، مجلد ٢٣ص ٤١٨ ، بحث بعنوان: الورق أو الكاغد، صناعته في العصور الإسلامية.

٧—عواد، الموضع السابق، الصفحات:٤١٨،٤٢٦،٤٢٧ .

٨—الموسوعة الميسرة. وانظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري٢ / ٣٦٦ لآدم متز، تعريب: محمد عبد الهادي أبو ريدة. ط٥ ، دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ.

٩—كوركيس عواد: ٤١٨ (مرجع سابق).
١٠—الحضارة العربية ٢ / ٣٦٧ حاشية المترجم عن الإدريسي، (طبعة دوزي، ص ١٩٢) .
١١—الوزراء والكتاب: ٨٨—٨٩ دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت—لبنان ١٩٨٨ .
١٢—زيغريد هونكه«شمس العرب تسطع على الغرب» ص ٣٨٥ ، نقله عن الألمانية فاروق بيضون—كمال دسوقي، ط، ١٩٦٤ . منشورات المكتب التجاري—بيروت.
١٣—مقدمة ابن خلدون ٢٦٢ بتحقيق. علي عبد الواحد وافي. القاهرة ١٩٥٧—١٩٦٠ .
١٤—زيغريد هونكة: ٣٩٠ .
١٥—الحضارة الإسلامية: ٢ / ٣٣٣(نقلا عن المقدسي في : أحسن التقاسيم).
١٦—زيغريد هونكة:٣٩١ .
١٧—السابق نفسه:٣٩٠—٣٩١ .
١٨—الفهرست لابن النديم٢٦٤ ، والحضارة الإسلامية ١ / ٣٤٢—٣٤٣ .
١٩—زيغريد هونكه: ٣٩٠ .
٢٠—البلغة في تاريخ أئمة اللغة لمجد الدين الفيروز آبادي: ٦١ ، تحقيق محمد المصري. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٢ .
٢١—الأعراب الرواة: ٢١٨ للدكتور عبد الحميد الشلقاني. دار المعارف بمصر ١٩٧٧
٢٢—الحضارة الإسلامية ١ / ٣٤٢ .
٢٣—نفسه ١ / ٣٢٦—٣٢٧ .
٢٤—إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب٦ / ٣٣٧ ، نشر مرجليوث، ليدن١٩٠٧—١٩٢٦ .
٢٥—معجم الأدباء: ١٨ / ١٩٠—١٩١دار احياء التراث العربي. بيروت.
٢٦—المزهر في علوم اللغة: ٢ / ٣٥٣بعناية: جاد المولى، البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم. ط. عيسى البابي الحلبي وشركاه.
٢٧—تهذيب اللغة ١ / ٣٣ . حققه وقدم له عبد السلام محمد.
٢٨—كتاب«التعريفات»: ٦١ ، مكتبة لبنان—بيروت ١٩٧٨ .
٢٩—السابق نفسه: ٥٥ .
٣٠—الكليات لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي: ٢ / ٧٢ ، قابله على نسخة خطية ووضع فهارسه د.عدنان درويش—محمد المصري. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٥ .

المظاهر السياسية والحضارية للدولة الرستمية في المغرب
(١٤٤—٢٩٦هـ = ٧٦١—٩٠٩م)

المظاهر السياسية والحضارية للدولة الرستمية في المغرب

١٤٤—٢٩٦هـ = ٧٦١—٩٠٩م

اعداد
الدكتور / صالح محمد فياض أبو دياك
أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك
بقسم التاريخ —كلية الآداب
جامعة اليرموك
اربد—الأردن

المظاهر السياسية والحضارية للدولة الرستمية في المغرب (١٤٤—٢٩٦هـ = ٧٦١—٩٠٩م)

الواقع أن ظروف المغرب كانت مؤاتية لاندلاع ثورات الخوارج سنة ١٢١هـ =٧٣٩م، بعد تفاقم المشاكل في البلاد من النواحي السياسية والاقتصادية إبان ولاية عبيد الله بن الحبحاب الذي كان رغم حسن ارادته وخبرته في تسيير الأمور إلا أن هذه الصفات لم تغن شيئاً أمام النزاع القبلي العربي، الأمر الذ أدى إلى تداعي نفوذ الخلافة الأموية في هذه البلاد خاصة بعد موت الخليفة هشام سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م، ولعل أبرز الأحداث دلالة على ضعف هيبة الخلافة بالمغرب، تغلب عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة الفهري على أفريقية سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٥م. وارغام حنظلة بن صفوان على مغادرتها وقبول الخليفة مروان بن محمد مضطراً بشرعية ولايته سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٥م(١).

وكان فشل الخوارج في المشرق في تحقيق أهدافهم بتكوين دولة لهم بسبب ضعفهم في التنظيم السياسي، وقيامهم بالثورات المستمرة ضد بني أمية دون تنظيم مسبق، جعلهم يستفيدون من أخطائهم السابقة ويلجأون إلى التنظيم والسرية في الدعوة لتكوين الدولة.

ونجحت دعوتهم بتكوين الدولة الرستمية التي تبنت آراء المذهب الأباضي الذي انفرد عن غيره من المذاهب الاسلامية بأن الخلافة ليست في قريش، ولا في قبيل من قبائل العرب، ولافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وأن الجميع فيها سواء، وأن العمل بأوامر الدين كجزء من الايمان، وليس الايمان الاعتقاد وحده بل الاخلاص للعقيدة، من هنا تناسبت هذه الآراء مع طبيعة المغاربة ومطالبهم، خاصة الشرط القائم على الجنس، فقد أقبل المغاربة على الأخذ بها أكثر من غيرها، وقام دعاة الأباضية في بث مذهبهم بين شيوخ القبائل الذين تحولوا إلى دعاة للمذهب بين قبائلهم، حتى عمت الدعوةسائر البلاد المغربية في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة. واحتاج المذهب إلى رجال يقومون بتعريف المغاربة بفقهه وآرائه وعقائده. ولم يستطع دعاة المذهب الأول كعكرمة مولى ابن عباس، وسلمة بن سعيد، وابن مفيطر أن يقوموا بهذا الدور، فاختار المغاربة بعض الرجال منهم وأوفدهم في بعثة علمية إلى البصرة للدراسة والتعليم والتعمق في أصول المذهب وفروعه، واستمرت مهمتهم خمس سنين عادوا بعدها إلى المغرب، وسموا بـ(حملة العلم)(٢)، ثم قاموا بتدريس ماتعلموه بالمشرق في حلقاتهم التي انتشرت في جهات كثيرة من بلاد المغرب الأدنى، وفي تلك الحلقات تلقى أتباع المذهب عل الأصول والفروع، والسير، والتوحيد. والشريعة، وآراء الفرق الاسلامية الأخرى، إلى جانب علوم اللغة والفلك والرياضيات(٣)، فكانت حلقاتهم بمثابة مدارس للعلوم النقلية والعقلية ومراكز للتعريب ونشر الحضارة العربية الاسلامية.

ولم تنقطع الصلة الثقافية بين أباضية المشرق —عُمان والبصرة— وأباضية المغرب، فكانت كتب فقهاء المذهب في الشرق وتصانيفهم ترد إلى المغرب بشكل دائم(٤). كما دأب فقهاؤهم ومحدثوهم على القدوم الى المغرب للتدريس والافتاء(٥)، والاطلاع على أحوال الأباضية، وقد أشار أبو زكريا إلى ذلك، بقوله«...وبلغنا أن رجلاً من أصحابنا(٦) من أهل المشرق، أقبل من عمان يريد زيارة أهل الدعوة...»(٧). إلى جانب ارسال البعثات العلمية من أهل المذهب إلى المشرق للأخذ عن أعلام المذهب في العراق ومصر والحجاز(٨).

ولاشك أن ذلك الاتصال الثقافي بالمشرق أثرى الحياة الثقافية في بلاد المغرب، وساعد على اظهار كثير من أعلام المغرب في العلوم الدينية والدنيوية مثل: الشيخ المهدي النفوسي الذي برع في علم الكلام، وابن يانس الذي برع في علم التفسير، والشيخان الفقيهان أبو الحسن الابدلائي، وعبد العزيز بن الأوز(٩) اللذان برعا في علم الفقه وغيرهم الكثير ممن أثروا بتآليفهم ومصنفاتهم الحياة الثقافية في بلاد المغرب، الأمر الذي ساعد على انتشار المذهب ورسوخه في العديد من المناطق المغربية، مثل: الجزائر ووهران، وجبال الأوراس، وجنوب باغاية، والنصف الجنوبي من أفريقية— تونس، ومنطقة طرابلس الممتدة من خليج سرت الواقع على البحر المتوسط إلى الصحراء الكبرى باستثناء مدينة طرابلس وساحل البحر اللتان كانتا تابعتان للأغالبة من قبل، ونظراً لقربها من مناطقهم، كانتانقطتي تماس بينهما. وبقي هذا المذهب في هذه المناطق إلى نهاية القرن الخامس للهجرة.

يقول البكري بهذا الخصوص:«وجبل أوراس وهو مسير سبعة أيام وفيه قلاع كثيرة تسكنها قبائل هوارة ومكناسة وهم أباضية»(١٠). وإلى اليوم مازالت فئات منهم في ميزات—جنوب الجزائر— وفي جربه بتونس، وفي ليبية.

ولما تكونت دولتهم المسماة بالدولة الرستمية(١١)، تبنت المذهب الأباضي، واتخذت مدينة تاهرت عاصمة لها، وأصبحت حدودها السياسية بين إمارة الأغالبة شرقاً والأدارسة غرباً، وامتدت جنوباً لتشمل ورقلة ووادي ريغ والجريد، وجبال دمر إلى طرابلس. وجبل نفوسة، وأصبحت على مقربة من الحدود المصرية.

ولقب حكامها بالأئمة إلى جانب لقب أمير المؤمنين(١٢)، وكما ذكرنا كان نظام اختيار الحكام قائم على مبدأ الشورى، بدليل أن الإمام عبد الرحمن بن رستم عندما أدركته الوفاة، قام بتعيين سبعة رجال من أهل الشورى—ممن عرفوا بالتقوى والورع— لاختيار امام منهم، وهم: ابنه عبد الوهاب، ومسعود الأندلسي، وأبو قدامة، ويزيد بن فندين اليغرني، وعمران بن مسعود الأندلسي، وأبو الموفق سعدوس ابن عطية، وشكر بن صالح الكتامي، ومصعب بن سرحان، وبجعل ابنه ممن يقع عليهم الاختيار، أحدث احتجاجاً من قبل مسعود الأندلسي، ويزيدبن فندين، وخاصة الأخير الذي رأى في هذا الاسلوب تغليب فكرة التعيين بالوراثة على فكرة التعين بالانتخاب(١٣).

ولك ينال الإمام التأييد لابنه مــن فقهاء وزعماء الأباضية(١٤) في المشرق أرسل وفداً إليهم يستفتيهم بما حصل، فجاء الافتاء لما فعل، ولكـن ابن فندين لم يقنع، فلجأ الإمام إلى محاصرته والتقليل من شأنـه، فعهد إلى الاصهار مع أحد شيوخ لواته الكبـار وتزوج بابنة أمير هوارة أحد بطونها فانحازت لواته له(١٥).

ونال البيعة الخاصة من أهل الحل والعقد، وتبعتها البيعـة العامة من أبناء الرعية وبهذا نال الامامة حسب الأسلوب المتبع في الدول الاسلامية ونودي به إماماً للدولة(١٦) سنة ١٦٨هـ/ ٧٨٤م.

وجرت العادة أن يكـون للامام مجلسٌ يتكـون من العلماء والعقلاء المتقين المخلصين، والذين لهم دراية بـالأمور وهم يعدون له ظهيراً، ويقوم الخطبـاء بترديد البيعة للملأ على المنابر قصد اشهارها، فالخطيب أبو الربيع كان يعلن دائماً عن بيعة الإمام عبد الوهاب من على منبر المسجد في الأيـام الأولى من توليته بقـوله:(الامام عبـد الوهاب أمامنـا، وثقتنا، وإمام المسلمين أجمعين، فأنا براء ممن خالفه وأنكر عليه شيئاً غير حق)(١٧).

ويعلن الإمام عنـد توليته عن منهـاجه السياسي، ويوجـه كتاباً للأمـة يتضمن النصح والارشاد، واتباع أوامـر الله، من هؤلاء؛ الامام أفلح بـن عبد الوهاب الـذي وجه لعماله كتاباً ليقرأوه على المنابـر للرعية بعد أن بدأها بالبسملة والصـلاة على النبي قال: من أفلح بن عبد الوهاب إلى من بلغه كتابنا هـذا من المسلمين. أما بعد، فالحمد لله في الأمة المكرمة التي جعلها أمة وسطا... إلى أن يقول: «وعليكم بتقوى الله واتباع آثار سلفكم، فقد سنوا لكم الهدى، وأوضحوا لكم طـريق الحق وحملوكم على المنهاج، ففي أتبـاعهم النجاة وفي خلافهم الهلكة؛ وكـل بدعة ضلالة وكل ضلالة كفـر...» إلى أن يقول:«إن الله قد أوجب عليكم أن تقوموا لله بـالعدل في عباده وبلاده ولا تأخذكم في الله لـومة لائم... فاتقوا الله حق تقـاته وتـواصوا بالبر والتقـوى ومروا بالمعـروف المفترض عليكم وانهوا عـن المنكر الذي قـد نهيتم... فعليكـم معشر المسلمين باتبـاع الآثار والعمـل بما عمل بـه أسلافكـم المتقدمون قبلكم، فقد سنوا لكم الهدى، ففي اتبـاعهم كل رشد، وفي مخالفتهم كل غي... وقـد بالغـت إليكم في النصحيـة، وشرحت لكـم الموعظـة ورضيت لكـم بما رضيت بـه لنفسي، ونهيتكم عما انهى عنـه نفسي نصيحة لله واجتهاداً في طلب رضـائه، والله أسأل أن يوفقنا وإياكم لطاعته والقيام بحقه برحمته إنه قدير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

والكتاب طويل، اقتصرت على فقرات منه لعدم اتساعه في هذا المجال(١٨).

كما يصدر الامـام بعد تـوليته السلطـة قراراتـه المسماة بالبربـرية (البيـورلدي)، ومـن ضمنها ارسال الوفـود الدبلوماسية إلى الأمراء والملـوك الذين تربطهم به عـلاقات مودة، فقد أرسل الإمام أبو بكـر بن أفلح بن الامام عبد الوهاب، وفـداً إلى ملك مملكة صوصو احدى الممالك السودانية، برئاسة محمد بن عرفـة أحد أعيان مدينة تيهرت، ومعه هدية منه إلى الملك، وكان حسن الهيئـة والخلقة، فأعجب به، وعبر عن اعجابـه بلهجته قائلاً:«أنت حسن الوجه، حسن الهيئة والأفعال»(١٩).

ونهجوا كغيرهم من حكام المسلمين على تدريب ولاة العهد، فقد عين الامام عبد الوهاب حفيده (ميمون) على بيت المال، وأوكل إليه الجبايات رغبة منه في تولي الامامة من بعده، لكن رغبته لم تتحقق، أما الامام أبو اليقظان فقد قام هو الآخر بتدريب ولده المكنى بأبي حاتم على أمور الدولة، وعهد إليه مناصب متعددة، مما لفت نظر العامة إليه الذين حملوه على الأعناق يوم العيد ذاهبين به إلى المسجد ليصلي بالناس صلاة العيد لتأخر والده عنها، ولما علم والده بالخبر، قال لأمه واسمها غزال: «احذري ياغزال فقد أصبح ابنك اليوم سلطاناً(٢٠). ولعل اسمها كان تشبهاً بغزالة أم شبيب بن يزيد الشيباني التي كانت من أبرز نساء المذهب في المشرق(٢١).

وبالمناسبةفقد شاركت المرأة الأباضية الرجل في فنون السياسة والحرب، وأسهمت في التنظيم والدعوة، وبرزت في ميدان المعرفة، أمثال العجوز(وقاية) المعروفة بزهدها وسعة علمها وحسن آرائها، فقد استشارها الوالي أبو عبيدة عبد الحميد في الولاية المعروضة عليه من الإمام عبد الرحمن على جبل نفوسة(٢٢) فشجعته على قبولها(٢٣).

وتعددت العناصر المكونة للمجتمع الأباضي، الأمر الذي دعاهم إلى اتخاذ سياسة التوازن بينها خوفاً من الفتنة، ولكن عندما يشعرون بالخوف على أنفسهم أو مصالحهم يقومون بضرب العناصر بعضها ببعض، إلا أن الغالب على تصرفاتهم، حل المشاكل بالطرق السلمية، وعدم التعرض إلى سفك الدماء.

فقد عقد الامام عبد الوهاب مع الوالي المتمرد خلف بن السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى اتفاقاً تم بموجبه اقتسام ولاية نفوسة بينه وبين واليه أبو عبيده عبد الحمد الجناوي، كما أننا نلمس من تصرفات الأئمة الأول الغيرة على الدين وتطبيق أحكام الشريعة في إماراتهم.

ونلمس أيضاً تطوراً في مظاهر البلاط الرستمي، عما كان عليه الحال من الزهد والتقشف أيام الأمير عبد الرحمن بن رستم أول الأئمة الرستميين الذي لم يحو بيته —يومذاك— إلا على حصير فوقه جلد ووسادة ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في فناء داره، بينما الأئمة الذين جاءوا من بعده، كانت حياتهم شبيهة بحياة حكام المشرق، وهذه شأن كل الدول. فقد امتلكوا الضياع والمنازل والحصون التي أقاموها بنواحي (تسلونت) خارج تيهرت، واقتنوا الجواري والغلمان والعبيد والحشم، وكان لخيولهم وخدمهم وعبيدهم منازل خاصة بحصن(تماليت) خارج المدينة(٢٤)، لئلا يتعرضوا إلى النقد والتشهير من السكان المزدحمين في المدينة.

وأصبحوا يخرجون في مواكب خاصة يحيط بهم فرسان أعدوا لهذا الغرض، حاملين الأعلام الذين كان من أبرزها علم كبير يسمى(البند)(٢٥) ولم يشر المؤرخون إلى لون الأعلام ولا إلى شعاراتها، ويظن أنها بيضاء، لأن اللون الأبيض محبب لدى المسلمين عامة

والمغاربة والأندلسيين خاصة، إضافة إلى رغبتهم في مخالفة شعار العباسيين الممثل بالسواد، ويبدو أن هذه الأعلام كتب عليها آيات قرآنية تتماشى مع فحوى المذهب، وقد عثر في وادي ميزاب بجنوب الجزائر على رايات قديمة محفوظة في المساجد بيضاء اللون مكتوب عليها آيات قرآنية قريبة الشبه بالرايات الرستمية.

وكان لهم مواكب للخروج وللصيد في أوقات فراغهم، وبلغ تأثرهم بحكام المشرق أن لبسوا الثياب المزركشة والحلي القشيبة ووضعوا على رؤوسهم مايسمى بـ(الطرطور)(٢٦).

واتخذ الامام أبو اليقظان سرادقاً على طريقة خلفاء بغداد تأثراً بهم بسبب عيشه مدة طويلة في حاضرتهم—بغداد— أثناء اعتقاله. أما عن الولائم والحفلات، فقد أقاموا الأسمطة—الجفان— لاطعام الفقراء أيام الأعياد والمناسبات الهامة. فكانت تقام الحفلات التي يحضرها وفود من كافة أنحاء الدولة، وكان عمال الإمام ورؤساء القبائل والعشائر ينزلون في (دار الضيافة) ثم ينصرفون إلى عمالاتهم ومضاربهم بعد أن يأخذوا نصيبهم من الأرزاق والهدايا والألطاف التي توزع عليهم في هذه المناسبات(٢٧).

وارتبطت الدولة الرستمية بعلاقات مع جيرانها اتسمت بالمد والجزر والود والبغض حسبما تمليه الظروف وخاصة السياسية منها على المنطقة كلها، ونظراً لقرب حدودها من دولة الأغالبة، والاختلاف في المذاهب الدينية وفي الولاء السياسي، كان من البداهة أن تحدث بينهم المشاحنات(٢٨)، والواقع أن الأغالبة لم يشكلوا خطراً مباشراً على حاضرة الرستميين(تيهرت) لبعدها عن افريقية مسافة قدرت مسيرة شهر على ظهور الإبل(٢٩)؛ وإنما يعود إلى مراكز استقرار رعايا الدولة الرستمية في الجبال، وقسم منهم امتهن حياة الترحال والتنقل من مكان لآخر حسب الظروف الطبيعية(٣٠)، وقدحدث أول احتكاك له بين الأغالبة والرستميين زمن الأمير ابراهيم بن الأغلب الذي كان معاصراً للإمام عبد الوهاب بن رستم الأباضي الذي تولى الإمامة٢٦٨هـ/ ٨٨١م، وسبب هذا الاحتكاك أن، بربر هوارة الأباضية، مافتئوا يثيرون القلاقل ضد بني الأغلب قصد انفصالهم عنهم والانضمام إلى دولة مذهبهم—الدولة الرستمية—ومن الواضح أن الإمام عبد الوهاب بن رستم هب لنجدتهم مستعيناً ببربر نفوسة القاطنين بالجبل المسمى باسمهم، رغم أن المصادر الأباضية تنكر ذلك، مشيراً إلى أن قدومه إليهم كان بغرض الحج وأن أهل الجبل قد أشاروا عليه بالبقاء تحسباً من مكائد العباسيين واعتقاله فيما لو علموا بوجوده في أرض الحجاز(٣١)، ويبدو أن بقاءه ساعده في الاضطلاع على أحوال بربر هوارة ومايلاقونه من متاعب من جيرانهم الأغالبة، فقام بضمهم إلى دولته وتعهد بالمدافعة عنهم، وعين عليهم والياً منهم اسمه مدراراً، بعد أن كانت هذه القبائل تعيش نظاماً اجتماعياً خاصاً بها يديره مجلس مكون من مشايخ قبائلهم راضين بالانعزال خوفاً من ضربات الأغالبة لقربهم منهم(٣٢).

ويبدو أن طابع العلاقات بين الدولة الرستمية، ودولة الأغالبة الممثلة للدولة العباسية في افريقية كـان واضحاً، ففي عهد الإمـام أفلح بن عبد الـوهاب الذي خلف والـده بعد وفاتـه سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م اندلعـت الفتن في عهده، وكان مـن أبرزها ثورة الثـائر نفاث الذي لم يـرض عن تـولية الإمـام، فلجأ الامام أفلـح إلى تضييق الخنـاق عليه مما اضطره للذهاب إلى المشرق ونزل لاجئاً سياسياً عند الخليفة العباسي ببغـداد، واستخدمه الخليفة وسيلة ضغط على الـدولة الرستمية، كما قـام الخليفة الواثق بـالله باعتقال محمد بـن الإمام أفلح المكنى بأبي اليقظان أثنـاء تأديته فريضة الحج. كل هذا يدل على ماكـانت تقوم به من تضييق الخناق على الدولة الرستمية.

وعمـد الأغـالبـة إلى إثـارة الفتـن الـداخليـة للـدولـة الـرستميـة، ويـرى صـاحـب الازهار(٣٣)، أن شخصـاً يدعى خلـف الخادم مولى بنى الأغلـب—استطاع عن طـريق بذل الأموال— إثارة الفتن بين سكان تيهرت، فـانقسموا إلى معسكرين، الامام وأنصاره مـن العجـم والنفـوسيين في جـانـب، والجنـد العـرب في جـانـب آخـر، ويـبـدو أن الجو الاجتماعي كـان مهيئاً لضرب العناصر بعضها ببعـض، اذ سرعان مانجح في مهمتـه وقام العرب والجند باحراق درب النفوسيين معبرين عن سخطهـم للبربر، وبالرغم من جهود الإمام أبي بكر في رأب الصدع، وقضائه على الحزب المناوىء—العرب— في عدة مواقع، لكن الخلافات والفتن لم تهدأ واستمرت سبعة أعوام حتى عهد الإمام أبو اليقظان(٣٤).

ويـادل الرستميـون الأغـالبة الكيـد بـالكيد، فقـد ثـار بـربر الأبـاضيـة في طرابلـس سنة٢٤٥هـ/ ٨٥٩م بتحريض من الإمام أبـو اليقظان محمد، وفي هذا يشير ابن خلدون في كتـابه(العبر)(٣٥) أن الأبـاضية في طـرابلس ثـاروا على عاملهـا أيام الأمير ابـراهيم بـن الأغلب(٢٤٢—٢٤٩هـ=٨٥٦—٨٦٣م) وهزموا عاملهـا، فجهز الأمير ابراهيم جيشاً بقيادة أخيـه زيادة الله وتمكـن من اخماد ثورتهم. لكـن رغم هذه العـداوة فقد تـوحدوا في جبهـة قتاليـة واحـدة لدرء خطـر صـاحـب مصر العبـاس بـن منصور بـن طـولون سنـة ٢٥٦هـ/ ٩٠٨م، لاحبـاً بالأغـالبة ولكن لانقـاذ أخوانهم الأباضيـة التابعين لإليـاس بن منصور النفـوسي، الذي بطش ابـن طولـون بهم وهتك حجبهم(٣٦) بعـد أن قضى على الأغالبة بمقتل عاملهم على طرابلس، ويروي ابن عذاري، أن الياس هذا استغاث بالبربر القاطنين بطرابلس أو الضاربين حولها، ويبدو أن هؤلاء كانوا من أتباع المذهب ومحسوبين على الدولة الرستمية.

أضف إلى ذلك أن ابـن طولون قد أرسـل قبل رحيله من بـرقة إلى زعيم جبل نفـوسة يدعوه إلى الطاعة، ويتوعده إن لم يجبه إلى طلبه. لذلك تلاقت رغبة الطرفين في درء الخطر الطولـوني، ودليل ذلك أن الأمير الأغلبـي كان يقاتـل ابن طولـون لوحده قبـل أن يصل الأخير إلى طرابلس، وهـذا ما يفصح عنه ابن الـداية بقوله:(فلما كان اليـوم التالي وصلت جيوش نفوسة وعدتها اثني عشر ألفاً من الأباضية)(٣٧).

ويبدو أن هذا الاتفـاق كان مؤقتاً، بدليـل أنه بعد مرور سـتة أعوام على ذلك الحادث قام الأغالبة بالاعتداء على جبل نفوسة أيام الإمـام أبي حاتم يوسف بن محمد الذي خلف والده أبو اليقظان سنـة ٣٨١هـ/ ٨٩٤م. وقتلوا عدداً من رجاله، ولعـل الأغالبة وضعوا في اعتبارهـم بأن يكـونوا على بـوابة مصر، وأن يبسطـوا سلطانهم على تلـك البقاع حتـى لايفكر الطـولونيين في الاعتـداء مرة أخـرى، وربما استأنسـوا من أنفسهـم القوة فقـاموا بمعـركتهم الشهيرة مـع الرستميين عنـد مـوضع يقـال لـه(مانـو)، الأمر الـذي أدى إلى ضعفهم، ولم تقم لهم قـائمة بعد أن انهارت قبيلة نفـوسة التي كانـت تشكل درعها(٣٨) الـواقـي وبسبب الخلفيـة الفكـريـة الأباضيـة؛ التـي تصر على الـزاميـة مناصرة الـرعيـة لامامها(٣٩)، نتـج عن ذلك عدم الاهتمام في الجيش، إلى جانب مايـراه العلماء والفقهاء منهم، مـن أن وجود الجيش النظامـي في الدولة يـرأسه أعلى سلطة فيها يـؤدي إلى فرض السلطة الفـردية، وبذلك يتحـول نظام الحكم مـن نظام دستوري جماعي إلى نظـام فردي مستبد، لعل هذا كان سبباً في ضعف القوى العسكرية(٤٠) عندهم، إلى جانب مانتج عن انكسارهم في المعـركة من إشاعة الفـوضى، الأمر الذي أدى إلى ضعف بنيتهـا السياسية والعسكرية، مما أسرع في زوالها فيما بعد.

أما علاقاتهم مـع الدول الأخرى، فلم تكن بمثل مـاكانت عليه مع دولة الأغـالبة من التشابـك والتعقيد، فكـانت عـلاقاتهم مـع بني واسـول المداريين بسجلماسة، تقـوم على الصداقة لوجود كثير من نقاط الالتقاء بين المذهبين الصفري والأباضي إلى جانب الزواج السيـاسي، فقـد تـزوج مـدراراً بـن اليسـع الصغـرى مـن أروى ابنـة عبـد الـرحمن بـن رستـم(٤١)، وكان لهذه العـلاقة أثـرها الـواضح في تيسير السبـل التجاريـة للأبـاضيين الذاهبين إلى السودان.

أما علاقاتهم مع الأدارسة فقد اتسمـت بالمرونة مابين الحرب والسلم(٤٢). ولكنها لم تأخـذ المدى التي اتخذته مـع الأغالبة، لاسيما وأن فـرقة الواصليـة—الذي كان يعـد عبد الحميد الأروبي زعيمها— كانت تمارس حياتها في المجتمع التـاهرتي مثل غيرها من الفرق الاسلامية الأخرى.

وارتبطت الدولـة الرستمية بمصر ارتباطاً وثيقـاً عن طريق التجارة إلى جـانب وجود عدد من علمائها، أبرزهـم: شعيب المصري الذي شارك بفتنة ابن فندين.

أما عـلاقاتهم مـع الأمويين في الأنـدلس، فكـانت تـربطها العـداوة المشتركة للـدولة العباسية، ولكن التقـارب فيما بينها لم يصل إلى درجة التحالف الفعلي ضـد أعدائها، وإنما أقصـى مـاوصـل إليــه تبـادل السفـارات والهدايـا، فضـلاً عـن الصـلات التجاريـة والاقتصادية(٤٤)، حيث كانت تتردد السفن بين وهران والمرية حاملة العلماء والمسافرين إلى جانب البضائع التجارية، وكثـرت وفود الاندلسيين إلى الحاضرة تيهرت(٤٥)، وكان

من أبرزهم عمران بن مروان الأندلسي، ومسعود الأندلسي، اللذان رشحهما عبد الرحمن بن رستم في جملة من اختارهم للإمامة من بعده، إضافة إلى حادثة ابن حفصون التي دلت على وجود الأندلسيين في تيهرت، وعلى تعاطف الأئمة الرستميين مع بني أمية بالأندلس إلى جانب ماقام به ابن رستم سنة ٢٠٧هـ-٨٢٢م بزيارة ودية إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي أكرم وفادته.

وبالجملة توطدت العلاقات بين الطرفين في عهدي الأميرين عبد الرحمن الأموي وعهد أبي اليقظان الرستمي الذي كان يعد من الأئمة الأواخر في الدولة الرستمية الأمر الذي جعله يعرض الكثير من أمواله على الخليفة الناصر لأخذ رأيه فيها(٤٦).

وفي إطار الولاية للدولة: تفنن الأئمة في اختيار الولاة فلجأوا إلى سبر غورهم لمعرفة مدى رغبتهم بالولاية وزهدهم بها، فقد قام الإمام عبد الوهاب بسبر غور الوالي مدمان الهرطلي بأن أرسل له كتابين، تضمن الأول العزل، ويتضمن الثاني التثبيت، فلما عرض عليه الكتاب الأول وافق على ماجاء به، عندها سلم له كتاب التثبيت على الولاية بعد بيان حسن نيته(٤٧)، إلا أن بعضهم رفضها وطلب اعفاءه منها، فوافقه الإمام على طلبه، فقد طلب والي جبل نفوسة أفلح بن العباس، من الإمام عبد الوهاب بن رستم اعفائه من ولايته فوافقه على ذلك وعين بدلاً منه أبو منصور النفوسي التندميرتي(٤٨).

ومن ولاته في الجهات الشرقية من دولته، سلام بن عمرو اللواتي، واليه على سرت وماحولها، وسلمة بن قفطان الزراغي واليه على قابس ونواحيها، ووكيل بن دراج النفوسي من بني يخلف على قفصة وما حولها، وأبو يونس وسيم النفوسي التمزيني واليه على القنطرارة وحاضرتها تيجي، وأبو عبيدة الجناوني، وأيوب بن العباس، والسمح بن أبي الخطاب، وأبو منصور النفوسي التندميرتي محل هؤلاء ولاته على جبل نفوسة والعلامة مدراراً واليه على جبل دمر.

أما الولاة الثلاثة، بيران اليزميرتني المزاتي، وجارون القمري الزناتي صهر الامام، ونهدي بن عاصم الزناتي فلم نعرف ولاياتهم.

أما ولاته في منطقة الأوراس، وشمال تيهرت وغربها وشرقها، وفي تبلغمت، والأغواط، وجبال راشد(جبال عمور) الآن، ورجلان وتيقورت، فلم تكشف لنا المصادر عن الولاة الذين عينوا في هذه الولايات، ولعل هذا راجع لضياع عدد من الكتب التي كانت في مكتبة المعصومة مما جعلتنا نفتقر إلى هذه المعلومات(٤٩).

ويبدو أن الأئمة الرستميين مالوا إلى تعيين ولاة جدد عند توليهم الإمامة، فالإمام أفلح ابن عبد الوهاب قام بتغيير ولاة أبيه ولم نعرف السبب، ولكن طالما أن الوالي يمثل الإمام في ولايته، فربما لم يرض عن البعض منهم أو اقتضت الظروف تغييرهم، فقد عين سعد بن أبي يونس على قنطرارة، وميال اين يوسف على قبيلة نفزازة، وأبوالعباس بن

أيوب على جبل نفوسة بدلاً من أبي عبيدة عبد الحميد الجناوي، ثم استبدله في أواخر أيامه بأبي ذر إبان بن وسيم النفوسي المشهور بالفتيا، والذي لم يمارسها إلا بعد أن رخص له شيخه أبو خليل بالافتاء بقوله:(افت ياابن للناس بالرخص، فإن لكل زمان نذير، وأنت نذير زمانك)(٥٠).

وهذا دليل على الاهتمام بصفات الوالي الذي كان يجمع إلى جانب معرفته في الإدارة، العلم والورع ليتسنى له حل قضايا الناس ومشاكلهم، فهو في ولايته بمثابة الإمام في الدولة فالإمام أفلح وجه كتاباً إلى واليه ميال بن يوسف، يطالبه فيه بالتحلي بالصفات التي كان يتحلى بها السراة من الأباضية السابقون له، الذين كانوا يقضون على الفتن وهي في مهدها، وعلى البدع قبل انتشارها، خوفاً من بلبلة الفكر وتشتيت صفوف الأئمة قصد الحفاظ على وحدتها(٥١).

وجعل ولاته يراقبون بعضهم بعضاً، بارسال التقارير إليه، عما يقوم به بعضهم من أعمال الشغب والفتن في ولاياتهم، فقد أرسلوا له كتاباً بحق الوالي ابن فندين، يصفون فيه مايفعله وأعوانه من أعمال الشغب والفتن، وقد أشار إلى ذلك النفوسي في كتابه الأزهار بقوله:(...فكثرة الكتابات في حقه إلى الإمام من عماله وغيرهم ممن ائتمنهم توخصهم بمكانته وأخباره بأحوال الولاة والعمال والرعية في الجهات...) مما دعا الامام أفلح إلى أن يرسل له كتاباً يتوعده فيه ويتبرأ منه، والكتاب يخلو من البسملة والصلاة على النبي لأنه كتاب تهديد ووعيد ومما جاء فيه:(...ثم قلت إنا أمرنا في كتابنا بالبراءة منك فإن كنت كما كتب إلينا عمالنا فأنت محقوق بالبراءة ومقصي من جماعتنا لأننا ماكتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا وزعم أن عمالنا أساقفة وأنهم لاطاعة لهم في حال كتمانهم فهو محقوق بالبراءة ومقصي من جماعة المسلمين. فإن تكن أنت منهم الذي ابيحت لنا البراءة منك. وأحللت بنفسك مالا بدّ لنا أن نفعله بك وبغيرك. وإن لم تكن كذلك فاظهر الانتفاء من ذلك وكذب عن نفسك ماقيل عنك لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها وتستوجبها)(٥٢).

وقد يكرم الإمام أحد ولاته بتميزه عن غيره بأن يسند إليه في منصبه شخصاً يقوم بمساعدته، ويشاركه الرأي في المعضلات التي تواجهه يسمونه عندهم بـ(المزوار) المتفقة بالأمور الشرعية وغيرها، من هؤلاء الولاة؛ الوالي السمح بن الخطاب الذي ميزه الإمام عن غيره بهذا المنصب، وجعل معه مزواراً(٥٣).

ونهج الإمام عبد الرحمن ومن تلاه من الأئمة، منهج الاختيار للقضاة، فكان يعين في هذا المنصب ممن اتصفوا بالورع وسعة المعرفة والتقيد بالأحكام الشرعية، مع الاهتمام برغبة الشراة(٥٤) من أبناء المناطق المراد تعيين قضاة فيها، لتسهيل مهمتهم والتعاون معهم في تطبيق الأحكام. فقد حدث أن اختار الشراة أيام الامام أفلح (محكم الهواري)

الساكن بجبل أوراس ليكون قاضياً عليهم وأبلغوه باختيارهم، فرد عليهم قائلاً:«هو رجل نشأ في البادية لايعرف لذي القدر، قدره، ولالذي الشرف شرفه، وإن كان ليس منكم أحد حب أن يظلم ولا يظلم، ولكن تحبون أي يجري فيكم الحقوق على وجهها بلا نقص لاعراضكم وامتهان لأنفسكم». وهذا يدل بوضوح على رغبته التي تتفق مع رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في تعيين القضاة من البيئات التي نشأوا فيها، ولكن اصرار الشراة في تعيينه دون سواه، جعله يوافق على ذلك، فكتب وكتب معه الشراة إلى (محكم الهواري) كتاباً تضمن تكليفه بالقضاء جاء فيه:«بعد البسملة، أما بعد فإنه قد نزل بالمسلمين أمراً لاغنى بهم عن حضورك، وهم منتظرون لقدومك ولايسعك فيما بينك وبين الله عن اللحوق بهم والاجتماع معهم، ليجمع رأيك ورأيهم على مافيه صلاح المسلمين».(٥٥)

ولما وصل الكتاب إلى (محكم)، حاول التهرب من التكليف، وعبر عن ذلك بقوله:«إن الحق مر أمر من شرب الدواء إلاكرهاً، وأنتم مترفون أبناء نعم، وغيري أحب إليكم مني، نصحتكم فاقبلوا نصيحتي»(٥٦). وفي قوله مايطابق قول الإمام، لكن اصرار الشراة جعله يوافق، فأنزلوه دار القضاء، وعينوا له خادماً يقوم بخدمته.

وفعلاً صدق ظنهم فيه بدليل أن شقيق الإمام أبا العباس وخصمه تحاكما عنده، بعد أن اعتذر الإمام أفلح عن البت في الخصومة لمكانتها عنده، وحبها إليه فحكم القاضي(محكم) لخصم شقيقه أبي العباس(٥٧)، مما ثار ثائرته فاشتكاه لشقيقه الإمام، فقال له الإمام:«ياأبا العباس قد كنت أعلمتك بهذا من قبل، والصواب مافعل والحق أولى أن يؤثر، ولو فعل غير هذا لكان مداهناً»(٥٨).

وجرت العادة في تعيين قاضي الحاضرة أن يؤخذ رأي مشايخ الأباضية وغير الأباضية ممن هم في الحاضرة، شريطة أن يكونوا من كبار القضاة بعلمهم وتقواهم وضبط أحكامهم، فكان قاضي الحاضرة أيام الإمام أفلح عمروس بن فتح الله النفوسي، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ، الذي أعيد إلى هذا المنصب أيام الإمام أبو بكر بن محمد(٥٩).

وعُرف عن قضاة الحاضرة إلى جانب علمهم ونزاهتهم نباهتهم وحسن ذكائهم، فالقاضيَ عمروس بن فتح الله النفوسي، عندما عرض عليه قضية متاع تخاصم فيه اثنان، قام على الفور بحجز المتاع وسؤال كل منهما على حده، ولما تبين له من استجوابها صاحب المتاع حكم له.

أما عن النزاهة، فقد كان أحد أولاد الإمام أفلح غير محمود السيرة، وكان قاضي الحاضرة أبو عبد الله محمد، وفي أيامه وقع ابن الإمام بمشكلة أخلاقية باعتدائه على فتاة تقدمت أمها بظلامتها للقاضي، فقام القاضي وأعوانه في البحث عن الفتاة، ولكنهمَ عجزوا عن العثور عليها، عندها قدم استقالته لأنه أدرك عجزه عن القيام بمهمته.(٦٠)

وبـالجملة كـان القضاة في الجرائم التـي تستوجـب الحدود كـالقتل والسرقـة والزنـا، وشرب الخمر، يمكنـون المتهم من الـدفاع عن نفسـه، وبيان حجتـه، فإن ثبتت جـريمته حكموا عليه بحكم الله، وينفذ الإمام في الحاضرة وولاتـه في الولايات حكم القضاء دون التهاون فيه، بغية إقامة ا لعدل ونشر الأمن في أرجاء الدولة(٦١).

أما عن مجلس المظالم، فقد تنوعـت أغراضه، فإذا كـان الغرض منه مناقشـة أصحاب الفكر المغـالين بأفكـارهم، عقـد لهم مجلس يضـم ذوي الاختصاص، لمنـاقشتهم، والـرد عليهم، ففي زمن الإمام عبد الرحمن بن رستم، كان يعقد كل يوم في المسجد الجامع مجلساً للبحـث في قضية مـن القضايـا، فيجلـس على وسادة مصنـوعـة من الجلـد، يقابلـه ذوو التخصص في المسألة المطروحة للبحث، ففي القضايـا الفكرية، كان يقابله رجل من كبار قبيلة نفـوسة واسمه عيسى بـن فناس، ورجل من كبـار قبيلة هوارة يكنى بـابن الصغير، امتاز عن عيسـى بغزارة علمه، وعرف عيسـى بكثرة ورعه عنه، وبين يـدي الامام وجوه النـاس، كـان أدناهم منـزلة رجل مـن العرب واسمه محمـود بن بكر، ورجـل من العلماء البارزيـن اسمه عبـد الله بن اللمطـي الذي عـرف بكثرة تـأليفه وحسـن مناظـرته لعلماء المعتزلة وغيرهم من الفرق المغالية، يرد عليهـم مبيناً غلوهم، فكان بعمله يعد المدافع عن المذهب(٦٢).

أما إذا كانـت القضية سياسية، ضم المجلس رجـال السياسة لمناقشتها وبيـان مضارها من فوائدها، وإذا كانت ادارية، جمع لها الإداريين المحنكين، وإذا كانت حربية جمع لها قادة الحرب، وإذا كانت صناعيـة أو فلاحية جمع لها من أرباب الصناعة والفـلاحة، إلى جانب ندمـائه الذين يسـاعدونه في حل المشـاكل وتطبيق الأحكـام عليها، فهم بعملهـم يعدون ظهيراً له(٦٣).

وقد تصله ظلامات مـن القرى النائية مكتوبة باللغة البربـرية، فيقوم المترجم بترجمتها للغة العربية(٦٤) واصـدار الحكم فيها، وكان من أبرز المترجمين أبـو سهل الفارسي الذي يعد من أبناء الطبقة السابعة، من علماء الأباضية.

أما الحواضر وشبـه الحواضر فيبعث أهلها شكايـاتهم في ولايات الدولة بصحبـة عدد من رجال المجلس(٦٥)، فإذا قدمت إليه شكايات قام بالحال في عقد مجلس لها للبت فيها في نفس المكان.

أما الحسبة، فلم تكن مقصورة علي موظفيهـا فحسب، بل شاركهم في مهامهم الشراة، وهم بمثابـة أهل الحل والربط عنـد أهل الجماعة، وهم مجموعـة من الرجال بلـغ عددهم الأربعين أو يزيـد قليلاً، وهـؤلاء اشتروا آخرتهم بـدنياهـم بمعنى أنهم تخلـوا عن الـدنيا وعاهدوا الله على انكار المنكر والأمر بالمعروف بدون مبالاة أو خوف، ولو أدى بهم الأمر *إلى القتال(٦٦)، فهم يمتحنون الأئمة والولاة ويسبرون غورهم ويعطون رأيهم فيهم من*

خير أو شر، وحكمهم عند الرعية لاينـاقش لثقتهم بهم وعلمهم بـاخلاصهم لـدين الله وتطبيق شرائعـه، ويشاركهـم في علمهم العلماء والفقهاء، فـالعالم أبـو عبيدة عبـد الحميد الجناوي أبـرز علماء جبل نفوسة أخبر الإمـام عبد الوهـاب بن عبد الرحمن بـن رستم عما فعلته خيله ودوابه من فساد في مزارع وأشجار أهل الجبل بسبب اهمال رعاته أثناء مروره مـن الجبل لتـأدية فـريضـة الحج قائلا لـه:«يـاأمير المؤمنين قد أذيـت الضعفاء والفقـراء واليتامـى بخيلك لاهمالك رعـاتك فكفها عن المضرة والا حـال بيننا وبينك هـذا، يعني السيف»(٦٧). فـأعجب الإمـام بقولـه وشكره على حـرصه واهتمامـه بأمـلاك المسلمين وعينه فيما بعد والياً على الجبل.

وبالجملـة فقدكـان رجال الحسبـة عندهـم شأنهم كشـأن غيرهـم مـن دول الاسلام، يقومون باظهـار المعروف عند زواله، وإزالة المنكر عند ظهـوره، وتعددت اختصاصاتهم حتى شملت جميـع مناحي حياة الأئمة، فكـانوا يراقبون الحمالين الذيـن يحملون الدواب فـوق ماتطيـق، ويمنعون أصحـاب الحرف من إقـامـة مصانعهـم في المدينة حتـى لاتضر سكانها، ويهبون لنجدة كل ملهوف، ويضربون على يد الظالم، لهذا كان الأئمة يختارون لها رجالاً ممن عرفوا بالصرامة والحزم والحرص على تطبيق أوامر الشريعة، وكان جهلهم من أهـل نفوسـة الجبل الـذين نـزلوا في الحاضرة تيهـرت قادمين مـن الجبل، فـلا عشائر لـه يحابونها، ولاأقـرباء كثيرون ليغضوا الطـرف عنهم عندما ينحـرفون بأعمالهم عـن أصول الشريعـة(٦٨). وقد شـاهـدهـم ابن الصغير أيـام الإمـام أبـو اليقظان، فلخـص أعمالهم بقوله: «...ثم أمر أبـو اليقظان قوماً من نفوسة يمشون في الأسـواق، فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، قالـوا: «فإن رأوا قصاباً ينفخ في شاة ليوهم النـاس بانتفاخ لحمها أنها سمينـة عاقبـوه، وإن رأوا دابة حمل عليهـا فوق طـاقتهـا انزلـوا حملها وأمـروا صاحبهـا بالتخفيف عنها، وإن رأوا قذراً في الطريق أمروا من حول الموضع أن يكنسه»(٦٩).

ومن الجدير بالذكر أن بقايا هذا النظام مازال موجوداً في بلاد ميزاب جنوب الجزائر، يقوم رجـاله بهذه المهمـة بمحض اختيارهـم دون أن يتقاضـوا أجراً من خـزينة البلـدية، فيراقبون البـاعة خوفـاً من الغش أو الاحتكـار، ويأمرون بنظـافة الشوارع مـن الأقذار، واصلاح الطـرق من الحفر، وتـرميم المباني المتـداعية، وحراسـة المدن والقرى خوفـاً من اللصوص، أو دخول العابثين إليها من الدخـلاء، ومراقبة الحمالين الذين يحملون الدواب أكثر من طاقتها وغير ذلك من الأمور الأخرى(٧٠).

وسلـك الإمام عبـد الوهـاب في تعيين رجال الشرطـة نفس المسلـك الذي سلكـه في اختيار رجال القضاء، فعين لها رجالاً اتصفوا بـالأمانة وحسن الإخلاص في العمل، وفي عهد الإمام أبو حاتم انتشر الفساد بين أفراد الـرعية، فشاع السكر فيما بينهم، وكثر وجود دنان الخمـر والخوابي في البيوت، واقتنوا الغلمان اخـداناً، وانتشر السراق وقطـاع الطرق،

فاستدعى الإمام وجهاء الحاضرة ومشايخهم وأخبرهم بماهو حاصل، وطلب منهم اختيار رئيس للشرطة، لكي يقوم بقطع دابر الفساد الذي انتشر بين الناس بسبب الحروب، وكثرت الفتن، فأشار قسم منهم باختيار شخص اسمه نكّار كان قد قتل ابنه بين يدي الإمام، ورأوا من الواجب مواساته والتخفيف عما أصابه إلى جانب مااتصف به من سداد الرأي، وقسم آخر أشار إلى ابراهيم بن مسكين الذي له صلابة في الحق، لاتأخذه لومة لائم، فعين الاثنين رؤساء للشرطة، (فقاما بكسر الخوابي بكل دار مهما علت منزلة صاحبها، وضربا بالسوط، وسجنا كل مجرم وشردوا الغلمان الأفلات في رؤوس الجبال وبطون الأودية، وحملا الناس على الجادة، فخاف المنافق، وأمن البريء، وشرد السراق وقطاع الطرق، وأمنت السبل، وسار الناس إلى بعضهم بعضاً، في أي وقت من الأوقات دون خوف أو وجل)(٧٢).

أما في طرابلس وجبل نفوسة وماتلاهما من المناطق، فلم يستطع الإمام أن ينشر الأمن فيهما مثلما كان بالحاضرة، وشغل الناس ببعضهم، ولم يقدروا على مساعدة الإمام أثناء حروبه مع الأغالبة(٧٣).

ولم تقتصر رئاسة الشرطة في الحاضرة على شخص يعين من أبناء الرعية، وإنما تجاوزتها إلى تعيين رئيس لها من أبناء الأسرة الحاكمة، ففي زمن الإمام أفلح، كان أخوه أبو اليقظان يقوم بتفقد الحراس ليلاً، فيعمل على ترتيبهم وتجهيز دوابهم، ويأمرهم بمراقبة الطرقات والضرب على أيدي المفسدين العابثين، فإن حصل شيء، يخبر أخاه في صباح اليوم التالي بما حدث(٧٤).

وكان التدريب على القتال مهنة واجبة على كل فرد منهم، حتى الصبية كانوا يدربونهم على الضرب بالقضبان بدلاً من السيوف اتقاء لشرها، حتى إذا مهروا في ضربها استخدموا الضرب بالسيوف، فكان مجتمعهم أشبه بثكنة عسكرية إلى حد ما(٧٥).

وولع الرستميون بتربية الخيل، وكان أمتع الألعاب لديهم لعب الفروسية والضرب بالسيف، وكان كل فرد منهم يظهر مهارته بها في كل مناسبة من المناسبات السارة والحربية، وكان من أبرز فرسانهم، بكر بن يبيب، وبكر بن عبد الواحد، وأيوب بن العباس. وهناك حوادث كثيرة دلت على ولعهم بالخيل، والتسلي بركوبها في أوقات الراحة، ففي أيام الإمام أبي الخطاب، كان جنده يتسابقون على ظهور الخيل في أوقات فراغهم، وفي يوم من أيام السباق، شاهدوا مايفعله عاصم السدراتي من فضائح بنساء القيروان عند غزوه لها، فأسرعوا إلى أمامهم أبي الخطاب يخبرونه بمايفعله عاصم وجنده، فقام أبو الخطاب بتجريد حملة عسكرية لانقاذ القيروان وهو يقول: «اللهم بيتك، اللهم بيتك».

ومن الأدلـة الأخرى الدالة على ولعهـم بفنون الحرب، ماطلبـه المعتزلة من فـارسهم أيوب بـن العباس بتعليم أبنـائهم على أساليـب القتال والضرب بـالسيوف، وماكـان من خـديعتهـم لـه ونجاتـه منهـم(٧٧). وكـانـوا يصفـون كل مـن يقـدر على حمل السـلاح ولايمتشقه بالنقص في الذكورية(٧٨).

ومن طرق القتـال عندهم تشكيل الصفـوف المتراصة وربط أرجلهم بعضهـا ببعض، وأخذ العهد على أنفسهم بعدم الفرار، وكانـوا في قتالهم يدورون مع المعركة حيث دارت، وسمي هـذا النوع من القتـال عندهم بمعـارك (الربد)(٧٩). وقـد يستدرجون عـدوهم لاقامة المعركـة بالقرب من الجبال ليستعينوا بها في التغلـب عليه لاسيما وإن معظمهم من سكـان الجبال(٨٠). ومـن عـادتهم في الحرب، عدم متـابعة العـدو أثنـاء فراره، وعـدم الاجهاز على الجريح(٨١).

وشارك العلماء اخوانهم المقـاتلين في ميدان القتال، واصطحب الجيـش النساء بغرض التشجيع والقتال في المعـركة إن لزم الأمر، والدليـل على ذلك ماحدث في معركـة (مانو) بالقـرب من مـدينة قنطـرارة المسماة اليوم بـ(تيجي) الـواقعة على جبـل نفوسـة في القسم الشرقي من حـدود الدولة، حيث قتـل منهم أربعمائة عالم وأسر ثمانين. أما النسـاء اللواتي صحبن الجيش فقد أوكلـن زواجهن لبعضهن بعضاً، فيما إذا وقع على احداهـن سطو من جند بني الأغلب، تقوم موكلتها بزواجها، خوفاً من الفسق بها.(٨٢)

واستخدم الجيـش طبولاً مصنـوعة أطرهـا من الخشـب أو النحاس ومغطـاة بجلود الأبعرة التي تشبـه بسمكها سمك الرق، يضربونها بعقـال من وبر يسمع على بعـد مسافة تقدر بالمشي على الأرجل ب أربـع ساعات، ولهم في ضربه طرق معروفـة لديهم يستدلون بها على الغرض المطلوب، فبمجـرد سماع الواحد منهم صوته يعـرف المراد منه؛ أما النفير أو وقف القتال في المعركة، أو إقامة الصلاة، فكان يضرب ضربات معينة تدل على دخول وقـت الصلاة، فيتـوقـف الجيش عـن السير، ويـؤذن المؤذن للصلاة، فيصلي بهم الإمـام ركعتي السفر، ثم يضرب الطبل ثانية بعد انتهاء الصلاة ايذاناً للرحيل(٨٣).

الحياة العلمية:

تمتع الأئمة الرستميون بثقافة عالية، فكان الإمام عبد الرحمن من جملة حملة العلم الخمسة التي قدمت إلى المغرب، وبفضل علمه لابفضل حسبه نال الإمامة(٨٤)، أما ابنه الإمام عبد الوهاب، فكان لـه من الخلوات العلمية الخاصة إلى جانب المجالس العلمية العامة، مما جعل طلبة العلم يتهافتون عليه للأخذ منه، مما علا من شأنه بين الناس وحفظ له مركزه كإمام للأباضية الرستمية(٨٥)، فإلى جانب ممارسته للتدريس، شجع الحركة العلمية في البلاد، وجلب إلى مكتبة المعصومة الكتب من المشرق في مختلف العلوم والفنون، كما شجع حركة التأليف، بتأليفه كتابا سماه(نوازل نفوسه) وهو مجموعة من الفتاوى التي كان علماء نفوسه يستفتونه بها، ويلاحظ من أسلوب الكتاب الفصاحة وحسن التمكن وعمق المعرفة في الشريعة، وكان يرسل الوفود إلى المشرق لشراء الكتب، فقد أرسل وفداً إلى الصرة مقر المذهب وأعطاه ألف دينار، لكن الوفد اشترى بالمبلغ ورقاً وأخذوا ينسخون عليه ماوجدوه من الكتب. ولكون مايكتبون عليه رقاً بخط عريض وكبير على طريقة الأوائل في الكتابة لذا فإن قطع الرق ملأت ثمانين غرارة—كيساً— ويبدو أنها وصلت صيفاً مما دعا الإمام إلى القيام بدراستها قبل حلول الشتاء، لأنه كان يخلع ملابسه ولايبق على جسمه سوى السروال ليزداد نشاطاً(٨٦).

أما ابنه أفلح فكانت ثقافته متنوعة، فإلى جانب فهمه لأصول العقيدة الإسلامية، كان بارعاً في الأدب والرياضيات، لكنه لم يتقن باباً من أبواب المعاملات وهو البيع والشراء الاتقان التام من وجهة نظرهم، لأنه أغفل مسألة من المسائل المختصة بالربا والبيع والشراء، أثناء مناقشة أبيه الإمام عبد الوهاب له، فمنعه من الذهاب بتجارة إلى بلاد السودان قائلاً له:«ارجع حتى تستعد لهذا الأمر وإلا أطعمتنا الحرام من حيث لاندري فرجع»(٨٧).

كما برع في قرض الشعر، من قصائده التي نظمها يحث فيها الطلبة الذين ينشدونها في المناسبات، حتى أصبحت من الأناشيد الوطنية عند أهل ميزاب، مطلعها:

العلم أبقى لأهل العلم آثاراً يرك أشخاصاً روحاً وأبكارا
أشدد إلى العلم رحلاً فوق راحلة وصل إلى العلم في الآفاق اسفارا

واصبر على دلج الأغساق معتسفاً مهامه الأرض أحزاناً وأقطارا حتى تزور رجالاً في رحالهم فضلاً فأكرم بأهل العلم زوارا ويستمر في قصيدته داعياً طلبة العلم إلى اعمال عقولهم لفهم مايحفظون ويرشدهم إلى التربية النفيسة والمران الذهني فيقول:

وأحسن الكشف عن علم تطالبه والزم دراسته سرا واجهارا ويطالب بحسن الانتقاء في اختيار تعلم العلوم فيقول:

فاطلب من العلم ماتقتضي الفروض به
واعمل بعلمك مضطراً ومختاراً واطلبه ماعشت في الدنيا

ومدتها لموقف العرض أن لاتورد النارا واجعلـه لله ولاتجعله مفخرة ولاترائي به بدوا واحضارا وهـذين البيتين الأخيريـن يدلان على انسجـام نظرة ا لأئمـة للعلوم مـع هدف الدين الحنيف.

أمـا أخت الإمـام أفلح، فقـد برعـت في العلـوم الشرعية واللغـوية إلى جـانب علـم التنجيـم(٨٩)، وبرع الإمـام يعقوب ابـن أفلح بـالعقـائد السماوية الأخـرى إلى جانـب العقيدة الاسـلامية، فحفظ الانجيـل والتوراة إلى جانب القـرآن الكريم، وكـان يستخدم علمه بما يتناسـب مع متطلبات حياتـه، فقد عرض عليه أهـل مدينة «ورجلان» الإمـامة أثناء دخوله المدينة فاراً من الفاطميين، فقال لهم قولاً مشهوراً أصبح مضرب المثل:«وهل يستتر الجمل بالغنم»، وهذا يدل على حسن تقديره للأمور(٩٠).

أما الامام أبو اليقظان محمد فقد كـان يدرس في حلقات ثلاث أنواع العلوم المختلفة. وكانت مسـاجد حواضرهم عـامرة بالعلماء، ومسجدهـم الجامع بالعاصمـة تيهرت كان مجمعاً لأهل العلم، تعقد بـه المناظرات بين الفرق، وكانت كل فرقـة تود الاجتماع بالفرقة المخالفة لها في المذهـب لتطلع على ماعندها، وامتـازت الفرق الاباضية عـن غيرها بلطف المناظرة(٩١).

وإلى جانب المناظرات العلمية، وفدت وفـود طلابية من المغرب إلى عُمان لتلقي العلم من العلماء العمانيين، ويصف أبو سعيد الكدمي ذلك بقولـه:«كان من العلامة ابن بركة في بهلا(٩٢)، وكان ابـن بركـة غنياً اشتهـر بغناه وكـان غناه ظهيراً للعلـم، ولذلـك يقصده الطلبة من عمان وغيرها، حتى قيل: ان الطلبة المغاربة كانوا لايفقدون من مقامه»(٩٣).

وعقدت حلقـات الدرس التـي يدرس فيها العلـوم المختلفة، فيجـد الطلبة فيهـا كل مايـريدون من مختلف أنـواع العلوم إلى جانب العلـوم الشرعية من تفسير وحديـث وفقه وأصـول، بـالإضافـة إلى العلـوم التطبيقيـة من فلـك وطـب وكيميـاء، وصناعـة أدويـة ورياضيـات ولم يقتصر الأمر على الطلبة فحسـب، بل تعداه إلى كـل فرد من أفـراد الأمة، فعمدوا إلى تعليم العبيد والإماء، وبخصوص الإماء ذكر الشماخي، إن إماء نفوسة كن إذا وردن إلى الغابـة للاحتطاب يتـذاكرن بمسائل كتب الإمـام الفقيه(ماطـوس) في الشريعة الإسلامية(٩٤)، أما الحرائر فكـن إلى حد ما أكثر معرفة بأسرار اللغة العـربية والدراية في العديد من الفنون، خاصة الفقهية منها، والتي تتماشى مع مايتطلبه المذهب.

ويبدو أن رعاية الأئمة للعلوم جعل منها مطلباً جماهيرياً، وهذا ماأشارت إليه المصادر الاباضيـة في بعض الحقب الـزمنية، بأنـك لاتجد قرية مـن القرى إلا وفيها مـن يفتي بها، وربما كان في كثير مـن المساكن مـن تمتع أهلها بوجـود علماء فيها، يقومـون بتعليم ذويهم وغيرهـم مـن الناس، ويحلون لهم مشاكلهـم سواء كان منها مـايتعلق بالشعائر الـدينية أو المعاملات.

أما الخطباء، فكان مـن أبرزهم ابن أبي ادريس، وأحمد التبه، وأبـو العباس بن فتحون، وعثمان بن الصفـار، وأحمد بن منصور، والذي قـال عنهم المؤرخ ابن الصغير بـأنهم جميعاً كانوا يستعملـون خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالـب، باستثناء خطبة التحكيـم، لكن الخطيب أحمد بن منصور كان قد شذ عنهم، وخطـب خطبة التحكيم الذي بدأها:«الحمد لله الذي نستعينـه ونستغفره ونؤمن بـه ونستهديه ونستنصره ونبرأ مـن الحول والقول إلا إليـه.. —إلى أن يقول— اللهـم أرض وصل على الخليفتين المبـاركين بعـد نبيِّك أبي بكـر وعمر إمامي الهدى بما عملا به من كتابك، وماأثراه من نبيّك... إلى أن يختم الخطبة بقراءة سورة(الاخلاص) وبعد اتمامها ينزل عن المنبر(٩٦).

وتمتعـت المدن الاباضيـة في الشمال بـازدهار علمـي بفضـل وفـرة العلماء بمختلـف التخصصات من هـذه المدن: تنس، والخضراء، وافكان، وبني واريغن، وستغـانم، وقلعة هوارة، ووهران، وتامزغران، وتاغربيـت، والغزة، واوزكي ومعسكر ، وشلف، والرها، وقصر الفلوس، وبيّل، ومدينة جبل توجان، وجبل لازغ، حيث برز فيها عدد من العلماء، كان من أشهرهم يهود بن قريش التاهـرتي، الذي كان متطلعاً في عدة لغات منها، البربرية والعربية والعبرانية والأرمنية والفـارسية، مما أهله بأن يصبح مرجعاً يـرجع إليه بما يسمى الآن بالبحث المقـارن في اللغات، وانشاء أسس النحو التنظيري(المقـارن) في الجنوب من الحاضرة تيهرت، وجد عدد من العلماء في مدينة تاجمون، وتاويلا، والأغواط، وورجلان، عروسة الصحراء، وأكبر حواضر المغرب وأغناها مالاً وعلماً.

أما المدن الشرقيـةمن مثل: تـوزر، ونفطة، وقابـس، وجربـة، كانت تـزخر في العلماء، وكـان من أبـرزهـم(محكـم الهواري) وابنـه هود، وأبـو عبـد الله محمد بـن عبد الله، وأبـو اليقظان، وعبد الله اللمطـي، ومحمد بن بكر، وزكريـا بن بكر الغساني، وابراهيـم بن عبد الرحمن التنسي، وأبو سهـل الفارسي، وأبو يعقوب يـوسف بن سيلوس السـدراتي، الذي أوصى ابنـه فأحسن الـوصية فقـال:«لايكن ندبـك إلى الناس أوكد مـن ندبـك لنفسك، ولايكن غيرك أسبق إلى الخير منـك، وكن للناس كالميزان، وكالسيـل للأدران، وكالسماء للماء»(٩٩). وهناك مدن كانت حلقـة وصل بين علماء المشرق وعلماء الاباضية في مختلف أرجاء الدولـة لقربها من الحدود مما سهل على علمائها الـرحيل للشرق والاختلاط بعلمائه منها: زواغة، ولبدة، وتاورغا، وسرت، وودان، وفزان ، وزويلة، وغدامس.

أما جبل نفوسة، فقد ضم مئـات القرى وعشرات المدن المزدهرة بالعلم والعلماء، كان من أبرزها كياو، وتـادلوت، ويفرن، وكان من أبرزها علماء هذه المدن، عـالم مدينة جادو، الـواقعة إلى الشمال الغـربي من مـدينة شروس، والتـي تعد العـاصمة العلميـة في الدولـة الرستمية إلى جانب العاصمة السياسية تيهرت، أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني.

وكان لقرب الجبل(١٠٠) من المشرق وحصانته التـي حمته من اعتداء الدول المجاورة له لمدة طويلة مـن الزمن، واستقرار حملة العلم الخمسة فيه لابـأس بها، قبل انطلاقهم إلى مناطـق المغرب الأخرى، كـان له أثر في تكـوين بـذور علمية نضجت وأينعـت فيما بعد، بفضل ماوجد فيه مـن علماء منهم، أبو عمران موسى بن زكريـا، وأبو عمر الشيلي، وعبد الله بن مانوح، وأبو زكـريا يحيى بن جرناز، وجابر بن سدرمـام، وكباب بن مصلح، وأبو مجبر توزين، الذي قاموا بتأليف موسوعـة اسلامية سميت بـ (ديوان الأشياخ) المكون من خمسة وعشريـن جزءاً،ولايـزال قسم مـن هذه الأجـزاء مخطوطـاً بوادي ميـزاب جنوب الجزائر(١٠١)، إلى جانب مـؤلفات أخرى أهمها كتاب الايضاح) (١٠٢)، للشيـخ عامر النفوسي المكون من ثلاثة أجزاء، يبحث في الشريعة الاسلامية، وقناطير الخيرات، للشيخ اسماعيل الجيطـالي المكون مـن ثلاثـة أجزاء والشبيـه بكتاب علـوم الديـن للغزالي الـذي يتضمن كثيراً من المعلومـات من الفلسفة الاسلامية، وعلم النفـس، والأخلاق والدين، والأدب، وكتاب (الوضع)(١٠٣) لأبي زكريا الـذي بحث في الشريعة الاسلامية أصولاً وفروعـاً. وهناك العـديد مـن المؤلفات الأخـرى لكثير من العلماء، إلى جـانب المؤلفـات الشرعية وقدوم الدعاة مـن المشرق، كل هذا ساهم مساهمة فعالة في احـداث ثورة فكرية في المغرب كله أخصبها التنافس الفكري فيما بينهم وبين غيرهـم من أتباع المذاهب والفرق الأسلامية الاخرى، ونتج عـن هذا الاخصاب ملاحم فكرية مع السنـة المالكية والمعتزلة والشيعة الفـاطمية، فقـد غلب مـذهب مـالك على افـريقية وسـاد ماعـداه من المذاهـب الأخـرى، إلا أن رجال المذهـب مـن أباضيـة وصفـريـة؛ فقد تسللـوا إلى القيروان وإلى مسجدهـا الجامع، حيث أخذ فقهـاء الاباضية في ممارسـة نشاطهم في أفريقيـة إلى أن تولى القاضي سحنـون بن الفـرات منصب القضاء فيهـا، فحظر عليهـم وبدد حلقـاتهم وأخذ بملاحقتهم(١٠٤)، على خلاف الاباضية الذين رحبوا بفقهاء وعلماء المذاهب الاسلامية الأخرى، وأخذوا في منـاظرتهم، ولم يتعرضوا لأحـد إلا من اتصف بالغلـو والمروق عن الدين، ولما كان المذهب الاباضي أقرب المذاهـب لأهل السنة، فقد تحالف علماء السنة مع علماء الاباضية لمناوءة المذهب الشيعي، وظهر هـذا الائتلاف واضحاً في ثورة أبي يزيد بن مخلد بن كيداد.

أما المعتـزلة والواصليـة، فكانت مضـاربهم بالمغـربين الأوسط والأقصى، وبلـغ عدد المقيمين منهم حول الحاضرة تيهرت مـايزيد على ثلاثين ألف من الـواصلية، وعلى الرغم من مـواقفهم السلبيـة من الـدولة الـرستمية فقـد حظوا بتسـامح دينـي إلى أبعد الحدود، فكانت المنـاظرات فيما بينهم لاتنقطع، وكان قطـب الأباضية عبد الله اللمطي لـه مواقف حميدة في جدال مع المعتزلة على نهر مينة خارج الحاضرة.

ويبدو أن المذهب الشيعي وجد طريقه إلى العاصمة تيهرت، ولكن اتباعه كانوا قلة رغم اسهاب المصادر الأباضية في الحديث عن المناظرات التي عقدت بين علمائهم وفقهاء الشيعة خاصة بعد سقوط الدولة سنة ٢٩٧/ ٩٠٩م. وكان من أبرز المناظرين يومذاك نوح بن سعيد بن زنفيل الأباضي الذي ناظر أبا تميم المعز لدين الله الفاطمي، ويستدل من هذه المناظرة على حصافة الشيخ واحترام المعز للعلماء(١٠٥)، ومما لاشك فيه أن المحاورات والمساجلات بين علماء المذهب الأباضي وشيوخ وعلماء الفرق الاسلامية الأخرى، قد أثرت الحياة الثقافية في بلاد المغرب كله، وهذا ماعبر عنه النفوسي بقوله:«...وكثرت الآراء والأقوال وانتحل البحث في المذاهب، وعظم الجدل حول مسألة الأمامة، فقام كل فريق يطلب الاختصاص بها، ويدعي أنه أولى وأحق بها، ويقيم على ذلك الحجج والأدلة»(١٠٦).

وكان لاجتهادات بعض المجتهدين أمثال فرج بن نصر المسمى(بنفاث) وتبني بعض الفقهاء أمثال يزيد بن فندين آراء الامامة المشروطة دور في تطوير الأساليب والمفاهيم الاباضية وسلك علماء المذهب مسلكاً حميداً في مساعدة الطلبة الفقراء، فكانوا ينفقون عليهم من خواص أموالهم، فقد بلغ عدد العلماء في بادية افريقية ممن ينفقون على الطلبة المحتاجين، اثنان وثلاثون عالماً، كان أبرزهم في الانفاق والايثار أبو عبيد(وشق)، وأبو زكريا الذي أنفق جل ماله على طلبته في سنين المسغبة(١٠٧).

وحث العلماء طلبتهم على التحصيل والدراسة، منهم أبو يحيى أحد علماء قابس الذي طلب من طلابه الصعودإلى مكتبة جبل دمر الموجود في مدينة تموسلت إحدى مدن الجبل، والذي قوى من عزيمتهم بقوله:«إن رجعتم إلى أهاليكم جاهلين ولم تدارسوا ماعزمتم عليه من الكتب فتكونوا علماء كنتم كمن ترك الاسلام عمداً»(١٠٨).

ونشط الأئمة ونشط معهم العلماء في ترجمة العلوم من اللغة الفارسية والرومية إلى اللغة العربية، مما أدى إلى تعلم اللغة العربية ليتسنى لكل من أراد الاطلاع على تراث اليونان والرومان والفرس وحكم الهند، فكان لابد له من معرفة اللغة العربية الفصحى، إلى جانب اتخاذها لغة رسمية في الدواوين لأنها لغة القرآن الكريم.

وعمل العلماء على نقلها إلى المناطق النائية عن طريق تدريس العلوم الشرعية، وشجع بعض المشايخ الناس على تعلمها، فقد قال الشيخ أبو زكريا النفوسي أحد مؤلفي ديوان الأشياخ بهذا الخصوص:«أن تعلم حرف من العربية كتعلم ثمانين مسألة من مسائل الفروع وتعلم مسألة من الفروع كعبادة ستين سنة، ومن حمل كتاباً إلى بلد لم يكن فيه فكأنما تصدق بألف حمل دقيقاً على أهل البلد»(١٠٩).

مما دفع طلاب العلم على مختلف مستوياتهم إلى الاعتكاف على دراستها وفهم نحوها ضبطاً لهم عند التحدث بها. لكن رغم ذلك فقد وجدت فجوات في مسيرة التعريب في

هذه الديار، ففي القرى الواقعة في المناطق النائية على رؤوس الجبال، كانت دروس الوعظ والارشاد تلقى باللغة البربرية قصد تعريف سكانها بالعقيدة الاسلامية ممن يجهلون اللغة العربية، إلى جانب تأليف المؤلفات التي كتبت بحروف عربية ذات مدلولات بربرية للاطلاع عليها عند الحاجة، كان من أبرزها كتاب(عقيدة التوحيد) (١١٠). الذ قام بترجمته للغة العربية الشيخ عمر بن جميع والذي يعد من أهم الكتب في علم الكلام.

ونتيجة لقلب الحرف العربي على الحرف البربري، فقد اندفع بعض البربر إلى الحنين للحروف البربرية في أيامنا هذه خاصة في بلاد ميزاب جنوب الجزائر إلى استخدام حرف الزين البربري في النقش، والطرز والنسيج وفي تزيين جبين المرأة والعروس به وهو على الشكل التالي( )، ويبدو مثلا تغلب الحرف تغلبت الكلمة، فاللهجات البربرية المتداولة في أيامنا هذه في المغرب تأثرت بشكل كبير في اللغة العربية، ويمكننا القول بأنها عربية بشكلها ومضمونها إلى حدما، فيكفيك كي تصبح الكلمة العربية بربرية أن تضيف إلى أولها أل التعريف وإلى أخرها تاء فتصبح بربرية، مثال ذلك الوردة الوردت، وفي جملة عمر اسكن في الدار يحولونها إلى آعَمْرَ غ تادرات)(١١١).

وهنا لابد من الحديث عن بعض الأدباء والشعراء الأباضيين، وكان من أبرزهم، بكر بن حماد التاهرتي الذي يعد من فحول الشعراء في المغرب في القرن الثالث للهجرة، والذي ولد في الحاضرة تيهرت سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥م، ورحل إلى المشرق أيام شبابه والتقى بالشاعر دعبل، وعلي بن الجهم المتوفى سنة٢٩٦هـ/ ٩٠٨م. فأخذ عنهم وتأثر بهم، ورجع إلى المغرب الأوسط—الجزائر— بعد أن تم تحصيله، وأصبح من كبار شعراء الزهد في المغرب مثلما كان أبو العتاهية في المشرق(١١٢). من شعره في الزهد قوله:

لقد جمعت نفسي فصدت وأعرضت وقد مرقت نفسي فطال حروقها.

فياأسفي من جنح ليل يقودها وضوء نهار لايزال يسوقها وأبدى المنايا كل يوم وليلة إذا فتقت لأيستطاع رتوقها ويصبح أقوام على حين غفلة ويأتيك في حين البيات طروقها.

ومن شعره في رثاء ولده:

بكيت على الأحبة إذ تولوا
ولو أني هلكت بكوا عليا

فيا نسلي بقاؤك كان ذخراً
وفقدك قد كوى الأكباد كياً

ومن شعره في وصف برد مدينة تيهرت:

وماأحسن البرد وريعانه وأطرف الشمس بتاهرت.

ومنهم، أحمد بن الفتح بن خزار، وسعد بن أشكل التاهرتي، والإمام أفلح بن عبد الوهاب، والأديب البليغ بن هرمة وغيرهم مما لايتسع المجال لذكرهم وتتبع أشعارهم وأدبهم.

هذا ماقام بـه الأئمة والعلماء ورجال الفكر من جهود طيبـة على مستوى الدولة وعلى مستوى المغرب العـربي من نشر للثقافة الاسـلامية واللغة العربيـة والعمل الدؤوب على تعريب مراكـز الفكر والحض على تعلم اللغة لفهم أسرار العقيدة، ولم يكتفـوا بذلك، بل قاموا بجهود حسنة على المستوى الخارجي مما أدى إلى التلاقح الحضاري والانماء الفكري مابين رسـل الاباضية الممثلين بـالتجار والعاملين على نشر الاسـلام في الديار السـودانية التي يتـاجرون معها، فقد قـام أبو الحسن بـن علي بن يخلف التيمجاري النفـوسي بجهود حسنة في نشر الاسلام في بلاد السـودان سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م وبفضل جهـوده أسلم ملكها بعد أن كان وثنياً، كما قـام عامل نفوسة القاضي عمروس بن فتـح الله بارسال عدد مـن العلماء إلى بلاد زغـاوة فمكثوا عنـدهم مـدة طويلـة حيث طـاب لهم المقام، كما قـام تجارهم بدور إيجابي كبير في نشره في المنـاطق السودانية الواقعة إلى الجنـوب من الصحراء، وكـان عملهم مكمـلاً لعمـل عقبة بـن نافـع، وعبـد الرحمن بـن حبيـب، وعبيد الله بـن الحبحاب الذين عملوا على نشر الاسلام بأطراف السودان فكان عمل التجار دفعاً جديداً له للمزيد من الانتشار في الداخل، حتى استطـاعوا أن يوصلوا مبادىء الدين الحنيف إلى مايسمى اليـوم ببلاد غانة،وغينيا، وفولتـا العليا، وليبيرية، والتشاد، وداهومـي، وساحل العاج، وساحل الذهب(١١٣).

الحياة الاجتماعية:

تعـددت اللهجات واللغـات في المجتمع الـرستمي بتعـدد عناصر تكـوينه فكـان إلى جانـب اللغة العربيـة الفصحى والعامية البـدوية، اللغة الفـارسية، والبربريـة والحبشية، ويظهر هذا واضحاً في الكتـاب الذي أرسله الامام عبد الوهـاب، إلى المتمردين ضد والي جبـل نفوسـة أبي عبيـدة عبـد الحميد الجنـاوني بـاللغـات التاليـة: العـربيـة، والبربريـة، والحبشية(١١٤)، لكن معظم المجتمـع الرستمي من البربر سواء كانوا مـن قبائل مكناسة وزناتة البترية، أو من قبائل صنهاجه وزويلـة ومسوفة ولمتونة البرنسيـة، التي اتحدت مع بعضها وكونت جـانب الأفارقة من السودان والعرب الذيـن لجأوا للدولة من المشرق أو من المغرب، وبقايا الروم والفرس واليهود كل هؤلاء كونوا الدولة الرستمية(١١٥).

فابـربر الزنـاتيون كانـت نسبتهم أكثر مـن البربر الكتاميين، فقبـائل زناتة البتريـة من مـاكسين، ورشفانـة ومغراوة، وبنـو راشد، وزقـارة اتخذت مـن السهول الـواقعة مـابين تلمسان وتيهرت مضارب لها، وقد عرف رجالها بركـوب الخيل وكرم الضيافة إلى جانب تميزهـم عن غيرهم بـوجود العرافـة بينهم ممن لـديهم خبرة بالاقتفاء والكيـاسة وضرب الكف(١١٦).

أما سكان جبل نفوسة ودمر، فكان بعضهم يعيش على السلب والنهب، ويسمون بـ(رهانة) وهم جماعة يركبون النجب من الإبل المعروفة بالسرعة والمضي في السير، يغيرون بها على القبائل العربية المجاورة لهم، ويعودون بالغنائم إلى مواضع سكناهم في جبل نفوسة(١١٧) ودمر، لكن البعض منهم وبالأخص من سكان السهول الواقعة مابين تلمسان وتيهرت مارسوا حياة الزراعة مثل قبائل البرانس من صنهاجه إلى جانب رعاية الماشية. وانشأوا العديد من القرى منها على سبيل المثال لاالحصر، قرية الغدير التي مكث فيها الباحث عاماً كاملاً، وقرى عديدة أخرى أنشىء بعضها على قمم الجبال، وبعضها الآخر في السهول والبطاح، إلى جانب المدن مثل، مدينة أوربي(١١٨) المسماة بالبربرية أزقي الواقعة على بوابة الصحراء القريبة من بلاد لمطة ومسوفة والبعيدة عن سجلماسة بمسافة تقدر باثنتي عشرة مرحلة وأكسية أهلها من الصوف المسمى عندهم بـ(القداور)(١١٩).

ويبدو أن نمط العيش أثر في سلوكياتهم، وقلل من التعمق في فهمهم لأصول الشريعة، فبدو جبل نفوسة، اتخذوا من ربط المساجد أمكنة لربط خيولهم، ومخازن لخزن حبوبهم قصد التبرك بها لاالاساءة إليها(١٢٠).

أما بقايا الروم ممن كانوا على دين النصرانية، فقد أسلم بعضهم بحكم اختلاطهم مع المسلمين وحسن اسلامهم مثل، أبو منصور الياس والي جبل نفوسة وأحد شيوخ الدعوة الذي كان من أصل نصراني(١٢١).

أما اليهود، فقد شكلوا على الرغم من قلتهم ثقلاً اقتصادياً كبيراً، لكن قيمتهم الاجتماعية في المجتمع مفقودة خاصة في البوادي، فقد ورد في ترجمة الشيخ أبو ذر أبان بن وسيم النفوسي، أن شيوخ الجبل شكروه لأنه رخص للنساء في ثلاث مسائل أفتى فيها• «الثالثة.. إذا عملت غزلاً قد صبغها اليهودي فسمته راين إن وضوءهن قد انتفض لسه لأن اليهودي نجس، فقال لهن أيما امرأة مست صباغ اليهودي فليس عليها إلا غسل يديها، وليس عليها إعادة وضوء»(١٢٢). لكن الفرس كانت لهم منزلة تختلف عن غيرهم، فالأئمة يرجعون بأرومتهم إلى العنصر الفارسي حسب ماروى بعض المؤرخين، لذا اعتمدوا على الفرس الموجودين في الدولة، وأطلقوا أياديهم في المجالين الاقتصادي والسياسي بمنح زعمائهم اسمى المناصب منهم، ابن وردة صاحب القيصرية المسماة باسمه، فقد كان له حرس خاص بحرس قيصرته إلى جانب تمتعه بمنصب رئيس الشرطة(١٢٣).

أما العرب الذين هربوا من حكم بني الأغلب أو من الاضطهاد المذهبي في المشرق أو المغرب، فقد عمل بعضهم في التجارة، وبعضهم الآخر كان منضو تحت لواء معين كالواصلية مثلاً، وهي احدى فرق المعتزلة التي استقرت في المنطقة الواقعة في الشمال من تيهرت والممتدة من مستغانم إلى وهران، وفي المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مدينة(تيلغمت)، وفي الصحراء وخاصة في مدينة العطفاء الواقعة إلى الجنوب من ميزاب، حيث توجد مقبرة المعتزلة الذي لازال أهلها إلى اليوم يحافظون عليها(١٢٤).

وبالجملة فقد تضافر أبناء المجتمع الرستمي في مساعدة بعضهم بعضاً بما تقتضيه سنن الشريعة من التكافل الاجتماعي، فإلى جانب الخدمات التي يقدمها بيت المال للمستضعفين من الناس، كان أغنياء الناس يقدمون قسطاً من أموالهم صدقة للفقراء والمساكين إلى جانب الزكوات التي يقدمونها بمواعيدها بكل أمانة واخلاص(١٢٥).

ويبدو أن اختلاط العناصر والأجناس المختلفة في المجتمع الرستمي ساعد بعضها بعضاً في تغيير بعض الأنماط المعيشية لبعض الفئات من المجتمع، فالبدو الأقل حضارة تأثروا بغيرهم من العناصر الأكثر تحضراً، فانتقلوا من بساطة العيش إلى الرفاهية، فبنوا القصور والأبنية الفخمة ذات القباب المرتفعة، والحمامات المتقنة، أما الفرس فقد اقتنوا الخيول، وزينوا القصور والبيوت بالستائر المزخرفة، وتنوعت الألبسة، وتعددت الأزياء عندهم وعند غيرهم من الأجناس، وفي هذا يقول ابن الصغير:«...وليس أحد ينزل بها—تيهرت— من الغرباء إلا استوطن معهم، وابتنى بين أظهرهم، لما يرى من رخاء البلد، وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانته على نفسه وماله، حتى لاترى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين ...»(١٢٦).

ومثلما نجم عن هذا الاختلاط من حسنات نجم عنه سيئات، فقد تفشت الرذيلة وكثر الفسق وشرب الخمر، وكثر اللصوص وقطاع الطرق مما أثار حفيظة الفقهاء، فثاروا على المناكر وحرضوا الأئمة على زوالها وإن بقي آثارها، لكن رغم ذلك فإن الطابع الديني الذي اصطبغ به المجتمع الاباضي كان السمة البارزة فيها، فهنالك الحج الجماعي الذي كان يقوم به أهل جبل نفوسة مصطحبين معهم نساءهم وأولادهم، حتى ولد له في ركب من ركائب الحجيج ثلاثمائة مولود ذكراً، فمابالك بعدد لم يولد له ذكر، ومن لم يولد له أصلاً، ومن ليس معهم نساء(١٢٧).

ويصف الادريسي، نزعة التدين عندهم، مبيناً أن رجالهم ونساءهم يتطهرون كل يوم عند كل صباح، ويتوضئون لكل صلاة، وثياب الجنب لايقربها الطاهر وثياب الطاهر لايقربها الجنب، وهم مضيافون يطعمون الطعام لعابر السبيل، ويقدمونه للفقراء والمساكين، أمناء على أموال غيرهم، محافظين على أعراضهم كمحافظتهم على أعراض حرمهم عادلين في أحكامهم(١٢٨).

الحياة الاقتصادية:

توجهت أنظار الأئمة الرستمية منذ البداية إلى الاهتمام بالزارعة بصفتها المقوم الأساسي للاقتصاد، وتجلى هذا الاهتمام بحسن الاختيار لموقع الحاضرة تيهرت المحاطة بالجبال وبكثرة العيون الطبيعية الموجودة فيها، وخلوها من المستنقعات، ووجود نهري مينة وتاتش اللذان يصبان في وادي شلف، ولاسيما وأن نهر مينة كان يؤدي إلى جانب الخدمات الزراعية، خدمات صناعية بإقامة الإرحاء عليه بسبب جريانه الدائم(١٢٩).

وقد وفق الإمام عبد الرحمن بن رستم باختيار موقعها بعد أن ساوم أصحاب الأرض المقامة عليها في بيعها، لكنهم رفضوا ذلك ثم عادوا واتفقوا معه بأخذ قسط من غلاتها ومايباع في أسواقها كل عام وتم انشاء المدينة سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م، وقام الإمام برسم الموقع الذي اختط فيه مسكنه وأصبح يسمى بمعسكر الجامع ومن حوله دور الحكومة والأسواق وأحاطها بسور له أربعة أبواب، وخصص لكل سوق من أسواقها نوع خاص من البضاعة، فهناك سوق الأقمشة، وسوق النحاس، وسوق الأسلحة، وسوق الصناعة، وكان أهم هذه الأسواق سوق المعصومة الذي هو بمثابة السوق المركزي الآن.

أما عن الأبواب، فكان لكل باب من أبوابها غرض معين يؤديه، فباب المطاحن؛ مخصص لنقل الحبوب وطحنها، وباب الأندلس مخصص للتجار المسافرين للأندلس عن طريق البحر بواسطة مينائها المسمى بمرسى فروخ والذي يمتاز بحصانته مما ساعد على حمايته من الأعداء، وحماية السفن من الأنواء والذي يقابله في الأندلس موانيء شاطبه، وتدمير، ومرسية، وأقلة. وباب الصفا، مخصص للنزهة والرياضة البدنية وغيرها من وسائل الترفيه، وباب المنازل مخصص للفلاحين الذاهبين إلى حقولهم وبساتينهم والعائدين إلى منازلهم بمحاصيلهم، مما أدى إلى تنظيم الحياة فيها(١٣١).

وعني الرستميون بالاستفادة من المياه فشقوا القنوات، ووزعوا جميع أنواع المحاصيل في سهول الحاضرة إلى جانب غرس الأشجار وإقامة البساتين، وعرفت المدينة عند المؤرخين بـ(بلخ المغرب)(١٣٢)، إلى جانب سهول اسرسو في جنوب تيهرت، وسهول وادي شلف والسهول الساحلية، وكل هذه السهول زرعت بالحبوب وأشجار الفاكهة وخاصة السفرجل الذي بلغت شهرته الآفاق، إضافة إلى الواحات المقامة على مياه الأمطار والآبار(١٣٣).

أما الزراعة في جبل نفوسة، فقد اعتمدت على مياه الأمطار، لكن رعي الماشية كان الغالب على معيشة سكانه، وكان لدى الدولة مراع واسعة وخاصة في المناطق المحيطة بالحاضرة، مما جعلها منتجعاً للقبائل الرعوية القاطنة في شمال الصحراء، ووصفها ابن حوقل عند زيارته لها بقوله: «أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين»(١٣٤).

وتفنن الرستميون بالأساليب الزراعية، فكانوا يبنون الأسوار حول حدائقهم وبساتينهم خوفاً من العبث بها أو دخول الحيوانات إليها. وقد يستعيضون عنها بغرز أعمدة في الأرض توصل بحبال للغرض نفسه(١٣٥)، ويبدو أن الزراعة عند الاباضية قد أصيبت بنكسة مثلما أصيب غيرها من المرافق الاقتصادية الأخرى بعد زوال الدولة، بدليل ماأشار إليه الدرجيني في كتابه الطبقات، عن نظام غراسة الأرض في واحات الجريد بقوله:«ومما حدثني به أبي عنه —رحمهما الله— أن أهل قرى تفيوس كانوا يعمرون جنات غاباتهم بالمناصفة فيكون لهم النصف من ثمرتها وللسلطان النصف، وكان كل واحد يحتال فيما يتخلص به من ذلك قبل امتداد يد عامل السلطان إليه»(١٣٦).

وإلى جانب الثروة الزراعية، كانت الدولة تعتمد اعتماداً خاصاً على التجارة، فكان التجار يحملون المنتوجات الصوفية والقطنية وأواني الزجاج، والفخار والخزف ذا البريق المعدني، والملح إلى بلاد السودان لندرته عندهم، فيبيعونه بأثمان مرتفعة ويعودون محملين بالذهب والعاج وجلو دالحيوانات، وكان أهل ورجلان أصحاب القوافل الذاهبة إلى السودان ثم حماة لها، ورحب الأئمة الرستميون وعمالهم بتجار السودان، وفتحوا لهم الأسواق وأحسنوا معاملتهم، وقدموا لهم التسهيلات التجارية فأعفوا بضائعهم وسلعهم من الضرائب والرسوم، وعامل حكام السودان الرعايا الرستميين بالمثل، فرحبوا بسفارات الأئمة وكفلوا الأمان للتجار(١٣٧).

ونشطت حركة السفن بين موانىء مدن تنس، ومستغانم، ووهران، وموانىء الأندلس، فكانت تأتي بالبضائع الأندلسية وتأخذ بالمقابل منتجات البلاد الرستمية، من منسوجات صوفية وغيرها من السلع المجلوبة من بلاد السودان من جلود وعاج(١٣٨).

وحرص الأئمة على ازدهار التجارة بتأمين السبل لحماية الأرواح والأموال، فوضعوا لها الحراس، وانشأوا الأربطة والمنازل وحفروا الآبار، وكان بعض أولادهم يرافقون القوافل لحمايتها، فقد عين الإمام أفلح ابنه أبا حاتم لحراسة القوافل الآتية من المشرق والمحملة بالبضائع والذهب خوفاً من الاعتداء عليها من قبل سفهاء زناتة الضاربين حول طرقها التجارية(١٣٩).

ومارس الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم التجارة وكان من كبار الأغنياء في الدولة، ودليل ذلك قوله:«لو لم أكن إلا أنا وابن جرني وابن زلغين لاغنينا بيت مال المسلمين مما علينا من الحقوق الشرعية»(١٤٠).

ولدينا من الروايات مايؤكد اشتغال أفلح بن عبد الوهاب، وأبي اليقظان(١٤١) محمد بن أفلح، وأبي حاتم يوسف، بممارسة التجارة إلى جانب التجار من أبناء الرعية(١٤٢).

وكانت قوافل الدولة تخرج من مدنها في المغربين الأوسط والأدنى إلى الأندلس بالشمال

وإلى مصر والقيروان في الشرق، ويعود الفضل في وصول القوافل البرية والرستمية إلى مصر، إلى قبائل هوارة ونفوسة وغيرها من القبائل الأخرى الموجودة في طرابلس والتي كانت تجوب الصحراء ذاهبة آتية محملة بالسلع التجارية وخاصة قبيلة هوارة التي كانت تقطن في المناطق الشرقية من طرابلس، والتي كانت تتولى رعاية القوافل الرستمية الذاهبة إلى السودان، ويبدو أن استقرارها في الصحراء كان لهذا الغرض، فكانت لها محطات تجارية ومعاملات مع أبناء قومها من هوارة تيهرت والأوراس. وقد نوه الإدريسي بثرائه بقوله: «...وهوارة أغنياء مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف، والعمائم، والمآزر، وصنوف من الزجاج، والأصداف، والأحجار الكريمة، وضروب من الأفاوية، والعطر وآلات الحديد المصنوع. وما منهم من يسفّر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملاً كلها موقرة»(١٤٣).

وشاركهم في هذه المهنة الواصلية التي هي فرقة من فرق المعتزلة، وشاع بينهم الغنى واليسار، ورحب الأئمة وولاتهم بتجار السودان، ففتحوا لهم الأسواق وأحسنوا معاملتهم، وقدموا لهم التسهيلات التجارية، فأعفوا بضائعهم من الضرائب والرسوم. ويرجع لويسكي أن سبب إجادة سكان جبل نفوسة للغة الكانم يعود لوجود جماعات من أهل السودان فيه(١٤٤).

وبالجملة فقد اتسع نطاق التجارة بين مدن الدولة، والدول التي تتاجر معها. إما عن طريق تبديل السلع(المقايضة) أو عن طريق الشراء بالنقد، فكانت مدينة وارجلان تزخر بالتجار الذين يتاجرون مع بلاد غانة ونقاوة(هكاره) والذين لهم دراية باستخراج معدن التبر وضربه على شكل دنانير في دار السكة بالحاضرة(١٤٥).

وعرف المجتمع الرستمي بكده ونشاطه، وحسن تقواه والتزامه بتطبيق أوامر الشريعة، فكان الأغنياء من أبناء المجتمع يدفعون زكاتهم إلى بيت المال، وكان عمال النواحي وجباة المال يوزعون هذه الزكاة على فقراء الناحية التي يأخذونها من أغنيائهم، وينوه ابن الصغير في حسن التزامهم بدفع الزكاة وتوزيعها فيقول: «يخرج أهل الصدقات أواني الطعام، ويأتون أهل النعم فيقبضون الواجب لايُظلمون ولايظلمون. فالطعام يدفع للفقراء، والشاة والبعير تباع، ويدفع منها عطاء العمال، ومابقي يوزع على الفقراء، فيخصون من في البلد ومن حولها، ويحصى مافي الأهراء من الطعام ويشتري من باقي الصدقة أكسية صوف، وجباب، وفراء، وزيت، ويدفع لأهل كل بيت بقد ر ذلك. وماأن اجتمع من الجزية والخراج وماأشبه ذلك يقطع منه الإمام لنفسه وحشمه، وقضائه، وأهل شرطته، والقائمين بالأمور مايكفيهم في سنتهم. وما فضل صرف في مصالح المسلمين(١٤٦).

وشهدت الدولة ازدهاراً اقتصادياً كبيراً بسبب ماتسمت به من سياسة التسامح مع أعدائها السياسيين والمذهبيين وترحيبها بالغرباء، الذين وفدوا عليها من كل مكان واستقروا فيها، وفي هذا يقول ابن الصغير:«وأتتهم الوفود الرفاق من كل الأمصار، وأقاصي الأقطار، فقل أحد أن ينزل بها من الغرباء إلا استوطن معهم(١٤٧).

أما عن طوائف اليهود المسمون بـ(الردهانة) والذين كانوا يعيشون في أحياء خاصة بهم—الجيتو— في العاصمة، فقد نالوا من التسامح وحرية العمل الشيء الكثير مما جعلهم يسيطرون على مناشط التجارة فيها.

هذا عن التجارة الخارجية، أما عن التجارة الداخلية، فقد وجد في المدن الاباضية مايسمى اليوم بالمعارض التجارية المحلية، كان من أبرزها مدينة الخضراء الواقعة بالقرب من مدينة مليانه في الاقليم الغربي من الجمهورية الجزائرية، حيث يعقد فيها سوق محلي تعرض فيه مختلف أنواع السلع المجلوبة من القرى المحيطة بها، ومدينة أكرا(١٤٨) المسماة بـ(كرات) الواقعة على نهر شلف القريبة من مدينة الأصنام والتي تمتاز بحصانتها فهي أشبه بقلعة حربية، حيث يعقد فيها سوق محلي كل يوم جمعة لعرض المنتجات الزراعية والمنسوجات المحلية، ومدينة مازونة الواقعة على البحر المتوسط، والتي تقع في الاقليم الغربي من الجزائر، يعقد فيها سوق محلي في يوم معلوم تعرض فيه منتجات الألبان والعسل، وهناك العديد من المدن التي تقوم بما قامت به المدن السالفة الذكر تعقد أسواق محلية فيها. ومن الملاحظ أن هذه العادة مازالت إلى يومنا هذا موجودة في أسواق مدن وقرى المغرب الكبير(١٥٠).

وبالجملة فإن الرخاء الاقتصادي انعكس على تقدم العمران في الدولة وخاصة في الحاضرة تيهرت، وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن الصغير عند اشارته للوفود القادمة من مدينة البصرة للمرة الثانية إلى الحاضرة تيهرت بقصد منح الإمام عبد الرحمن بن رستم كميات من الذهب يستعين بها في تدعيم الدولة الناشئة، فهالهم التطور الهائل الذي طرأ على عمران المدينة ويشير إلى ذلك بقوله:«فرأوا هيئتها قد تبدلت ولاح، عليها رونق المدينة واليسار، وعلت وجوه أهلها سيماء الحضارة والرفاهية، وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى، وأزينت المدينة بقصور مشيدة ودور منتظمة...»(١٥١).

ولكن يبدو أن هذا الازدهار قد أصيب بانتكاسة بسبب الحروب التي قامت بينهم وبين الفاطميين، وقضاء الفاطميين على الدولة، وفرض الضرائب الكثيرة على رعاتها، مما أدى إلى قيام الثورات ضدها التي لم تهدأ إلا عندما تخلى الفاطميون عن سياستهم التعسفية، وجنحوا إلى الاعتدال(١٥٢)فيها، إلا أن هذه الأحداث قد تركت طابعاً سلبياً على جميع الموافق الاقتصادية ومن ضمها التجارة، فقد أشار الدرجيني إلى كيفية التعامل التجاري عند أهل جربه، بأن التبايع عندهم لم يعد بالذهب، لكن بعض الفئات من

المجتمع الاباضي وخاصة قبائل هوارة البربرية بقيت تمارس عملها التجاري بعد زوال الحكم الرستمي مع البلدان السودانية مما أدى إلى انتعاشها وتحسن أحوال المعيشة بين أفرادها، ومن الجدير بالذكر أن الاباضية مازالوا إلى الآن يعتمدون على التجارة ويقومون بممارستها بشكل واسع النطاق في بلاد ميزاب جنوب الجزائر وفي جزيرة جربة بتونس(١٥٣).

أما عن العمارة، فقد كان للازدهار الاقتصادي تأثير كبير على العمارة، حيث تطاول الناس في البنيان، وقاموا بتشييد القصور والمباني الفخمة، مما دعا ابن الصغير إلى التنويه بالنهضة المعمارية أيام الإمام أفلح بقوله:«...شمخ ملكه، وابتنى القصور، واتخذ أبواباً من الحديد...إلى أن يقول فابتنى إبان وحموية القصرين المعروفين بأملاق، وابتنى عبد الواحد قصر، يعرف به اليوم»(١٥٤).

غير أنه لم يتبق من هذه المنشآت الكثيرة التي زخرت بها الحاضرة تيهرت شيء يذكر، فقد اضمحلت عقب سقوط الدولة في يد الفاطميين الذين اتخذوها ثغراً لهم أيام المهدي أبو حميد دواس اللهيصي، ثم جاء من بعده مصالة بن حبوس المكناسي، ولما تولى حميد بن يصلى قام بإعادة بناء القلعة والسور، وظلت مدينة تيهرت تنحدر نحو الهاوية بسبب الحروب الطاحنة التي كانت تدور في ساحتها إلى أن انتهت بتوجيه الضربة القاضية عليها خلال القرن السابع للهجرة.

ويبدو أن الرستميين تأثروا بالتقاليد المعمارية السورية التي برزت بشكل واضح في بناء القصبة ذات الشكل المستطيل، والمتوج بنشز له طابع حربي، أما القصبة فكان يحيط بها من الجهة الشمالية والشرقيةسور صغير، وفي داخلها فناء واسع يحوي القسم الأكبر من القصبة، ويلتصق بجدرانها من الداخل غرف تتفاوت في اتساعها(١٥٥).

وعثر رجال الآثار الفرنسيون أثناء تنقيباتهم الأثرية على مسجد بني في العاصمة تيهرت، تميز بوجود قباب بيضاوية الشكل تلتصق بعضها ببعض، أقيمت فوق بيت الصلاة ووجد في داخل المسجد ثلاثة صفوف من الدعائم الاسطوانية، كما وجد في أحد جدرانه طاقات حفر في داخلها جوفات مقوسة تعلوها أنصاف قباب مسطحة، أحدها مزين بضلوع بارزة كالفصوص تشبه إلى حد كبير جوفات قصر بالعراق، مما يدل دلالة واضحة على مدى تأثر الفن الزخرفي عند الرستميين بالفن العراقي الفارسي، كما عثرت البعثة على بقايا دور في مدينة سدراته الواقعة في الاقليم الشرقي من الجزائر على الحدود التونسية، كانت مزينة بزخارف جصية رائعة تشبه زخارف مدينة سامراء في العراق، قوامها العناصر الهندسية التي تتألف من مربعات وجامات مستديرة وفصوص، والعناصر النباتية التي تقوم على الفروع المموجة التي تتوزع فيما بينها التوريقات(١٥٦).

وبالجملة، فقد تأثـر فن العمارة الرستمي بمؤثرات فارسية عـراقية سواء كان في انشاء المدن وتخطيطها أو في انشاء المساجد والعمائر والقصور، بينما ظهر الأثر الأندلسي واضحاً في القـلاع والحصون التـي انتشرت خـارج تيهـرت ابان الصراع بين القبـائل والعنـاصر المختلفة في العصر الرستمي الأخير(١٥٧).

الخاتمة

بذل الرستميون جهوداً طيبة في نشر الثقافة الاسلامية واللغة العربية في أرجاء المغرب عن طريق الحلقات التدريسية والمناظـرة العلمية بين الفرق الاسلامية، كما اهتموا بالمرافق الاقتصاديـة من زراعـة وصناعة وتجارة قصـد انعاش بلـدهم وتحسين الأحـوال المعيشية لأفـراد مجتمعهم، وشـارك الأئمـة أفراد الـرعية في الاتجار، وهـذا الأمـر لم يكن محببـاً في الاسلام لقوله عليه السلام: «إذا اتجر الراعي هلكت الرعية».

والتزم الـرستميون حكـاماً ورعيـة بتطبيق قـوانين الشريعة الاسـلامية في معـاملاتهم التجارية، فكانـوا إلى جانب ممارستهم للتجارة يقومون بنشر العقيـدة الاسلامية في بلدان الممالك السودانية—وخاصة الوثنية منها— الذين يتاجرون معها.

ورحب الأئمة الـرستميون بالوافدين على ديـار الدولة من مختلف البقـاع، ومنحوهم الأمان على أنفسهم في أجناسها ومذاهبها.

وتميز المجتمـع الرستمي بـالشجاعـة والاقدام في الحروب، والاتقان في فنـون القتال، لكنه لم يسخر طاقاته في الجهاد ضد الكفار.

ونعمت الـدولة بالأمـن صنو العـدل إلى أن سيطرت شهوة الحكـم على أحكام ودب فيهم الخلاف والنزاع إلى جـانب الفتن والحروب مع الأغالبة، ممـا أدى إلى اضعاف البنية السياسية والعسكرية للدولة التي انعكست على جميع مرافق الحياة فيها.

ففي الوقت الذي تولى أبو اليقظان الحكم سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م، كان الأمير زيادة الله الثالث حاكماً على دولة بني الأغلب، وكانت ظروف الدولتين متشابهة تقريباً، فالإمام أبو اليقظان محمـد قام بقتل أخيـه أبي حاتـم يوسف بـن محمد من أجـل الوصـول إلى الحكم ضارباً صفحاً عـن السخط الشديد الذي سببه هذا العمـل، كما أقدم زيادة الله الثلث على

قتل المنافسين له في الامـارة من أعمامه وقتل أخيه عبد الله الأحـول، إضافة إلى الفتن التي قامت في بـداية عهده، مما سهل الأمـر على الدولة الفاطميـة التي قامت باسقـاطها في عام واحد(١٥٨) سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م، وتسرب الضعف والانحـلال إلى المجتمع الرستمي، فقل نشاط الدعاة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، مما أدى إلى ظهور بعض العوائد الاجتماعية السيئة، فقـد حدث أن أحد شيوخ المذهـب عاد بعد غياب إلى منطقتـه، فوجد أهلها قد فسـدوا وتغيرت أحوالهم، وليس بينهم نـاه ينهاهم عن غيهـم، فحاول وعظهم قائلاً:«اني رأيت فيكم ثلاث خصال كلها غير مـرضية ولاناه عنها: احداها أن نكاح السر فيكم فاش، فإذا مـر أحد منكم برجل وامرأة مجتمعين في موَضع التهمـة اشمأز قلبه فإن زجرهما على الاجتماع في موضع الريبة قالا إنا متنـاكحان فكادت أن تظهر فيكم الفاحشة بها ظهرت، والثـانية ان أحدكـم يطلق عبيده فلا يعـولهم ولايمونهم، ويكلفهم معـاشهم فيطلقون في أمـوال الناس على غير رضا أصحـاب المال ولا عن اذنهم فيكاد أحـدكم أن يكون سارقـاً وهو في محرابه جالساً، والثـالثة أنكم أظهرتم فيما بينكـم التحزب والتفرق، فطائفة منكم يقولـون مسجدنا ومسجدكم، وطائفة منكم يقـولون حضرتنا وحضرتكم، ويهودينـا ويهوديكم، فلـم يجدوا جوابـاً في مجمعهم ذلـك لأنهم تواعـدوا ليجاوبـوه فلما أبطأوا استرابهم فارتحل عنهم مـن يومه»(١٥٩). لكن هذه المناكـر سرعان ماقضي عليها، بفضل جهـود الشراة من العلماء والأعيان، الـذين دأبوا منـذ قيام الدولـة وبعد زوالها إلى يومنـا هذا في المحافظة على القيـم الاسلامية وغـرسها في نفوس أبناء المجتمـع الاباضي، بتربيتهم التربية الاسلامية الصحيحة، في تحفيظهم القرآن الكريم وتعليمهم أصول الدين الذي يساعدهم على تقويم نفوسهم وحسن معاملتهم مع اخوانهم المسلمين.

نتائج البحث

١—توصل البحث إلى أن التعددية في الآراء كانت مطبقة في الدولة الرستمية.

٢—توصل البحث إلى عدم التمييز بين أبناء الأمة الاسلامية الواحدة، سواء كانوا من أصحاب المذهب أو من دونه مع المحافظة على حقوقهم.

٣—اشترط بالامام العلم في الأمور الشرعية، والالتزام بها، والاعلان عن هذا الالتزام عند تولي الحكم.

٤—استخدم الأئمة سياسة التوازن بين العناصر المختلفة في الدولة، وإثارة الفتنة بينها إن لزم الأمر محافظة على عروشهم.

٥—على الرغم من حرصهم على تطبيق الأحكام الاسلامية، إلا أنهم مالوا إلى المباهج الدنيوية أحياناً، فكان لديهم مواكب ذات أغراض متعددة.

٦—تعاونوا مع أعدائهم التقليديين—الأمويين في الأندلس—ضد الأغالبة الممثلين للعباسيين.

٧—ازدهر الاقتصاد في عهدهم خاصة التجارة حيث برعوا فيها، ومازالوا إلى يومنا هذا يتقنون هذا الفن من فنون الحياة إلى جانب اتقانهم للصناعات التقليدية خاصة صناعة الزرابي، التي مازالت مدينة غرداية تتميز بصناعتها لها عن بقية المدن الأخرى في ا لجزائر.

٨—شهدت البلاد في عهدهم نهضة علمية مباركة خاصة في مجال اللغة والدين، وظهر التعاون الشعبي واضحاً في هذا الميدان في بناء المؤسسات العلمية ومساعدة أبنائها من الطلبة.

٩—حرص رجال الشرطة(المحتسبة) وأعيان الأمة في إزالة المنكر، بتشجيع من الحكام والعلماء الذين كانوا باستمرار يحثون الناس على هذا العمل.

١٠—العمل باستمرار على تدريب الأبناء على القتال، ووجود ميادين للسباق والطعان، ولكن المؤسسة العسكرية كانت مرتبطة بقواعد فقه المذهب أكثر مما هي مرتبطة بالواقع المتغير.

١١—مساعدة أبناء المجتمع لبعضهم البعض مما تقتضيه سنن الشريعة من التكافل الاجتماعي فإلى جانب الخدمات التي يقدمها بيت المال للمستضعفين من الناس، كان الاغنياء يقدمون قسطاً من أموالهم صدقة للفقراء والمساكين إلى جانب الزكوات التي يقدمونها بمواعيدها بكل أمانة واخلاص.

الهوامش

١) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب الاسلامي، ليبية، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانية مطابع دار العودة بيروت، د—ت، ص٤٧—٥٦ .

٢) حملة العلم: أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري و عبد الرحمن ابن رستم الفارسي، عاصم السدراتي، اسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو داود القبلي. راجع، الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ت—ابراهيم طلآي، د—ت، جـ١، ص ٢٠ ، الشماخي، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، كتاب السير، ت—أحمد بن سعود السيابي، وزارة التراث القومي والثقافة، عُمان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، جـ١،ص ١١٣ .

٣) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب الاسلامي، ط—القاهرة، ١٩٧٦م، ص ١٢٨ .

٤) الشماخي، السير(سيرة علماء ومشايخ جبل نفوسة)، القاهرة، ط—حجرية، د—ت، ص ١٦٢ .

٥) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب، ط— القاهرة ١٩٦م، ص ٢١٨ .

٦) أصحابنا: يعني من الاباضية، وهي لفظة شائعة الاستعمال عند علماء الاباضية.

٧) أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر، كتاب سيرة الأئمة وأخبارهم، ت—اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية—الجزائر، سنة ١٩٣٩م، ص ١٢٥ ، ٨) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب،ص ٢١٨ .

٩) النفوسي، سليمان بن عبد الله الباروني، الازهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية، ط— دار بوسلامة للنشر والتوزيع، تونس ١٩٨٦م، جـ٢، ص ٧٠ ، ١٠ البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ط—باريس١٩١١م، ص ١٤٤ .

١١) يرى المسعودي أن الرستميين من الأشبان الذين اختلف في نسبهم فمنهم من يقول أنهم ملوك فارس الأولى، ومنهم من يذهب إلى أنهم من الأندلس اللذارقة—جميع لذريق—والمسعودي مع هذا الرأي. عن الرأي الأول، راجع، الدرجيني، الطبقات، جـ١، ص٢٠، وعن الثاني، راجع، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط—دار الأندلس—بيروت ط—٤، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١،جـ١،ص١٨٦ .

١٢) الميلي محمد، الجزائر في مرآة التاريخ، ط—مكتبة البعث قسنطينة— الجزائر ط(١) ١٩٦٥م، ص ٦٠، ديوز محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، ط(١) القاهرة ١٩٦٣م، جـ٣، ص ٣٢٠ .

١٣) النفوسي، الازهـار، ص ٤٥١ ، ابن تاويـت— محمد الطنجي، دولـة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفـة معهد الدراسات الاسلامية في مـدريد، مج٥، سنة ١٩٥٧م، ص١١٣ .

١٤) كتب الإمام الـربيع بن حبيب رئيس أهـل الدعوة الاباضيــة يومئذ في عُمان، رداً على الكتاب المرسـل مع الرسولين مـن الإمام عبد الـرحمن بن رستم، جاء فيـه:«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعـد، ياإخواننا قد بلغنا —ماكان مـن قبلكم، وفهمنا من أمر الشرط في الإمـامة، الا يقضي امـرأ دون جماعـة معلومـة، فـالامامـة صحيحـة، والشرط باطـل، ...الخ»راجع ، الشماخي، السير، ص١٢١، ١٢٢ .

١٥) النفوسي ، الازهار ، ص ١٤٣—١٤٧ ، ص ١٣٣ .

١٦) نفـس المرجـع، ص ١٦٣ ، هويكنـز، النظـم الاسـلامية في المغـرب في القــرون الوسطى، تعـريب أمين توفيق الطيبـي، الدار البيضاء—ليبية—تـونس سنة ١٩٨٠، ص ٢٤٧ .

١٧) النفوسي، الازهار، ص ١٦٢ .

١٨) نفسه، ص ٢١٤—٢١٩، وعن البيورلدي، نفسه ، ص ١٩٧ .

١٩) نفسه، ص ٢٢٣ .

٢٠) نفسه، ص ١١٤ ، ٢٦٤ .

٢١) الطبري محمد بن جـرير ، تاريخ الأمم والملوك—ط— القـاهرة ١٩٦٣م، جـ٦، ص ٢٧٥ .

٢٢) نفوسـة: بالفتح ثـم الضم والسكون، وسين مهملـة جبال في المغرب تقـع غرب ليبية، ينبت منها الشعير الذي يعد دقيقه من ألـذ الأطعمة، راجع، الحموي، شهاب الدين أبي عبـد الله يـاقـوت بـن عبــد الله البغـدادي، معجـم البلـدان، ط—دار احيـاء التراث العربي— بيروت، جـ٥، ص ٢٩٦ .

٢٣) النفوسي، الازهار، ص ١٥٥ .

٢٤) نفســه، ص ٨٦ . ابن الصغير المالكـي، سيرة الأئمة الـرستميين، ط — باريـس، ١٩٧٠م، ص ٥٢ .

٢٥) كان من حملته أيام الإمام أفلح العلامـة شبيه الدجي ، راجع، النفوسي، الازهار، ص ١٨١—٢٨٢ .

٢٦) النفوسي، الازهار، ص ١٩٨ .

٢٧) ابن الصغير، السيرة، ص ٢٦—٢٧ .

---

٢٨) من الصعب رسم خريطة محددة للدولة الرستمية، فالمصادر التي بين أيدينا لاتساعدنا على تحديدها بدقة، وقد أشارت مصادر متعددة لحدودها، لكن تعوزها الدقة. راجع، الاصطخري، ابراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي، المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦١م، ص ٢٤ ، البكري، المغرب، ص ١٤٤ .

٢٩) ابن خرذابه، عبد الله ، المسالك والممالك ، ط— ليدن— ١٨٧٢م، ص ٨٨ .

٣٠) مؤلف مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار، ت—سعد زغلول— الاسكندرية سنة ٩٥٨ ، ص ١٧٩ .

٣١) النفوسي، الازهار، ص ١٤٠ .

٣٢) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٥٠٠ .

٣٣) النفوسي، الأزهار، ص ١٤٩ .

٣٤) نفسه، ص ٢٣١—٢٣٤،٢٣٧—٢٣٨ .

٣٥) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد، العبر...، ط—بولاق، سنة ١٢٨٤م، جـ٤، ص ٤٣١ .

٣٦) ابن عذاري، أبو عبد الله محمد، البيان المغرب في أخبار المغرب، ط— بيروت، ١٩٥٠م، جـ١، ص ١٥٨ .

٣٧) ابن الداية، المكافأة ، القاهرة سنة ١٩١٤م، ص ٦١، النفوسي، الازهار، ص ٢٥٧—٢٥٨ .

٣٨) الدرجيني أبو العباس أحمد، طبقات الاباضية، جـ١ ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم(١٢٥٦) ح ورقة(٤١).

٣٩) يقول علماء الأباضية:«من ترك معونة إمام العدل، فمنزلته مع المسلمين خسيسة» . راجع، الكندي، أبو بكر أحمد بن عبد الله بن موسى، المصنف، نشر—وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، جـ١، ص ١٢٧ .

٤٠) فاروق عمر، التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين (دراسات نقدية في تفسير التاريخ) دار اقرأ ، بيروت، ط(٢)، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م) ابن خلدون ، العبر، دار العلم ، بيروت، د—ت،جـ٤،ص ١٣٠—١٣١ .

٤٢) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٤٧٢ .

٤٣) يستعمل مصطلح غرب افريقية مرادفاً لمصطلح البلاد السودانية ، وذلك لأن الاسلام انتشر في هذه لفترة في حزام السافنا والساحل الصحراوي من غرب افريقية بالاضافة إلى الساحل ويشار إلى هذه المناطق في المصادر الاسلامية بالبلاد السودانية، عن التعريف، راجع، I.U.A. Musa(On THE NATURE of Islamization and Islamic reform movements in Bild assudan up to skoto Jihad Dirasat, The University of Jordan, 1979, No: 1. R 27. n. 1.

٤٤) ابن سعيد، علي بن موسى بن محمد، المغرب في حلي المغرب، ط(٢) القاهرة ١٩٦٤م، جـ١، ص ٥٤٨، اليعقوبي، أحمد أبي يعقوب بن واضح، البلدان، ط—ليدن،١٩٨٢م، ص ٣٥٣ .

٤٥) ابن القوطية، محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم، تاريخ افتتاح الأندلس—القاهرة، د—ت، ص٩١—٩٢، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٥٧١، ويشهد على وجود الطائفة الأندلسية تسمية أحد أبواب المدينة الأربعة باسم (باب الأندلس) ، راجع ، اليكري، المغرب، ص٦٦، النفوسي، الازهار، ص ٢٧ .

٤٦) إلى جانب أن التعاون بين الأمويين والرستميين كان يرمي إلى خصومة الأغالبة، كذلك كان من أهدافه اضعاف الأدارسة، والحد من انتشار التشيع في الأندلس، راجع، عبدالعزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٥٦٩ ، مكي محمود علي، التشيع في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية—مدريد، سنة ١٩٥٤م، ص ١٦٤ .

٤٧) النفوسي، الأزهار، ص ١٦٤ .

٤٨) نفسه ، ص ١٦٤ .

٤٩) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٥١٣—٥١٤ .

٥٠) النفوسي، الازهار، ص ٢١٩—٢٢٠ .

٥١) نفسه، ص ٢٠٤ ومابعدها.

٥٣) نفسه، ص ١٦٤ .

٥٤) هم الذين باعوا أنفسهم لله، وهذا ينطبق مع قوله تعالى:(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم...)سوة التوبة، آية ١١١ .

٥٥) النفوسي، الازهار، ص ٢١٠ ومابعدها.

٥٦) نفس المصدر والصفحة.

٥٧) نفسه، ص ٢٥٢ .

٥٨) نفسه، ص ٢١٠ .

٥٩) نفسه، ص ٢٣٩—٢٤٧—٢٥٣ .

٦٠) نفسه، ص ٢٤٧ .

٦١) نفسه، ص ٣١٧ .

٦٣) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٣٢٦ .

٦٤) نفسه، ص ٤١٦—٤١٧ .

٦٥) يشترط أن يكون فيه ستة رجال فصاعد من أهل العلم بأصول الدين، والفقه، ومن أهل الورع والصلاح. راجع، الكرمي أبو سعيد محمد بن سعيد، الاستقامة، وزارة الثقافة والتراث القومي، سلطنة عمان، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ١١٢ .

٦٦) خليفات عوض محمد، النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في شمال افريقية في مرحلة الكتمان، عمان، سنة ١٩٨٢م، ص ١١٢ .
٦٧) النفوسي، الازهار، ص ١٤٣ .
٦٨) نفسه، ٢٣٩، ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٣٦١ .
٦٩) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ص ٤٢ .
٧٠) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص٣٦١—٣٦٢ .
٧١) النفوسي، الازهار، ص ٢٩٠—١٣٠ .
٧٢) نفسه، ص ٢٧٦ .
٧٣) نفس المرجع والصفحة.
٧٤) نفسه، ص ٢٢٥ .
٧٥) نفسه، ص ١٢٦ .
٧٦) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٢١٣، ٣٦٥ .
٧٧) النفوسي، الازهار، ص ١١٨ .
٧٨) كان من عادتهم حمل السلاح، ووضع السيوف على الأكتاف مثلما يفعل العرب الأولون، أو وضعها على الجنبات، راجع، النفوسي، الازهار، ص ١٢٥ ، وعن الذكورية راجع، ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٣٦٥ .
٧٩) النفوسي، الازهار، ص ٢٣٢ .
٨٠) نفسه، ص ٧٠ .
٨١) نفسه، ص ١٧٢ .
٨٢) نفسه، ص ٢٨٠ ومابعدها.
٨٣) نفسه، ص ٢٧٩ .
٨٤) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب، ص ٢٢٢ .
٨٥) نفس المرجع والصفحة.
٨٦) ديوز ، المغرب الكبير، جـ٣،ص ٣٧٢ ومابعدها.
٨٧) عملاً بقول الخليفة عمر الذي قال:كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في الحرام، راجع، النفوسي، ص ١٩٥ .
٨٨) النفوسي، الأزهار، ص ١٠٩ ، ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٣٤٧ .
٨٩) النفوسي، الازهار، ص ٢٦٤ ، أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة، وأخبارهم، تحقيق، اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية ، الجزائر، سنة ١٩٧٩م، ص ٨٩ .
٩٠) النفوسي، الأزهار، ص ٣٩٤ .
٩١) نفسه ، ص ٢٨٧ .

٩٢) بهلا، احدى مدن المنطقة الداخلية بسلطنة عُمان، تقع بالقرب من مدينة نزوى وإليها ينتسب ابن بركة، أبو محمد بن عبد الله السليمي البهلي، من علماء الاباضية المشهورين، أنشأ مدينة فيها، أشهر مؤلفاته كتاب الجامع، توفي في القرن الرابع الهجري، راجع، كتاب الجامع، ت—عيسى الباروني، طرابلس، ١٩٧٣، جـ٢،ص أ—ب من المقدمة، ووردت عند ياقوت في كتابه المعجم، جـ٥، ص ٥٦٠ ، بأنها مدينة ساحلية.
٩٣) الكرمي أبو سعيد محمد بن محمد، الاستقامة، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، جـ١،ص٥ .
٩٤) الشماخي، السير، القاهرة، المطبعة البارونية، ١٣٢٠هـ ص ٥٤٥ .
٩٥) نفس المرجع والصفحة.
٩٦) النفوسي، الازهار، ص ٢٨٧ ومابعدها.
٩٧) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، الميلي، محمد مبارك، الجزائر في مرآة التاريخ، ط—مكتبة البعث قسنطينة— الجزائر ط (١) سنة ١٩٦٥م، ص ٦٣ .
٩٨) ديوز ، المغرب، جـ٣ ، ص ٣٨١ .
٩٩) نفس المرجع، ص ٣٩٢ .
١٠٠) عن علماء الجبل، ديوز، جـ٣، ص ٣٨٦ ، وعن ديوان الأشياخ، راجع نفسه، ص ٣٨٨ .
١٠١) من مؤلفات جبل نفوسة، موسوعة في الشريعة الاسلامية موسومة بـ(ديوان العزابة) ألفها عشرة من العلماء في عشرة أجزاء، ومازالت مخطوطة، في خزائن وادي ميزاب، جنوب الجزائر، عنها، راجع، ديوز ، المغرب، جـ٣، ص ٣٨٩ .
١٠٢) عن كتاب الايضاح ، راجع نفس المرجع والصفحة.
١٠٣) عن كتاب الوضع ، راجع نفس المرجع، ص ٣٩٠ .
١٠٤) المالكي، عبد الله بن أبي عبد الله، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، جـ١، القاهرة، سنة ١٩٥١، ص ٤٠٩، الدباغ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، تونس، سنة ١٣٢٠هـ جـ٢، ص ١٩٢ .
١٠٥) لما قبض على أبي نوح وجيء به إلى المعز مكبلاً بالأصفاد قال المعز:«إن القيود دخلت في رجلك بالعلم ولا تخرج إلا با لعلم». قال أبو نوح:«عسي الله أن يجعل ذلك كفارة لذنوبي، فغضب المعز». وقال:« أفنحن مسيئون فيك؟». قال أبو نوح:« قلت ليس في ذلك مايدل على اسائتك، ألا ترى أن الله يبتلي عباده، فيصبروا فيؤجروا، وليس في ذلك مايثبت الاساءة لله، فزال غضبه فطلبته العفو»، فعفى... وقربه.

وفي احدى مجالس المعز مع العلماء والفقهاء ومن بينهم أبي نوح، سأل المعز:«ماالدليل أن لهذه الصنعة صانعاً؟ أجاب جلساؤه بأجوبة غير مرضية. فقال أبو نوح:« فرأيت أبا تميم كأنه يريد الجواب». وتأدب أبو نوح وقال:«جوابك مفهوم من سؤالك، لأن الصنعة بنفسها دليل الصانع، ولا صنعة بغير صانع، فاعجب المعز بلباقته». راجع ، الشماخي، ص ٣٥٢، اسماعيل محمود ، الخوارج، ص ٣٣٤ .

١٠٦) النفوسي، الازهار، ص ١١٥ .

١٠٧) نفسه، ص ١٠٢ ومابعدها ، ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٣٩٩ .

١٠٨) ديوز، المغرب، ...، ص ٤٠٣ .

١٠٩) الشماخي، السير، ط—البارونية، ص ٤٠٢ .

١١٠) ديوز، المغرب...، جـ٣، ص ٤١٣ .

١١١) نفسه ، ص ٤١٥ .

١١٢) النفوسي، الازهار، ص ٢٧٦ ، الميلي، الجزائر...، ص ٦٣—٦٤، بونار— رابح، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م، ص ١٢٠ ومابعدها.

١١٣) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ص ٥١—٥٢، التقى الباحث أثناء إقامته في الجزائر مع أحد علماء الاباضية المعاصرين، فأكد له وجود جماعة منهم في غانة في أيامنا هذه، وأكد هذا القول المستشرق ماسكراي الذي تحدث إليه الشيخ عبد الله أحمد أحد مشائخ الاباضية وأكد له هذه الحقيقة، راجع،

Masqueray E: CHRONIQUES, Abou zakaria, Alger, 1978, p:279

١١٤) النفوسي، الازهار، ص ١٥٣ .

١١٥) اليعقوبي: أحمد بن أبي اليعقوب بن واضح، البلدان، ط— ليدن، ١٩٨٢، ص ٣٥٩ ، محمود اسماعيل، الخوارج...، ص ٢١٣—٢١٨ .

١١٦) الادريسي، الشريف عبد الله، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس المعروف بـ(نزهة المشتاق) ، ط— ليدن، ١٩٦٨م، ص ٨٨ .

١١٧) نفسه، ص ١٢٣ ، وعن النجب، مازال أهل المغرب يسمون هذا النوع من الإبل بالمهري إلى يومنا هذا، مشاهدات الباحث، كذلك أورد هذه التسمية، النفوسي في كتابه الازهار، ص ١٠٩ .

١١٨) تسمى بالبربرية آزقي، وهناك اقليم في عمان يحمل نفس الاسم مع شيء من الحريف يسمى بـ(أزكي) يمتاز بكثرة الأفلاج، عن آزقي، راجع، النفوسي، الأزهار، ص ٥٨ ، وعن آزكي راجع، ولكنسون، الافلاج ووسائل الري في عمان، تعريب—محمد أمين عبد الله، وزارة التراث ، سلطنة عمان، ١٤١٠هـ/ ١٩٨١م، ص ١٢٠ .

١١٩) النفوسي، الازهار، ص ٥٨ .
١٢٠) الجنحاني، حبيب، كتاب طبقات المشائخ، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي، دار الطليعة بيروت، ط(١). ١٩٨٠م، ص ١٠٨—١٠٩، ١١٠٤ .
١٢٢) نفس المرجع والصفحة.
١٢٣) البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ط—باريس ١٩١١م، ص ٦٨ ، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، العصر الاسلامي، القاهرة ١٩٦٦م، جـ٢، ص ٥٧٦ ومابعدها .
١٢٤) ديوز، المغرب..، جـ٣، ص ٤٨٠ .
١٢٥) النفوسي، الازهار، ص ٢٤٥ .
١٢٦) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ط—باريس، ١٩٠٧م، ص ١٢—١٣، النفوسي، الازهار، ص ٢٤٥ .
١٢٧) الجنحاني، حبيب، دراسات مغربية، ص ١٠٨—٠٩ .
١٢٨) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٢٨ .
١٢٩) نفسه ص ١٤٥، النفوسي، الازهار، ص ١٤ ومابعدها.
١٣٠) النفوسي، الازهار، ص ٣١، ديوز ، المغرب الكبير، جـ٣، ص ١٦٧ .
١٣١) نفس المرجع، ص ٢٧—٢٨، عن مرسى فروخ، راجع، البكري، المغرب... ، ص ٨١، الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٠٠ .
١٣٢) النفوسي، الازهار، ص ٧ .
١٣٣) اسماعيل محمود، الخوارج..، ص ٢١٠ .
١٣٤) ابن حوقل، ابو القاسم، المسالك والممالك ، ط— ليدن، ١٨٧٣م، ص ٨٦ .
١٣٥) النفوسي، الازهار، ص ٢٧٩ .
١٣٦) الجنحاني، كتاب طبقات المشائخ ، دراسات مغربية، ص ١٠٩ .
١٣٧) الادريسي، الشريف عبد الله، صفة أرض المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، ط—ليدن، ١٩٦٨م، ص ٨—٩، ١١—١٢، ٣٥ .
١٣٨) ابن الدلائي، أحمد بن عمر بن أنس العذري، نصوص من الأندلس من كتاب ترجيح الأخبار وتفريغ الآثار، والمسالك إلى جميع الممالك ، مدريد سنة ١٩٦٥م، ص ١٩ ، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٥٧٦ ومابعدها، أما بما يخص المنسوجات الصوفية، فمازالت النساء في غرداية ببلاد الميزاب يزاولن هذه الصنعة إلى يومنا هذا ، وتعد زرابي غرداية من أجود الزرابي في المغرب كله. مشاهدات الباحث.
١٣٩) النفوسي، الازهار، ص ٢٦٤ .

---

١٤٠) نفسه، ص ١٣٧ .

١٤١) النفوسي، الازهار، ص ٢٦٤ .

١٤٢) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ص ٥٠ .

١٤٣) الادريسي، نـزهــة المشتـاق، ص ١٣٢ ، ديــوز، المغـرب الكبير، جــ٢، ص ٣٤٨—٣٤٩ .

Lewickit: Etudes Ibadites Nord- Africaines Warszaw, 1955: p, 71 .

١٤٥) الادريسي،نزهة المشتاق ، ص ٨—٩ .

١٤٦) أبو زكريـا يحيى بن أبي بكر، كتاب الـوضع في الفقه الاسلامــي، ط— القاهرة سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، جـ١، ص ١٩٠ .

١٤٧) ابن الصغير، سيرة الأئمة، بايس، ١٩٥٨م، ص ٢٧ .

١٤٨) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجـائب الأمصار، الاسكندرية ، سنة ١٩٥٨م، ص ٢٠٢ .

١٤٩) النفوسي، الازهار، ص ٨١ .

١٥٠) نفسه، ص ٦١ .

١٥١) مشاهدات الباحث.

١٥٢) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ط—باريس، سنة١٩٥٨م، ص ١٣ .

١٥٣) الشماخي، السير، ط— حجرية، د—ت، القاهرة، ص ٣٢٠—٣٢٣ .

١٥٤) الجنحاني، كتاب طبقات المشائخ، دراسات مغربية، ص ١٠٩ .

١٥٥) النفوسي، الازهار، ص ١٨١ .

١٥٦) عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٥٧٩ ومابعدها.

١٥٧) نفس المرجع والصفحة.

١٥٨) Marçais, G: La BERBE'RIE Musulmane du Moyen AGE, Paris, 1954, p: 166 .

١٥٩) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ ١، ص ١٨٣ ، النفوسي ، الازهار، ص ١٩١ .

١٦٠) الجنحاني، دراسات مغربية، ص ١٠٨ .

التنظيم الاداري لديوان العرض
(الجند)
في عهد الدولة الغزنوية

التنظيم الاداري لديوان العرض (الجند) في عهد الدولة الغزنوية

(٣٨٨هـ/ ٩٩٨م - ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م)

اعداد
د. احمد محمد الجوارنة
استاذ مساعد
جامعة اليرموك
قسم التاريخ

مقدمة

تحاول هذه الدراسة ان تكشف للقارىء الكـريم عن طبيعة البناء الاداري والتنظيمي لديوان العرض (الجند) في الدولة الغزنـوية وذلك في عهد السلطانين محمود بن سبكتكين الغزنوي وولده السلطان مسعود بن محمود الغزنوي ، كالبحث عن طبيعة ديوان العرض وتفاعلات القادة السياسيين كالسلاطين والوزراء وغيرهـم مع هذا الديوان ومعرفة نظام السبهسـالارية(قيـادة الجيس الاقليمـي)والكتخدا مـراقب ومشرف القـادة الاقليميين، ومعرفـة نظام الجاسـوسية والمعماة ومـاترتب على ذلـك من غـرس الهيبة والقـوة للاسرة الغزنوية، كذلك دور الحجاب في الحمـلات العسكرية، والاطلاع على دور ديوان الجيش في الحفاظ على وحدة الدولة ومعرفةعلى المخاطر المحدقة بها.

ومن اهداف هذه الدراسـة ان توضح ما لاسلحة الجيش الحربية من أهميـة بالغة الأثر على تطور الدولة الغزنوية ونهضتها.

ديوان العرض (الجند):

يعتبر ديوان العرض من أكثر المؤسسات الادارية التي اخذت من سلاطين الدولة الغزنوية كل اهتمام وعناية، اذ جعلوا كل مقومات الدولة : المالية ، الادارية ، البشرية والسياسية في خدمة هذه المؤسسة، التي حققت نجاحاً كبيراً في ايصالهم لحكم المشرق من العالم الاسلامي ، وتجاوزوا كل العقبات والتحديات التي واجهتهم اثناء شروعهم بتأسيس الدولة الغزنوية على انقاض الدولة السامانية المنهارة ، وطبيعة الحكم لا يتعدى كونه ممارسة للسلوك العسكري الخالص الذي طغى على الجانب السياسي في طيلة العهد الغزنوي في حكمهم للشرق الاسلامي ، والدولة الغزنوية لا تخالف بذلك معظم الدول الاسلامية الاخرى ، اذ كانت القوة العسكرية (الجيش) هي الوسيلة الوحيدة ـ على الاغلب ـ التي دفعت بهم الى السلطة والنفوذ ، ولا نشك بان القوة العسكرية كانت من الاهداف العليا لمعظم الدول الاسلامية ، والدولة الغزنوية واحدة منها ، وتؤكد الحملات العسكرية الواسعة النطاق ذلك والتي نهض سلاطين غزنة لها كمحمود ومسعود ، حيث تمكنت من اخضاع اقاليم آسيه الوسطى وايران وافغانستان والهند ، والتي زادت على ثلاثين غزوة او معركة بقيادة السلاطين مباشرة، على الاغلب.

ويعزز هذه التوجهات العسكرية لدى الدولة الغزنوية ، ما احاط بها من ظروف سياسية وعسكرية ، اسفرت عن نشوب صراعات محتدمة في تلك المنطقة بين السلاجقة الاتراك من جهة ، وبين الدولة الغزنوية من جهةثانية، اضف الى ذلك ما يتربص بالدولة من مخاطر جراء السياسة الفاطمية التي سعت الى احتواء الشرق الاسلامي، بما فيه دولة غزنة، لذلك خف السلاطين لتأسيس قوة عسكرية ضاربة في الشرق، لم تقف امام تلك العقبات والمخاطر فحسب ، بل وصلت الى مرحلة تجاوزت فيها كل المحاولات التي هددت سلامة وأمن واستقرار دولة آل سبكتكين وحققت انتصارات متلاحقة واحتوت كل المعضلات التي ظهرت بوجهها.

واذ جعلت الدولة الغزنوية ديوان العرض محط اهتمام مستمر في الابقاء على هيبة الدولة ونفوذها في الشرق، فان الدولة لم تتوان هنيهة عن مساندة المؤسسة العسكرية ودعمها بالاسلحة المتطورة والتجهيزات والمؤن ورفدها بالكفاءات العسكرية، فلم يكن الغزنويون اول من اطلق اسم ديوان العرض على ديوان الجند، فقد سبقتهم الى ذلك الدولة العباسية . فالخلافة العباسي المأمون (١) (١٩٨هـ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣م ـ ٨٣٣م) ، اول مؤسس لديوان العرض بهذه الصفة ، ويرى شوقي أبو خليل ان الخليفة العباسي الرابع هارون الرشيد(٢)(١٧٠هـ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦م ـ ٨٠٩م) هو مؤسس هذا الديوان ، وهذا يشير الى ان الدولة العباسية قد سبقت الدولة الغزنوية في وضع ديوان العرض .

ولا يستبعد بان تكـون الدولة السامـانية،(٣) التي سبقت الغـزنويين في حكم الشرق الاسلامـي، قد تـأثرت مبـاشرة بما تعاملت معـه الدولـة العباسيـة ، في جعله مـن النظم العسكرية التي يدور رحى الحكم عليها ، وبذلـك تكون الدولتان العباسية والسامانية في اواسط آسيـة وايران ، قد حـددتا المعالم الاساسيـة لديوان العـرض، وعليه تتضح امـامنا حقيقة ان الدولة العزنوية في إتخاذهـا لهذا الاسلوب العسكري ، وجعله اساساً للحكم في الشرق ، انها بتـأثير مباشر مـن الـدولتين العباسيـة ، والسـامـانية (٤) ، اللتين سبـق لآل سبكتكين الخدمة العسكرية في صفوف قواتها المسلحة .

ونظـراً لاهميـة العرض في تـدريـب الجيـش وتنظيمـه ورفـع معنويـات الجنـد، فـان السلاطين في دولـة غزنة كـانوا يتولـون الاشراف على عرض الجند بـأنفسهم للتأكـد من سلامـة هذه المؤسسة ومـدى قوتها واستعداداتها الحربية والقتـالية، ففي معـظم المعارك والغزوات التي خاضها الجيش الغزنـوي في اواسط آسية والهند ، أشرف السلطان محمود وولده السلطان مسعود بنفسيهما على استعراض الجيش وقيادته ، ويظهر ذلك من قيادتهما لمعركـة سومنـات في الهند سنـة ٤١٦ هـ/ ١٠١٧م (٥) ، التـي قادهـا السلطان محمـود بنفسه، ومعـركة دنـدا نقان (٦) التي قـادها السلطـان مسعود الغزنـوي ضد السـلاجقة الاتـراك سنـة ٤٣١هـ/ ١٠٤٠ م والتـي هـزم فيهـا الجيـش الغزنـو.ي. (٧) فنجـد ان سلاطين غـزنة اتخذوا مـن ديوان العرض هـدفاً سـامياً لتحقيق طمـوحاتهم واحـلامهم السياسية التـوسعية وهي كما اسلفنا ، المؤسسة التـي وقفت وراء نشأة الدولـة وتأسيسها على حساب الضعـف الذى طغى على ملـوك الدولة السامـانية ، ووصول الغـزنويين الى السلطـة ، تم بمسـاعدة ودعـم القوات التـي تهيـأت لهم من تـأليفهم للقبـائل الافغانيـة والتركية الموالية، والتي ارتبطت مصالحها بهم ، كما ان انتقـال مركز النفوذ من بخارى الى غزنة ادى الى التوسع في بناء ديوان العرض.

اما علاقة السلاطين بديوان العرض ، فكـانت علاقة وثيقة جداً، الى الحد الذي جعل منهـم قادة عـامين للجيـش ، اذ تخضـع هذه المؤسسـة لاوامـرهـم وقراراتهم المبـاشرة ، حريصين يقظين على متـابعة الـديوان ومـراقبة التطور في مـؤسساتـه، فاختـاروا أن يتولى منصب ديـوان العرض اكثـر القيادات العسكـرية كفـاءة ، واحرصهـم على بقاء الـدولة الغزنـوية ، واكثرهـم طاعة واعمقهم ولاءً لـلأسرة الغزنويـة الحاكمة ، حتى ارتبـط هذا الديوان بما يتخذه السلاطين من قرارات، سواء في تعيين رؤساء العرض ، والمشرفين عليه او بترتيب دوائره المختلفة.

كـذلك مـارس وزراء الدولـة الغزنـوية دوراً بـارزاً في الاشراف على ديوان العـرض ومتابعة احتياجاته المالية والبشريـة (الجند) والاسلحة والذخيرة والمؤن والمرتبات، اضف الى ذلك، ان وزراء الـدولة كانوا محط مشـورة السلطان في إتخاذ القرارات العسكريـة وما

يتعلق بشؤون الحرب من وضع للخطط ورسم للاهداف ، ويشاركهم في ذلك العارض (قائد الجيش)وكبير الحجاب ، لدى البلاط السلطاني. (٨) وتشير بعض المصادر الى تطور هام في ديوان العرض، ويتمثل ذلك في منح السلطان الوزراء سلطات مباشرة على هذه المؤسسة العسكرية ، فشارك الوزراء في الاشراف على ديوان العرض في كثير من الاحيان ، وابدوا اهتماماً واسعاً في الشخصيات المرشحة لتقلد هذا المنصب (قائد الجيش)، بحيث لم يكن هذا الاختيار عشوائياً بل يخضع في الغالب لتمحيص ودراسة متعمقة ، فعندما تم اختيار أبي سهل الزوزني عارضاً للجيش الغزنوي، أشار الوزير احمد حسن الميمندي على رجالات الدولة ليروا رأيهم فيه من خلال مواقفه المسبقة وأعماله وخدماته في الدولة بينما كان السلطان لا يمانع الوزراء في اختيارهم قادة الجيش لثقته المطلقة بهم(٩). ونجد ما تمتع به الوزير احمد حسن الميمندي من حرية مطلقة في اختيار عارض الجيش الغزنوي. فبوساطته تم تعيين أبي الفتح الرازي قائداً للجيش، فهو الذي زين للسلطان محاسنه وكشف عن كفاءته واخلاصه ، وعمق ولائه، فوافق السلطان واصدرمرسوماً بتعيينه عارضاً للجيش الغزنوي وألبسه خلعة رئيس ديوان العرض ، وتمنطق بالمنطقة ذات السبعمائة مثقال ، وأدى له اعيان الدولة ورؤساء الجند احسن فروض الطاعة وكان كما يقول البيهقي - رجلاً قديراً كفؤاً (١٠) . ومما يدل على مكانة الوزراء في هذه الفترة ، عدم اقتصار اعمالهم على اختيار قادة الجيش ورؤساء العسكر فحسب ، بل شاركوا في اعداد الجيوش وتسييرها للفتوحات ، وأحياناً تقع عليهم مسؤولية قيادة الجيش مباشرة كما حصل للوزير احمد عبد الصمد، الذي قاد جيشاً لفتح اصفهان بعد إعداد مالزم من الجند والعمال والاسلحة والفيلة والغلمان، وذلك بأمر من السلطان محمود الغزنوي(١١).

كذلك شارك وزراء االدولة الغزنوية اعيان الدولة ومستشاريها في اعداد القوات المسلحة الاعداد اللائق بمكانتها ، لإرسالها الى مناطق التمرد التي سعت الى الخروج عن طاعة الدولة وسلطانها . ويطلعنا البيهقي على حرص الوزير احمد عبد الصمد في جعل الجيش الغزنوي في اعلى درجات الجاهزية القتالية المتواصلة ودفع مرتبات الجند نقداً ، ونجح الوزير من خلال هذه السياسة في إعادة الأمن والاستقرار لمدنية بلخ التي ثار اهلها بتحريض من التركمان على النظام الغزنوي الحاكم(١٢) . ونلاحظ ايضا ان السلطان لم يكتف فقط باشراف الوزير على الجيش، بل اضطر احياناً الى تقليده قيادة الجيوش في المعارك ، كما حصل للوزير احمد عبد الصمد الذي شن حملة عسكرية شاملة لقمع الثورة في اقليم طخارستان ، ومنحه السلطان سلطات واسعة وجعل امراء الجيش وقادته بما فيه العارض تحت إمرته في هذه الحملة ، وبذلك حقق انتصاراً كبيراً في حملته ، ونشر الامن في طخارستان ، وعملاً بالامر السلطاني ولي اقليم طخارستان الحاجب الكبير بلكاتكين(١٣).

لقد برزت مكـانة ديوان العرض من خلال الـرعاية الفائقة لمؤسسـة الجيش، فنظمت مصالح الجند ، وقام بالاشراف على مؤسسة الجيش الغزنوي، مما شكل عامل تطوورونفوذ ونهضة لـلأسرة الغزنـوية في الشرق ، وهذه الأسرة كـانت على الـدوام سبباً مـن اسباب تحقيق الانتصارات وخلق عامل الاستقرار في منطقـة مليئة بالثورات والتمردات ، متباينة العروق والاجناس في اواسط آسيه (الجمهوريات الاسلامية المستقلة) وايران وافغانستان ثم جنوب آسية (الهند).

ومما تجدر العناية بـه، ان ديوان العـرض أبـدى اهتماماً متـزايـداً في تنظيم الجيـش ، فأضحى مـن المؤسسات التي احتوت على العـديد من الدوائر والـوظائف الادارية ذات الطـابع العسكـري الخالص ، كعـارض للجيش ، والسبهسـالار (القائد الاعلى للجيـش الاقليمي) والكتخدا (المراقـب الامني للجيش الاقليمي) ، وبريـد الجيش ، ونظام المعماة والجاسوسية ، هذه النظم وغيرها سيتناولها البحث إبانة وتوضيحاً.

العارض (صاحب ديوان الجند) :

العارض ، قائد الجيـش (رئيس ديوان الجند) علم مـن اعلام الدولة المتنفـذة بل ومن اعظمها مكانة عند السلطان الغزنوي ، اوكـل اليه نفقات الجيش وارزاق الجند ، وكان له الحل والعقـد والاثبات والاسقـاط (١٤) . والحقيقـة ان رئاسة ديـوان الجنـد في الدولـة الغزنوية لا تختلـف من حيث الاهمية والمهام والاعمال والصلاحيات عنهـا في بقية الدولة الاسلاميـة الاخرى ، فهي كبيرة الشبـه بانظمة الـدولة العباسيـة ، ولا نشك بان الـدولة الغزنـوية تـأثرت الى حـد كبير باسلـوب العباسيين والسـامانيين العسكـري والاداري ، ولذلك نجدها تعتمد نفس الشروط والمواصفات في اختيار العارض (١٥) .

والسلطان في الدولة الغزنوية كـان القائد الاعلى للجيش ، فتقع عليه مهمة الاشراف المباشر في ادارة هذه المؤسسة ، واختيار من هو أهـل لقيادة الجيش ، واقدرهم واخلصهم لتحمل أعباء المسؤولية ونذكر هنا ، ان السلاطين في هذه الدولة ، قادوا الجيوش بانفسهم في معظم المعارك واخطرها التي قامت بها الدولة الغزنوية في الشرق.

كان صاحب ديوان العرض من اكثر الشخصيات حظوة واهمية لدى البلاط السلطاني ، وكان سلاطين غـزنة يدركون خطـورة هذه المسؤولية، فلـذلك كان من يقـع عليه تمثيل هـذا المنصب الهام ، الاتصـاف بمواصفـات فريـدة لا يمكن تـوافرهـا إلا في النخبة مـن الرجال والقادة ، فجعلوا العلم والمعرفة والكفاءة والقدرة التنظيمية والشجاعة والاقدام، علاوة على الانتماء المتجـذر والولاء المطلق الصريـح للاسرة الحاكمة ، مـن الشروط التي ينبغي ان تلازم شخصية مـن يتولى ديوان العرض ، لان مصير الدولة معقـودة بيده وبقاء هيبة الملك وسيـادة الأسرة الغزنوية مـرتبط بوفائهـم واخلاصهم ومن هنـا، ندرك اهمية منصب ديـوان العرض، خصوصـاً عندمـا نطلع على المهام الكبيرة والمسـؤوليات الكثيرة التي انيطت به :

١ ـ التدخل في حسم المعضلات وحل القضايا الخطرة ذات المساس المباشر على استقرار الدولة وأمنها(١٦).
٢ ـ المشاركة في خوض المعارك الحاسمة والمصيرية ، وقيادة المعارك بنفسه في غيبة السلطان ، كما حدث مع العارض الرازي في حرب السلاحقة في مرو(١٧).
٣ ـ الاضطلاع بمهام ترشيح الامراء لولاية العهد ، كما فعل العارض ابو القاسم كثير عندما رشح الامير محمد بن محمود الغزنوي خليفة لابيه على عرض الدولة الغزنوية(١٨).
٤ ـ المشورة في تعيين حجاب الدولة ، لاسيما حجاب السلطان ، وإبداء الرأي في تعيين الوزراء ، ونشير هنا الى دور العارض الزوزني باعادة الوزير احمد حسن الميمندي لمنصب الوزارة(١٩).
٥ ـ الاشرف على تسيير الجيوش نحو المناطق والثغور ، والاشراف على قيادات الاقاليم الاخرى(٢٠).
٦ ـ إعتبار العارض المرجع الاول في كل شأن يتعلق بامر الدولة ، إذ امسك بناصية الامور ، ونظم الجيش ورتب شؤونه الادارية وعمل على اثبات اسماء الجند واعطياتهم واختيار الاكفاء والاقدر على القتال والحرب(٢١)، فكانت اكثر خلوات السلطان مع العارض ، لانه وحده كان يصرف الامور وينهي المعاملات ويقر المصادرات(٢٢) .
٧ ـ استقبال الرسل والوفود الاجنبية بصحبة السلطان ، لا سيما رسل الخلافة العباسية ، ورسل القادة والزعماء الاتراك في اواسط آسية ، والمشاركة في معظم الاحتفالات والمآتم التي كانت تقام للأعيان والاكابر في الدولة نيابة عن السلطان(٢٣).
٨ ـ واحياناً يقوم بمهام واعمال صاحب ديوان الانشاء ، كما حصل مع العارض الزوزني عندما قام باعمال هذا الديوان بعد وفاة نصر بن مشكان على ان يبقى البيهقي (المؤرخ) نائباً عنه وخليفة له (٢٤).

عطفاً على ماسبق، يتبين ان المهام والمسؤوليات التي مارسها عارض الدولة الغزنوية ، عكست مكانته واهميته كقائد للجيش ، وابرزته ايضاً كشخصية بالغة الخطورة في نجاح سياسة الدولة الداخلية والخارجية . لهذا حرص سلاطين غزنة ، على ان يكون العارض قديراً وخبيراً وشجاعاً إضافة الى ولائه المطلق للأسرة الحاكمة ، وندرك هنا ، معنى ان تحتفل اجهزة الدولة بقادة ورؤساء ديوان العرض حيث احيطوا بهالة عظمية من الاحترام والتقدير وجعلتهم يمتازون على سائر الموظفين في الدولة ، ويكشف المؤرخ البيهقي الذي عاصر الدولة الغزنوية فترة طويلة من الزمن ، عن الاحتفالات الكبيرة التي كان يدعو اليها السلاطين بمناسبة تعيين وتنصيب العارض ، فيورد في هذا المضمون

« لما تم تعيين أبي سهل الزوزني لديوان العرض ، كـان السلطان قد أشار عليه بالتقدم نحوه ، حيث قبل الـزوزني الارض ثم انصرف، فذهب به اثنان مـن الحجاب احدهما من داخل السراي (القصر) والأخر من خارجها الى خزانه الملابس ، حيث ألبسـوه خلعة فـاخرة للغـاية اعـدت له ليـلاً ، من جملتهـا منطقة ذهبيـة بسبعمائة مثقال . ثـم مثل امـام السلطـان وادى التحية والاحترام فقـال لـه السلطان : «بـورك لـك، أذهـب الى الوزيـر ولتعمل بمشورتـه في تنظيم امور الجند، فانـه من اهم الاعمال» ، فقال ابـو سهل :« سمعاً وطاعـةً» ، وقبل الارض وذهـب رأسا الى ديـوان الخواجة (الـوزير) ثـم رجع الى داره ، فسارع اليه جميع الاكابر والاعيان والحشم والموالي وحملوا اليه مالاً كثيراً»(٢٥).

لم تحتفل الـدولة الغزنويـة بابي سهل الـزوزني كعارض للجيش فحسب ، بـل جعلت الدولة ذلك عرفاً رسمياً ، فاحتفلت كـذلك بابي القاسم كثير عارض الجند ايام السلطان محمود الغزنـوي ، والعارض ابو الفتح الـرازي . ويلاحظ ان الخلعة التـي تمنح للعارض واحدة، عبارة عـن منطقة ذهبية بسبعمائة مثقال (٢٦)، اضف الى ذلك ان الـدولة منحت العارض القاباً مختلفة ، فاحياناً كان ينعت بالوزير(٢٧) ، واحياناً اخرى بالخواجة (٢٨) ، وهي السائدة والشائعة ايام الغزنويين.

السبهسالارية : (قائد الجيش الاقليمي):

نلاحظ انه مع توسع الدولة الغزنـوية وامتداد نفوذها في اواسط آسية والهند ، قد دفع بسلاطين غـزنة الى وضـع نظام عسكـري متين، للمحافظـة على استقرار وأمـن الاقاليـم التابعة للـدولة ، وضمان ابقاء تلك الاقـاليم المترامية ، تديـن بالولاء والطاعـة . ولتحقيق هذا الهدف البعيـد ، باشرت الدولـة الغزنويـة بتطبيق نظـام السبهسالارية ، كقيـادة عليا للجيش في الاقاليم والولايات التابعة لحاضرة الدولة في غزنة . ويبدو ان هذا الضرب من انظمة المؤسسة العسكرية لم يكـن فريداً ، والدولة الغزنوية ليسـت اول الدول الاسلامية تطبيقاً وتنفيذاً لهذا النظام ، بل وقعت دولة آل سبكتكين تحت تأثير الدولة السامانية التي كان يخدمهـا الامير سبكتكين مؤسـس الدولة الغـزنويـة. على ان قيادة الجيـش الاقليـمي كانت احيـاناً من مهام ولاة المنـاطق والاقاليم ، لكنهـا عند الغزنويين في الأغلـب وظيفة عسكرية مستقلة تمامـاً عن سلطة ولاة الاقاليم ، فعين لها سلاطين غـزنة قادة متخصصين في الشؤون الحربية، يقومون على رعاية المؤسسة العسكرية والامنية وترتيب شؤون الجند.

ومن خلال قراءتنالرواية المؤرخ الجوزجاني، نلاحظ ان الامير سبكتكين كان قد خدم سبهسالاراً في الجيش السامانى الى جانب مهمته كأمير ،فقد اختاره الملك السامانى منصور الثاني (٩٩٧ ـ ٩٩٩) اميراً وسيهسالاراً على غزنة وما يتبعها من اراضين وذلك في العشرين من نيسان سنة ٩٧٧ م (٢٩) ،وكذلك عين ولده الامير محمود قائداً للجيش الاقليمي على اقليم خراسان سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠م(٣٠) . يوم كان في خدمة الدولة السامانية، التي اسندت اليه مهمة القضاء على أبي علي سيمجور الذي اظهر عصيانه وتمرده على الدولة السامانية ، واشاع في نخشب (من اعمال خراسان) الفساد والظلم ، ولتحقيق ذلك امرّه الملك الساماني سيهسالارية خراسان ومن يومها، لقب محمود بسيف الدولة (٣١).

ندرك من خلال الخدمة التي قدمها سبكتكين وولده محمود، سواء في اقليم غزنة ام في خراسان ، أنها اكسبتهم خبرات واسعة في معرفة النظم والمعارف العسكرية ، وتعمقت لديهم طرق المعرفة الحربية والثقافة الامنية ، هذه التجربة جاءت وليدة كفاح ونضال وشجاعة فائقة بدت ملامحها تظهر من خلال السياسة التي انتهجها محمود الغزنوي ميدانياً، في قضائه على الدولة السيمجورية التي حاولت جاهدة الخروج على السامانيين من خلال إثارة الكثير من الازمات أمامهاوخلاص الدولة السامانية من ذلك ، وعلى يد الامير محمود ، تحققت شهرته ، واصبح ذا شأن عظيم في خراسان . وهنا يشير المؤرخ البيهقي الى ان حرص الامير محمود وتعلقه بمدينة غزنة(امارة والده) حثّه وشجّعته على ارسال كل صاحب خبرة او معرفة بصناعة او حرفة من نساء ورجال خراسان الى مدينة غزنة ، فكان العالم الشهير ابو صالح التبّاني احد هؤلاء(٣٢).

تلك التجربة العسكرية والادارية التي اكتسبها الامير محمود ووالده من قبل ، وذلك قبل تأسيس الدولة ، شكلت بذلك عاملاً هاماً من عوامل نجاح الغزنويين في الاستيلاء على ارث السامانيين بكل سهولة ويسر ، سيما اذا عرفنا حالة الضعف السياسي والاداري الذي كانت تعيشه الدولة السامانية في اواخر عهدها في حكم الشرق ، ونفاذ ارادة آل سبكتكين في اقليم خراسان وغزنة، وهما من الاقاليم الهامة التي تبعت للسامانية في السابق، وتجدر الاشارة في هذا السياق ، الى ان الدولة الغزنوية بعدما قضت على السامانية، عملت على تنظيم الاقاليم والسيطرة عليها من خلال المؤسسة الادارية المتمثلة بالولاة والمؤسسة العسكرية المتمثلة بالسيهسالار ، فكانت الولايات والاقاليم كالهند ، والعراق العجمي ، والري وبلخ وطخارستان ، وخراسان ، وخوارزم ، اضافة الى افغانستان (غزنة) مقر الحكم الغزنوي ، قد ضبطت شؤونها ومواردها ، وضمنت ولاءها وطاعتها من خلال تعيين قيادات عسكرية اقليمية او مايعرف بالسيهسالار .

الهند :

نلاحظ في الاعوام (٣٩١هـ ـ ١٠٠٠م) و (٣٩٢هـ ـ ١٠٠١م)و (٣٩٦هـ ـ ١٠٠٥م) و ٣٩٨هـ ـ ١٠٠٧م) (٣٣) وغيرها ان السلطان محمود الغزنوي قاد حملاته العسكرية الواسعة النطاق على الهند لضمها الى الحكم الغزنوي ، يدفعه الى ذلك بواعث كثيرة منها ، ضعف الكيان السياسي للهند ، والباعث الديني الذي اراد من خلاله محمود نشر الاسلام في الهند بعدما ضعف شأن العرب في اقليم السند والملتان وبواعث اقتصادية اذ كانت الهند تشكل مصدراً هاماً من مصادر الأثراء المادي لما تتمتع به من خبرات كثيرة . فتحولت الهند الى ولاية اسلامية للمرة الاولى . ولاهمية الهند الاقتصادية ، سارعت الدولة العزنوية الى تنظيمها من خلال تعيين حكام اداريين وقادة عسكريين فيها ، فاقامت اريارق الحاجب الغزنوي حاكماً وسيهسالاراً على الهند ، وكان هذا القائد من غلمان السلطان محمود ، اذ خدم في بلاطه سنوات، حتى امره محمود على جيش الهند ، وادى واجبه بقمع الثورات والقوى الهندية المناوئة ، الا انه استبد بالامور مما دفع بالسلطان الى ان يطلبه للمثول في بلاطه في غزنة، لكن وفاة محمود الغزنوي منحت اريارق الحاجب فرصة الاستمرار بحكم الهند، حتى جاء مسعود سلطاناً جديداً ، وقبض عليه سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م وأودعه مكبلاً في قلعة غزنة.(٣٤) ويعلل البيهقي سبب غضب الدولة على حاكم الهند ، لأنه بدأ ينفذ عصياناً مسلحاً وسفك دماء برئية من المسلمين وغيرهم ، وقام بقهر الناس وزرع في قلوب اتباعه الخوف والذعر ، وارهقهم بالضرائب وجمع الاموال الخاصة به. (٣٥) ثم وقع اختيار الدولة على القائد احمد نيالتيكين ليتولى امارة الهند وقيادة الجيش فيها ، حيث فوض السلطان جميع امور الهند لامره ، مما دفع بهذا القائد الى القيام بحملات عسكرية واسعة في ارجاء الهند قاصداً ، اعزاز جانب الدولة الغزنوية وترسيخ هيبتها في النفوس ، وكسب شهرة ومودة لدى سلاطين غزنة .فاخضع مدينة بنارس من ولاية الكنج ، وهي من المدن التي ظلت في منأى عن الفتوحات الاسلامية ، فأثرى الجند في هذه الغزوة ، اذ حصلوا فيها على اموال طائلة.(٣٦) وقد اثار هذا الانتصار والتفوق العسكري اللذان ابداهما احمد نيالتيكين نزعة نحو العصيان والتمرد على سلاطين غزنة، (٣٧) مما أوغر صدر السلطان مسعود الغزنوي الى ا التخلص منه بشتى الطرق والوسائل ، واستمرت جهود الدولة باقصى درجاتها للقضاء عليه فقتل بعدما راهن على الاستقلال عن سلطة غزنة ، واحتفلت الدولة بهذه المناسبة احتفالاً كبيراً ، حيث دقت الطبول ونفخت الابواق ووزعت الخلع والهدايا على الناس كافة فرحاً وابتهاجاً في التخلص من عدو هدد أمن الدولة وسيادتها على الهند(٣٨).

العراق العجمي والري:

كان السيهسالار تـاش فراش ابرز القادة العسكـريين الذين انيطت بهم مهمـة الجيش الاقليمـي في العـراق العجمـي وبـلاد الري والجبـل، واعتبر مـن الشخصيـات المقـربـة للسلطان محمـود الغزنـوي (٣٩) ، وهو السبب الـذي اقنع السلطـان مسعود بـن محمود ليؤدي اعمال هـذا المنصب، مضافـاً الى ذلك الاعمال الكبيرة والنـاجحة في توطيـد الامن والاستقرار في نواحي الري. ولقد خاطبـه السلطان حينما وقع اختياره عليه لقيادة الجيش الاقليمي في الري والجبل: انـك كلما ازددت اخلاصاً في خدمتنا، امرنا لك بـازدياد المنزلة والجاه والرعاية ، فقبل تاش فراش الارض وقال: مـا كان العبد مستحقاً هذه المرتبة وهذا الجاه، وقد كان من اقـل العبيد فتفضل عليه مولاي بما يقتضيه جلالـه ، وسأبذل قصارى جهدي طـالباً التوفيـق من الله عـز وجل(٤٠). واحتفاء بتـوجه تاش فـراش الى العراق العجمي، قرعت الطبول والكوسات ونفرت الابواق (٤١) والحق به اربعة الاف فارس استطاع بهم السيطرة على الري والجبل بعدما قضى على آمال ابن كاكو وجعله واتباعه من كل الاطـراف يذعنـون اليه ولسلطان الـدولة، بالطـاعة والـولاء (٤٢). وظل منظماً لهذا الاقليم محافظاً على امنه وولائه حتى وفاته سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧

طخارستان وبلخ:

من الاقـاليم التي استقطبت اهتمام سـلاطين غزنة ، ولاسيما قربها مـن قبائل التركمان والسلاجقـة، الذين يـوقدون الفتنة وينسجون المؤامـرات بوجه الـدولة الغزنـوية سنين طويلة ، لذلك فقد اسندت الدولة قيادة جيش هذه الاقاليم لاكثر قادة الدولة العسكريين كفاءة وشجاعة وخبرة ، فكـان اشهرهم علي داية الذي عينه الـوزير احمد حسن الميمندي (٤٤). فألبـس خلعة امـارة الجيش سنة ٤٢٣هــ/ ١٨٣١م (٤٥)، متقلداً ولايـة وامارة الجيش بعد مقتـل سيهسالار ترمز وطخـارستان القائد بكتكين الذي شغـل هذا المنصب ايام السلطان محمود الغزنوي ، حيث كانت نيسابور وروستاق من اعماله ايضاً(٤٦). وقد ساهم علي داية في القضاء على السلاجقة في سرخس وعلى التركمان في ختلان، وكان سبباً في قمع تحركاتهم والسيطرة على بلادهم.

خراسان:

يعتبر هذا الاقليم من اكثر واهم الاقاليم التي خضعت للحكم الغزنوي من ناحية موقعه الجغرافي الاستراتيجي الهام وكثرة موارده الاقتصادية والزراعية ، إذ يقع بين ايران وافغانستان وتركمانستان، مما جعله يشكل اهمية بالغة ليصبح ثغراً ترتبط به سلامة الدولة الغزنوية وامنها الداخلي والاقليمي، وقد اعتبرت الدولة الغزنوية بسط النفوذ على هذا الاقليم يعني لها بداية السيادة المطلقة على الشرق، ولذلك فقد تولى السلطان محمود الغزنوي سيهسالارية اقليم خراسان سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م. قبل ان يعتلي عرش الدولة الغزنوية ، كذلك برزت قيادات عسكرية هامة لعبت دوراً كبيراً في اضفاء السيادة الاسلامية للدولة الغزنوية على الشرق، كالقائد العسكري« الغازي الحاجب» الذي اثبت مقدرته وبراعته في تنظيم جيش خراسان ، وعمل على نشر الامن والاستقرار في هذا الاقليم الذي غلب عليه طابع التمرد والعصيان ضد الدول التي تعاقبت على سيادته (٤٧)، فكانت تلك السياسة الناجحة التي ابداها الحاجب الغازي مدعاة لبروز شخصيته وشهرتها ، مما جعله من القادة المقربين للسلطان محمود الغزنوي، الا ان وشاة القصر أوغروا صدر السلطان وتسببوا في القضاء عليه(٤٨).

خوارزم:

لاتقل همية اقليم خوارزم عن بقية الاقاليم الاخرى التي خضعت لسلطان الدولة الغزنوية ، ان لم يكن اكثرها اهمية، فهو ثغر الدولة الشمالي، واخطر الثغور التي خلقت صعاباً وازمات حادة في وجه الدولة، فقد ذكر القلقشندي في انه يحيط بهذا الاقليم من الغرب بلاد الترك، وجنوباً خراسان ومن الشرق بلاد ما وراء النهر،ومن الشمال بلاد الترك ايضاً(٤٩).

انتدب السلطان محمود الغزنوي الامير التركي التونتاش والياً على هذا الاقليم الى جانب منصب قيادة الجيش الاقليمي، وذلك بعد خضوع خوارزم للسيطرة الغزنوية (٥٠) وكان التونتاش على درجة عالية من الشجاعة والاقدام وله باع طويل في فنون الجيش والادارة ، مما جعل السلطان محمود يعتمد عليه اعتماداً كلياً في معظم غزواته العسكرية التي جردها على بلاد الهند واواسط آسية، فعينه اميراً للحجاب قبل ان يتولى امارة خوارزم وقيادة جيوشها ، ومن حينها لقبه السلطان بخوارزم شاه(٥١)، فكان لنجاح التونتاش في السيطرة على اقاليم عديدة في الشرق، واخلاصه المطلق وولائه الصريح للاسرة الغزنوية ولسلطانها محمود الغزنوي ، سبباً في ان يحتفظ به السلطان

مسعود والياً وقائداً عسكرياً على اقليم خوارزم. فقد امر مسعود الغزنوي بمنحه خلعة فاخرة جداً اعظم مما كان في عهد السلطان محمود (٥٢)، من خلال الحرص الكبير على المؤسسة العسكرية متمثلة بديوان العرض والسيهسالارية. الذي ابداه سلاطين غزنة ، تظهر اهمية هذه المناصب في نجاح معظم السياسات التوسعية للدولة واعتمادها بشكل جذري على كفاءة وبراعة من يقوم بهذه المهام، من هنا ندرك المرتكزات الاساسية التي جعلها سلاطين غزنة شروطاً في غاية الاهمية لاختيار من يمثلون القيادات العسكرية في الاقاليم. فإلى جانب قوة العلاقة ومتانتها التي ربطت السلطان بهم (٥٣)، فانهم كانوا ينظرون الى اكثرهم خدمة للدولة كالعمل في الجيش ومشاركة الحملات العسكرية في الاقاليم(٥٤)،فانهم ايضاً جعلوا الكفاءة والشجاعة والشهامة شروطاً ينبغي ان تتوفر في شخص السيهسالار . لأنه سيؤدي مهاماً كبيرة ينوب في معظمها عن السلطان ، كحماية الثغور ومحاربة الخارجين والعصاة، والحفاظ على موارد الدولة المالية المتمثلة في الخراج الذي كان عماد اقتصاد الدولة الغزنوية، اضف الى ذلك تكليف بعضهم ــ كسيهسالار خراسان والعراق ــ بمراسم استقبال وتوديع رسل الخليفة العباسي القادر بالله ، كما حصل مع الحاجب الغازي سيسهالار خراسان سنة ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠م (٥٦).

كانت شخصية السيسهالار من الاهمية ما جعل (الدركاه) البلاط السلطاني يحتفي بها احتفاءً رسمياً، وجعل لذلك طقوساً ومراسم، خاصة بهم، وخلعاً مميزة اشتملت على:

« منطقة ذهبية وقبعة ذات ركنين وسرج ذهبي بألف مثقال وعشرون غلاماً ومائة الف درهم وستة افيال فحول وثلاثة اناثاً، وعشر بذلات خاصة وكوسات وراية » وجرت العادة عند سلاطين غزنة عقب الباس السيهسالار ، خلعة قيادة الجيش الأقليمي ، احضار القائد الى الدركاه (البلاط)، حيث يقابل السلطان، ويخاطبه بقوله:

« بورك لك ولنا، ان هذه الخلعة خلعة سيهسالارية (كذا) وانك تعلم ان لنا خداماً كثيرين...وانما وقع اختيارنا عليك لتشريفك بهذا المنصب الجليل لأنك خدمت في (بلاد كذا) وكنت قائدنا ، فكلما ازددت اخلاصاً في خدمتنا أمرنا لك بازدياد المنزلة والجاه والرعاية» بينما يقوم السيهسالار فوراً ويقبل الارض جرياً على عادة المراسيم المتبعة في الدولة ، ويقف مخاطباً السلطان.

« ما كان العبد مستحقاً هذه المرتبة وهذا الجاه، وقد كان من أقل العبيد، فتفضل علي مولاي بما يقتضيه جلاله ، وسأبذل قصارى جهدي طالباً التوفيق من الله عز وجل»، ثم تقرع الطبول عندما يسير السيهسالار الى الاقليم الذي يتولى قيادة الجيش فيه، وتدق الكوسات النحاسية وترتفع اصوات الابواق(٥٨).

الكتخدا:

كان الحرص الشديد على أمن الدولة الغزنويـة واستقرار مؤسستها العسكرية ، إضافة الى ما ينسج لها من مؤامرات ويحيطون من دسـائس من قبل السلاجقة والتركمان ، عاملاً رئيسياً دفع بسلاطين غـزنة الى وضع نظام عسكري غاية في الدقـة والاحكام، يعرف هذا النظام « بـالكتخدا»، الـذي يتولى مهام الاشراف الامنـي على قطاعـات الجيش ومـراقبة احوال الجنـد وارزاقهم، كما ولـه الامر المطلـق على قيادات الاقـاليم العسكـرية المتمثلـة بالسيهسـالار. فما من قـائد عسكري لأي اقليـم من اقـاليم الـدولة الا وألحق بـه كتخدا بصفته المسؤول عن تحركات القادة والجنود، اذ هي العين التي تبصر وتنفذ هذه المهام بامر رسمي من السلطان. وقد أوضح ذلك المؤرخ البيهقي الذي قال: ان الكتخدا كان يراقب (السيهسالار) وهـو الموكل بالشـؤون الخاصة لمن يلحق بـه من السيهسالاريـة ، ويكون صاحب الحل والعقد والخفـض والرفع والامر والنهي» (٥٩) ولم يجد سلاطين غـزنة بداً من اتخاذ هذا النظام اساساً من اسـاسيات الضبط الامني والعسكري لمؤسسات الجيش ، وادرك معظمهم ان الامـور لن تستقيم في الاقـاليم ما لم يمارس الكتخـدا مهامه ويـراقب الاوضاع عـن كثب (٦٠)، وذلك بسبب حـالة الاقاليـم العامة التي ابـدى الكثيرون من سكانها تمرداً وعصيـاناً على نظام الدولـة الغزنويـة القائم. ولولا حنكة هـؤلاء السلاطين وبراعتهم القيادية لكانت عاملاً يقوض اركـان الدولة ويحجم نفوذها على اكثر الاقاليم ، بالاضافة الى تمرد بعض الولاة ، والقادة العسكـريين على سيادة الدولة، فاصبحت وظيفة الكتخدا ضرورة حتميـة فرضتهـا طبيعة الظروف التـي تمر بها الدولة الغـزنويـة ، وذلك للحفاظ ما امكـن على وحدة الجيش الغزنوي، ولضمان ولاء الاقاليـم والاطراف للاسرة الغزنـوية ، لاسيما تلك الاقـاليم التي شكلـت اهمية سياسيـة واقتصادية كبرى، كـالهند ، وخراسان ، وخوارزم، التي فيها كانت ولادة القـوة الاقتصادية والعسكرية للدولة، حتى اصبح الكتخدا من اكثـر الشخصيات اهمية لدى السلطان، ورمزاًمن رمـوز الدولة الذي ارسى دعـائم قوتها وانتشار هيبتها في الشرق. وكـان سلاطين غزنة حـريصين على اختيار الثقات والاكفاء وعلى العناصر القيادية البـارزة لتنفيذ مثل هذا الدور الخطير ، حتى انهم لم يدعـوا ابناءهم ، وولاة المنـاطق وحكام الاقـاليم، مـن دون مراقبة. فقـد الحق السلطان مسعود الغزنوي الكتخـدا ابو سهل الزرزوني سنة ٤٢٤ هـ/ ٢٠٣٣ م لـلأمير سعيد بن مسعود، وامره السلطان ان يكون صاحب الحل والعقـد والخفض والرفع والأمر والنهي بيده، وأمر ولـده الامتثال والانصياع لنهج الكتخـدا وارشاداته (٦١). وتقلد أبـو سعيد سهل منصـب كتخدا وصـاحبَ ديـوان العرض فترة لـلأمير نصر بن سبكتكين، شقيـق السلطان محمـود، وقد عهـد السلطان محمـود اليه بعـد ان توفي الأمير نصر، بـالقيام على

شؤون ضياع غزنة كلها، وقد كان هذا العمل من حيث اهميته يعدل عمل صاحب الديوان في غزنة. واستمر ابو سعيد في هذه الخدمة مدة طويلة، الى ان توفي السلطان محمود ، فاسند اليه السلطان مسعود عمل صاحب ديوان العرض بالاضافة الى عمله في مباشرة الضياع السلطانية. وقد ظل خمسة عشر عاماً في مراقبة هذه الشؤون الى ان امر السلطان يوماً بمحاسبته محاسبة المستوفين فبلغت الاموال سبعة عشر الف الف درهم (٦٢). وممن تقلد وظيفة الكتخدا، طاهر الكاتب، كتخدا الجند في الري، الحق بسيهسالارية تاش فراش سنة ٤٢٤ هـ/ ١٠٣٣م (٦٣)، وابو الفتح مسعود، كتخدا الامير مودود بن مسعود(٦٤)، وعبدوس، كتخدا العسكر في خوارزم عند التونتاش(٦٥)، وسعيد الصراف، كتخدا الحاجب الغازي قائد الجيش في هراة وبلخ (٦٦)، واحمد عبد الصمد ،كتخدا علي داية سيهسالار طخارستان وبلخ (٦٧)، وابو الحسن الشيرازي، كتخدا الجيش في سيهسالارية احمد نيالتكين في الهند (٦٨).

نجحت الدولة الغزنوية بتطبيق هذا النظام، فقد حرص معظم من تولوا هذا المنصب على حماية واستقرار البلاد، ومارسوا سلطات واسعة للوصول الى ذلك الهدف، الا ان خطورة واهمية هذا المنصب البالغتين دفعتا ببعض الكتخداه الى ممارسة شتى ضروب القمع والارهاب، فانعكس سلباً على مصالح الدولة. فمنهم من لجأ بتنفيذ تلك السياسة الطائشة ويثري ثراءاً فاحشاً على حساب الجيش والدولة. ففي سنة ٤٢٤ هـ/ ١٠٣٣ م، جاءت الكتب تترى من الري بان طاهر الكاتب، كتخدا الري ونواحيها قد انغمس في اللهو والشراب والمجون ، وبلغ من تهتكه انه اخذ ينشر الورد في موسمه يوماً بشكل لم يعهد عن غيره من السلاطين . فقد كانت الدراهم والدنانير مبثوثة بين اوراق الورد وبلغ من السخف ـ كما يقول البيهقي ـ غايته حيث أمر باحضار اواني الشرب الذهبية والفضية وربطت بحبال من حرير وتمنطق بها كأنها منطقة ، ووضع على رأسه تاجاً نسج من الياسمين والورد الجوري .حتى ان قائد الجيش اقتدى به في اللهو والطرب(٦٩). وقد خشي السلطان مسعود ان تفقد الدولة هيبتها في خراسان نتيجة هذه الاعمال الخراقاء، التي بدأت من تأثير الكتخدا طاهر الكاتب، مما دفع بالسلطان الى احضاره الى مدينة غزنة، حتى لاتبلغ اخباره الاعداء، ولو انها بلغتهم وعرفوا ان التخدا المشرف على الاعمال والاموال والتدبير يعيش على هذا النحو من الفساد لن تبقى هيبة للحكم (٧٠). وقام السلطان بعزله واستبدله بابي سهل الحمدوي، لانه صاحب كفاية وحنكة وذو شهامة وله تجربة في خدمة الدولة فقال السلطان مخاطباً ابا سهل:

« إنا قد عجمنا عودك في كل ما عهدنا به اليك فوجدناك شهماً وكفؤً واهلاً للاعتماد عليك، وان اعمال الري وما والاها من اهم الاعمال ، ولا يتأتي من طاهر الكاتب القيام بها. وقص عليه احواله، ثم قال له: « إنا قد اخترناك بدلاً منه ، فانصرف وتأهب للسير

وستأمر بما ينبغي»،... فقبـل ابوسهل الارض وقال:« قد كنت اود ان استمـر بالخدمة في البلاط ولكن لارأي للخدم وانما الأمر لمولاي، فإن يـأذن لي السلطان فإني اجلس للتشور مع الوزير ابي نصر واكتب شروط العهد، واطلب كـل ما ينبغي، فانه حسبما سمعت ، قد تـأزمت الاحـوال هناك، وكتـب ابو سهـل الحمدوي شروط العهـد كاملـة في كل بـاب (وكان يجيد الكتاب) وعرض ابو نصر العهد ، فاجاب السلطان بخطه قائلاً:

« اولاً ينبغي ان يكون لابي سهل هناك جاه عريض.

ثانياً: عليه أن يكون ذا مهابة وأبهة وذا تبصر تام».

ثم امر السلطان بان تعد له خلعة ممـا يعد للوزراء ، اذ كان فيها المنطقة (الكمر) والمهر عشرة غلمان من فـرسان الترك ومائة الـف درهم ومائة ثوب، وامـر بان يخاطب بـالشيخ العميـد(٧١). وقـد بلغت مظـاهـر الاحتفـاء بالكتخـدا حـدا أظهـرت لاعيان الـدولـة ووزرائها وكبار قادتها العسكـريين عظمة الكتخدا ومدى حاجة السلطـان لخدماته . ففي يوم الثلاثاء لست خلت من جمادى الثاني سنة ٤٢٤ ه/ ١٠٣٣م لبس ابو سهل الحمدوي الخلعـة بعد الاستقبـال ، ودنـا من السلطـان وقبـل الارض وقدم لـه عقـداً من الجوهـر واجلسوه، فقال السلطان :« بورك فيك». واعطاه خاتماً عليه اسم السلطان ، وقال :« هذا خاتـم ملك العراق (العـراق العجمي والري) وضعناه في يـدك، فأنت خليفتنـا في تلك الديار والأمر لك من بعد أمرنا في الجيش والـرعية في كل ما يؤول لصالح البلاد والعباد، فسر في عملك بجنان ثابت ، فقال ابو سهل:

« سمعاً وطاعةً وسوف أبذل قصارى الجهد ملتمسـاً من الله التوفيق للوفاء بهذه الثقة الغـالية»، ثـم قبل الارض وانصرف الى بيتـه حيـث وافاه العظماء جميعـاً وادوا حق قـدره (٧٢)، ثم أمر السلطان بتعيين والده الامير سعيد سيهسالاراً على الري والعراق العجمي ويكون الحمدوي كتخداه(٧٣).

الجاسوسية والمعماة:

تنبه سلاطين غـزنة الى ضرورة احتواء الدولة الغزنـوية بأقاليمها الـواسعة واهتماماتها الكثيرة في الشرق وتوثيق عرى الوحدة السياسية لتلك الاقاليم، التي خضعت لسلطانهم في اواسط آسية والهنـد ، بوضع نظام أمنـي تمثل بنظام الجاسوسيـة والمعماة ، الذي أشرف على تنظيمه ومتابعة نشـاطاته المتشعبة السلطان والعارض. وهـذا اكسب العاملين في هذا الجهاز الامنـي اهمية فـائقة. من خـلال تحركاتها ونشـاطاتها التي شملـت كل الاقـاليم، كالهند، وافغانستان، وخراسان، وخـوارزم والعراق العجمي والري وبلاد ما وراء النهر، فتمكنت الدول من ضبط حالة الامن ، لاسيما في الثغور التي كانت تخترق من قبل الثوار

والمتمردين ، كاقليم خراسان وخوارزم، في حين لم تكن الدولة الغزنوية لتنفرد في تطبيق هذا النظام، بل ساد ذلك زمن الخلفاء العباسيين، الذين جعلوا من نظام التجسس خير وسيلة لمعاقبة ومطاردة الخارجين على سيادة الدولة(٧٤)، مما تسبب في شيوع الرهبة والخوف في صفوف المواطنين وبناء هيبة الدولة المترهلة. ولايستبعد ان تكون الدولة الغزنوية قد وقعت تحت تأثير النمط السياسي العباسي، وجعلته مؤسسة لتدعيم سلطانهم ونفوذهم في الشرق.

كان نظام الجاسوسية دقيقاً لدى الدولة الغزنوية ، وكان يرتبط بالبلاط السلطاني وديوان العرض برباط وثيق، فقد أوضح المؤرخ البيهقي في تاريخه الى اي حد كان نظام الجواسيس دقيقاً ايام السلطان مسعود الغزنوي، فيحدثنا ان السلطان مسعود حرص على بث رجاله وعيونه بين السواس الذين صحبوارسول الخليفة العباسي، متنكرين لينهوا كل ما يروه ويشاهدوه، قلّ ذلك ام كثر الى الحضرة السلطانية، ويؤكد ان السلطان مسعود كان آية في مثل هذه الامور(٧٥).

من هنا، لاحظ وزير الدولة السلجوقية نظام الملك الطوسي(ت ٤٨٥ هـ)، قوة نظام الجاسوسية لدى الدولة الغزنوية وتطوره ، فحداه ذلك الى اسداء الارشاد والنصح للسلاطين السلاجقة لينهجوا نهج الغزنوية في تطبيق نظام التجسس والمعماة، الذي افاد السلاجقة فائدة كبيرة ، ليصبح مؤسسة قوية، دعمت النظام وساهمت في سيطرته على الشرق، وأشار كذلك الى الاسلوب الذي تعاملت به الأسرة الغزنوية في توزيع الجواسيس نحو الاقاليم ، كأن يقوموا ببث العيون في كل الاطراف في زي التجار والسياح والمتصوفة وبائعي الادوية والدراويش(٧٧)، والاسكافية(٧٨)، وذلك لنقل كل ما يسمعونه من اخبار الى السلطة، لتلافي أي طارىء جديد في حينه، فما اكثر - يقول الطوسي - ما كان الولاة والمستقطعون والعمال والامراء يضمرون للملك خلافاً وعصياناً ويتربصون به الدوائر سراً، لكن الجواسيس كانوا يكشفون ذلك ويخبرون الملك به، فيأخذ للأمر اهبته ويدفعه إلى نحر المتربصين الماكرين . وتظهر لنا الروايات التاريخية التي اوردها المؤرخ البيهقي، الذي عاصر السلطان محمود وولده مسعود وخدم في بلاطهم، ان سبب تكثيف الدولة الغزنوية لنشاط الجواسيس هي ظاهرة العداء التي قادها طغرل بك السلجوقي، الذي حاول سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨م زعزعة استقرار الدولة من خلال اثارة الفتن والاضطرابات في وجه الاسرة الغزنوية ، فكان نظام الجاسوسية اداة خطيرة وبالغة الاهمية في الكشف عن نوايا السلاجقة ومعرفة اهدافهم ومخططاتهم وتحركاتهم. كذلك نجحت الدولة في معرفة القدرة القتالية للسلاجقة اضافة الى معرفة الممتلكات والمؤن وتعداد الجيش(٨٠). كذلك كانت الدولة الغزنوية تستغل جواسيس الاطراف والامراء لصالحها، فقد استطاع (ابو نصر مشكان) صاحب ديوان الانشاء، ان يوظف

جاسوساً ،بغرا خان السلجوقي، لخدمة مصالح الدولة الغزنوية ، إذ أمر الجاسوس السلجوقي بمهمة الى الهند في مدينة لاهور على ان يخفي نفسه بصناعة الاحذية وتصليحها، وكانت الدولة تمنحه اموالاً وامتعة كثيرة مقابل ذلك(٨١).

لم تكتف الدولة الغزنوية ببث ونشر العيون في الاطراف فحسب، بل اتخذت نموذجاً متطوراً في هذه المؤسسة ، فغدت تتعامل مع عملائها وعمالها بواسطة المعماة (الشيفرة)؛ اذ كان لكل معماة رموز يصطلح عليها حتى لاتعرف الا لمن يهمهم الامر، فبرع بكتابة المعماة وتحليل رموزها الكتاب الذين تولوا او شغلوا منصب ديوان البريد، سواء في العاصمة غزنة او في الاقاليم الأخرى. كذلك كان (ابو نصر مشكان) آية في معرفة المعماة وفك رموزها. ويؤكد البيهقي انه قل من لهم مثل قدرته فيها (يقصد كتابة المعماة وحل رموزها). فقد كان اكفأ وأكتب اهل زمانه(٨٢).ويشير البيهقي ايضاً الى ان السلطان مسعود الغزنوي كانت له مقدرة على كتابة المعماة، (٨٣) ومن خلال قراءتنا لنصوص تاريخ البيهقي، فاننا ندرك ان أبا الفضل، صاحب التاريخ وتلميذ ابي نصر مشكان كان خبيراً بكتابة المعماة ورموزها، وكتابته رسالة معماة للوزير احمد عبد الصمد، والتي يشير فيها الى رغبة السلطان قضاء الشتاء في الهند والتي جاء فيها: « ان هذا السلطان قد ذهل من أمر لم يقع ولن يثني العنان حتى يبلغ لاهور ، وقد بعث بالكتب سراً ليعدوا له العدة ، ويبدو انه لن يلبث في لاهور، هذا ولم يبق أحد الحرم في غزنة، وليس بها شيء من الخزائن، وقد أسقطَ في أيدي هؤلاء الاولياء والحشم المقيمين هنا، وهم جميعاً في حيرة من أمرهم، وكلهم مَعلق امره على الوزير ، فالغوث الغوث ليتدارك سريعاً هذا التصرف الاخرق، وليكتب له بصراحة فانه على بضعة منازل منا، ويستطيع ان يوضح الرأي لعله يرجع عن تفكيره السقيم(٨٤).»

وعلى الرغم من اهتمامات البيهقي وخبرته في كتابة المعماة، الا انه لم يبلغنا عن اشكال تلك الرموز بشكل صريح، بل اكتفى بنقل ترجماتها. وقد وردت تلك الترجمات كثيراً في مناسبات عديدة، نذكر منها نموذجاً آخراً على سبيل الايضاح لا الحصر، فقد ذكر البيهقي ان « اميرك البيهقي» صاحب بريد الجيش في خوارزم بعث برسالة معماة الى السلطان يبلغه فيها عن حرب الدولة مع التركمان جاء فيها:

« ان خوارزم شاه عندما شاهد جيش السلطان استولى عليه الذعر لأنه حسبه من تعبئة القائد علي تكين ، فأعد عدته واسترجع السفن من وسط جيحون ، لكن كتخداه احمد عبد الصمد أزال ما في قلبه من الهلع وقوى عزيمته ، ومع هذا كله فان خوارزم شاه يبدو مذهولاً، وقد ذهبت اليه مرات لأهدي روعه، ولعل العاقبة تكون خيراً، إذ ان المصير يبدو الآن مظلماً(٨٥).»

وغالباً ما كانت ترسل المعماة بواسطة خشب مجوف، يغطوا به رسائل صغيرة ، ثم يحكمون وضعها ويسدون الفراغ بنشارة الخشب ويلونوا قطعة الخشب بحيث يصعب تمييزها(٨٦).

بريد الجيش:

كانت حاجة الجيش الدائمة الى معرفة الاخبار عن العدو وعدد جيشه وتسليحه والطرق التي يسلكها والخطط التي يضعها، قدحدت بالغزنويين الى العناية بامور البريد. فازدادت اهمية البريد من الناحية الحربية، ونظم البريد العسكري تنظيماً دقيقاً حتى بلغ أقصى درجات رقيه وتطوره ايام السلطانين محمود الغزنوي وولده السلطان مسعود بن محمود. وقد ساهمت الظروف المحيطة بالدولة الغزنوية، لاسيما تلك التي ظهرت من جانب السلاجقة والتركمان في الاقاليم الشمالية، الى وضع بريد خاص بالجيش، لمواكبة التطورات وملاحقة العصاة ومتابعة تحركاتهم من منطقة الى أخرى.

وقد ارتبط بريد الجيش بالسلطان والوزير وعارض الجند وقائد الجيش الاقليمي، مما اضفى عليه اهمية كبيرة فاقت العديد من الدواوين والمراكز الادارية الاخرى. لذلك لم يكن سلاطين الدولة الغزنوية ولا وزراؤهم وقادة جيشهم يختارون لهذه المهمة الا من كان ثقة ، واسع الاطلاع ، وله خبرات عديدة منها: ـ

١ ـ القدرة على توظيف الحيل والخديعة في كتابة الرسائل حتى لاتعرف اهدافها اذا وقعت بيد الاعداء.

٢ ـ الالمام التام بكتابة الرسائل والمعماة (الشفرة) ومعرفة رموزها وحلها.

٣ ـ معرفة الطرق والمنافذ لاسيما طرق الاعداء ومناطق تواجدهم وتحركاتهم.

٤ ـ ان يكون ماهراً في القتال حتى لايكون عرضة للقتل او السلب بسهولة ويسر.

٥ ـ الذكاء والقوة(٨٧).

ومن خلال قراءتنا لتاريخ البيهقي، نجده قد حفل باسماء الشخصيات التي تولت هذا المنصب الهام، ونذكر هنا بعض ابرز الاسماء التي مارست مهام بريد الجيش في الدولة الغزنوية، وكان لها أبلغ الأثر في الحفاظ على احوال الاقاليم والجيوش واطلاع القيادات العليا المركزية في عاصمة الدولة غزنة في حينها، *نذكر منهم على سبيل المثال لاالحصر*: أبو سهل الهمذاني، الذي عينه الوزير احمد عبد الصمد بأمر من السلطان مسعود الغزنوي، إذ الحق بالجيش الذي قاده السيهسالار على دايه في حربه مع السلاجقة الاتراك(٨٨)، وأبو الحسن دلشاد، الذي حاز على ثقة السلطان والوزير والعارض، لما كان يتمتع به من قدرات ومواهب في معرفة الاخبار وتقصي الحقائق والحصول على المعلومات الاستخبارية الخفية؛ إذ انتدب سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥م، ليتولى بريد الجيش في معركة آمل ضد السلاجقة الاتراك(٨٩)، وأبو سعيد الصراف صاحب بريد الجيش في معركة دندانقان في خراسان، والتي قادها كبير الحجاب سوباشي وتقلد في نفس الوقت كتخدا السوباشي (٩٠)، وعين الفقيه أبا بكر المبشر، صاحب بريد الجيش بامر من السلطان ،

التحق بجيش الوزير احمد عبد الصمد الذي قاد حملة عسكرية نحو طخارستان وبلخ بسبب ما كان من ثورة نواحي ختلان، وأمر بأن يكتب للسلطان كل يوم بما يراه الوزير خيراً لصالح المملكة (٩١). وكذلك، اميرك البيهقي صاحب بريد الجيش، الذي قاده التونتاش في خوارزم، وكانوا قد اقاموا على طريق بلخ مراقباً للبريد لمنع تسرب الاخبار اليها (٩٢)، في حين جرت العادة أيام سلاطين الدولة الغزنوية ان يوضع البريد في كيس له حلقة وتختم باختام كثيرة (٩٣).

الحجابة :

لم تشأ الدولة الغزنوية ان تتخذ من الحجابة وظيفة ادارية هامة مقتفية بذلك اثر الخلفاء العباسيين والامويين وغيرهم، واذا كانت الحجابة عند الامويين قد مورست لحماية الخلفاء من القتل وشر الناس، وكذلك الحال عند العباسيين(٩٤)، فإن نظام الحجابة لدى الاسرة الغزنوية تجاوز هذه المهام والاهداف، فشمل وظائف عديدة، كان أبرزها اهتمام الحجاب بشأن الجيش والاهتمام بسلامة وأمن السلاطين. فلم تقتصر اعمال الحاجب على حماية السلاطين فحسب، بل اصبح هناك حجاب للوزراء وحجاب للولاة وقادة الجيش الاقليمي وحجاب القلاع (الكوتوال). واعتبرت الحجابة من الاعمال الهامة في البلاط السلطاني. فالحاجب موظف كبير يشبه كبير الامناء وقائد الحرس السلطاني في ايامنا هذه. والسبب وراء وضع الحجابة ضمن تنظيمات الجيش الادارية ذات العلاقة بديوان العرض، هو ممارسة حجاب الدولة الغزنوية قيادات الجيش في اكثر من موقع، الى جانب مراقبة الحرس والجند، واعدادهم في كثير من الأوقات للحملات العسكرية ، وللاحتفالات الرسمية والخاصة، وقد ظهر في تاريخ الاسرة الغزنوية التي حكمت الشرق العديد من الأسماءاللامعة في الحراسة السلطانية وحماية الامراء والاعيان والوزراء والقادة (٩٥)، وكان لهم اكبر الاثر في تهيئة الظروف المناسبة للسلطان وغيره لممارسة اعمالهم بكل دقة وأمان.

والحاصل ، ان الحجاب ، الى جانب توفير الامن والحماية والرعاية للسلطان وعائلته وللاعيان ، فانهم يقومون بمهام كثيرة جاءت على النحو التالي:

١ ـ الاشراف على مراسيم العيد وذلك باعداد الساحات الكبيرة على شكل دائرة واسعة تحشر فيها الحيوانات للصيد من كل مكان، ويأتي السلطان فيصطادها(٩٦).

٢ ـ شارك الحجاب في الحروب والمعارك التي كانت من سمات العهد الغزنوي البارزة، فقد شارك الحاجب التونتاش حاجب السلطان مسعود في حرب السلاجقة في مرو، وكان التونتاش قبل ذلك نقيب الفرسان لدى السلطان محمود الغزنوي، عندما كان مسعود حاكم الري، وكان الحاجب سوباشي يقود أهل السلاح والفرسان العرب وغيرهم (٩٧).

٣ ـ اضطلع بعض الحجاب كعلي قريب، بدور بارز في رسم سياسة الدولة الغزنوية، فقد كانت له يد في تعيين الامير محمد بن محمود الغزنوي سلطاناً على الدولة، على ان يتولى كبير الحجاب اعظم امناء الدولة وله تدبير شؤون الملك، ثم أمر باعتقال الامير محمد ودعا الى تولية الامير مسعود بدلاً منه، وتليت الخطبة باسم السلطان الجديد وأقيم حفل عظيم باشراف كبير الحجاب(٩٨).

٤ ـ الاشتراك في العروض العسكرية واعداد ما يلزم من الخيول والفيلة والجمال، فقد اعدّ كبير الحجاب بلكاتكين بأمر من السلطان مسعود الغزنوي، الفاً وستمائة وسبعين فيلاً بين ذكر وانثى، وذلك لاقامة عرض عسكري في مدينة كابل (٩٩).

٥ ـ شارك الحجاب في مواكب السلطان الرسمية ، سواء أكانت بمناسبات الاحتفال بالاعياد او بعزاء أو باستقبال رسل الخليفة العباسي، وكانوا يحضرون اجتماعات السلطان مع رسول الخليفة العباسي(١٠٠).

٦ ـ موقع استشارة السلطان في كثير من الاعمال والمهام الرسمية الهامة، فكثيراً ما كان يستشار الحاجب في تعيين الوزراء والولاة والعارض وقادة الجيوش(١٠١) .كما ويمنحهم الخلع.

٧ ـ كان يتسلم الغنائم من القادة العسكريين ، ويتسلم الهدايا والخلع والمناشير من رسل الخليفة العباسي(١٠٢).

٨ ـ الاشراف على طعام وشراب السلطان والأمراء(١٠٣).

إن اعتماد الدولة على الحجاب في المهام العسكرية ،عكست مكانة وقدرة هؤلاء الحجاب في ممارسة نشاطات عسكرية خطيرة. فقد قاد ـ كما سبق واشرنا الى ذلك ـ كبير الحجاب سوباشي سنة ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م الجيش الغزنوي ضد السلاجقة الاتراك على رأس عشرة ألآف فارس وخمسة الاف راجل الى خراسان ، في موقعة دندانقان التي انهزم فيها الجيش الغزنوي سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م ، وكانت من اخطر المعارك التي يخوضها الغزنويون ، وتسببت باضعاف هيبتهم (١٠٤). كذلك كان الحاجب ارسلان جاذب، قائداً لجيش السلطان محمود، وكان والياً على طوس وخراسان (١٠٥)، وقد نجح في اجلاء التركمان عن خراسان(١٠٦). أما مظاهر التكريم والاحتفاء بهؤلاء الحجاب فكانت من سمات العصر الغزنوي البارزة ، كشفت لنا عن اهمية هؤلاء داخل اجهزة الدولة بادارتها المختلفة ، ومثال ذلك، فقد اعدت سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣٠م خلعة فاخرة لكبير الحجاب بلكاتكين ، كان من جملتها:

« الكوس والرايات العريضة والشارات والغلمان واكياس النقود والكساوي غير المخيطة ، يرتدي خلعة سوداء وقلنسوة ذات الركنين ومنطقة من ذهب»(١٠٧)، ثم يذهب الى البلاط السلطاني ليؤدي فروض الطاعة والولاء تمشياً مع المراسيم المعهودة عند

الغزنويين، بعدها يعود الى داره حيث يقدم له الأكابر والأعيان هدايا كثيرة جداً(١٠٨)، ومنحت الدولة القاباً مختلفة للحجاب ، فمنهم من نعت بالأمير، كما حصل مع كبير الحجاب علي قريب، ايام السلطان محمود الغزنوي(١٠٩)، اما الغالبية العظمى فقد منحوا لقب الخواجة ـ وهو من الالقاب البارزة السائدة ايام الغزنويين، إذ كانت تمنح ايضاً للوزراء وللعارض ولصاحب ديوان الانشاء (١١٠)، وكانت الشجاعة والذكاء وقوة الشخصية والاخلاص من اهم الصفات التي حرص سلاطين غزنة على توفرها بمن يتولى هذا المنصب الهام(١١١).

« أسلحة الجيش الغزنوي»

اولا: الأسلحة الهجومية :

١ ـ سلاح الفرسان

حظي سلاح الفرسان برعاية مميزة لدى سلاطين الدولة الغزنوية، كما عملت الدولة على دعم هذا القطاع العسكري بامهر الفرسان واقوى الخيول ،لخوض المعارك الكثيرة التي قادها سلاطين الدولة، حتى لنجد من خلال دراستنا لاوضاع الجيش الغزنوي، ان هذا السلاح كان ركيزة الجيش في معظم المعارك التي وقعت في عهد السلطان محمود وولده مسعود.

وإذا ما حاول الباحث معرفة تعداد هذا القطاع، فانه سيجد صعوبة كبيرة في تحديد عدد هذا السلاح، علماً بان المؤرخ البيهقي، الذي عاصر السلطان محمود ومسعود، لم يكشف النقاب عن حجم وتعداد سلاح الفرسان، ولاحتى غيره ممن أرخ للدولة الغزنوية، فانهم غالباً ما يظهرون عظمة الجيش الغزنوي وقدرته على مجابهة الاخطار ، لاسيما براعة سلاح الفرسان . لذلك تجدر الاشارة هنا الى استعراض بعض الروايات التي حاولت أظهار جانب القوة للفرسان في هذه الدولة. فقد ذكر صاحب تاريخ نيسابور : ان الله يسر له ـ اي للسلطان محمود ـ من الاسباب والامور العسكرية والجنود والهيبة والحشمة في القلوب ما لم يره أحد(١١٢) . ونلاحظ اهتمام المؤرخ الانجليزي الفنستون (Ellphinstone) بسلاح الخيول والفرسان ليقرر في كتابه تاريخ الهند في العهد الاسلامي، ان الخيول العربية بلغت خمسة الاف حصان عربي في سلاح الفرسان في عهد السلطان محمود الغزنوي.(١١٣) وقاد العرب ايضاً اربعة الاف فارس سنة ٤٢٦ هـ/ ١٠٣٤م في المعركة التي خاضها السلطان مسعود الغزنوي في موقعة آمل.(١١٤) واعتبر الفنستون، بالاضافة الى المؤرخ الهندي محمد حبيب، ان الجيش النظامي في سلاح الفرسان ، وذلك قبل وفاة السلطان محمود بست سنوات ، بلغ اربعة وخمسين الف فارس من خيرة الفرسان، واضافا ان هذا القطاع لم يقف عند هذا العدد بل تضاعف في مناسبات عديدة(١١٥).

من جانب آخر، رأى المؤرخ مير (Meyer)انه في سنة ١٠١٨ م، زحف السلطان محمود الغزنوي من مدينة غزنة وبصحبته حوالي مائة الف فارس حاصر بهم قلعة ماثورا(Ma-thura)الهندية ، وبهم وبسالتهم حطم معظم الاصنام والمعابد الهندوسية في تلك المدينة. (١١٦) ورغم مبالغة مير في هذا العدد الذي لم يوثق مصادره، الا ان ذلك يظهر المدى الكبير الذي اصبح به سلاح الفرسان.

تعددت واجبات الفرسان والخيالة في جيش الدولة الغزنوية ، وتمثل ذلك في حماية الجيش اثناء التنقل والمبيت ومراقبة الطرق والسيطرة على حركة المواصلات والهجوم والاغارة على العدو والمطاردة وملاحقة الاعداء ومحاربة الكمائن(١١٧) وهذا يعكس اهمية قطاعات الفرسان بالنسبة للدولة. فلقد كانت عامل حسم للكثير من المعارك التي قادها سلاطين الدولة الغزنوية.

٢ ـ سلاح المشاة:

وهو من الاسلحة التي لم تقل اهمية عن سلاح الفرسان ، ويؤلف هذا القطاع قسماً كبيراً من الجيش. فالى جانب مساندتهم للفرسان ، فانه كان يقع عليهم مهمة الاصطدام المباشر مع جيش الاعداء . اما بنية سلاح المشاة، فكانت خليطة من اجناس متعددة ، وذلك بحكم تعدد البلدان والاقاليم التي آلت لحكم الدولة الغزنوية ، فكان منهم الاتراك والافغان والعرب والهنود والايرانيون والديالمة والاوزبك(١١٨).

ونستطيع من خلال دراستنا لابرز معارك الدولة الغزنوية في العهدين المذكورين، وهما معركة سومنات ٤١٦هـ/ ١٠١٧م بقيادة السلطان محمود الغزنوي، ومعركة دندانقان٤٣١ هـ/ ١٠٤٠م بقيادة السلطان مسعود الغزنوي ، نستطيع استخلاص عدة الدولة من سلاح المشاة على وجه تقريبي علماً بان الدولة لم تكن تمنح هذا السلاح نفس الاهتمام لسلاح الفرسان . فمعظم المؤرخين الذين تناولوا العهد الغزنوي بالبحث والدراسة، لم يظهروا حقيقة رقمية واضحة لقوات المشاة، كما كان حالهم ازاء سلاح الفرسان ، فاكتفوا بالاشارة الى عظمة الجيش من الفرسان والرجالة(١١٩). ولعل ما ذكره المؤرخون عن قلة المشاة عند الغزنويين انما كان يعبر عن استكثار السلطان محمود ومسعود للأتراك في الجيش والذين شكلوا بغالبيتهم قطاعات سلاح الفرسان ، وربما يكون العدد الذي ذكره المؤرخ الانجليزي الفنستون (Ellphinstone) عن المشاة في الجيش الغزنوي والذي بلغ عشرين الف، لدليل على اهتمام الدولة الغزنوية الكبير في سلاح الفرسان.

٣ـ سلاح الفيلة:

استحدث هـذا السلاح لدى الدولـة الغزنوية بسبـب الظروف التي اتاحـت لهم غزو واجتياح الهند الشمالية والوسطى، واعتبرت هذه الـدولة صاحبة السبق في هذا المضمار في تاريخ الحضـارة العربية الاسلاميـة، فهي بذلك تكون قـد حققت تطوراً هامـاً من روافد الحضارة الاسلامية.

اعتمد سلاطين غزنـة في بناء هذا السلاح على غنائم الحروب، سواء ما يتـم عن طريق الغنائم او المصالحة. وقـد خلص المؤرخ الهندي محمد حبيـب الى ان المجموع الكلي للفيلة في جيش السلطان محود تجاوز الألفين وخمسمائة فيل. (١٢٠) وذكـر البيهقي، ان السلطان مسعود الغزنوي استعـرض في مدينة كابل سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١ م الافيـال فكانت الف وستمائة وسبعون فيلاً بين ذكر وانثى(١٢١).

اما مهام الفيلـة، فمتعددة الاغراض ، فكانـت تحمل بالكوس النحـاسية لتستعمل في ارض المعركـة، وذلك لخلق هيبة للجيـش وارعاب الاعداء، ولارغام الفيلـة على الحركة السريعة في ميـادين القتـال(١٢٢) ومن مهـامها كـذلك،حـراسة مـوكب السلطـان اثناء تحركاته سواء في العـرض العسكري او اثناء القتال، واستخدمت لنقـل المشاة والاسلحة والذخيرة(١٢٣).

٤ ـ الجمّالة:

حاز سـلاح الجمّالة على رعايـة سلاطين الدولة، وارتقـى ليصبح سلاحـاً ضرورياً في عمليات الاسناد ونقـل الاسلحة الثقيلة والاعلاف والغذاء ومستلزمـات العسكر، ففي معركـة السلطان محمـود الغزنـوي الشهيرة على بلاد الهنـد « سومـانت» سنة ٤١٦هـ/ ١٠١٤م، اسند السلطان مهام نقل الميرة والاسلحة والذخـائر للإبل ، حيث بلغ مجموعها عشرين الف جمل (١٢٤) .كما حرك السلطان مسعـود في موقعة آمل ٤٢٦ هـ/ ١٠٣٤ م خمسمائة جمل تحمل الذخائر (١٢٥).

٥ ـ غلمان السراي(القصر):

وهي مـن القطاعات الـرئيسية التي انشـأها سـلاطين الدولة الغـزنوية والتـي لاتقل بدورها عـن اهمية باقي الاسلحة ، اذ كـان غلمان البلاط السلطاني يشكلون فرقـة ضاربة متمرسة على القتال ومدربة تدريباً خاصاً، وهي اشبـه ما تكون بفرقة المغاوير الذين اتقنوا كافة الاسـاليب القتالية، فكـانوا ينتدبون لحسـم المواقف الصعبة واشدهـا خطورة . ففي العام ٤١١ هــ/ ١٠٢٠ م والذي حاصر فيه السلطـان محمودبلاد الغور،وبعـد استبسال قبائل الغور وصمـودها بوجه الجيـش الغزنوي ، امر السلطـان غلمان السراي ان يتقدموا الصفوف ويضربوا العدو بسهامهم حتى تمت الغلبة لهم على الغور(١٢٦).

٦ ـ الاسلحة:

حرصت الدولة الغزنوية على تسليح الجيش تسليحاً قوياً يتناسب مع طموحاتهم واهدافهم التوسعية في منطقة الشرق. فقاموا على توفير كافة انواع الاسلحة المتعارف عليها يومذاك، فكانت السيوف والرماح والسهام والمنجنيق والخناجر والدبابيس والسلالم وحبال الاوهاق والكوس النحاسية والابواق والطبول والجواشن والدروع والسلالم والاثقال والحجارة(١٢٧).

ثانياً: الاسلحة الدفاعية والوقائية:

١ ـ القلاع والحصون

فرضت طبيعةالبلاد وانتشارها على الدولة الغزنوية ان تعمد الى بناء القلاع والحصون لحماية الثغور ،واعتبرت من التحصينات الوقائية والدفاعية الثابتة التي خضعت لسيطرة الدولة، كالهند وخراسان ، وافغانستان، ونيسابور ، وبلاد ما وراء النهر.(١٢٨) وتم استخدام هذه القلاع كمستودعات للأسلحة وآلات الحروب واصطبلات الخيول والحبال وحفظ المال والألبسة والمؤن والاعلاف(١٢٩).

٢ ـ الكمائن

مارست الدولة هذا السلوك الحربي في معظم المعارك التي وقعت في عهد السلطانين المذكورين (محمود ومسعود) ،وكان اكثر تطبيقاً وشيوعاً في عهد السلطان محمود الغزنوي . وعلى سبيل المثال لا الحصر قام السلطان محمود بتطبيق مبدأ الكمين مع السيمجورين شمال افغانستان سنة ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥م ،بعدما تعرض جيشه للابادة، فاجأ الاعداء بكمين على رأس قوات جديدة تمتّعت بالراحة من الفرسان الشجعان المختارين، وانزلوا الضربات القاضية بقائد الاعداء والجأوه على الفرار(١٣٠).

٣ ـ التعبئة والمصاف

يمكننا تقسيم نظام التعبئة لدى الجيش الغزنوي على النحو التالي:

أ ـ الكر والفر، وغالباً ما استعمله سلاح الفرسان ب ـ نظام المصاف (الزحف). ج ـ نظام الخميس (التعبئة).

الخاتمة:

هذه الدراسة اعتنت بمعرفة البناء الاداري والتنظيمي لديوان العرض في الدولة الاسلامية الغزنوية التي حكمت : الهند وافغانستان وايران، وخوارزم وطخارستان وبلاد ماوراء النهر، أوضحت أهمية هذا الديوان من خلال الامور التالية:

----

١ ـ كان ديوان العرض في الدولة الغزنوية قطب الرحى الذي دارت حوله هيبة ونفوذ الدولة في الشرق، وشكل اساساً من اساسيات المحافظة على الاسرة الغزنوية مدة طويلة ومؤثرة في حكم المشرق الاسلامي.

٢ ـ نلاحظ اهتمام الدولة الواسع في توظيف امكانيات الدولة السياسية والاقتصادية والمالية للحفاظ على قوة المؤسسة العسكرية من خلال الدعم المطلق لديوان العرض، وبذلك تكون الدولة الغزنوية عسكرية من الطراز الاول.

٣ ـ كان تطبيق الدولة لنظام عسكري خاص في فتح الاقاليم والذي عُرِفَ بالسيهسالار ، اكبر الاثر في ضبط الاقاليم جميعها وربطها بحكومة مركزية قوية في عاصمة الدولة، مدينة غزنة.

٤ ـ حالت الدولة بين القادة العسكريين والولاة في الاقاليم وبين الخروج والتمرد على سيادة الدولة الغزنوية، من خلال الحاق مراقب أمني عام لهؤلاء المسؤولين الذي منع اكثر القادة من عصيان الدولة، وتمثل ذلك بوظيفة (الكتخدا)

٥ ـ تطور نظام الجاسوسية والمعماة التي بلغت في الدولة الغزنوية مرحلة فاقت بدقتها وتنظيمها الكثير من الدول الاسلامية المعاصرة والتي ساعدت الاسرة الغزنوية في السيطرة المطلقة على اواسط آسية والهند . اضف الى ذلك براعة الدولة في تطبيق نظام المعماة (الشفرة) ،الذي كان له بالغ الاثر على مراقبة الاحداث ومتابعة التطورات والعمل بسرعة على معالجتها.

٦ ـ الحاق ديوان بريد للجيش بمعظم الاقاليم والمعارك التي خاضها الجيش ، مما ميز العهد الغزنوي عن بقية العهود الاسلامية باستثناء الدولة العباسية . اذ عمل هذا الديوان على ايصال المعلومات الى السلطان واطلاعه اولاً باول عن احوال الاقليم والجيش وسير المعركة واحوال الاعداء واستعداداتهم.

٧ ـ يظهر ان نظام الجندية لدى الغزنويين قد تأثر كثيراً بنظم الدولة العباسية والدولة السامانية.

٨ ـ كشفت لنا عن حرص شديد لدى سلاطين الدولة الغزنوية على امتلاك قطاعات حربية غاية في الاهمية والتطور، كالفرسان والمشاة والفيلة والجمّالة وغلمان السراي، ساهمت جميعها في دعم مسيرة الدولة.

٩ ـ كما تعاملت بمؤسساتها الحربية مع المتطور من السلاح في عصرهم.

١٠ ـ واخيراً ، كانت طبيعة البناء الإداري لديوان العرض، والعناية والرعاية الفائقتين التي اولاها سلاطين غزنة لهذا الديوان ، عظيم الاثر في تحقيق كل الانتصارات العسكرية التي خاضها الجيش الغزنوي في الشرق وسبباً في انتشار نفوذهم.

«الهوامش»

١ ـ السلومي، عبد العزيز عبد الله. ديوان الجند، نشأته وتطوره في الدولة الاسلامية حتى عصر المأمون، مكة المكرمة(١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م)، ص ٢٢٠.

٢ ـ شوقي ابو خليل، هارون الرشيد امير الخلفاء، (دار الفكر، الطبعة الاولى، ١٩٧٣م)، ص ٨٣ ـ السلومي، ص ٢٢٠.

٣ ـ تنسب الدولة السامانية (٢٦١ هـ ـ ٣٨٩هـ) الى أسرة فارسية عريقة في المجد، يرجع اصلها الى بهرام جور، وقد نال السامانيون حظوة كبيرة عند الخليفة المأمون، فولاهم بلاد ما وراء النهر ورفع من شأنهم، وقد أسس دولتهم نصر الاول بن أحمد الساماني(٢٦١ هـ / ٨٧٤م) وتعاقب على حكم هذه الاسرة الاسلامية عشرة ملوك اولهم نصر الاول وآخرهم عبد الملك الثاني بن نوح الثاني (٣٨٨هـ / ٩٩٩م). وكان زوالها على يد الدولة الغزنوية. واشتهرت الاسرة السامانية بتشجيع العلوم والآداب واصبحت بخارى عاصمة الدولة مركزاً اسلامية لنشر الثقافة والمعرفة، للمزيد من المعلومات حول الاسرة السامانية راجع:

Maulana Minhaguddi Abu Aumor Al - guzgani.(D. 658 A.LL)

- Tabagat - 1 - Nasiri, AGENERAL History of muhammadan dynasties of Asia from , A.H.194(A.D810)) to A.H658(A.D.1260) and the irruption of the infidel (mughals into Islam), tr. from original persian manusript, by Major Raverty IIvols . (New Dilhi, 1970)vol. II, PP. 29 - 54.

- Lane - poole - Muhammadan Dynasties, (Lahore, 1976)pp. 132 - 133.

ـ د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ج ٣ ص ٧١ ـ ٨٢، (القاهرة، ١٩٦٥م).

٤ ـ Tripathi, R.P.Some Aspects of muslim administration, (Allah abad 1978) p.210

٥ ـ Pandey, early medieval India, (Allah abad، 1969)pp.27 - 28.

السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج ٥ ص ٣١٨

٦ ـ داندا نقان: بلدة عند مرو، وهي على مرحلتين من مرو مما يلي سرخس، وهي من اكثر البلاد انتاجاً للحرير ـ (ابي الفداء، تقويم البلدان ص ٤٥٩ (باريس ١٨٤٠).

٧ ـ البيهقي، (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧م)، محمد بن الحسن، تاريخ البيهقي، نقله عن الفارسية الى العربية الدكتور يحيى الخشاب والاستاذ صادق نشأت (بيروت ١٩٨٢)، ص ٦٦٣ ـ ٦٧٢، الحسيني(ت بعد ٦٢٢هـ) صدر الدين ابو الحسن، زبدة التواريخ، اخبار الامراء والملوك السلجوقية، تحقيق الدكتور محمد نور الدين (بيروت ١٩٨٦)ص ٤٥.

---

٨ ـ تاريخ البيهقي، ص ٧١٠.
٩ ـ البيهقي، ص ١٦٦.
١٠ ـ نفس المصدر، ص ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨.
١١ ـ المصدر السابق، ص ٤١٧ ـ ٤١٨.
١٢ ـ نفس المصدر، ص ٤١٩١٤٨.
١٣ ـ البيهقي، ص ٣٥٠، ٤٢٧، ٤٢٨.
١٤ ـ البيهقي، ص ٥٣٦.
١٥ ـ الماوردي، يقول الماوردي ان شرط جواز اثبات الجند بما فيهم صاحب الديوان فيراعى فيه خمسة أوصاف: ١ ـ الحرية ـ ٢ـ الاسلام ٣ ـ السلامة من الآفات ـ ٤ ـ ان يكون فيه اقدام على الحرب ومعرفة القتال ـ ٥ ـ البلوغ فان الصبي من جملة الذراري والأتباع. الماوردي علي بن محمد بن حبيب (ت . ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) الاحكام السلطانية (القاهرة ١٣٩٤هـ) ص ٢٠١، ٢٠٢.
١٦ ـ البيهقي ص ٣٨، ٣٩، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧.
١٧ ـ p8137 I.H.Qureshi, Muslim Administration under the sultanate of DELHI, (4th edition , Karachi, 1959)
١٨ ـ البيهقي، ص ١٠.
١٩ ـ البيهقي، ص ٤٩، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣.
٢٠ ـ البيهقي، ص ٢٦، ٥٣٦، ٥٣٧.
٢١ـ Quershi, p.137 العتبي، (ت ٤٢٨ هـ/ ١٠٣٦م) ابو نصر محمد بن عبد الجبار، تاريخ يميني، جزءان (القاهرة ١٩٨٦م) ج ٢ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.
٢٢ ـ البيهقي، ص ١٥٨، ٢٩٦.
٢٣ ـ المصدر السابق، ص ٥٤٩، ٦٦٠.
٢٤ ـ نفس المصدر ، ص ٦٦١.
٢٥ ـ نفس المصدر ، ص ١٦٩.
٢٦ ـ نفس المصدر ، ص ٣٥٧.
٢٧ـ البيهقي، ص ٢٥.
٢٨ ـ البيهقي، ص ٥٣٦.
٢٩ ـ الجوزجاني، طبقات ناصري، ط١ ص ٧٣ ـ ٧٤ / زبدة التواريخ ، ص ٢٦ ـ ٢٧.
٣٠ ـ البيهقي، ص ٢١٤.
٣١ ـ نفس المصدر، ص ٢١٥ ـ ٢١٦.
٣٢ ـ نفس المصدر، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

٣٣ ـ العتبي ج ١ ص ٣٦١.

AL - Badaoni, Abdul AL- Qadir Mulukshah (D.1004 A.LL

- Muntaklab - ut - Tawarikh, tr.from persian into English, vol. I, by S.A. Ranking, vol. ii.by w. h.Lowe, and vol.II, by sir Haig . (lst. ed. Karachi 1968)(Calcutla. 1884, 1924) vol p 17

٣٤ ـ الندوي، نزهة الخواطر، ج١ ص ٧٩ ـ ٨٠.

٣٥ ـ البيهقي، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

٣٦ ـ نفس المصدر، ص ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧.

٣٧ ـ نفس المصدر، ص ٤٢٥ ، ٤٢٦، ٤٢٧.

٣٨ ـ االبيهقي، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠، نزهة الخواطر، ج١ ص ٧٧ ـ ٧٨.

٣٩ ـ الندوي، عبد الحي الحسني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، (حيدر اباد، الدكن، الهند، ١٣٥٠ه/ ١٩٣١م) ج١ ، ص ٧٩ ـ ٨٠.

٤٠ ـ البيهقي ص ٢٩٢.

٤١ ـ نفس المصدر، ص ٣٠٨.

٤٢ ـ نفس المصدر، ص ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٧٨.

٤٣ ـ نفس المصدر، ص ٥٨١.

٤٤ ـ البيهقي، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧.

٤٥ ـ نفس المصدر، ص ٣٦٢.

٤٦ ـ ص ٢٩٠.

٤٧ ـ ص ١٤٦.

٤٨ ـ زبدة التواريخ، ص ٤٣.

٤٩ ـ القلقشندي، أحمد بن علي القاهري الشافعي (ت ٨٢١ ه) صبح الاعشى في صناعة الانشاء، ١٤ جزءاً(دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢م) ج ٤ ص ٤٥٣.

٥٠ ـ منتخب التواريخ، ج ١ ص ٢٣.

٥١ ـ الطوسي، نظام الملك (ت ٤٨٥ ه/ ١٠٥٨م) سياسة نامة أو سير الملوك، ترجمه الى العربية الدكتور يوسف بكار (الدوحة ١٩٨٧م) ص ٢٩٣.

٥٢ ـ البيهقي، ص ٨٦، ٨٧، ٨٨.

٥٣ ـ البيهقي، ص ٢٩١.

٥٤ ـ نفس المصدر ، ص ٢٩٠.

٥٥ ـ نفس المصدر، ص ٤٢٥.

٥٦ ـ اتبعت الدولة الغزنوية سياسة فيها من التقديس والتوقير ما يتناسب مع رسل الخلفاء العباسيين؛ فيروي البيهقي وهو مؤرخ معاصر شاهد الاحداث، انه عند وصول رسول الخليفة العباسي القادر بالله سنة ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠م .أمر السلطان مسعود الغزنوي استدعاء الرسول الى الحضرة على ان يكون موكبه حافلاً بكل مظاهر العظمة ، فقال ابو سهل الزوزني (العارض):

إن كل مـا هو خاص بالجيش والبلاط والديوان واهـل المناصب وغيره فهو ممـا يقوم بشؤونه السيهسالار، ثم أمر مسعود باستعداء السيهسالار الحاجب الغازي قائد خراسان وقال له:

نأمر ان يقدم رسول الخليفة مع ما أتـى به من منشور وخلعة وككرامات ونعوت وان تصل اخبار هذه الحفلات وذلك التكريم مسـامع الناس في سائر البلاد، وينبغي ان توعز للجيـش ليجعل نفسـه في هذه الليلـة على اتم مـا يمكن مـن الابهة والنظام... وفي اليـوم الثاني، جـاء السيهسالار غازي الى الـدركاه (البلاط) يصحبـه موكـب الجيش وأمر كـافة المقدمين ان يقفـوا صفين مما يلي الدركاه (البيهقـي ص ٤٤) بخيولهم وأعلامهم، وكـانت الاعلام تمتد الى مسافة بعيدة من ابواب قصر شادياخ، وقد وقف غلمان الخاصة والخدم في داخل الحديقـة صفين من أمـام صفة التاج حتـى الدركـاه، في تمام اسلحتهم ومـلابسهم المختلفة الالوان والاشكـال، وكان معهم اهل المراتـب، وكانت البغال قـد سبقت لحمل الخلعة من نيسـابور... وعندما وصـل الموكل بالضيافـة الى الرسول اركبه جنبـه وكان قد ارتدى السواد، واعطـى اللواء لفارس ليسير به في أثـر الرسول، ومن خلفهما بغـال تحمل الصنـاديق المحتـويـة على خلع امير المؤمنين ومعهـا عشرة خيـول ، وكان بينهما جـوادان يزدانان بسرجين ونعـال ذهبية، اما الثمانية الأخـرى فكانت مسرجة بسروج مـن الديباج والاطلس، وكان طريق الرسول مزداناً بـأبهى الزينات وكان الناس ينثرون عليه الدراهم والدنانير الى ان بلغ صفوف الفرسان فعلـت اصوات الطبول والابواق وهتاف الجماعات ... وكانـوا يمرون بالـرسول والاعيان بين صفي الجنـد، والمقدمون مـن الجانبين ينثرون عليه النثـار حتى بلغ السرير وكـان الامير مسعود متربعاً عليـه، ثم سار الرسـول في هيئة مهيبة فتقدم الى السلطان وقبل يده، ثم وضع المنشور والرسالة على السرير فقبلهما مسعود الغزنوي (تاريـخ البيهقي، ص ٤٥) وامر السلطان بان يكتب الى هـراة وبوشنك وطوس وسرخس ونسـا وباورد ويـادغيس وكنج روستـان بهذه البشائر التـي منحها مـن مجلس الخلافة، فنسخـت صوراً من المنشور والـرسالة أبرزوا فيهـا الالقاب التي يدعـى بها هذا السلطان الجليـل ويخطب بها على المنابـر وكانت النعوت السلطـانية (تاريـخ البيهقي ص ٤٦) كما يلي: ناصر دين الله، حافظ عباد الله، المنتصر من اعداء الله، ظهر خليفة الله أمير المؤمنين(البيهقي، ص ٤٧).

٥٧ ـ تاريخ البيهقي، ص ٢٩١.

٥٨ ـ البيهقي، ص ٢٩٢ ـ ٣٠٨.

٥٩ ـ نفس المصدر، ص ٤١٥.

٦٠ ـ نفس المصدر، ص ٣١١.

٦١ ـ نفس المصدر، ص ٤١٥.

٦٢ ـ نفس المصدر ، ص ١٣٦ .
٦٣ ـ البيهقي، ص ٣٥٩، ٤١٠ .
٦٤ ـ نفس المصدر، ص ٧٢٣.
٦٥ ـ نفس المصدر، ص ٣٥٨.
٦٦ ـ نفس المصدر، ص ٥١ ـ ١٦١ .
٦٧ ـ البيهقي ٣٦٣.
٦٨ ـ نفس المصدر ص ٤٢٥.
٦٩ ـ البيهقي، ص ٤١٠ ـ ٤١١ .
٧٠ ـ نفس المصدر، ص ٤١١ .
٧١ ـ نفس المصدر، ص ٤١٣ .
٧٢ ـ نفس المصدر، ص ٤١٥ .
٧٣ ـ نفس المصدر، ص ٤١٧ .

٧٤ ـ بالغت الدولة العباسية في هذا العصر مبالغة كبيرة في استخدام العيون والجواسيس، والتوصل بكل وسيلة الى كشف اسرار اعدائهم ومعرفة نواياهم، مستخدمين في ذلك الرجال والنساء والغلمان من مختلف طبقات المجتمع ، اذ كانوا يسافرون الى مختلف الاقاليم متنكرين على هيئة تجار او اطباء او طلبة علم او غلمان أو جوار ، ليتمكنوا من التغلغل في الاماكن التي بعثوا اليها (د. خالد الجنابي، تنظيمات الجيش في العصر العباسي ٨٣٣م ـ ٩٤٥م، ص ١٢٤ بغداد، ١٩٨٩م) ودليل ما قاله ابن اللقطي في وصف اهتمام الدولة العربية الاسلامية في استخدام الجواسيس فيقول: وما اعتنت دولة بتحصين الاسرار والمبالغة في حفظها كالدولة العربية الاسلامية، فان لها من هذا الباب عجائب (الفخري في الآداب السلطانية، ص ٦١) ولم تكن هذه المبالغة في استخدام الجواسيس ناشئة عن مجرد رغبة او ميل لدى العباسيين للقيام بهذا العمل، بل يؤكد د . الجنابي، انما دفعهم الى ذلك عوامل عديدة، منها ، اولاً، وجود الامبراطورية البيزنطية التي تعدّ المنافس القوي للدولة العربية الاسلامية ، ثانياً: الدول الاسلامية وولايات الاطراف المحيطة بالدولة العربية الاسلامية ، ثالثاً: الحركات والفتن الداخلية التي كان لها الاثر الكبير في انتشار استخدام الجواسيس(الجنابي، خالد جاسم، تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، (٢١٨ ـ ٣٣٤هـ / ٨٣٣م ـ ٩٤٥م)؛ (بغداد، الطبعة الاولى ١٩٨٩)، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

٧٥ ـ البيهقي ـ ص ٣٢٤.
٧٦ ـ نظام الملك الطوسي، سياسة نامة، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .
٧٧ ـ الطوسي، ص ١١١ .

----

٧٨ ـ البيهقي، ص ٥٧٢.
٧٩ ـ الطوسي، ص ١١.
٨٠ ـ البيهقي، ص ٦٢٤.
٨١ ـ البيهقي ص ٥٧٣.
٨٢ ـ البيهقي، ص ٧٢٠.
٨٣ ـ البيهقي ٧٢١.
٨٤ ـ البيهقي، ٧٢٧.
٨٥ ـ البيهقي، ص ٣٦٣.
٨٦ ـ البيهقي ، ص ٥٧٤.
٨٧ ـ تاريخ البيهقي(ص ٣٧٧ ، ٤٨٥ ، ٧٠٩).
٨٨ ـ نفس المصدر ص ٦٤٨.
٨٩ ـ نفس المصدر ، ص ٤٨٥.
٩٠ ـ أيضاً، ص ٦٣٦.
٩١ ـ البيهقي، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨.
٩٢ ـ نفس المصدر، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣، للاطلاع على فحوى الرسائل التي كان يبعثها أميرك البيهقي صاحب بريد الجيش راجع تاريخ البيهقي(ص ، ٣٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٣٧٥).
٩٣ ـ المصدر السابق، ص ٧١٦.
٩٤ ـ يقول ابن خلدون في مقدمته عن الحاجب والحجابة: « وأما مدافعة ذوي الحاجات عن ابوابهم (يقصد الملوك) فكان محظوراً بالشريعة، فلم يفعلوه، فلما انتقلت الخلافة الى الملك وجاءت رسوم السلطان والقابه، ان اول شيء بدىء به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون على انفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم، كما وقع لعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم عن المهمات ، فاتخذوا من يقوم بذلك وسموه الحاجب». . ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ (بيروت ١٩٧٩م).
٩٥ ـ اورد البيهقي في تاريخه اسماء الحجاب الذين تقلدوا هذا المنصب في عهد الدولة الغزنوية نذكر منهم ، الحاجب على قريب، والحاجب التونتاش، والحاجب بلكا تكين والحاجب بكتكين ، والحاجب سوباشي، والبتكين، والحاجب ارسلان جاذب وابو نصر الحاجب وقدر الحاجب. تاريخ البيهقي، ص ١ ، ٥ ، ٤ ، ٩ ، ٦٨ ، ٩٤ ، ٣١٢ ، ٣١٧ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥ ، ٧٦٣).

٩٦ ـ البيهقي، ص ٣٠١.

٩٧ ــ البيهقــي، ص (٥٠٥، ٦٦٩ ، ٦٧٨). تـولى الحاجـب بكتغــدي قـائداً لغلمان السراي (القصر) في حملـة الجيش على مـدينة نسـا سنة ٤٢٦ ه / ١٠٣٥م ، البيهقـي، ص ٥١٧.

٩٨ ـ نفس المصدر، ص (١، ٢، ٥ ، ٧).

٩٩ـ نفس المصدر، ص ٣١٠ـ ٣١٢.

١٠٠ ـ نفس المصدر، ص ٣١٩ـ ٣٢١.

١٠١ ـ ايضاً ، ٣٨٨ـ٣٨٩.

١٠٢ ـ ص ٤٦٨.

١٠٣ ـ ص ٣١٢.

١٠٤ ـ زبدة التواريخ ، ص (٣٧ ، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ـ ٤٥).

١٠٥ ـ زبدة التورايخ، ص ٢٧.

١٠٦ ـ نفس المصدر، ص ٦٨.

١٠٧ ـ البيهقي ص ١٧٠.

١٠٨ ـ نفس المصدر، ١٧١.

١٠٩ ـ نفس المصدر، ص ١ .

١١٠ ـ نفس المصدر، ص ٥٦٢.

١١١ـ نفس المصدر، ص ١٧١.

١١٢ ـ عبـد الغافر الفـارسي، تاريخ نيسـابور والمنتخب مـن السياق، طبعة قـم ايران ١٤٠٣ه ص ، ٦٨٠.

١١٣ـ Ellphinstone, 1889,p. ٣٤٩.

١١٤ ـ البيهقي، ص ٤٨١.

١١٥ـ {Mohammad Habib Sultan Mahmoud Of Ghaznin, Lahore, 1928, P 45}

{Ellphlinstone, History Of India, London 1889, P.349}

١١٦ ـ {Meyer, South - Asia. A short History Of The Sub - Continent , Neww Jersy P81} ، ١٩٦٧.

---

١١٧ ـ الهرثمي، ١٩٣٩ ص ٥١.

١١٨ ـ الطوسي: ١٩٨٧: ص ١٤٠.

١١٩ السيكي، ج ٥ ص ٣١٨ / ابن خلكان، ١٩٤٨م: ج ٤ ص ٢٦٥ / البيهقي، ٦٦٣.

١٢٠ ـ Habib,p (٤٥).

١٢١ ـ البيهقي، ٣١١ ـ ٣١٢.

١٢٢ ـ البيهقي، ٦٦٥.

١٢٣ ـ البيهقي، ٦٦٤.

١٢٤ ـ الكامل، ج٩، ٤١٦ ـ ٤١٧ .

١٢٥ ـ البيهقي، ص ٤٧٨ .

١٢٦ ـ البيهقي، ص ١٤٣ .

١٢٧ ـ البيهقي، ص ص ١٢٣، ٣٦٦، ٥٠٠ الخ...

١٢٨ ـ البيهقي، ص ٤٢، ومابعدها.

١٢٩ ـ البيهقي، ٦٤٦ .

١٣٠ ـ البيهقي، ٢٢٢، ٢٢٣ .

أثر تجارة المحاصيل الزراعية على نشوء الطرق التجارية في غور الأردن (درب القفول)

أثر تجارة المحاصيل الزراعية على نشوء الطرق التجارية في غور الاردن
(درب القفول)

منذ بداية العصر العباسي حتى نهاية العصر العثماني

د. جمعة محمود كريم
جامعة مؤتة
كلية الاداب / قسم السياحة والآثار
الكرك/ مؤتة
الاردن

تعنى هذه الدراسة بدرب القفول المار عبر غور الاردن الشمالي[1]. واثر تجارة المحاصيل الزراعية على نشوئه في العصور الاسلامية الوسيطة والمتأخرة (منذ القرن العاشر الميلادي وحتى ١٩٤٨م). وبالرغم من ان ذكر هذه الطريق التجارية جاء في فترة زمنية متأخرة؛ وذلك ما بعد القرن السادس عشر الميلادي، الا أن هدف هذا البحث هو تتبع اصول واهمية هذه الطريق منذ بداية العصر الاسلامي الوسيط، معتمداً في ذلك على:

١- المصادر التاريخية والجغرافية.

٢- ملاحظات الرحالة المسلمين والعرب والرحالة الاوروبيين الذين زاروا غور الاردن منذ بداية القرن التاسع الميلادي.

٣- نتائج المسوحات الأثرية السابقة في غور الاردن الشمالي.

٤- نتائج الحفريات الأثرية السابقة في غور الاردن الشمالي.

٥- نتائج الحفريات الأثرية الاخيرة في موقع ذراع الخان.

تفيدنا المصادر التاريخية والجغرافية ان ازدهار غور الاردن الزراعي قد استمر خلال العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ/ ٧٥٠-١٢٥٨م). فيذكر الاصطخري[2] وابن الفقيه[3] كثرة العيون والاودية الجارية في غور الأردن، وإزدهار زراعة النخيل فيه. كما يصفه ابن حوقل[4] بأنه بقعة جميلة تكثر فيها زراعة أشجار النخيل والازهار. ويحدد المقدسي،[5] في القرن العاشر الميلادي مزروعات كل مدينة من مدن غور الاردن. فاشتهرت منطقة اريحا، بزراعة النيلة والنخيل والموز وقصب السكر، أما منطقة بيسان، فقد اشتهرت بزراعة النخيل والارز. وقد سجل الادريسي،[6] أن اشجار النخيل والنيلة قد زرعت بكثرة في جنوب غور الاردن أيضاً.

ونتيجة لاستمرارية ازدهار غور الاردن زراعياً خلال العصر العباسي، فقد نشأت فيه مجموعة من القرى الزراعية، التي تحيط بالمدن الإدارية[7]. ونذكر من هذه المدن الادارية، الواقعة في شرقي غور الاردن، مدينة طبقة فحل، الواقعة في شمال غور الاردن، وعمتا[9] (قرية أبو عبيدة حالياً)، الواقعةفي وسط غور الأردن، وزُغَرْ (أو صُغرْ) (قرية الصافي حالياً)، الواقعة للجنوب من البحر الميت.

وبالـرغم من أن المصادر التـاريخية والجغرافيـة لم تحدد لنااسماء وأماكن وجـود القرى الزراعية، والعائدة للعصر العبـاسي في غور الاردن، إلا أنه يمكننا حالياً مـن رصدها على خارطة غـور، وذلك من خلال نتائج المسـوحات الأثرية الأخيرة التـي جرت في المنطقة. فقد تمكنت بعثة مسـح غور الأردن عامي ١٩٧٥ و١٩٧٦م من تسجيل ستـة عشر موقعاً أثـرياً(١٠)، تمثل ما نسبته ١٤,٧٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في المنطقة الممتدة من العدسيـة شمالاً والبحر الميت جنوباً، وقـد التقط عن سطحها مخلفات حضـارية تعود للعصر العباسي/ الفـاطمي. كما تمكـن الباحث مـن التعرف على مخلفـات حضاريـة تعود للعصر العباسي في مـوقع واحـد، يمثل مـا نسبته ١٤,٧٪ مـن المجموع العـام للمواقـع المسجلــة في منطقـة سليخــات)(١١). وأمكن التعرف على المخلفات الحضارية العائدة للعصر العباسي/ الفاطمي في ثـلاثة مواقع تمثل قرى زراعيـة بمنطقة جسر الشيخ حسين، الواقعة في غور الأردن الشمالي(١٢).

كما اشتهر غور الاردن باستخراجه لمعادن هامة، إلى جانب المنتوجات الزراعية السابقة الذكـر، نذكر منها الملـح والقار المستخرج من البحـر الميت(١٣). وقد مثلت المنتوجات الزراعية، العماد الاقتصـادي لقرى ومدن غور الاردن في العصر العباسي/ الفـاطمي. ذكر المقدسي أهـم صادرات مدن غـور الأردن في القرن العـاشر الميلادي؛ فصُدرت النيلـة من أريحا، وصُدرت النيلـة والتمور والعصير المستخـرج من قصب السكـر من زُغـر (صُغَرْ) وبيسان، وصُدر الرز مـن بيسان أيضاً(١٤). ويبدو أن مادة السكر المستخرجة من قصب السكر قد مثلّت أهـم صادرات غور الاردن، وذلك منذ القرن العـاشر وحتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي(١٥).

يرى هارتمان اعتماداً على ما أورده ابن خرداذبة، وابن قدامة، واليعقوبي، والمقدسي، أن الطريق المارة عبر فيق، فطبريـا، فبيسان، فمرج ابن عامر، هي الطرق التجـارية الأساسية التي كـانت تصـل خلال العصر العباسي بين دمشـق والقاهـرة. كما يذكـر المقدسي(١٧) طريقاً تجارياً أخرى تمر عبر غور الأردن الجنوبي، وتمتـد هذه الطريق من القدس الى اريحا، وبيت الرام (الرامه حالياً)، وعمان، ومآب أو الزرقاء، واذرعات (درعا حالياً) ومن ثم الى مدينة دمشق.

إن وفرة الإنتاج الزراعي لقرى غـور الأردن في العصر العباسي، وكثرة مدنه الإدارية، كطبريا، وبيسـان، وطبقة فحـل، وعمتا، واريحا، وزغـر، تقودنـا للاعتقـاد بوجـود طرق تجارية، تـربط بين هـذه الحواضر من نـاحية، وبين الطريـق الرئيسـة الواصلـة بين دمشق والقاهرة، من نـاحية أخرى. يبدو أن المصادر التاريخية والجغرافيـة لاتسعفنا في رصد هذه الطرق التجارية الواصلـة الى الطريق الأساسي السابق الذكر، ولـذا كان لابد من الإعتماد على المعطيات الأثرية، ما تسنى ذلك، لتتبع الطريق الفرعية.

يبدو أن البعثة الأثـرية الأسترالية العاملـة في مدينة طبقة فحـل، قد تنبهت أخيراً لهذه الملاحظة، حيـث أجرى فرانك كـوكي (Koucky,F)(١٨) مسحاً أثرياً للمنطقة المحيطة بمدينـة طبقة فحل، بغرض رصـد طرق المواصلات الـواصلة اليها من مختلـف الجهات. ولقد اعتمـد كوكي في رصـده للطرق الواصلة الى مـدينة طبقة فحـل من الجهة الغـربية، مسبقاً على المعابر الرئيسة (مخاضات) الطبيعيـة لنهر الأردن. وعلى ذلك يرى هذا الباحث أن هناك طريقين يصلان طبقـة فحل ببيسان، يمر الأول عبر الحمة، وخربـة الشيخ محمد، ومن ثم إلى نيسان، أماالطريق الثاني فيمر عبر بلدة المشارع، وتل غنام، وتل الشيخ داوود، وكفر روبين، وبيسـان. كما رصدت طرق أخرى تقـود من طبقة فحل الى المنطقـة الشرقية باتجاه عجلـون وجرش. وبناءً على دراسـة الشقف الفخاريـة الظاهرة على سطـح المواقع الأثريـة المارة بها هذه الطـرق الفرعية، والـواصلة بين مدينتين طبقـة فحل وبيسـان، فقد أرخت للفترات الكلاسكية والإسلامية المبكـرة (العصر الأموي)، والإسلامية الوسيطة (العصر الأيوبي/ المملوكي).

ويرى الباحـث أن كوكي قد أخطـأ في رصد الطريق الـواصل بين مدينتي طبقـة فحل وبيسان، وذلك اعتماداً على نتائج حفـرياته الأثرية الأخيرة في موقع تل قـدسية الواقع بين مـدينتي طبقـة فحـل وبيسان. ويمثـل هـذاالموقع حلقـة وصـل أساسيـة بين المدينتين في الفترات الكلاسيكيـة والإسلاميـة، حيث عثر في الموقـع على سويات أثـرية تعـود لجميع الفترات السـالفـة الـذكـر(١٩). ومما يؤكد هذه الرؤية أيضاً، هو العثور على الشواهد الحجريـة، والعائدة للعصر الروماني، الـدالة على الطرق التجاريـة المارة عبر غور الأردن، والـواصلـة بين مـدينتـي طبقـة فحـل وبيسـان، في مـواقـع طـواحين السكـر، وتـل الأربعين(٢٠)، الواقعة على بعد ٨٠٠ متر للشرق من تل قدسية، وعلى ذلك يمكن تتبع الطريق الواصلة بين مدينتي طبقة فحـل وبيسان، وذلك حسب المعطيات الأثرية،كما يلي: طبقة فحل، طواحين السكر، تل الأربعين، تل قدسية، جسر الشيخ حسين، وبيسان.

كشفت الحفريـات الأثرية في موقـع طبقة الفحل عن منشـآت معمارية كبيرة ومخلفات أثـرية أخـرى تعود للعصر العبـاسي الفاطمـي. ويـرجح الأثـاريون القـائمون على هـذه الحفـريـات أن هـذه المنشآت المعماريـة أستخـدمـت لأغـراض عـامة كـأسـواق تجاريـة أوخـــــان(٢١). وكشفت الحفريات الأثرية في موقع تل قدسية، رغم صغَر المساحة المحفـورة، عـن مخلفـات حضـاريـة ضمـن طبقـات أثـريـة تعـَود للعصر العبـاسي/ الفـاطمـي(٢٢). كما عُثر على مثيل لهذه المخلفات الأثرية في موقع قم الأثري(٢٣)، الواقع على المرتفعات الشرقية بين مدينتي اربد والشونة الشمالية.

كما أمكن التعرف على مخلفات أثرية تعود للعصر العباسي/ الفاطمي على سطح عدد من المواقع في منطقة وادي العرب[٢٤]، الواصل بين المرتفعات الشرقية، في شمال الأردن، وغور الأردن، قرب الشونة الشمالية. إن المعطيات الأثرية الآتية من هذه المواقع تدفع للأعتقاد بوجود خط تجاري آخر يمر عبر غور الأردن في العصر العباسي، يوصل بين الطريق الرئيسي المار عبر طبريا وبيسان، الى حوران، مخزن القمح والحبوب، كما وصفت من قبل المقدسي[٢٥] في القرن العاشر الميلادي. ويُعتقد بأن هذا الخط التجاري يمر عبر بيسان، وتل قدسية، ووادي العرب، وقم، واربد، والكسوة، ودمشق. ولعل الحفريات الأثرية في شمال الأردن، تسعفنا في المستقبل في تتبع أدق لمراحل هذا الخط التجاري، والذي يمثل أصل الطرق التجارية والمدعوة لاحقاً بإسم درب «القفول».

تمكن الصليبيون منذ بداية القرن الثاني عشر الميلادي من احتلال فلسطين وأجزاء من جنوب الأردن، وأسست فيها مجموعة من الحصون العسكرية[٢٦]، كما أنشأ الصليبيون عدداً من القلاع العسكرية على الطريق التجارية الأساسية، والواصلة بين حاضرتي الخلافة الإسلامية، دمشق والقاهرة، والمارة عبر غور الأردن الشمالي. نذكر من هذه القلاع، قلعة طبريا، وقلعة بيسان، وقلعة الطور. ونتج عن هذا الحتلال أن قطعت طريق الإتصال المباشر بين دمشق والقاهرة، المارة عبر الجزء الشمالي من غور الأردن[٢٨]. فاستخدمت طرق أخرى أكثر مشقة وأبعد مسافة، لتمر عبر صحراء سيناء جنوب فلسطين، وجنوب الأردن، ومن ثم عبر شرق الأردن ومحاذاة المنطقة الصحراوية الى دمشق. ومن هذه الطرق «درب البدرية» التي كانت تمر عبر جنوب فلسطين، موصلة الى وادي موسى، ثم عبر شرق الأردن الى دمشق[٢٩]. واستعمل هذه الطريق السلطان المملوكي بيبرس عام ١٢٧٦م للوصول الى البتراء والكرك، وحددت أهم المحطات الواقعة عليه. كما استخدمت طريق أخرى أقصر مسافة من الأولى، ولكنها أكثر خطراً، وهي الطريق المارة عبر جنوب فلسطين الى غور الصافي أو غور دامية، وثم عبر شرق الأردن الى دمشق[٣٢].

ويبدو أن المدن الإدارية العائدة للعصر العباسي/ الفاطمي، والواقعة في غور الأردن كطبريا، وبيسان، وطبقة فحل، واريحا، قد تقلصت الى أن اصبحت قرى صغيرة في القرن الثاني عشر الميلادي[٣٢]، وظهرت، بدلاً منها، مدن جديدة في القرن الثالث عشر الميلادي، مثل القصير (الشونة الشمالية)، وعمتا (قرية أبو عبيدة حالياً)، وبيت الرام (قرية الرامة حالياً) ودير الخصيان (موقع غير معروف لكنه يقع في غور البلقاء)[٣٣]. ويبدو أن المدن الإدارية العائدة للعصر العباسي/ الفاطمي، والواقعة في غور الأردن، قد أصابها الدمار والهجران، نتيجة لوقوعها على الطرق الحربية بين الأيوبين والصليبيين. كما يبدو أن بناء قلعة الربض عام ١١٨٤م قد وفر الامن والإستقرار للقرى الزراعية الواقعة في وسط غور الأردن، لتظهر مدينة عمتا (أبو عبيدة) كحاضرة غور الأردن الأساسية في القرن الثالث عشر الميلادي[٣٤].

شهد غور الأردن، إزدهاراً اقتصادياً نظراً لإنتعاش الزراعة الصناعية، المتمثلة بزراعة قصب السكر في غور الاردن(٣٥)، ومرور طرق المواصلات الرئيسة بين دمشق والقاهرة عبر الجزء الشمالي من غور الأردن، مماساعد على نقل المنتوجات الزراعية والصناعية من غور الأردن الى مراكز التمدن، خلال العصر المملوكي، ازدهاراً زراعياً ونمواً سكانياً وخلال العصر الأيوبي/ المملوكي، شهد غور الأردن كثافة سكانية عالية. ويبدو أن زراعة قصب السكر تتطلب جهوداً بشرية مدربة وكبيرة العدد، ولذلك فقد جلب الأمراء الأيوبيون والمماليك أعداداً بشرية كبيرة(٣٧) (يُعتقد بأن غالبيتها جاءت من شمال افريقية) للإشتغال بحقول قصب السكر وبناء الطواحين اللازمة لصناعة السكر والآنية الفخارية اللازمة لتصنيع السكر، تلك التي سماها النويري بالأباليج(٣٨). وتؤيد نتائج المسوحات والحفريات الأثرية التي جرت في غور الأردن ازدهاره وكثرة قراه الزراعية، والعائدة للعصر الأيوبي/ المملوكي (انظر الخارطة رقم(١). فقد سجلت بعثة مسح غور الأردن في عام ١٩٧٥ و١٩٧٦م مائة وتسعة عشر موقعاً(٣٩)، تمثل ما نسبته ١,٥٣٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في غور الأردن، وقد ظهرت على سطحها مخلفات حضارية عائدة للعصر الأيوبي/ المملوكي. وقد وصفت ثلاث وثلاثين موقعاً من هذه المواقع على أن غالبية المخلفات الحضارية الظاهرة على سطحها تعود للعصر الأيوبي/ المملوكي. كما وصفت بعض هذه المواقع، كقرى زراعية، وأخرى خصصت لأغراض تصنيع السكر(٤٠). أما في منطقة جسر الشيخ حسين، فقد عثِر على المخلفات الحضارية العائدة للعصر الأيوبي/ المملوكي في ستة مواقع، وقد قُسِّمت هذه المواقع أيضاً الى قسمين، أُستخدم الأول منها كقرى زراعية، وأُستخدم الثاني كمراكز لتصنيع السكر من قصب السكر، وذلك من خلال العثور على كميات كبيرة من الشقف الفخارية التي تخص أواني تصنيع السكر أو العثور على إنشاءات معمارية أُستخدمت كمعاصر لقصب السكر(٤١). كما أُمكن أيضاً وضع التصنيف السابق للمواقع الأثرية التي حملت على سطحها مخلفات حضارية عائدة للعصر الأيوبي / المملوكي في منطقة سليخات(٤٢). وقدّر الباحث حمارنة، عدد طواحين السكر، والعائدة للعصر الأيوبي/ المملوكي، في غور الأردن بحوالي ٣٠ طاحونة(٤٣). وقامت الباحثة أبو دلو، بدراسة وتوثيق بعضها والواقعة في شمال ووسط غور

ونظرا لاهمية غور الاردن الاقتصادية في العصر المملوكي فقد قسم الى اربع ولايات هي : الغور الامجدي ، والغور التقوي ، وغور بيسان ، وغور قصير بن معين (الشونة الشمالية)(٤٨) . ويضيف ابن شداد (٤٩) ان الغور هو ضمن ولاية دمشق وقسم الى غور طبريا والسواد . ولقد وزعت هذه الاقسام بين الامراء المماليك الحربيين كاقطاع حربي ، ومثال ذلك منح السلطات المملوكي بيبرس كامل منطقة القصير (الشونة الشمالية) للامير عز الدين الاتابك الفخري (٥٠).

ويبدو ان النشاط الزراعي والصناعي لقرى ومدن غور الاردن ، في العصر الايوبي / المملوكي ، قد وفر مادة كبيرة للمتاجرة بها كما ان نظام الاقطاع الحربي في العصر الايوبي / المملوكي قد وفر الأمن والاستقرار في المنطقة ويبدو ان هذه الامور من ابرز العوامل التي ساعدت على نشاط الطرق التجارية المارة عبر غور الأردن . ومما يؤكد هذه الرؤية التوزيع المكاني للمواقع الاثرية ، والتي ظهر على سطحها مخلفات حضارية تعود للعصر الايوبي / المملوكي . حيث تركز وجود هذه المواقع بالقرب من الطرق التجارية المارة عبر غور الاردن ، كطريق بيسان ، الشونة الشمالية — زحر — اربد — او طريق اريحا ، الكفرين ، عمان (٥١).

ويبدو ان النشاط الزراعي والصناعي لقرى ومدن غور الاردن في العصر الايوبي / المملوكي ، بالاضافة الى مرور طرق التجارة الرئيسية عبره ، قد عكس اثرهما على تسمية بعض المواقع ، فمثلاً نلاحظ تغير اسم قصير معين الدين الذي ظهر في الفترة الايوبية الى اسم الشونة الشمالية في العصر المملوكي ، والتي يقابلها في جنوب غور الاردن ، الشونة الجنوبية ، وتدل الدراسة اللغوية الدلالية لموقع الشونة انه استخدم كمركز لتجميع او تخزين المنتوجات الزراعية كالحبوب ، والصناعية كالسكر (٥٢) ، استعداداً لتصديرها الى المراكز الحضرية الكبيرة كدمشق والقاهرة ومما يعزز ذلك ، وقوع كل من الشونة الشمالية والشونة الجنوبية على طرق تجارية. كما ان اصول هذه التسمية «الشونة» والتي جاءت من اللغة القبطية (٥٣)، تدل بشكل واضح على استخدام مصطلحات جديدة في غور الاردن آتية مع نفوذ الامراء المماليك في المنطقة . وبذلك فان النشاط الزراعي والصناعي لقرى غور الاردن في العصر المملوكي ، كان من اهم العوامل التي أدت الى انتعاش الطرق التجارية المارة عبره .

ويبدو ان الطريق التجارية المباشرة بين القاهرة ودمشق قد انتعشت مرة اخرى مع زوال الخطر الصليبي عن وسط فلسطين . كما يستدل من تتبع المحطات الرئيسية الواقعة عليه ، ان هذه الطريق قد تحول مسارها من مرتفعات الجولان الى شمال الاردن . فانشأ السلطان المملوكي بيبرس سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م على هذه الطريق مجموعة مراكز، دعيت باسم محطات البريد (٥٤)، ومع ان الهدف من انشاء هذه الطريق كان

عسكرياً اكثر منه تجارياً الا انها ساعدت في حماية التجار من الاعتداءات، وفي رسم الطريق التجارية لاحقاً، ومن هذه المحطات ما تطور ليصبح خاناً على هذه الطريق، التي دعيت في نهاية العصر المملوكي وخلال العصر العثماني باسم درب القفول. نذكر من هذه المحطات بيسان، والمجامع وزحر، والطيبة، واربد (٥٥) ويرى هارتمان، (٥٦) ان السلطان المملوكي بيبرس، اسس محطات البريد الى الجنوب والشرق من مناطق النفوذ الصليبي، والذين حتى فترة تأسيس خط البريد، يسيطرون على مدن الساحل الفلسطيني ومنطقة الجليل وبناء على ذلك يرى متمان (٥٧) ان محطات البريد هذه لم تنشأ على الطريق الروماني، وانما اسست على طريق مباشر بين اربد وبيسان عبر غور الاردن، ويرى هذا الباحث أيضاً، ان من بين المحطات الواقعة على طريق البريد في غور الاردن، جسر الشيخ حسين، وتل الاربعين، ووقاص، والقصير (الشونة الشمالية)، ومن ثم الى اربد بمحاذاة وادي العرب. وانتقلت هذه الطريق لاحقاً في نهاية القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر الى الشمال قليلاً حيث حدد القلقشندي (٥٨) معالمها بذكره للمحطات التجارية الواقعة عليها، نذكر منها: عيون التجار، الجسر (جسر الجامع) والقصير (الشونة الشمالية)، وزحر العقبة (وتسمى ايضاً زحر النصارى) واربد (انظر الخارطة رقم ١، الطريق رقم ٢). ويبدو ان انتقال الطريق التجاري للشمال قليلاً لتمر عبر زحر العقبة بدلا من الطيبة، كان سببه زوال الخطر الصليبي خلال هذه الفترة من ناحية، ولتلافي الصعاب الناتجة عن مرور هذه الطريق عبر اراضي جبلية وعرة من ناحية ثانية.

ولتسهيل المرور عبر نهر الاردن، اقيمت عليه في الفترة المملوكية عدة جسور ففي سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥ م امر السلطان بيبرس ببناء جسر على نهر الاردن في منطقة دامية (٥٩) وبذلك نشط الخط التجاري المار عبر جنوب غور الاردن والواصل الى عمان ومن ثم الى دمشق عبر درعا. وأمر السلطان برقوق سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢ م ببناء جسر اخر على نهر الأردن في المنطقة الواقعة بين الشونة الشمالية وبيسان (٦٠) وذكر العمري مجموعة جسور على نهر الاردن وتقع جميعها في غور الأردن الشمالي، منها يعقوب الصنبرة، والعادلي، وسامات المقارن، وجسر شامة (٦١)، وتمكنت بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥ م من رصد بعض من هذه الجسور المدمرة، منها بقايا جسر اعتقد انه يعود للعصر المملوكي، يقع على الطرف الجنوبي الشرقي لموقع مقام الشيخ حسين، (الموقع رقم ٤٢)(٦٢) والواقع بين تل قدسية وبيسان.

وحدد القلقشندي وابن تغري بردي المحطات التجارية الواقعة على الطريق الموصل بين القاهرة ودمشق في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ، نذكر منها في غور الاردن بيسان والجامع والقصير، (٦٣) ولقد اهتم السلاطين والامراء

المماليك بهذا الخط التجاري وذلك لانه يمثل الخط التجاري المباشر والواصل بين حاضرتي السلطنة المملوكية، دمشق والقاهرة. فقد اسس هذا الخط التجاري الاخير واعتنى به الامير الدمشقي سيف الدين تنكنز وكان ذلك سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م (٦٤) كما انشئت عليه الى جانت مجموعة من السور محطات تجارية عديدة (خانات)(٦٥). نذكر من هذه الخانات في غور الاردن، خان الاحمر في منطقة بيسان، الذي بناه الوالي الدمشقي سلار سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م (٦٦) وذراع الخان، الواقع على بعد ٥ر١ كم للجنوب الشرقي من مدينة الشونة الشمالية (٦٧).

شهد غور الأردن خاصة، وجنوب بلاد الشام عامة، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر الميلاديين، مجموعة عوامل سلبية، ادت الى ظهور تغييرات اساسية في انماط الإستيطان والانتاج الزراعي، نذكر منها، ضعف الدولة المملوكية عسكرياً واقتصادياً أدى الى قلّة حماية المزارعين من غارات القبائل البدوية، وزيادة في نسبة الضرائب المدفوعة على الانتاج الزراعي (٦٨) الامر الذي ادى الى هجرة القرى الزراعية. كما ان الطواعين والحميات والاوبئة اثرت بشكل مباشر على التعداد السكاني في بلاد الشام عامة، وغور الاردن خاصة حيث ادت هذه الاوبئة التي حدثت ما بين ١٣٤٧/ ١٥١٦م الى انقاص التعداد السكاني في هذه المنطقة الى الثلث. ويشير الى ذلك صراحة المقريزي، حيث سجل هذا المؤرخ ان الاوبئة التي حدثت سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٨٢م، ادت الى افناء سكان الغور وعكا، وصفد، والقدس، ونابلس والكرك والبدو كما أهلك الطاعون، الذي حدث في سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م الحيوانات البرية في غور الاردن ويذكر المقريزي وابن تغري بردى ان الاسود، والحمر الوحشية، والذئاب، والخنازير، والارانب البرية، عثر عليها مطعونة ايضاً، ويبدو ان هذه الاوبئة ادت الى انخفاض كبير في عدد المشتغلين في حقول قصب السكر، كما قلت الماشية المدربة في حرث الارض وادارة الطواحين مما ادى الى توقف انتاج السكر في غور الاردن في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.

ومما يدعم هذه الرؤية، ان وظيفة شادّ السكر التي كانت موجودة في القرن الرابع عشر الميلادي في غور الاردن قد قلت اهميتها في القرن الخامس عشر الميلادي، لتدمج مع وظيفة ناظر الخاص (ناظر الاملاك السلطانية) (٧٣) كما ان استعراض سريع للمنتوجات الزراعية لقرى غور الاردن والعائدة لنهاية القرن السادس عشر الميلادي، والمسجلة في سجلات الدولة العثمانية تشير بشكل واضح الى عدم ذكر زراعة قصب السكر ضمن تلك المنتوجات (٧٤). كما ان تصدير مادة السكر وهو الانتاج الرئيسي لقرى غور الاردن في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين الى اوروبا قد توقف (٥٧). وبدلاً من ذلك اخذت منطقة الشرق تستورده من قبرص وصقلية في القرن الخامس عشر الميلادي (٧٦).

كما شهدت منطقة جنوب بلاد الشام خلال القرن الخامس عشر الميلادي نشاطاً ملحوظاً لتحرك القبائل البدوية التي اخذت توسع اماكن تواجدها باتجاه المناطق الزراعية . كما اخذت هذه القبائل البدوية تهدد طرق التجارة والحج المارة عبر جنوب بلاد الشام (٧٧).ويبدو ان القبائل البدوية قد احكمت سيطرتها على مناطق واسعة من جنوب بلاد الشام في القرن الخامس عشر الميلادي، حيث يسجل المؤرخ ابن طولون تسيير حملات عسكرية لحاكم مدينة دمشق المملوكي ضد القبائل البدوية المتواجدة في حوران والزرقاء وشمال غور الاردن. ويشير المقريزي بشكل مباشر، ان القبائل البدوية هاجمت غور الاردن في عام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩ م ووصلت الى القصير (الشونة الشمالية) حيث قتلت عددا من العمال المشتغلين بتصنيع السكر، ونهبت ما عثرت عليه من هذه المادة وهددت طرق المواصلات التجارية الواصلة بين دمشق والقاهرة (٧٩).

ويبدو ان انخفاض التعداد السكاني الناتج عن الطواعين والاوبئة المتكررة وفقدان الامن، وزيادة الضرائب على مزارعي غور الاردن في العصر المملوكي المتأخر كانت من اهم الاسباب التي ادت الى ما يلي : اولاً تغير في اقتصاد قرى غور الاردن من اقتصاد تجاري يقوم اساساً على الزراعة الصناعية (زراعة قصب السكر) الى زراعة الاكتفاء الذاتي، وثانياً ظهور تحول في سير خطوط الطرق التجارية المارة عبر شمال غور الاردن. ويبدو ان فقدان الامن على الطريق المارة عبر شمال الاردن، والتغيير الذي حل في طبيعة الانتاج الزراعي والصناعي في مناطق مرور هذه الطرق (شمال غور الاردن وحوران) الذي لم يعد انتاجاً تجارياً كانت من اهم العوامل التي ادت الى تغيير مسار الطريق الرئيسي الواصل بين دمشق والقاهرة حيث يعتقد هارتمان ان الخط التجاري المار عبر بيسان فالمجامع فزحر، فاربد استبدل بخط تجاري اخر في الفترة الواقعة بين ١٤٧٠ — ١٧٠٠ م وكانت الطريق التجارية الجديدة تمر بهضبة الجولان عبر فيق، وجسر بنات يعقوب، وصفد (٨٠). كما ان طريق الحج التجارية الواصلة بين القدس واريحا وعمان قد تبدل مسارها هي الاخرى خلال هذه الفترة لتتخذ مساراً يتجه نحو الجنوب من البحر الميت (٨١).

صاحب الحكم العثماني لمنطقة جنوب بلاد الشام في القرن السادس عشر الميلادي بعض الاستقرار، وشكلت المنتوجات الزراعية عماد اقتصاد قرى الاردن (٨٢)، وبالمقابل شهدت فلسطين زيادة سكانية واستقرار امني ومدني (٨٣) ومن اجل حماية طريق الحج الواصل بين دمشق ومكة، والمار عبر شرقي الاردن، انشأت الدولة العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين سلسلة من الحصون العسكرية نذكر منها ضبعة والقطرانة والحسا والعنزة ومعان وفاصوعة،

والمدورة (٨٤). وساعد وجود مثل هذه القلاع على حماية التجار والحجاج ، كما شجع على الاستقرار في المناطق الداخلية من الاردن والاشتغال بالزراعة (٨٥). وبناءً على دراسة سجلات ضرائب الدولة العثمانية والعائدة لنهاية القرن السادس عشر الميلادي رصدت ست عشرة قرية في غور الاردن وقد مثل انتاجها الزراعي كالقمح والشعير والنيلة عمادها الاقتصادي (٨٦) ولكن يبدو ان تأثير سيطرة القبائل البدوية على غور الاردن منذ نهاية العصر المملوكي ، قد استمر ايضا في نهاية القرن السادس عشر الميلادي ، ويستدل على ذلك من خلال وصف سجلات ضرائب الدولة العثمانية لبعض قرى غور الاردن كالمخيبة وبيت رامة (الرامة) وحمة جور (حمة الغور) على انها خربة ومهجورة (٨٧) . ولعل نمط الاستيطان في بعض قرى غور الاردن خلال القرن السادس عشر الميلادي قد تحول من مستقر دائم الى نصف مستقر حيث يظهر ان تربية الماشية اخذت تشكل جزءاً هاماً من اقتصاد قرى غور الاردن خلال هذه الفترة (٨٨) .

ويبدو ان الطريق التجارية الجديدة المارة عبر هضبة الجولان، جسر بنات يعقوب وصفد ،كانت هامة للدولة العثمانية ، وذلك لأنها تمثل الطريق الرئيسة والواصلة بين القسطنطينية (العاصمة) ، ودمشق والقاهرة ،و لذلك اقيمت عليها مجموعة من المحطات التجارية ومحطات البريد ، نذكر منها خان التجار، بالقرب من بحيرة طبريا (٨٩). ويبدو ان السير على هذه الطريق في نهاية القرن السادس عشر الميلادي لم يكن آمناً ايضاً، اذ تذكر لنا بعض الوثائق العثمانية ان اهم محطة على هذه الطريق ، خان عيون التجار ، اصبحت مكاناً لالتقاء اللصوص والبدو (٩٠). ولذلك اسست على هذه الطريق قلاع عسكرية نذكر منها قلعة خان التجار بالقرب من مدينة طبريا ، والتي بناها حاكم مدينة دمشق ، سنان باشا عام ١٥٨١ م(٩١) واكد هذا الامر الرحالة العربي، عبد الغني النابلسي ، الذي بدأ رحلته من دمشق الى القدس في يوم الاثنين في ١٧ جمادى الثانية سنة ١١٠١ هـ/ آذار سنة ١٦٩٠م، عبر داريا وخان الشيخ وقرية سعسع ، والقنيطرة وجسر بنات يعقوب وجب يوسف وخان المنية وخان التجار ، وقرية الناعوة وقرية جلمة، وجنين ذ وعرابة ، ونابلس وعورتا ، وجماعين . ومردا وعقبة اللبن والبيرة والشيخ جراح ، والقدس. وذكر هذا الرحالة ان كثيراً من الخانات التي صادفها في طريقه كانت خالية او خربة، خاصة تلك المتواجدة في منطقة طبرية وان الطريق في منطقة الحولة في غاية الخطورة (٩٢).

ويبدو ان سياسة القادة الادارين المحليين في فلسطين كظاهر العمر (١٧٥٠ — ١٧٧٥م) واحمد الجزار (١٧٧٧ — ١٨٠٤م) في حماية القرى الزراعية الواقعة في شمال وسط فلسطين هي الاخرى قد اكدت تواجد القبائل البدوية كالسردية والصقر ، وصخور الغور في شمال غور الاردن (٩٣). الا ان نفوذ هذه القبائل قد وصل الى وسط فلسطين في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي (٩٤) .

ويظهر ان الطريق التجارية الفرعية المارة عبر شمال غور الاردن في الفترة الممتدة بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر الميلادي ، كانت غير آمنة ولذلك لم تذكر من قبل المؤرخين والرحالة. ويشير بعض الرحالة صراحةً ان الطريق القديمة والمباشرة الواصلة بين دمشق والقدس عبر شمال الاردن كانت خطرة ولذلك استخدمت الطريق المارة عبر الجولان ، وجسر بنات يعقوب، والجليل (٩٥).وعلى الرغم من ذلك فان هنالك دلالات واضحة على ان جميع طرق المواصلات المارة عبر الجولان وفلسطين خطرة ايضاً ، وان انتقال التجار والحجاج ، والرحالة من محطة الى اخرى يتم بحراسة القوات العسكرية العثمانية (٩٦) . كما وصف الرحالة عبد الغني النابلسي ، الذي زار القدس في عام ١٦٩٠م محطة خان عيون التجار على انها محطة رئيسة على درب القفول . الا ان الحالة الامنية في هذه المنطقة — طبريا — هي في غاية الخطورة ، وان الوقف المجاور لهذه المحطة مدمر وان الطعام في هذه المنطقة قليل، ومن اراد الموت فليأت لهذا المكان (٩٧). كما وصف الرحالة الاوروبي ساندرسون الذي زار فلسطين عام ١٦٠١ م هذه الحالة الامنية السيئة ايضاً(٩٨).

يعتبر الرحالة عبد الغني النابلسي اول من اشار الى تسمية درب القفول ، الواصل بين محطة عيون التجار فالجامع ، فالشونة الشمالية فزحر فاربد (انظر الخارطة رقم ١ الطريق رقم ٢). كما ذكر هذه الطريق، بنفس التسمية في القرن التاسع عشر الميلادي الرحالة الاوربي شوماخر (٩٩) . ويبدو ان الطريق الواصلة بين محطة عيون التجار وجسر المجامع يتفرع الى فرعين الاول يتجه نحو الحمة وام قيس واربد وتدعى هذه الطريق باسم درب الحوارنة (١٠٠) (انظر الخارطة رقم ١ الطريق رقم ٣) . اما الفرع الثاني فيتجه من عيون التجار فجسر الجامع فالشونة الشمالية ، فزحر ، فاربد، وتدعى هذه الطريق باسم درب القفول. ويبدو ان الطريق الاول درب الحوارنة كان أكثر شهرةً واستعمالاً من الطريق الثانية، في العصر العثماني المبكر (القرن السادس عشر — القرن الثامن عشر الميلادي). ومما يدل على ذلك تأسيس اسواق تجارية على هذا الدرب في القرن السادس عشر الميلادي ، نذكر منها سوق حبراص(١٠١). كما اسست على هذه الطريق محطة مكوس لجمع الضرائب المستحقة على المسافرين والتجار. ولقد اسست هذه المحطة في مدينة ام قيس الاثرية والتي اخذت اسمها هذا نسبة الى ضريبة المكوس بدلاً من اسمها القديم جدر (١٠٢). كما سلك هذه الطريق بعض الرحالة الاوروبين في القرن التاسع عشر الميلادي للوصول الى منطقة اربد مثل بيركهاردت (١٠٣). ومن خلال تتبع المواقع التي ذكرها هذا الرحالة بين جسر المجامع واربد ، يمكننا تتبع اهم المحطات الواقعة عليه وهي : ام قيس ، وآبيلا (حرثا) وعين تراب ، وحبراص ، واربد .

ويجدر بالقوافل التجارية الآتية من سهول حوران ومنطقة عجلون والمحملة بالحبوب، ان تسلك طريق الحوارنة الى الطريق الاساسي المار بفلسطين نحو القاهرة ودمشق والموانىء الفلسطينية وذلك لوجود محطة مكوس (ام قيس) بينما تسلك هذه القوافل في طريق عودتها درب القفول وذلك لسهولته وعدم حاجتها لدفع ضريبة المكوس، ويعتقد بان هذه الطريق، اعتماداً على الدراسة اللغوية الدلالية، سميت بدرب القفول، لان التاجر يقفل راجعاً عبرها من حيث أتى.

وبالرغم من عدم ذكر اسم درب القفول في المصادر الكتابية العائدة للقرن السادس عشر الميلادي الا ان هناك دلائل لغوية وأثرية تشير الى استخدامه في العصر العثماني، رغم خطورة السير عليه. وقد اسست الدولة العثمانية محطات ثابتة على طرق التجارة، يدفع فيها المسافرون والتجار، ضرائب حماية تدعى باج غفر»، وان الدراسة اللغوية الدلالية لوادي الغفر، الواقع على درب القفول، قبل الوصول الى مدينة اربد من الناحية الغربية مباشرة (١٠٤) تدل على ان محطة باج غفر كانت موجودة في هذا الوادي. وان هذا الوادي اخذ اسمه «وادي الغفر» المتداول حالياً، في الفترة العثمانية نسبة الى اسم هذه الضريبة (١٠٥) كما تشير المكتشفات الاثرية في منطقة درب القفول على ان هذه المنطقة قد استمر الإستيطان فيها من العصر المملوكي الى العصر العثماني، حيث امكن التعرف على محطات حضارية عائدة للعصر العثماني في عدة مواقع • في منطقة وادي العرب المحاذي لدرب القفول من الناحية الشمالية، بالاضافة الى تسجيل عدد من الطواحين عليه والتي كانت تستخدم لطحن الحبوب (١٠٦). كما عثر على عدد من الطواحين في موقع قم تعود للعصر العثماني (١٠٧).

وكمحاولة من الدولة العثمانية لاحكام سيطرتها على غور الاردن في القرن الثامن عشر الميلادي، فقد قسم ادارياً الى ثلاثة أقسام: الاول ويشمل المنطقة الشمالية من غور الاردن (المنطقة الممتدة من نهر اليرموك شمالاً الى وادي الجرم جنوباً) ويتبع عمل بيسان وثم المنطقة الوسطى (ويشمل المنطقة الممتدة من وادي الجرم شمالاً الى نهر الزرقاء شمالاً الى البحر الميت جنوباً) ويتبع عمل البلقاء ونابلس (١٠٨)، ولكن لم يقف الكاتب على اي دليل اثري او وثائقي يدل على وجود استقرار قروي ثابت في غور الاردن خلال هذه الفترة واستمر هذا الحال في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، حيث بالرغم من اصلاحات ابراهيم باشا (١٨٣١ — ١٨٤١ م) الادارية والزراعية في منطقتي الحولة وبيسان (١٠٩). لم تظهر قرى زراعية ثابتة في غور الاردن ويبدو ان من اهم الاسباب المؤدية الى ذلك هو تعاظم قوة القبائل البدوية المستقرة في غور الاردن حيث انها ثارت ضد ابراهيم باشا (١١٠) وافشلت مشاريعه وزادت قوة القبائل البدوية بعد رحيل ابراهيم باشا عن بلاد الشام في عام ١٨٤١. حيث هاجمت القرى الزراعية في منطقة عجلون وحوران وهددت طرق التجارة (١١١).

وعلى ذلك يعتقد كارمون (١١٢) ان الطريق التجارية المارة عبر شمال غور الاردن «درب القفول» كانت غير مستعملة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلادي وبدلاً منها استخدمت الطريق المارة عبر جسر المجامع، فالحمة فأم قيس، فأربد (درب الحوارنة).

ويبدو ان حالة الفوضى التي شهدتها جنوب بلاد الشام عامة، والأردن خاصة بعد رحيل قوات ابراهيم باشا عن بلاد الشام، دفعت الحكومة العثمانية الى ارسال قواتها العسكرية للسيطرة عليها وبشكل عملي. واستطاعت هذه القوات من السيطرة على الأردن من شماله الى جنوبه ما بين عام ١٨٥٠ وعام ١٨٩٣ (١١٨) وتمكنت هذه القوات بمساعدة القرويين من منطقة عجلون من الحاق هزيمة كبيرة بالقبائل البدوية (صخور الغور وعرب السعدية) المتمركزة في شمال غور الاردن (١١٤) ومع هذا الانتصار العثماني ظهر استقرار عام في المنطقة، وساعد على تثبيت هذا الاستقرار انشاء سكة حديد الحجاز المارة عبر شرقي الاردن (١١٥).

وظهر في القرن التاسع عشر الميلادي حاجة ماسة للحبوب في الأسواق الأوروبية (١١٦) وكنتيجة لهذه الحاجة ولإستتباب الامن في المنطقة، زرعت مساحات واسعة من سهول حوران والغور، بالحبوب (١١٧). ونتيجة لارتفاع درجة الحرارة في الغور فان الحبوب المزروعة فيه تنضج قبل تلك المزروعة في سهول حوران، وبالتالي يحصل مزارعو الأغوار على أسعار مرتفعة (١١٨). ولقد نشأ عن هذا النشاط الزراعي ان اخذت قرى غور الاردن بالظهور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ابتداء من المنطقة الشمالية ومن هذه القرى العدسية، والشونة ومعاذ، وعراق الراشدان والقليعات، وتل الاربعين (١١٩)، وبذلك عادت الى غور الاردن منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الزراعة التجارية المتمثلة بزراعة الحبوب لقد شاهد الرحالة الاوروبين الذين زاروا غور الاردن خلال هذه الفترة حقول القمح المزروعة فيه (١٢٠)، ونتيجة حتمية للنشاط الزراعي التجاري، فقد عادت الحياة مرة اخرى للطرق التجارية المارة عبر شمال عور الاردن. ونخص منها بالذكر درب القفول الذي استعمل بشكل مكثف في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين للوصول الى سهول حوران الخصبة، والى سكة الخط الحديدي الحجازي، (١٢١) والتي وصفها الرحالة شوماخر، بانها الطريق الاساسية لنقل الحبوب من سهول حوران وجبل عجلون الى موانيء حيفا وعكا، اذ كانت القوافل تنقل عليها ما بين ٨٠٫٠٠٠ — ١٠٠٫٠٠٠ طن من الحبوب سنوياً (١٢٢)، وبقيت هذه الطريق نشطة الاستعمال حتى عام ١٩٤٨، حيث قطعت مع الاحتلال الاسرائيلي لفلسطين.

موقع ذراع الخان كشاهد مادي على درب القفول :

سجل الاثاريون الذين مسحوا منطقة غور الاردن عام ١٩٨٥ م . موقعاً أثرياً بالقرب من ضريح معاذ بن جبل، على بعد ٥ر١ كم للجنوب الشرقي من بلدة الشونة الشمالية ، يدعى ذراع الخان ، ووصفت المخلفات المعمارية الظاهرة على السطح بانها منشأة معمارية كبيرة ، اعتقد انها تمثل خاناً يعود الى الفترة المملوكية، او العثمانية (١٢٣) ، وارخت الشقف الفخارية الملتقطة عن السطح الى الفترات الاموية ، والايوبية ، المملوكية ، العثمانية، (١٢٤) كما سجل بيركهارت، إن القريتين الوحيدتين اللتان كانتا مأهولتين في شمال غور الاردن وقت زيارته لمنطقة شمال فلسطين في عام ١٨١٢ م هما، تل الاربعين ، ومعاذ (١٢٥). وسجل وجود بقايا خان يقع بالقرب من قرية معاذ (١٢٦). وزار الرحالة شوماخر، قرية معاذ، وقدر عدد سكانها بمائة واربعين نسمة، ولاحظ من هذه القرية وان هناك بقايا اثار لم تكشف بعد، ومن اجل تحديد تاريخ هذه المنشأة وتوضيح وظيفتها أُجْريَ في هذا الوقع حفرية اثرية في الفترة الممتدة بين ٢/ ١١ — ١٠/ ١٢/ ١٩٩٤ م (١٢٨) .

وقد تبين ان هذه المنشأة المعمارية مستطيلة الشكل (٥ر٦٢) م شمال/ جنوب × ٥ر٨٤م شرق / غرب) وباضلاع متوازية تحتضن مساحة وسطية مكشوفة (٥٣م شمال / جنوب × ٦١ م شرق / غرب) وظهر على طرفها الشمالي الشرقي والشمالي الغربي ابراج مربعة الشكل، (١٢٩) وبنيت الجدران الرئيسة لهذه المنشأة بصفين من الحجارة الجيرية المشذبة . واستخدم الملاط الجيري في تثبيتها ، وبلغ عرض هذه الجدران ١٢٠ سم استندت الى دعامات حجرية مربعة الشكل . أما الحجارة البازلتية فقد استخدمت في بناء مرافق البوابة الواقعة في منتصف الجناح الشمالي . وعثر على اعدادا كبيرة من الشقف الفخارية الخاصة بجرار التخزين في الجناح الشمالي ، مما يوحي بان الحجرات المجاورة للمدخل استخدمت لاغراض التخزين ويعتقد بان الحجرات المستطيلة التي عثر عليها في الجناح الشرقي استخدمت لاغراض السكن . اما الجناحان الجنوبي والغربي فلم نتمكن من التعرف على طبيعة استعمالها .

عثر في هذا الموقع على ١٢٤ قطعة، عملة/ التقطت ١٧ منها عن السطح وتراوح تاريخ قطع العملة التي وجدت في طبقات اثرية ما بين فترة حكم السلطان المملوكي قلاوون (١٢٨٠ — ١٢٩٠ م) والسلطان جقمق (١٤٣٨ — ١٤٥٣م) .

وعثر فوق هذه الطبقات الاثرية على حجارة ساقطة ، وقد غطت جميع مربعات الحفر . ويعتقد بان هذه المنشأة المعمارية قد هدمت بحدود ١٤٥٣ م، وذلك اعتماداً على التاريخ المتأخر لقطع العملة التي عثر عليها في طبقات اثرية في الموقع . ويتوافق هذا التاريخ مع زلزال حدث في سنة ١٤٥٦/ ١٤٥٧م، كان له اثر تدميري واضح على

المنطقة (١٢٠)، واما قطع العملة التي تعود الى فترات متأخرة كفترة السلطان قانصوه الغوري (١٥٠١ — ١٥١٦م) والسلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥م) فقد جاءت عن سطح الموقع.

اعتماداً على دراسة المخلفات الأثرية التي وجدت على الارضيات، وعلى الاختلافات الموجودة في الطرز العمائرية من حيث الاضافات، وقطع الحجارة فان هذه المنشأة المعمارية (الخان) قد بنيت، او اعيد بناؤها في مرحلتين: تعود الاولى الى فترة السلطان قلاوون، (١٢٨٠ — ١٢٩٠م)، والثانية الى الفترة الثالثة من حكم السلطان الناصر محمد (١٣١٠ — ١٣٤١م).

يبرز العثور على شقف فخارية مستوردة من سورية ومصر وبلاد فارس، والعثور على قطعتي عملة صليبية، وقطعة عملة إلخانيّة، اهمية هذا الموقع على خطوط التجارة في الفترة المملوكية. كما تشير الدلائل الاثرية كالعثور على قطع عملة تعود لفترة حكم السلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥م)، والعثور على شقف فخارية ضمن طبقات أثرية هي اقرب للسطح، مختلفة في تقنيتها عن تلك التي تعود للفترة السابقة المملوكية الى ان هذا الموقع استخدم في الفترة العثمانية ايضاً. ويؤكد ذلك التاريخ المتداول لدى السكان المحليين. ولكن لم يعثر على انشاءات معمارية تعود للعصر العثماني، وعلى ذلك يعتقد ان هذا الموقع استعمل في العصر العثماني، كمحطة استراحة قصيرة، حيث يتواجد بالقرب منه نبع ماء ومسجد الصحابي الجليل معاذ بن جبل، كما يحتمل ان هذا الموقع قد استخدم كأحد الاسواق المكشوفة على الطريق التجارية المارة بغور الاردن.

يستدل من هذا الإستعراض التاريخي والأثري، ان درب القفول المار عبر شمال الاردن يمثل احدى الطرق التجارية الرئيسة في العصر المملوكي للربط بين حاضرتي السلطنة المملوكية، دمشق القاهرة. وهناك دلائل أثرية وتاريخية واضحة، تدل على ان اصول هذه الطريق تعود للعصر العباسي، واستخدمت كطريق للبريد في العصر المملوكي المبكر. وقد مثل موقع ذراع الخان، الذي كشف عنه مؤخراً، احدى المحطات الرئيسة الواقعة عليه في شمال غور الاردن. وقد نشطت الحركة التجارية على هذه الطريق في ظل وفرة الانتاج الزراعي / الصناعي (قصب السكر) في العصر المملوكي، او الزراعي التجاري (الحبوب) لقرى غور الاردن في العصر العثماني المتأخر. ويبدو ان فقدان الامن والانتاج الزراعي القائم على مبدأ الاكتفاء الذاتي في نهاية العصر المملوكي وبداية العصر العثماني، كان من شأنها تغيير سير الخطوط التجارية الاساسية نحو الشمال لتمر بهضبة الجولان وشمال فلسطين. وبالرغم من ذلك، بقيت هناك طرقٌ تجارية فرعية (درب الحوارنة ودرب القفول) استعملت في العصر العثماني المبكر، وتوصل بين سهول حوران الخصبة وجبل عجلون مع الطريق الأساسية عبر محطة عيون التجار. وكان لاستمرارية استعمال هذه الطرق التجارية اثر واضح في استمرارية تواجد وانتعاش القرى الزراعية في شمال غور الاردن.

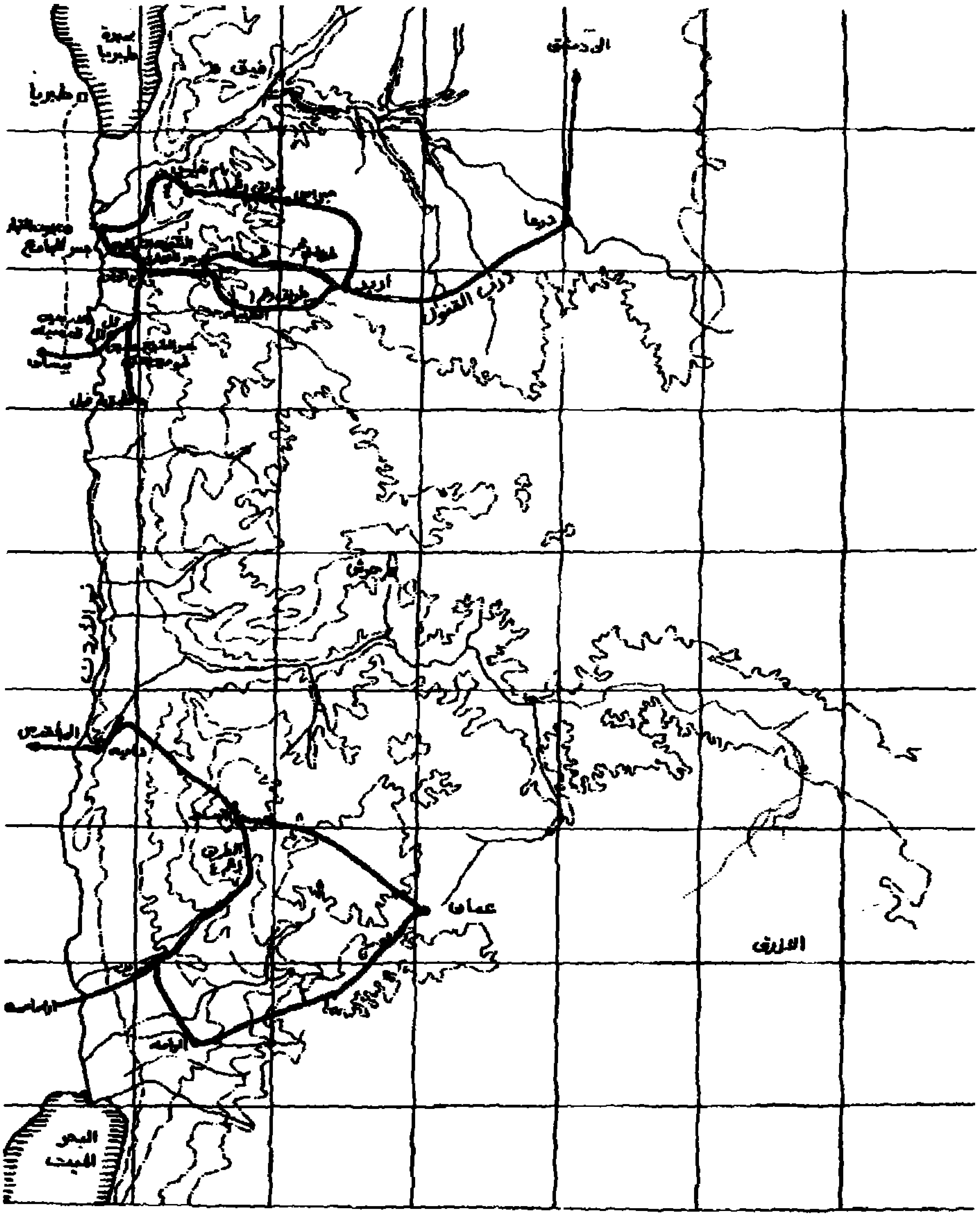

خارطة توضح الطرق التجاريه المارة في غور الاردن

المراجع

١—انظر الخارطة رقم / ١/ ،الطريق رقم / ٢/ .

٢—**الاصطخري**(اسحق بن ابراهيم). المسالك والممالك. تحقيق محمد جابر عبد العلي الحني، القاهرة، ١٩٦١ . ص٤٥، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الاصطخري، المسالك والممالك.

٣— **ابن الفقيه**، (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني). مختصر كتاب البلدان، تحقيق م.ج. كويج. ليدن، ص ٥٦، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان.

٤—**ابن حوقل**(أبو القاسم عبد الله بن عبد الله). كتاب صورة الأرض، ج١. تحقيق م.ج.كويج. ليدن،١٩٦٧ . ص١٨٠ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حوقل، كتاب صورة الأرض.

٥— **المقدسي**(محمد بن أحمد). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق م.ج.كويج. ليدن، ١٩٦٧ . ص ١٨٠ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: المقدسي، أحسن التقاسيم.

٦—**الادريسي**(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحساني). أنس المهج وروض الفرج. فرانكفورت، ١٩٨٤ . ص ١٥٥ ، ٣٥٩ ، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الإدريسي، أنس المهج.

٧—**الادريسي**، أنس المهج. ص ٣٧٧ .

ياقوت،(شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي). معجم البلدان، ج٢ ، طهران، ١٩٦٥ ، ص ٢١٧ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم البلدان.

Le Strange, Guy. Palestine Under The Muslims. London: Palestine Exploration Fund. 1965. P. 15.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Le Srange, G. 1965

٨—**ابن خرداذبة**(أبو القاسم عبيد الله) . كتاب المسالك والممالك. تحقيق قدامة بن جعفر. بغداد، ١٩٦٧ . ص ٩٤ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خرداذبة، كتاب المسالك والممالك.

٩—**الادريسي**، أنس المهج. ص ٣٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٧٧ .

١٠ — الادريسي، أنس المهج. ص ٣٥٥، ٣٧٧ .
الاصطخري، المسالك والمالك. ص ٤٣ ، ٤٥ .
ابن حوقل، كتاب صورة الأرض. ج١ . ص ١٧٠ ، ١٨٥ .
المقدسي، أحسن التقاسيم. ص ١٨٥ .

11- IBRAHIM, M; Sauer, J . And Yassine, K. "the East Jordan Valley, 1975" Bulletin Of American School Of Oriental Research(BASOR), Vol. 22. Atlanta: Scholars Press. 1976. Pp. 48-50, 62. Ibrahim; M. et al. 1976 .سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا:

Yassine, K; Ibrahim, M. And Sauer, J. "the East Jordan Vally Surey, 1976". ArchaEology Of Jordan: Essays And Reports. ed. K. Yassine. Amman; 1988. Pp. 157-208.
سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا: .Yassine, K. et al. 1988

١٢ — كريم (جمعة محمود). المسح الأثري لمنطقة سليخات في غور الاردن. بحث مقدم لمجلة دراسات الجامعة الأردنية، ١٩٩٤ ، غير منشور، سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا: كريم، المسح الأثري لمنطقة سليخات.

Kareem, J. Evidece Of The Umayyad Occupation In The Jordan Valley As Seen In The Jisr Sheikh Hussein Region. MA The Thesis. Institute Of Archaeologe And Anthropology- Yarmouk University. 1987. P. 451.
سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا:.Kareem. J. 1987

Kareem. J. "EVIDENCE Of The Umayyad Occupation In The Jordan Valley As Seen In The Djir Shaykh Husayn Region". Studies On The History Of Bilad Al-sham During The Umayyad Period. ed. Muhammad A. Bakhit And Mohammad Y. Abbadi. Amman, 1990, P.47.
سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا:.Kareem, J. 1990

كريم(جمعة محمود). «المسح الأثري لمنطقة جسر الشيخ حسين: الاغوار الشمالية لعام ١٩٨٦». أبحاث اليرموك سلسلة العلوم الانسانية والاجتماعية، المجلد السادس، العدد الأول، جامعة اليرموك، ١٩٩٠ ، ص ١٣٣ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: كريم، المسح الأثري لمنطقة جسر الشيخ حسين.

١٤ — المقدسي، أحسن التقاسيم. ص ١٨٤ .

Le Strange, G. 1965. P. 184.

١٥ — المقدسي، أحسن التقاسيم. ص ١٨٤ .

١٦ —أبو الفداء(عماد الدين اسماعيل بن محمد). تقويم البلدان. باريس، ١٨٤٠، ص ٢٢٣ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: أبو الفداء. تقويم البلدان.

ابن شداد(عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي). الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة(تاريخ لبنان والاردن وفلسطين). تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٦٢ ، ص ١٣٦ ، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن شداد، الاعلاق الخطيرة.

القزويني(زكريا بن محمد بن محمود) . آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت — دار صادر، ١٩٦٩ ، ص ١٤٢، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: القزويني، آثار البلدان وأخبار العباد.

القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي). صبح الأعشى في صناعة الانشاء. ج٤، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٧ ، ص ٨٧ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: القلقشندي، صبح الأعشى.

ياقوت(شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي) المشترك وضعاً والمفترق صقعاً. تحقيق فيردناند فوستفيلد. جوتنجن، ١٨٤٦ . ص ٢٢٨ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، المشترك وضعاً.

Hartmann, R. " Die Strasse VON Damaskus Nach Kairo". Zeitschrift Der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, (ZDMG). Vol. 64. Leipzig, 1910. Pp. 675-676.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: **Hartmann, R. 1910.**

١٨ — المقدسي، أحسن التقاسيم. ص ١٩٢ .

19- **Frank L. Kouchy.** " The Environs Of Pella: ROADS; FORDS And Occupational Sites " , Pella In Jordan2. Ed Mc Nicoll, A. Edwrds, P, ; Hanbury- Tenison, J.; Hennessy , B.; Potts, Smith, R.; Walmsely, A. And Wason, P. Sydeny, 1992. P.200.

Kouchy, F . 1992. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

20- **Kareem, J.** 1987. Pp . 444-459.

Kareem, J. 1990. Pp . 44-49.

21-**IBRAHIM, M. Et Al.** 1976. P. 59.

Mittmann, S. Beithrage Zur Siedlungs Und Territorialgeschichte Des Nordlichen Ostjordanlandes. Wiesbaden, 1970. Pp.137-138.

Mittmann, S. 1970.:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

22- **Mcnicoll, Q.; Edwards, P.; Hosking, J.; Macumber, P.; Walmsely, A And Watson, P.;** "Preliminary Report On The University Of Sydney`s Seventh Season Of Excavations At Pella (Tabagat FAHL) , 1985" Annual Of The Depratment Of Antiquities Of Jordan, (ADAJ), Vol. " Abbasid Fahil, The Mamluk And Early Ottoman Periods" . AKKADICA. Vol. VIII . Pp. 430-440.

23- **Kareem, J.** 1987. P. 94, 104, 112.

Kareem, J. 1990. Pp. 40-42.

٢٤—**الطراونة (فايز عبد الحافظ)**.موقع قم في ضوء الأعمال الميـــدانية: دراسة تحليلية مقارنة. رسالـة ماجستير غير منشورة. معهد الآثار والانثروبولوجيـا— جامعة اليرموك. ١٩٩٠، ص ١٦٤ .

25- **Hanbury - Tenilson, J.; Steven , H.; Watson, P . Falkner , R.** " Wadi Arab Survey 1983" . Annual Of The Department Of Antiquities Of Jordan, (ADAJ)` Vol . 28.Amman, 1984. Pp.313-314.

Hanbury - Tenison, et Al . 1984 سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

٢٦— **المقدسي**، أحسن التقاسيم، ص ١٧٤ .

27- **Smail , R.** The Cruaders in Syria And in The Holy Land. Thames And Hudson, 1973. Pp. 9-38.

Smail, R. 1973. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

Mùller - Weiner, W. Castles Of The Crusaders. New York, 1966.

Mùller - Weiner, 1966.:سيشار إليه عند وروده فيما يلي هكذا

28- **Smail , R.** 1973. P . 100.

Beyer , G. " Civitus Ficum". Zeitschrift Des Deutschen PalAstina - Vereins. Vol. 69. Wiebaden. 1953.p . 67.

٢٩— ابن اياس (محمد بن أحمد) . بدائع الزهــور في وقائع الدهور. ج١ . تحقيق محمد مصطفى. القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٨ . سيشار إليه عنــد وروده فيما بعد هكذا : ابن اياس ، بدائع الزهور.

30- **HARTMANN , R.** 1910, P. 683.

31- **Zayadine , F.** " Caravan Routes Between Egypt And Nabataea And The Voyage Of Sultan Baibars to Petra In 1276." Studies on The History And Archaeology Of Jordan , Vol. 11. Ed . Hadidi, A. Amman, 1985. P. 161.

32- Hartmann, R. 1910, P . 683.

٣٣— الادريسي، أنس المهج، ص ٢١ .

ياقوت ، معجم البلدان . ج١ . ص ٢٧٦—٢٧٧ .

٣٤— ياقوت، معجم البلدان. ج٢ . ص ٦٥٧ .

35- **Kareem , J.** The Settlement Patterns In The Jordan Valley In The Mid- to Late Islamic Periods . Ph. D. Thesis . FREI Universitat Berlin , 1992. P . 32 .

Kareem, J. 1992 .:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

٣٦— القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٩٥ .

ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٣٦ .

٣٧— القلقشندي، صبح الأعشى ، ج ١٤ . ص ٣٨٠.

38- **Henninger , J .** " Pariastamme In Arabien ", Arabica Varia . Schweis Orbis Biblicus Orientalis , 910, Gottingen , 1989. Pp. 244-246.

٣٩— النويري(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) . نهاية الار ب في فنون الأدب.. ج٨ ، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٧٥ ، ص ٢٧٠ .

40- **Ibrahim, M. et Al.** 1986. Pp. 48- 50.

Yassine, K. Et Al. 1988. Pp.

41- **Ibrahim, M. et AL.** 1976. P. 59.

42- **Kareem, J.** " Tell Fendi : Jisr Sheikh Hussein Project, 1986." Annual Of The DEPARTMENT Of Antiquities Of Jordan. Vol. 33. Amman, 1989. Pp. 97-100.

Kareem, J. 1989.:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

٤٣— كريم(جمعة محمود) . المسح الأثري لمنطقة سليخات.

٤٤— حمارنة، صالح«زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب والمسلمين». حولية دائرة الآثار العامة، المجلد ٢٢ ، عمان ١٩٧٧ / ١٩٨٧م . ص ١٢—١٨ .

٤٥— أبو دلو، ربى«معاصر السكر في غور الاردن. رسالة ماجستير غير منشورة معهد الآثار والانثروبولوجيا— جامعة اليرموك، ١٩٩١ . ص ٣٦— ٦٤ .

46- **Franken , H. And Kalsbeek, J.** Potters Of A Medieval VILLAGE In The Jordan Valley. New York: American Elsevier Press. 1975. Pp.66-75 .

Franken , H, And Kalsbeek, J. 1975.سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

47- **La Gro , H.**" Abu Sarbut". Akkadica. Vol. 7. 1989. Pp . 118-119; .

De Hass, H.; La Gro , H. And Steiner, M . " First Season Of Excavations At Tell Abu Sarbut, 1988: A Preliminary Report". Annual Of The Department Of Antiquities Of Jordan. Vol. 33. Amman, 1989. Pp. 323-326.

La Gro, H. And De Hass, H. " Sugar Pots: A Preliminary Study Of Technological Aspects of A Class Of Medieval Industrial Pottery From Tell Abu Sarbut , Jordan ". News Letter. DEPARTMENT Of Pottery Technology. Vol. 718. University Of Leiden . 1989/1990. Pp. 7-20.

٤٨— ابن شداد، الاعلاق الخطيرة. ص ٣٢٦ .
الدمشقي(الانصاري أبو عبد الله محمد). نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق. مهران، ليبزغ، ١٩٢٣ . ص ٢٠١ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الدمشقي ، نخبة الدهر.
٤٩— ابن شداد، الاعلاق الخطيرة. ص ٣٢٦ .
٥٠ — المقريزي(أحمد بن علي) . كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١٢ . تحقيق محم دزيادة، القاهرة، ١٩٥٨ . ص ٥٢٣ .
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: المقريزي، كتاب السلوك.
الداوادري (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك) . كتاب الدرر وجامع الغرر. تحقيق هارمان ، القاهرة، ١٩٧١ . ص ١١٢ .
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الداوادري، كنز الدرر.
٥١— انظر الخارطة رقم/ ٢/ .

52- **Wild Stefan.** Libanesische Orts-name, Typologie Und Bedeutung.
Lebanon, 1973. P. 174.
Sultan Al- Ma`ani. Nordjordanische Ortsnamen. Hildsheim, Georg Olms Verlag. 1992. P. 132.
53- **Westendorf, W.** Koptisches Hand - Worterbuch. Heidelberg, 1977. P. 335.

٥٤— ابن اياس ، بدائع الزهور. ص ٣٣٢ .
٥٥— العمري(فضل الله العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى). مسالك الابصار في ممالك الامصار. تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٨٥ . ص ٥٥ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: العمري، مسالك الابصار.

56- **Hartmann, R.** 1910. P . 686.
Hartmann, R. " Zur Geschichte Der Via Maris". Zeitschrif Des Deutschen Palastina- Vereins (ZDPV) , Vol. 41. Leipzig. 1918. P. 54.
HARTMANN, R. 1918.:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا
57- **Mittmann, S.** Beitrage Zur Siedlungs und territorial geschichte des Nordlichen Ostjordanalandes.
Wiesbaden , 1970. P. 164, 228.
Mittmann, S. 1970.:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

٥٨— **القلقشندي**، صبح الأعشى، ج١٤ ، ص ٣٨٠ .

★ يقع موقع زحر العقبة، ويسمى زحر النصارى أيضاً، على يسار الطريق المعبد الواصل بين مدينتي إربد والشونة الشمالية. ويبعد هذا الموقع الأثري حوالي ١٢كم للشرق من مدينة الشونة الشمالية، وعلى بعد ٥كم للغرب من قرية قم. ولقد زاد كاتب هذا التقرير هذا الموقع، وتبين أن جميع الشقف الفخارية الظاهرة على السطح تعود للعصر الايوبي/ المملوكي. ويظهر فيه مجموعة إنشاءات معمارية تشبه تلك التي عثر عليها في موقع ذراع الخان، والعائدة للعصر المملوكي. ويتواجد مجموعة من الاحواض استعملت لتجميع مياه الامطار. وإن الدلائل الظاهرة على السطح تشير بشكل واضح على أن هذا الموقع استعمل كمحطة تجارية على الخط التجاري الواصل بين الشونة الشمالية وإربد في العصر المملوكي المبكر.

٥٩— **المقريزي**، كتاب السلوك، ج١ . ص ٥٤٤ .

ابن تغري بردي(جمال الدين أبي المحاسن يوسف). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ج٧ . تحقيق جمال محمد محرز وفيهم محمد شلتوت. القاهرة . ١٩٧٠ ، ص ١٤١ ، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة.

ابن شداد، الاعلاق الخطيرة. ص ٣٥٢ .

٦٠— **ابن تغري بردي**، النجوم الزاهرة، ج ١٥ . ص ٣٩١ .

٦١— **معاوية ابراهيم**وخير ياسين، وجيمس سور. اوراق تسجيل المواقع الأثرية لعام ١٩٧٥ م . غير منشورة، محفوظة في أرشيف متحف الآثار الجامعة الأردنية .

٦٣— **القلقشندي**، صبح الأعشى، ج ١٤ ، ص ٣٨٠ .

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج ١٦ . ص ٤٨ .

٦٤— **ابن تغري بردي**، النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، ص ٤٨ .

65- **Laidus, I.** Muslim Cities In The Later Middle Ages. Cambridge, Harvard Un . Press. 1967 . P. 124 .

Laidus, I. 1967. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

Labib, S. " Egyptian Commerical PoLicy In The Middle East". The Economic History of The Middle East. Ed. Cook, M. Oxford, 1978. Pp.70-72.

Schwolbe, V. " Die Verkherswege und Ansiedlungen Gelilaas In Ihrer Abhangigkeit von Den Naturlichen Bedingungen ". Zeitschrift Des Deutschen Palastina - Vereins(Zdpv) , Vol, 27. Leipzig, 1904. Pp. 57-149 .

Hartmann , R. 1910. Pp. 665-702.

Jaussen , J. " Inscription Arabe Du Khan Al-ahmar a` Baisan(Palestine)". Palestine Exploration Fund Annual. London , 1940. Pp. 99-104.

Sauvaget, J. " Caravanserails Syriens du Moyen Age". Ars Islamica. Vol. 7. 1940.pp.1-19.

Abu Khalaf, M. " Khan Yunus And The Khans of Palestine." Journal Of The British School Of Archaeology In Jerusalem, (Levant) , Vol. 15. London, 1983. Pp. 178-187.

٦٦— المقريزي، كتاب السلوك. ج٢ . ص ٣١٨ .

67- **Kareem, J.** 1992. Pp. 105_180.

68- **Laidus, I.** 1967. Pp. 23-31.

Brown, R. Late Islamic Setlement Patterns on The Karak Plateau, Transjordan. Binghamption: Sung Press. 1985. P. 18.

Brown, R. 1985.:سيشار إليه عند وروده هكذا

69- **Russel, J.** " The Population of Medieval Egypt". Journal Of The American Center in Egypt. Vol. 5. Pp. 69-82.

Dols, M. The Black Death In The Middle East. Princeton Un. Press , 1977. Pp.154,185,223.

Dols, M. 1977. :سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

Dols, M. The Second Plague Pandemic And Its Recurrences In The Middle East : 1347-1894" . **Jesho** , Vol. 22. 1979. Pp. 169_182.

Dols, M. 1979. :سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

Dols, M. " The General Mortality of The Blach Death In The Mamluk Empire ". Studies in The Islamic Middle East, 700-1900. Darwin Press, PRINCETON, New Jersey , 19481.pp.416_417.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:.Dols, M. 19481

غوانمة، يوسف درويش. «القرية في جنوب بلاد الشام(الاردن وفلسطين) في العصر المملوكي في ضوء قرية أدر».

Studies on The History And ARCHAEOLOGY Of Jordan, Vol. I. Ed. Hadidi, A. Amman, 1982.p.364.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: غوانمة، ١٩٨٢ .

غوانمة،(يوسف درويش). الطاعون، والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام(الاردن وفلسطين) في العصر المملوكي.

Studies on The History And Archaéology Vol. Ii . Amman , 1985. Pp. 316_318.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: غوانمة، ١٩٨٥ .

٧٠— المقريزي، كتاب السلوك، ج٢ ، ص ٧٧٤ .

٧١— المقريزي، كتاب السلوك، ج٢ . ص ٧٨٤ .

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠ ، ص ٢٠٩ .

72- **Dols, M.** 1977. P. 62, 159.

Rabie, H. " Some Technical Aspects Of Agriculture In Medieval Egypt." The Islamic Middle East 700-1900. Ed. Udovitch , A. The Darwin Press, Princeton. 1981. P. 80.

٧٣— المقريزي، كتاب السلوك، ج٢ . ص ١٥١ .

القلقشندي، صبح الأعشى. ج٣ . ص ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢ .

النويري(شهاب الدين أحمد بن عبـد الله) . نهاية الأرب في فنون الأدب ج٨ . القاهرة ، ١٩٧٥ . ص ٢٧١ .

Ziadeh, N. Urban Life In Syria under The Early Mamluks. Bairut, 1953. P. 113.

Ziadeh , N. " Town Administration In Syria Under The Early Mamluks". Proceedings Of Twentysecond Congerss Of Orientalists. Vol. Ii . Ed . Zeki Togan . Leiden. 1957.p . 213.

74- **Hutteroth, W. And Abdulfattah, K.** Historical Geography Of Palestine, Transjordan and Southern Syria In the Late 16th Century. Erlangen , 1977, Map. 3;

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

Hutteroth and `Abdulfattah, 1977.

75- **Ashtor, A.** " Levantine Sugar Industry In The Late Middle Ages: An Example Of Technological Decline".

Ashtor, A. 1977:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

Ashtor, A. Levant Trade in The Later Middle East. Princeton UN. Press. 1983. P. 206.

Ashtor, A. 1983. :سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

Udovitch, A. " Introduction - Technology, Land Tenure And Rural Society: Pre- Modern Middle East". The Islamic Middle East700-1900: Studies In Economic And Social History. Ed. Udovitch, A. The Darwin Press, Princeton, 1981.p.15.

Udovitch, A. 1981.:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

76- **Ashtor , A.** 1983,p.208.

77- **Laidus,** I. 1967, P. 27_28.

Musallem, B. " Birth Control and Middle Eastern History", The Islamic Middle East 700-1900: Studies In Economic and Social History. Ed. Udovitch, A. The Darwin Press, Princeton, 1981,p.434.

٧٨— ابن طولون(شمس الدين محمد بن علي بن طولون). مفترق الخلان في حوادث الـزمـان. ج ١ . تـوفيـق محمـد مصطفـى زيـادة. القـاهـرة ، ١٩٦٢م. ص ٢٠٣ ، ٢٢٥،٢٦٤،٣١٥،٣٤٤ .

٧٩—المقريزي، كتاب السلوك، ج٢ ، ص ٨٥٤ .

80-**Hartmann, R.** 1910. Pp. 694-702.
Hartmann, R. 1918. Pp. 55-56.

81- **Heyd, U.** Ottoman Documents on Palestine 1552-1516. Oxford: The Clarendon PRESS. 1960. P. 76.

Heyd, U. 1960. :سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

82- **Al- Bakhit, M.** " Jordan In Perspective: The Mamluk Ottman Period." Studies on The History And Archaeology Of Jordan, I . Ed. Hadidi , A. Amman, 1982. P. 362.

Al- Bakhit, M. 1982. :سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

Lewis, B. " Studies In Ottoman Archives". Bulletin Of The School Of Oriental and African Studies. Vol. 16. London, 1954. P. 487.

Lewis, B. 1954. :سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

Hutteroth And Abdulfattah, 1977, P. 8.

83- **Cohen, A. and Lewis, B.** Population And Revenue in The Towns Of Palestine In The Sixteenth Century. Princeton Un. Press. 1978. P. 42-75.

Cohen And Lewis , 1978.سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

84- **Peterson, A.** Early Ottoman Forts on The Hajj Route in Jordan. Oxford, 1986. Pp. 24-109.

Peterson, A. 1986.:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

Burchhardt, J. Travels In Syria and The Holy Land. London, 1822. Pp. 656-661.

Burchhardt, J. 1822.:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

PeakeE, P. A History of Jordan and its Tribes, Miami Un. Press. Coral Gables, Florida. 1958. P.85.

Peak, P. 1958. سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا:

Rafeq Abd L- Karim. The Province Of Damascus 1723-38. Beirut, 1966.pp. 52-37,115.

Rafeq, 1966. سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا:

Al - Bakhit, M. The Ottoman Province Of Damascus In the Sixteenth Century. London , 1972. P. 99.

Al - Bakhit, M. 1972.:سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا

Barbir, K. Ottoman Rule in Damasus 1708-1758. Princeton , Un. Press. 1980. Pp. 133-150.

Barbir, K. 1980.:سيشار إليه فيا بعد عند وروده هكذا

85- **Al- Bakhit, M.** 1972. Pp . 99-100.

Al- Bakhit, 1982. P. 362.

86-**Hutteroth and `Abdulfattah,** 1977. Pp. 176-177.

87-**Hùteroth and `Abdulfattah,** 1977. Pp. 176-177.

88- **Kareem , J.** 1992/ P. 61.

89- **Heyd,.** 1960.pp. 110-112.

90- **Heyd, U.** 1960.pp.111.

91- **Tshelebi , E.** " Evliya Tshelebi`s Travels In Palestine" , Quarterly Of The Department Of Antiquities In Palestine. Vol. 6. Jerusalem . 1936/37.p.84.

Tshelebi, E. 1936/37. سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا:

Gal , Z. " Khan El- Tuggar: A New Look at A Western Survey Entry" . Palestine Exploration Quarterly. Vol.117. London, 1986. P. 74.

Gal, Z. 1986.:سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا

Heyd, U. 1960. Pp. 110-115.

٩٢— النابلسي(الشيخ عبـد الغني)الحضرة الأنسية في الرحلة القــدسية. مخطوط في مكتبة الدولة ببرلين. رقم المخطوط 6145. We 12 ص٢٠٦.
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا : النابلسي، مخطوط.

93- **Cohen , A.** Palestine in The 18th Century .
Cohen , A. 1973. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:
Rafeq , A. 1966. P. 130, 157, 285 ;
Rafeq , A. " Economic Relations Between Damascus And The Dependent Countryside 1943-71" . The Islamic Middle East 700-1900; Studies in The Economic and Social History . Ed. Udovitch, A. The Darwin Press, PRINCETON , New Jersey , 1981. P. 653.

94- **Cohen, A.** 1973. P. 105.
Steueranagel, C. Der `adschlun . Leipzig, 1927. Pp. 130-131.
Steuernagel, C. 1927.

95- **Bosworth , c.** " William Lithyow Of Lanark`s Travels In Syria and Palestine 1611-1612." Proceedings of the First International Conference ON BILAD AL-SHAM, 20-25 APRIL, 1984, PART I.UN.OF JORDAN AND Yarmouk Un. 1984. P. 20.
Bosworth, C. 1984. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

96- **Bosworth, C.** 1984.p. 21.
Heyd, U. 1960. 85,88,80,101.

٩٧— النابلسي، مخطوط، ص ٢٠٦ .

98- **Forster, W.** The Travels Of John Sanderson in the Levant. London , 1931. P . 114.
النابلسي، مخطوط، ص ٢٠٦ .

99- **Schumacher, G.** " Das Sudlische Basan Zum Ersten Male Aufgenommen Und Beschrieben". Zeitschrift Des Deutschen Palastinavereins. Vol. 20. Leipzig. 1897. P . 108.
Schumacher, G. 1897. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

100- Gal , Z. 1986. P. 69_75.

101_HUTTEROTH And Abdulfatah, 1977. P.88.

102_ Mershen , B. And Knauf, A. " From Gadar to Umm Qais", Zeitschrift Des Deutschen PalAstina- Vereins , Vol. 104. Stuttgart, 1988. P. 143.

103- **Burckhardt, J.** 1822.pp. 269. 70.

104_ **Burckhardt, J.** 1822.p. 315.

Tshelebi, E. 1936/37. Pp. 84_85.

Hùtteroth and `Abdul Fattah, 1977. P. 43.

Lewis , B. Studies In Classical And Ottoman Islamic (7th- 16th Century) . London, 1976. P. 497.

105- **Al- MA` ANI, S.** Nordjordanische Ortsnamen . Hildsheim, Georg Olms Verlage, 1992.p 253.

106- **Hanbury - Tenison , et Al.** 1984. Pp. 417_422.

١٠٧— أجريت في هذا الموقع حفرية أثرية انقاذية عام ١٩٨٩م. وأشرف عليها كاتب هذا المقال ممثلاً لمعهد الآثار والانثروبولوجيا— جامعة اليرموك، والسيد حكمت الطعاني ممثلاً لدائرة الآثار العامة. ولقد كشف في السويات العلوية على شقف فخارية وثلاثة طوابين، تعود للعصر العثماني، غير منشورة.

١٠٨— ابن زين البقاء(محمد بن زين البقاء عيسى بن كنعان). المواكب الاسلامية في المالك والمحاسن الشامية. مخطوط في مكتبة الدولة ببرلين، رقم 6088. We. 1116.

109- **Karmon, Y;**" The Settlement Of The Northern Huleh Valley since 1838".

١١٠— أسد رستم. البشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤—١٨٤١ . بيروت، ١٩٦٦، ص ١٧١ .

111-**Steuernagel, C.** 1927. 27. 130.

Ma`oz, M. Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840-1861. Oxford, 1968, P. 145,164-165.

112-**Karmon, Y.** " An Analysis Of Jacotin is Map Of Palestine".

113-**Peake, P.** 1958. Pp. 81_92.

Issawi , B. The Economic History Of The Middle East, 1800-1914. Chicago Un. Press. 1966. Pp . 262_263.

Al- Mousa, S. " Jordan: Towards the end Of The Ottoman Empire 1841-1918". Studies On The History And Archaeology Of Jordan. Vol.I. Ed. Hadidi, A. Amman , 1982.pp.385/91.

Jones, B. " Interregional Relationship In Jordan: Persistence And Change ". Studies on the History and Archaeology Of Jordan, Vol. 2. Ed. Hadidi, A. Amman , 1985. P. 310.

114- **Steuernagel, C.** 1927. P. 130.

115- **Peake, P.** 1958.pp. 95_97.

116- **Weakely, E.** " Report on the Conditions and Prospects Of British Trade In Syria". Economic History Of The Middle East 1800-1914. Ed. Issawi, C. Chicago Un. Press. 1966. Pp. 274. 290.

117- **Burckhatdt, J.** 1822.p. 296.

Schumacher, G. Across The Jordan: An Exploration and Survey of Part Of Hauran and Jaulan, 1886. Pp. 22. 23 .

118- **Burckhardt, J.** 1822. P. 274.

119- **Schumacher, G.** "Abila Of The Decapolis ". Palestine Exploration Fund , London, 1889. Pp. 71, 72, 189, 190.

120- **Schumacher, G.** 187. P .114.

Northy, A. "East Of Jordan , Expedition Exploration Fund. London , 1972. P. 71.

Warren , C. " Expedition East of Jordan". Palestine Exploration Fund . London , 1870. P. 285.

Robinson , E. Biblical Researches In Palestine and the Adjacent Regions. Vol. 11.

Smith, A. The Historical Geography Of The Holy Land. London, 1897. Pp. 488- 489.

121- **Karmon, K.** 1960. P. 251.

Steurnagel, C. " Der `adsclun" . Zeithschrift Des Deutschen Palastina - Vereins. Vol. 49. Leipzg, 1926. Pp. 134-137.

122- **Schumacher, G.** 1897. P. 108.

123- **Ibrahim, M. et Al.** 1976. P. 59.

124- **Ibrahim, M. et Al.** 1976. P. 59.

Yassine , K. et Al. 1988. P. 168.

125- **Burckhardt, J.** 1822. P. 275.

126- **Ibid.** P. 180.

127- **Schumacher, G.** 1992. Pp. 105-180.

128- **Kareem, J.** 1992. Pp. 105-180.

١٢٩—انظر الخارطة طريق رقم ٣ .

130- **Amiran, D.** " A Revised Earthquake Catalogue Of Palestine"

الصهيونية في مرآة الفكر العربي المعاصر

العلاقة بين الصهيونية والتاريخ اليهودي

الصهيونية في مرآة الفكر العربي المعاصر
العلاقة بين الصهيونية والتاريخ اليهودي

● د . احمد برقاوي
جامعة دمشق

القسم الاول

— ١ —

مهما حاول المؤرخ او المفكر عربيا كان او غير عربي ان يعزل اليهودية عن الصعهيونية ، فانه لا محالة مخفق . فمفاهيم الصهيونية الاساسية انما نبعت من اليهودية اساساً وقبل كل شيء على الرغم من لبوس « الحداثة » الذي تزينت به بعض التيارات الصهيونية .

ولاشك ان العربي مدفوع بعوامل كثيرة لاقامة التمايز بين اليهودي والصهيوني. ذلك ان العربي مسلماً كان ام مسيحياً ، علمانياً او متديناً ، ينظر الى الدين اليهودي اما كاحد الاديان السماوية الشرقية ، او كجزء من تراث الشرق القديم ، هذا ناهيك عن وجود عدد كبير من اليهود الذين لم يندرجوا في الصهيونية او لم يتخذوا منها ايديولوجيا تعبر عن مصالحهم ، وباستطاعة المرء — وهو لا يستطيع ان يحكم استناداً الى الشك غير المعزز — ان يذكر من المفكرين اليهود المعاصرين امثال ناعوم تشومسكي وردنسون وغيرهم ممن لا يفكرون في اطار الحركة الصهيونية، بل ويعتبرونها ايديولوجيا عنصرية مناهضة للنزعة الانسانية .

ومع ذلك فلا يمكن تجاهل ان الصهيونية ايديولوجيا يهودية قبل كل شيء انتشرت في اوساط اليهود دون غيرهم او اعتنقها اليهود دون سواهم .

والاشكال الذي يواجه الباحث هو : هل اليهودية تعبير عن انتماء ديني ام انتماء اثني ؟ سنؤجل الاجابة عن هذا السؤال الى حينه ، بعد ان نرى كيف نظر بعض المفكرين العرب الى قضية علاقة الصهيونية باليهودية .

يرى البعض ان الصهيونية ليست الا امتداداً لليهودية القديمة، فجورجي كنعان مثلا ينطلق من الفرضيات التالية: ان وثيقة الصهيونية في استملاك ارض فلسطين قائمة في كتاب العهد القديم (١). «والصهيونية المتجسدة في دولة اسرائيل ليست بنت وعد بلفور كما يَدَّعي مع الاسف معظم الدارسين وانما هي بنت الوعد الاول، وعد «الله» لابراهيم في حدود القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وليست صنيعة هرتزل نبي الصهيونية في اواخر القرن التاسع عشر بل هي صنيعة موسى، نبي الصهيونية الأول. (٢) «الصهيونية حركة دينية ودعوة قومية، قطعت على نفسها عهداً بتحقيق العهد الاول الذي قطعه «الله» لبني اسرائيل وتحقيق الرؤى الدينية والامال اليهودية» (٣).

« الصهيونية حركة عدوانية توسعية، حركة دينية سياسية تستند في دعواها الدينية الى وعد « يهوه» لاباء اليهود بتمليكهم ارض كنعان » (٤). ان اسرائيل تجسيد للرؤى والتنبؤات « فمنذ السبي الاشوري والبابلي، وهم يرنون بحسرة الى فلسطين ويتطلعون بامل ورجاء الى يوم العودة الى صهيون. الهيكل وارض العسل واللبن. وبعد خراب الهيكل وبدء الشتات، قوي الامل وقوي الرجاء، حتى باتت التنبؤات والرؤى خاصة رؤيا الخلاص، بواعث قومية تحدو بهم الى التجمع والتكتل وشحذ العزائم للعودة الى ارض الرب ومهد الانبياء » ويضيف « وجاءت الصهيونية تتبنى تحقيق التنبؤات وتنفيذ رؤيا الخلاص. فالصهيونية قائمة في جذر الديانة اليهودية والديانة اليهودية، قومية تجسدت في الحركة الصهيونية (٥).

ويرى كل من هانيء الهندي ومحسن ابراهيم في كتابهما الصادر في دمشق ١٩٥٨ « اسرائيل » فكرة ... حركة ... دولة » « ان اليهود والصهيونية اسم واحد ومضمون واحد حتى ولو اعتبرنا الثانية تجاوزاً، الوجه السياسي الحديث للاولى، كما يحلو للبعض ان يفعل حين يريد ان يميز ويفرق بين الاسمين (٦) ويضيفان قائلين : « ان الصهيونية لم يبتدعها تيودور هرتزل ولم يقرر وجودها المؤتمر الصهيوني ١٨٩٧، انها ليست فكرة جديدة فهي في الواقع ولدت في اللحظة الاولى من اليوم الاول، لتشريد اليهود من فلسطين ومع الزمن نمت هذه الفكرة وتطورت صعداً عبر الاجيال من خلال الصلوات والادعية ومن خلال المشاريع والاعمال »(٧).

والصهيونية — كما يريان— ملتحمة باليهود وبدينهم وهي جزء من تفكير اي يهودي. يرضعها طفلاً ويسير بهديها ووحيها .... وهذه الفكرة — الصهيونية — زرعت بذورها كما يقول هابر يوم ولت مملكة « اسرائيل » على يد الاشوريين في القرن الثامن ق. م ونمت بعد سبي القدس على يد نبوخذ نصر في القرن السادس ق. م (٨).

ويتابع مؤلفا (اسرائيل فكرة ، حركة، دولة) قائلين : « اليهودية دين وقيم . اليهودية عقيدة ونظرة حياة معينة لمجموعة خاصة من البشر لها خصائصها المتميزة الواضحة. اليهودية كمعتقد لجماعة عرفت بتاريخها الطويل غير المشرف في فلسطين وخارجها ... والصهيونية في جوهرها ليست بمختلفة عما تقدم ذكره من حيث الجوهر . فالصهيونية هي الشعب اليهودي في طريقه الى فلسطين ... والصهيونية هي العقيدة القومية للشعب اليهودي ووسيلته من اجل استعادة ارض الاباء والاجداد برأي مناحيم بيغن ... والصهيونية هي وجه اليهود الحقيقي ... وهي الصفة المقصورة على العناصر اليهودية التي اوكلت لها مهمة التطرف امام العالم » (٩).

واخيراً « الصهيونية معتقد قديم جدا . واليهود هم معتنقو هذا المعتقد والصهيونية هي اليهودية في العمل المنظم لغزو فلسطين وما وراءها » (١٠).

وبناء على النظر الى الدين اليهودي والصهيونية وبوصفهما شيئاً واحداً يخلص مؤلفا (« اسرائيل » فكرة، حركة ، دولة ») الى ان « الذين يعتبرون اليهودية مجرد دين وليست قوة منظمة متماسكة لن يستطيعوا ان يدركوا ضخامة العدو الذي نقاتله وجهاً لوجه في فلسطين .... ان اليهودية ليست ديناً عادياً كبقية الاديان، انها رابطة متعصبة تشد معتنقيها بصلات اشبه ما تكون بالقربى الحية ... ان اليهودية ليست رابطة، انها قوة فاعلة محركة يلمس اثرها في كل مجتمع يعيش فيه اتباعها .... ان اليهودية ليست كلاماً فارغاً وقولاً لامضمون له، انها قوة ضخمة تسيطر على الحكومات والهيئات والاحزاب في عدد كبير من بلدان العالم » (١١).

ويرى السيد س. ناجي ان « اليهودي يظل يهودياً قبل كل شيء ، ويتضح من هذا بطلان زعم امكانية التفريق بين القومية واليهودية ، والشريعة اليهودية او الزعم بان الصهيونية شيء واليهودية شيء آخر » (١٢).

لقد عرضنا نماذج ثلاثة لاربعة مؤلفين ، يلخصون الى حد كبير احدى النظرات الشائعة حول علاقة اليهودية بالصهيونية من حيث هما شيء واحد. وبالتالي فان الصهيونية ظاهرة قديمة قدم اليهودية وتجد اساسها في التوراة.

اعتقد ان هناك مسألتين مختلفتين يجب عدم الخلط بينهما. الاولى : نشأة الحركة الصهيونية والثانية الاساس الديني اليهودي للايديولوجيا الصهيونية. في معالجة هاتين المسألتين قد يتفق بعض المفكرين من العرب والصهيونيين حول قدم الحركة الصهيونية الاول بقدم استطالة للصراع العربي — الصهيوني. تمت عبر التاريخ . والثاني يريد ان يستعين بالتاريخ كي يبرز ظهور الصهيونية في وقت متأخر — القرن التاسع عشر .

الاول يبحث في التوراة عن علة قيام « اسرائيـل » ليدحض التوراة . الثاني يستند الى التوراة لتقرير حق اليهود في فلسطين ويـدحض حق الفلسطيني في الجوهر . نحن امام خطابين متشابهين ومختلفي النية .

اجـل، يقدم الصهيـوني شمـويل ايتنغـر صورة نمـوذجيـة تقارب الى حـد كبير الصورة التي قدمت آنفاً من قبل العربي الذي يؤكد نزوع اليهودي القديم الى ارض فلسطين، التـي ليست ارضـه. ففي دراسته « الشعـب اليهودي وارض اسرائيـل » يرسم شمويل ايتنغر اللوحة التالية :

«الصلات بين الشعـب اليهودي وارض « اسرائيـل » تُكَوِّنُ واحـدة من اغـرب الظواهر في تـاريخه الطويل ، وهي ظـاهرة قد لا نقع على نظير لها في تـاريخ اي شعب مـن الشعوب. هـذا الشعـب — ويقصد اليهـود — شـأنه شـأن كـل شعـب محمـل بـالتـاريخ ، تضيـع بـداياته بين الاساطير الملحمية والمعطيـات المتناقضـة ، ولكـن حساسيته التاريخية الحادة ومحافظته الامينـة على تراث الاقدمين .... والاهمية المعطاة لاحداث ما قبيـل الخروج مـن مصر في اخـراج شخصيته القـوميـة الى حيـز الواقـع اتاحت كلها لشعـب اسرائيل ان يكوّن منذ عصر بعيد ، وجداناً قـومياً عميقا. هذا الوجدان عبرت عنه التوراة قبل سواها فكـان له على طبع الشعب اثر حاسم خلال سائر القرون (١٣)

هـذا الوجـدان القومـي سيرافق اليهـود على مر التـاريخ وتظـل فلسطين — كما يقـول ايتنغـر — هـي الارض الموعودة . ويمسي وجـود شعـب اسرائيـل في ارضـه متعلقاً بنقـاوة دينه وكمال خلقـه .تظهر قـوة هذه الافكـار عند « الاحتـلال » البابلي لاورشليم وهدمهم الهيكل عام ٥٨٦ ق . م وهي الكارثة الاولى (١٤).

تجيء الكارثة الثـانية بتدمير الهيكل الثاني على ايـدي الرومان عام ٧٠ فتـزيد من شوق اليهود الى الخلاص، في فلسطين وفي المنفى (١٥).

ثم كان الفتح العربي لفلسطين في القرن الثامن فسهل العلاقات بينها وبين يهود المنفى وحـافظت البلاد على مكـانها الممتاز في الوجـدان القومي ، وفتحهـا لا يشكل حقاً فيها . وكـان الـوعاظ والمتصـوفـة يفسرون خرابها على انـه امـارة من امـارات الخلاص المقبل : فذلك التراب لا يؤتي ثماره الا للمالكه الشرعيين (١٦).

الى ذلك، كان ثمة تسليم ضمني بان اقـامة اليهود في الخارج وان طالت أجيالاً ليست في عين الشرع سوى منفى مؤقت، اكانوا فيه مضطهدين او محترمين (١٧).

ثم يتابع ايتنغـر رسم اللوحة المتخيلة قائلا : « امـا التعبير عن الحنين المضطرم الى الوطن الضائع وامـا البرهان الثابت على استمرار الضيق بـالمنفى، فنقرأهما في الحركات الخلاصية، إذ أن يقظـة هذه الحركـات ترافق وضـع الأقلية اليهـودية ودينهـا في العصور الوسطى»(١٨)

وأما الاضطهاد الذي مورس على اليهود، في أوروبا فكان ينظر إليه اليهود بوصفه«آلام ولادة الخلاص». فكل تغير في الوضع السياسي القائم كان يمكن ان يعني بداية النداء. لذا، أيقظت الحروب الصليبية والغزو المغولي وفتح القسطنطينية أملاً مداره أرض اسرائيل(١٩).

ثم جاءت ضربة بالغة القسوة حلت باليهود، هي طرد اليهود من اسبانية(١٤٩٢) فاقتلعت أكبر الجاليات اليهودية في أوروبا من جذورها وأوسعتها تحطيماً لكنها أدت إلى نهضة روحية، فتركزّ العديد من اليهود في فلسطين أوحى بأن مغزاه هو اقتراب الخلاص، لذا قامت محاولة لإعطائه وضع الأمة الديني طابع القداسة بالعودة إلى الرسم الكهنوتي في الأرض المقدسة(٢٠)

وخلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، جرى رد الأمل في خلاص اسرائيل في العودة نحو صهيون إلى شخص مسيح روحاني، فكان أن استجاب معظم اليهود إلى نداء ملك مخلص جديد هو شبتاي زفي، وإذا كان من دلالة لاتساع الاستجابة لهذا المخلص، فهي قوة الأمل في العودة إلى بلاد اسرائيل(٢١).

وفي القرن الثامن عشر فقد انتشرت بين أتباع البروتستانتية اعتقاد عودة«اسرائيل» إلى المسيحية، وربط الكثيرون بين هذا الاعتقاد وبين تجديد الملكية اليهودية لاسرائيل، وفي الوقت نفسه، فقد هاجم أتباع التنوير الأديان وظهرت نزعة الاندماج لدى اليهود، ولكن هؤلاء لم يكونوا إلا أقلية في أوروبا الغربية والوسطى، ولم يكن لهم وجود في أوروبا الشرقية ولافي الشرق الأوسط ولا في أفريقيا الشمالية— كما يقول اتينغر— ورغم ان الاندماج وقطع الصلات بأرض«اسرائيل» كانت تؤيده السلطات والاتجاه الليبرالي، إلا أن فشلها بدا ظاهراً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر طلب اليهود، في صيغةحديثة وعلى أساس تجربة تاريخية جديدة، عودتهم إلى أرض اسرائيل(٢٢).

وهكذا ظهرت الصهيونية على يد عدد من المثقفين الأوروبيين.

هذه الصورة التي يرسمها شمويل اتينغر، استاذ التاريخ اليهودي الحديث في الجامعة العربية بالقدس، ونجدها عند اكثر من كاتب صهيوني، تريد ان تدلل على أن فكرة الخلاص بدأت بالظهور عند اليهود من«الكارثة الأولى» واستمرت حتى هذا التاريخ، كفكرة تدفع اليهود دائماً لتتوجه روحياً، او جسدياً شطر فلسطين، بوصفها —كما يعتقدون— وطنهم الأصلي، وكوسيلة لنفي النفي، اي الخلاص، هذه الصورة الخيالية، تعززها الوصايا المندرجة في التوراة.

بهذا المعنى، فـاليهوديـة مستمرة أنفـاً عن التاريـخ، وليس بفضـل التاريـخ، ذلك أن ا لتاريخ المتخيل لليهود على صراع بين الفكرة الصهيـونية والسيرورة الواقعية، أو أن شئت قل للتاريـخ الواقعي ليس له مـن همّ سوى انتاج وتذكير اليهـود «بوطنهم الأصلي»، على الرغـم من أن التـاريخ يجري نحـو ادماجهم، او هكـذا يريـد، وبالتـالي يقوم الصراع بين إرادتين: إرادة الفكـرة الصهيـونيـة — الخلاص، التحـرر مـن النفـي، وإرادة التـاريـخ، وبالنتيجـة تنتصر الفكرة الصهيـونية التـي تعانـد إرادة التاريـخ، أما لماذا يستمـر الشعور بالنفي والـرغبة في الخلاص عن طريـق العودة إلى فلسطين؟ يجيب الصهيوني على شـاكلة اتينغر، لأن التوراة—كتاب اليهود— يتضمن ذلك.

هنا يأتي بعض المفكرين العرب ليقولـوا نعم إن أساس وعي اليهودي قائم في التوراة، لكـن الفرق بين الاثنين هـو أن الصهيـوني يتعامـل مع النـص التـوراتي كحقيقة مطلقـة، والعربي يتعامل معه كتزييف لحقيقة التاريخ وتاريخ فلسطين وتاريخ اليهود أيضا، وبما ان الفكرة الصهيونية قائمة في التوراة اصلاً، فلابد من نقد التوراة.

إذاً، في خطوة أولى يتم عرض الصهيونية وأخلاقها على أساس التوراة وفي خطوة ثانية يشرع في نقد التوراة.

لنقرأ مثلا مايقوله الدكتور رشاد عبد الله الشامي:«لم يرث اليهود كتاب العهد القديم فقط، بل ورثـوا معه تاريخاً طويلاً مـن اللاشعور والتعالي...» ويضيف« وكتـابات العهد القديم زاخرة بالأقوال التي تدلك عى تلك الحالات»(٢٣).

والدونيـة —دونية اليهود— يعبر عنهـا سفر الخروج بقولـه:«فقال الرب، لقـد رأيت مذلة شعبي في مصر، وسمعـت صراخهم وعلمت أوجاعهم فنزلت لأنقـذهم من أيدي المصريين... إلخ». ثم يورد الدكتور الشامي نصوصاً متعددة اخرى وقصص متنوعة كلها تـدلـك على ان هـذه القصـص الـدينيـة قـد خلفـت لـدى اليهـود إحسـاسـاً بـالمذلـة الدائمة،«عـوضوه بعد ذلك بسلوك عـدواني ووحشي تشهد على ممارسته مـدوناتهم التي سجلت قصة غزو أرض كنعان من منظورهم الديني»(٢٤).

ويتابع الدكتور الشامي قائلا:«وقد رأى اليهود أنفسهم في مجتمعاتهم المتفرقة في أنحاء العالم، التي كثيراً ما تعـرضت لكراهية الأمم الأخرى، وقد عاشـوا، منذ السبي البابلي في القرن السـادس ق.م والتشريد الرومـاني منذ القرن الأول الميـلادي، يصارعون عـوامل الفناء، ويتغلبون بتضامنهم الأجتماعي والديني على كل مشاريع الإبادة التي خططت من أجلهم، فكان من الطبيعي أن يأخذهم الزهو والغرور بهذا البقاء الدائم».(٢٥)

في حقيقة الأمـر، إن جملة الأفكـار التي يـوردها الشامـي ليست متنـاقضة مـع معظم أفكار اتنغـر، ولكن النتيجـة التي يـريد أن يصـل إليها هـي أن أساس العنصريـة يقوم في النص الديني المتوارث من قبل اليهود.

إذا كانت التوراة حاوية على الصهيونية والعنصرية وتعلن بدء هذه الحركة فما هو الموقف من التوراة، هذا الذي يرى فيه مثلا جورجي كنعان سبيلاً لفهم العنصرية اليهودية: «وفي محاولتي تقصي جذور العنصرية اليهودية والقيام بعرض تاريخي لها قادني البحث في طبيعة هذه العنصرية، ودلالاتها، إلى الرجوع إلى مصادرها وأصولها القديمة... وإذا كانت معرفة أي شيء تبدأ بمعرفة أصوله، فإن العدوة إلى التاريخ اليهودي القديم ضرورية لتفهم شخصيته والتعرف على طبائعه المكتسبة، لأن فكر اليهود الديني والتاريخي متأصل في نفوسهم، والوجود اليهودي — الصهيوني يرتبط فكرياً وسياسياً واجتماعياً وحضارياً بما يسمى بالتراث ايهودي، فسبيلنا إلى فهم العنصرية اليهودية سيكون بالرجوع إلى التراث الذي خلفوه وأول مصادر هذا التراث هو التوراة، العهد القديم»(٢٦)

والتوراة، كما يرى مؤلف العنصرية اليهودية، كتاب أملاه الكهنة في السبي البابلي، أو كما يقول: «وعندما بدأ اليهود بتدوين التوراة زمن موسى أو بعده، أو عندما صاغوها من جديد في السبي البابلي استهدفوا تحقيق جملة أغراض أولها: تمجيد تاريخهم، وذلك بإرجاع أصلهم إلى أقدس شخصية قديمة عرفتها شعوب المنطقة — ابراهيم الخليل — وثانيها: إضفاء صفة القداسة على عنصرهم كونهم سلالة ابراهيم الذين اختارهم الرب ليكون راعياً لهم من دون سائر البشر، يبيد الشعوب من أمام وجههم.. فوضعوا في توراتهم — كتابهم المقدس — بذور العنصرية والتعصب والانعزالية»(٢٧).

ويرى السيد ندرة اليازجي: أنه يستحيل علينا أن نفهم التوراة، تاريخياً، إلا فسخاً لحقيقة الله وتحويله إلى إله قومي، هو يهوه، وإذا كان جورجي كنعان يرى ان التوراة قد كتبت من قبل كهان اليهود، فإن التوراة بكاملها كما يرى السيد ندرة اليازجي «خاصة أسفار موسى الخمسة إنما تقوم على الآراء التي سادت فيما بين النهرين ومصر وبلاد ميديا فاليهود لم يبدعوا شيئا فظلوا في عالم الشريعة ولم يدخلوا عالم الروح»(٢٨).

ويؤكد ندرة تلك الفكرة — فكرة ان التوراة مقتبسة من الكتب الأخرى «فلقد أخذ داود مزاميره من كتابات الكنعانيين وكتابات رأس شمرا، وأخذ سليمان أقواله من الكنعانيين الذين خانهم ومن المصريين أيضاً، أما الكتابات الأخرى في التوراة فقد أخذت من كتابات شرقية تعتبر زراد اشتية ومانوية في أساسها»(٢٩).

ويخلص ندرة اليازجي إلى القول: «لانتعلم درساً أخلاقياً من التوراة، فهي مدرسة للفساد والشر، التوراة مدزسة سياسية لليهود وتوجيه لهم في كل أمر»(٣٠) «وبما ان الصهيونية قائمة في اليهودية وبما أن اليهودية قائمة في التوراة، فالصهيونية قائمة في تدبير يهوه لقضية اليهود، لحياتهم، وفي تخطيط مسبق لأمورهم، الصهيونية قائمة في عرفية وفي صلب يهودية التوراة، لاصهيونية بدون يهودية ولايهودية بدو توراة»(٣١).

القسم الثاني

-٢-

لسنا بصدد دراسة تاريخ اليهودية أو تناول التوراة من زاوية تاريخية نقدية— في أي عصر كتبت، وماالتطورات والاضافات التي تعرضت إليها على مر الزمن والطابع الأسطوري والمنابع أو المصادر الشرقية المتعددة— فكل ذلك يمكن أن يكون موضوعاً للنقد التاريخي كأي وثيقة تاريخية قديمة، إنما نحن بصدد مسألة محددة تصاغ في السؤال التالي: إلى أي حد يمكن قبول الرأي القائل بقدم الصهيونية على أساس قدم التوراة، أو بكلمة أخرى إلى أي حد يمكن الركون إلى اعتبار أن التوراة هي الصهيونية بالذات؟

إننا يجب ان نميز بين مسألتين —كما أشرنا سابقاً— مختلفتين:

الأولى: نشأة الصهيونية كظاهرة تاريخية حديثة وأساس الصهيونية الايديولوجي.

وثانياً: إن خرافة قدم الصهيونية التي يشيعها عدد من المؤدلجين الصهاينة ليست أكثر من سلاح موجه لحمل جميع اليهود للايمان بالحركة الصهيونية والاندراج في سياستها قبل كل شيء، وبعث الحمية الدينية في صفوف اليهود، ومن أشنع الأخطاء أن يردد بعض المفكرين العرب هذه الخرافة—عن حسن نية— بكلمة واحدة، ان البحث عن مبرر ايديولوجي للحركة الصهيونية ماكان يمكن إلا أن يعود إلى الماضي الميت من أجل بعثه، وهم على بينة إلى حد يمكن أن تلعب الفكرة الدينية بعواطف البشر، وماالدور الذي تقوم فيه وسط جماعات اليهود في ظروف أزمات متعددة.

إذاً، وقبل كل شيء، إن قدم الصهيونية حيث يبدأ تاريخها من ابراهيم والكتاب المقدس مستمراً إلى القرن التاسع عشر فكرة صهيونية بالأساس، كما رأينا مثلاً عند اتينغر، وهناك امثلة كثيرة على المحاولات التي أرادت ان تجعل من الفكرة الصهيونية تاريخاً موصولا منذ أربعة آلاف عام وحتى الآن، وهذه الخرافة هي التي يجب ان تكون موضوعاً للنقد قبل كل شيء. لقد أشار يوري ايفانوف الى هذه النقطة حين قال:«من المهم جداً كشف الأسباب الحقيقية لاختراع ونشر الخرافة حول قدم الصهيونية، ومن الجلي أن تختفي وراء ادعاءات الصهاينة الساذجة، ظروف خطيرة جداً».(٣٢)

في منتصف القرن التاسع عشر، كتب الحاخام يهودا التالي يقول:«نحن كشعب يليق بنا أن نلقب باسرائيل، فقط إذا كنا في أرض اسرائيل» ويضيف:«أمنيتنا الكبرى دون شك هي لمّ شمل منفيينا من أطراف العالم الأربعة كي يصيروا كتلة واحدة. نحن اليوم واحسرتاه، مبعثرون ومنقسمون لأن كل جالية يهودية تتكلم لغة تختلف عن الأخرى ولكل منها عادات مختلفة. هذه الانقسامات عائق للخلاص»(٣٣).

ترى ماالذي سيوحد اليهود كلهم المنتشرون في أطراف الأرض الأربعة والذين يتكلمون لغات مختلفة ولهم عادات بعدد عادات الشعوب التي يقطنون بينها؟

من الطبيعي أن يبحث الصهيوني عن ايديولوجيا توحد جميع اليهود وهو لأنه لايجد مايوحد اليهود في الواقع فخف ليوحدهم عن طريق دينهم، ودينهم تحول إلى كتاب ووصايا وتاريخ خاص.

إذاً فالعودة إلى التوراة تحقق لهم عنصراً مقاوماً لكل عوامل الاندماج لاسيما أن عددا كبيرا من مثقفي اليهود كانوا تنويريين اندماجيين بالأساس ، بل إن أغلب الذين بدأوا تنويريين قد نكصوا نحو اليهودية مرة أخرى ونظروا لوحدة اليهود— المعذبين في الأرض—لأنهم يهود. ولاأدل على ذلك من أن أسماء كثيرة من دعاة الصهيونية لاحقاً بدأوا حياتهم علمانيين اندماجيين كما قلنا، كموسى هيس وبيريتز سمولنسكين وموشيه لايب ليلينبلوم وهرتزل وماكس نوردو وآخرين. كان لابد من بعث جميع الأساطير لصياغة المفاهيم الايديولوجية للصهيونية، كالمنفى والخلاص والشعب المختار والعداء للسامية، وهكذا تحولت اليهودية من مجرد دين إلى أساس قومي وتحولت عناصرها إلى عناصر موحدة، وتحوّل التوراة إلى منبع تاريخي.

والخطوة الأولى، إذا، هي مواجهة معارضة بعض اليهود أو الأفكار التي انتشرت بين اليهود وهي أفكار معارضة لما يسمى بعودة «الدولة اليهودية».

في وقت مبكر كتب بيريتز سمولنسكين يقول:«ليكن معلوماً بأنه يتوجب علينا إعلان الحرب ليس ضد حركة التنوير على العموم لأنها شيء حسن... إنما ضد نوع معين من التنوير، ولنعرف الآن هذه الحركة من التنوير كي لانخلطها مع غيرها وذلك بذكر تعاليمها»(٣٤)٨

ثم يعدد سمولنسكين عناصر التنوير اليهودي الذي يقف ضده ويجملها بما يلي:«تبني طرق الأمميين، تبديل كل شيء ورثه اليهود من الأجداد، الذوبان في المجتمعات الأخرى، التخلي عن آمل العودة، محو اللغة العبرية، إرضاء الأمم الأخرى»(٣٥).

ولأن هذا التنوير يعني الذوبان في المجتمع والذوبان في المجتمع يعني اعتناق دين آخر— كما يرى— فلابد من العودة إذا إلى وصايا التنوير، بل إلى وصايا التوراة.

إن الصهيونية في إبرازها أهمية ودور التوراة في ايديولوجيتها، إنما أرادت أن تجد جواباً عن سؤال«الهوية القومية»، وهي ظاهرة شاذة في العصر الحديث —ظاهرة— ان يبحث جماعة من الناس عن هويتهم في كتاب مضى على تأليفه آلاف السنين، فاليهودي الصهيوني وجد نفسه في حالة لاتسمح له بالحديث عن شعب أو أمة يهودية استناداً إلى العناصر التي تكوّن الأمة او الشعب، بل قل إن الفكر الاجتماعي— السياسي الذي حدد عناصر تكون الشعب أو الأمة يدحض وجود أمة يهودية.

ففي غياب العنصر الجغرافي —الأرض— الذي يجمع اليهود— وهم متوزعون على بلدان كثيرة— صاغوا علاقة دينية بين اليهود وبين أرض موعودة، أي في ظل غياب الأرض الواقعية بحثوا عن أرض وهمية، وهذه الأرض الوهمية إنما وجدت على لسان التوراة، وليس مصادفة أن عبر أحد الصهيونيين عن هذه الواقعة بما يلي:«الصلات بين الشعب اليهودي وأرض اسرائيل تكوّن واحدة من أغرب الظواهر في تاريخه الطويل، وهي ظاهرة قد لانقع على نظير لها في تاريخ أي شعب من الشعوب»(٣٦).

وشيمون بيرس يؤكد فرادة طابع دولة اسرائيل، حيث هذه الدولة الوحيدة في العالم ذات الديانة الواحدة«وهي الدولة الوحيدة التي تمتاز لغتها الحية بكونها لغة مقدسة، هي اللغة العبرية، كما أنها الدولة الوحيدة التي يبعث نشوؤها استقلالاً سياسياً وقومياً كان موجوداً في المنطقة الجغرافية منذ حوالي الألفي عام... ولاشك في صحة ماأشار إليه «هينه(*) من أن «التوراة هي الوطن الأم الثالثة للشعب اليهودي» وهناك وعي جديد يفرض نفسه، هو ضرورة الوصول إلى توازن أفضل بين التاريخ والجغرافيا»(٣٧).

إذا إن الانفصال القائم بين التاريخ وبين الأرض—وهو انفصال واقعي— لايزول إلا بإقامة الترابط بين التاريخ وبين الأرض، الموجود في التوراة، في هذا لايختلف «العلماني» الصهيوني عن الصهيوني«المتدين» ذلك أن كليهما محتاج إلى التوراة ليقدم تبريراً ما—توراتي— لعلاقة بين اليهود والأرض، لتستكمل عملية إيجاد حجة الأمة التي لاتقوم إلا على أرض محددة.

وليس هذا فحسب، وإنما التوراة ، بما تنطوي عليه من خرافة النسب اليهودي تقدم أيضاً عنصراً جديداً يوّحد مالا يوحد،بمعنى ان توزع اليهود— وهو توزع قديم وأسبابه كثيرة— على دول العالم لايمكن أن يكون متحداً مهما كانت درجة العلاقات القائمة بين يهود العالم، ولهذا فالبحث عن أصول سلالية لليهود استمرت حتى هذه اللحظة— وهو امر تدحضه ولاشك حتى الصفات الأثنية لليهود— لايمكن أن يدلل عليه عن طريق علم السلالات أو بالأنتولوجيا أو الأتنوغرافيا، فلا يبقى إذا إلا اسطورة التسلل السلالي الموجودة في التوراة، وإشاعتها بين اليهود كي يتكوّن وعي بالإنتماء ، او الهوية القومية المفقودة.

فالصهيوني وهو يستعيد اسطورة تكوّنه السلالي كما ورد في التوراة يصوغ على نحو فج فرادة هذا «الشعب » اليهودي وفرادة تكونه التاريخي ايضاً . وها هو احد الصهيونيين المعاصرين يرسم اللوحة السلالية التالية للتدليل على : اولا، ان اليهود هم صفوة الشعوب . ثانيا، ان هذه الصفوة ترتد الى التاريخ طالما التوراة تختصر تاريخ البشرية والعالم وليس اليهود فحسب .

« عنصر شعب اسرائيل افخر العناصر لانه تكوّن عن طريق انتقاء الافضل في كل جيل ، فآدم الاول الذي خلقه الرب بنفسه كـان كاملاً في غاية الكمال ، وقد ولد لآدم ابناء كثيرون كان احسنهم شات وقد وقع عليه الخيار كي يستمر عنصر آدم الاول ، ويتكوّن منه شعب اسرائيل . وكان لشات ابناء كثيرون احسنهم انوش ، الذي اختير ليستمر العنصر ، وهكذا دواليك ... وقد كان لنوح ثلاثة ابناء واحسنهم سام ، ، وكان احسن ابنـاء سام ارفكشاد ، ، واحسن ابنـاء ارفكشاد كان سيلح ، وهكـذا دواليك... وقد كـان لابراهيم ابنـاء وهما اسحق واسماعيل . وقـد وقع الخيار على اسحـق ، ابناء اسحق هم يعقوب وعيسو ، وكان يعقوب هو الافضل . وقد اختير ليواصل العنصر . وكان ابناء يعقوب كلهم اخيار ولم يكن من داع لانتخاب واحد منهم » (٣٨).

وهذا يعني ان ابنـاء يعقوب — وهم اليهود — نسلهم جميعهـم اخيار ومختارون وينتمون الى أصل واحد متسلل حافظ على نقائه السلالي .

اي كتاب يمكن لـه ان يساعد على تكويـن هذا التصور الساذج لـلانتماء اليهودي الى سلالة نقية غير التوراة ؟!

وهكذا نرى ان التوراة هو الحقل الايديولوجي الذي قطعت منه الحركة الصهيونية اهم اخشابها لتبني اعمدتها الاسـاسية ، الحنين الى الارض الموعودة ، الخلاص النقاء العرقي ، الامة اليهودية . لم يستطع العربي ان يتجاهل هذا التصور الاسطوري لتاريخ اليهود وان كان الكثير ، كما سنرى ، قـد عالج الصهيونية من حيث هـي ظاهرة اوربية حديثـة ذلك ان مـواجهة الحق عن طـريق اعـادة رسم تاريـخ آخر لليهـود لايعطي لليهود مثل هذا الحق . واذا كانت المسألة كلها تكمن في حق العرب الفلسطينيين في فلسطين ، فـان الايديـولوجيـا الصهيـونية قـد فـرضت نـوعاً مـن الجدل بين حقين: كلامهما يستنـد الى التاريـخ. صحيح ان التـاريخ لايقـدم لليهود اي مستنـد اطلاقـاً للحديث عن حق تاريخي ، لكن مجرد ان حوّل البعـض من المفكرين العرب المسألة الى صراع بين حقين — وهم يدحضـون حق اليهود المزعوم في فلسطين — قـد نقلوا القضية الى مستوى اخر من المعالجة وكأن المسألة هنا مسألة من يملك حججاً تاريخية اقوى .

تأسيساً على مـا سبق ذكره خفـّ المفكـرون العرب — حين تناولوا تـاريخ اليهود وهم بصدد دحض ادعاءات الصهيونية التاريخية — لرسم صور اخرى لهذا التاريخ ، على الرعم من اتفاقهم جميعاً بان ليس لليهود في فلسطين ايّ حق تاريخي.

سأتناول نماذج معينة تبرز تنوع تناول تاريخ اليهود ، دون ان يعني ذلك انها تستنفذ كل ما كتب حول الموضوع . فهمنا امر آخر مختلف من النماذج التي يقدمها بعض الباحثين العرب لتاريخ اليهود، عبر الحديث عن تاريخ فلسطين، ما كتبه السيد ابراهيم المسلم في كتابه « لمحات من القضية الفلسطينية ودور الملك عبد العزيز آل سعود ». يبدأ تاريخ فلسطين منذ ٣٥٠٠ ق. م ، حين استوطنتها اول قبيلة وهي عربية سميت بالكنعانيين . وفي « زمن النبي ابراهيم عليه السلام كان الكلدانيون يحكمون في العراق والعموريون في الشام والكنعانيون في فلسطين والفينيقيون في صور ، وكانوا عرباً . وعندما جهر النبي ابراهيم عليه السلام بدعوته انكره قومه ... وكادوا له » (٣٩) . وكان ابراهيم يقيم في مدينة أور الكلدانية . « وخرج ابراهيم فاراً بدينه يسعى في الارض ليظهر هذا الدين وحطت القافلة رحلها في مدينة حاران واجتمع اليه الناس وامتلأت خيامه بالقادمين من التجار والمرافقين والمستضعفين من مدينة حاران وزادت رغبتهم في الدخول بدين ابراهيم. وبدأ سكان حاران يجهرون بهذه الدعوة ، الامر الذي اغضب الدولة. ترك ابراهيم ارض حاران وسارت القافلة باتجاه نهر الفرات ، وتأهبوا للعبور »(٤٠)*.

« وتم العبور باذن الله — وسجل المؤرخون هذا ما بين عام ١٧٥٠ — ١٧٠٠ ق. م » ثم دخل حلب ومنها رحل الى دمشق ونشر دعوته . وانتصر على الكهنة وعباد الاوثان . ثم رحل الى فلسطين لنشر دعوته لكن الكنعانيين رفضوها « واستعانوا بسنان بن الاش بن عبيد من ابناء سام وهو ملك مصر آنذاك » فجهز ملك مصر جيشاً وهزم ابراهيم واسرت زوجته سارة وحملت مع « السبايا الى مصر » . ثم انطلق ابراهيم الى مصر « لفك اسر زوجته وافتدائها بالمال » اعاد ملك مصر لابراهيم زوجته سارة واهداه « هاجر ام المؤمنين » (٤١) وعاد ابراهيم الى بيت ايل ثم بدأ الترحال مرة اخرى وحطّ بالخليل . ثم تزوج ابراهيم من هاجر وولدت اسماعيل . واوحى الله الى ابراهيم بان يبني بيت « الله ، فخرج هو وزوجته هاجر وابنه اسماعيل وحطّ في واد غير ذي زرع . وعاد ابراهيم الى الخليل وقد اكتمل اولاد اسماعيل اثني عشر وأولاد ابراهيم من سارة باثني عشر آخرين ومات ابراهيم ودفن في الخليل » (٤٢).

تزعم ابراهيم القبائل العربية في الجزيرة . وانتشرت ذرية اسماعيل في الشام والحجاز . « وفي عهد النبي سليمان عليه السلام توطدت بينه وبين قبائل اسماعيل اواصر الصداقة .

---

* كل ما سيرد حول هذا النموذج هو تلخيص لما كتبه المؤلف، وجميع الجمل التي بين قوسين هي نقل حرفي عن المؤلف ذاته.

أما بنـو اسرائيل ، فيرى المؤلف انه بعـد وفاة « سيدنـا ابراهيم عليه السـلام وفناء قوم لوط ثـم وفاة اسحق ، عاش يعقوب — عليه السـلام — وابناؤه بين الكنعانيين واخذوا عنهم العبرية ، وبعد حدوث الرؤيـا ليوسف عاش يوسف في مصر وخرج « سيدنـا يعقوب للقـاء يوسـف وابنه بينـامين واستوطنـوا مصر . وبخروج يعقـوب انتهى وجود ابنـاء اسرائيل في ارض كنعان . وبعد حـرب فرعون مع العماليـق الذي ايدهم اليهود وانتصاره عليهم، سام فرعون بني اسرائيل الهوان »(٤٣)

« وظهر النبي موسى — عليه السلام — يجهر بـدعوة ابراهيم عليه السلام » لكن بني اسرائيل بـدأوا يكيدون له لدى فـرعون . وخرج موسـى هارباً بدينـه واستقر في ارض مدين وتزوج احـدى بنات النبي شعيب عليه السلام ، وعـاد موسى الى مصر ليتدبر خروج بني اسرائيل وخلاصهم من الاسر فتاهوا اربعين عاماً في الصحراء . ثم « قاد الشعب اليهودي يوشع بن نـون من أسباط موسى عام ١٢٢٠ ق. م » وعبر بهم نهر الاردن واحتل هذا القائد اريحا وقتل اهلهـا ودام حكمه سبعة وعشرون عاما . وبدأ تـاريخ اليهود مـن نسل يهوذا . « وقد بعـث الله فيهم نبيـاً اسمه شمويـل يبلغ رسالات ربه ، وينهاهم عن عبادة الاوثان ».ثـم استجاب الله لنداء شمويل وبعث في اليهود ملكاً اسمه طالوت ، وفي الحرب بين طالوت وجالوت قائد الكنعانيين « لم يجرؤ طالـوت على محاربة جالـوت وجاء داود وتقدم صفوف المقـاتلين وداود بايمانه بـالله وعزيمته الصادقة تقدم وقتل داود جالـوت ، وانتهى هذا الفصل من ضعف وهوان بني اسرائيل وهـُزِمَ الكنعانيون فان ايمان داود بنصر اللـه هو الذي دفعه لقتـال هذا الجبار » (٤٤).

لكن طالـوت بدأ يتآمر على داود ، وخرج داود طـريداً وعاد الكنعانيـون وهزموا بني اسرائيـل . وقتل طالـوت ونودي بداود ملكـاً وبدأ التـاريخ يسجل حكـم بني اسرائيل في عـام ١٠١٧ ق . م ثم جـاء سليمان وحجّ الى بيـت الله الحرام ، واتـم بناء الهيكل . وانتهى حكم سليمان عام ٩٣٧ ق . م بعد حكـم دام اربعين عاماً . وبعد موته قامـت الفتن بين اليهود وقامـت الحروب بينهم وقسموا مملكـة اسرائيل الى دولتين : « مملكة اسرائيل وعاصمتها السامرة . ومملكة يهوذا وعاصمتها اورشليم » (٤٥).

ثم « سلـط الله عليهم بظلمهـم »... بعل « الثـالث وغزا مملكـة اسرائيل ويهوذا ودمر مملكة اسرائيل ولـولا تدّخل بني اسماعيل لاستطاع ان يدمر الـدولة الثانية — مملكة يهوذا . واسترد الكنعانيـون ارضهم واقاموا حكمهم وحضـارتهم على ما تبقى مـن بـلادهم . وحـارب ابنـاء اسماعيـل الملـك الاشـوري ونجحوا في دخـول بـابـل واكرمهـم البابليون . واعادوا سبـايا بني اسرائيـل . ولكن مملكة يهوذا حاولـت غزو ابناء عمومتهم ... ولكنهم لم ينجحوا . ولما رأى بختنصر ملك بابل ما وقع من اليهود

لأبناء عمومتهم جهز جيشاً وقضى على مملكة يهوذا. وتمّ له ذلك عام ٥٨٦ق.م. وأحرق الهيكل ونفى اليهود. وهناك في المنفى « اشتد التعصب بين الاسرى اليهود وكتبوا التوراة بايديهم ووصفوا ابراهيم بالكذب ولم يذكروا موسى في توراتهم وزعموا ان سليمان مات كافراً .... الخ وتوقف تاريخ اليهود .... وانتهى دورهم في التاريخ » (٤٦).

انه لمن الدلالة بمكان ان «يؤرخ » عربي معاصر لليهود بهذه الطريقة مستنداً في ذلك على الطبري . فالقارىء لتاريخ اليهود عند الطبري في كتابه « تاريخ الامم والملوك » يجد ان الرواية المعاصرة هي تقريباً متفقة مع رواية هذا المسلم الذي كتب كتابه ما بين ٢٩٠ — ٣٠٣ للهجرة. وهي رواية اسلامية ، ليس فيها اي تعصب ديني او قومي . بل على العكس من ذلك فان المسلم يجد في اغلب الملوك اليهود المتعاقبين انبياء الله مستنداً الى رواية التوراة وما جاء في القرآن الكريم بشأنهم .

وانقطاع تاريخ اليهود ، حادث يدحض الحق التاريخي الذي تدعيه الصهيونية. وواقعه انقطاع تاريخ اليهود عن فلسطين واقعة لاينكرها احد حتى الصهيونيين انفسهم . ولكن العربي يرى ان هذا الانقطاع التاريخي عامل مهم جداً في تأكيد تاريخ جديد لفلسطين — هو التاريخ العربي — الاسلامي والذي يبدأ من فتح القدس حتى الان .

ولكن من اللافت للنظر ، ان المسلم وهو «يؤرخ» لليهود . او يروي الاحداث استناداً الى ماورد في القرآن الكريم يميز نوعين من الصراع وهو صراع ديني داخل اليهود انفسهم وصراع بين اليهود وغيرهم . انه صراع بين ابراهيم . ومن سار على ملته موسى وشمويل وداود وبين من انكروا دعوة ابراهيم ان الله يؤيد بنصره ملة ابراهيم على الاعداء . ولهذا نجد ان الكاتب الآنف الذكر حين يذكر الحرب بين الكنعانيين واليهود لايرى غضاضة من تأييد اليهود ضد الكنعانيين . وهم سكان فلسطين الاصليين. فالله ايد داود ضد جالوت ، وبتأييد الله داود انتصر على جالوت الكنعاني (الكافر) . ثم ان الله يسلط على اليهود ، مثلما فعل بسبب ظلمتهم ويدّمر مملكة « اسرائيل » ولكن بني اسماعيل يتدخلون ويدافعون عن مملكة يهوذا ، ولكن مملكة يهوذا حاولت غزو ابناء عمومتهم النبط ، وهم عرب وينتقم بختنصر ويعاقب مملكة يهوذا ، ويأخذهم اسرى . وهناك يبدأ التاريخ الزائف لليهود . حيث يسكتبون التوراة بايديهم . محّرفين اياه بالطبع .

ان ابراهيم وموسى وداود هو جزء — من وجهة نظر المسلم — من تاريخ الايمان الذي يمتد حتى بعثة الرسول العربي صلعم والله يؤيد المؤمنين ، وإذا بغوا يسلط عليهم الاعداء.

واله اليهـود — يهوه— هو الآخر بيده الهزيمـة وبيده النصر ، لكن اليهـودي يبقى على اتصال مباشر لاينقطـع مع يهوه من جهة نظـر اليهودي ، فهو لم يتركه حتـى هذه اللحظة والصهيـوني، يستند الى وعده بينما سيرورة الايمان تبدأ مـن ابراهيم ومـوسى وعيسى وتنتهي بـالدعوة الاسلامية — لـدى المسلم — يتوقف اليهـودي عند ايمانه وبنفيه عن الاخرين .

طبعاً نحـن لسنا امـام تاريخ يمـت الى علم المتفق عليـه وانما امام روايـة تخضع لحقائق دينية مسبقة وهذا احد اشكال تناول التاريخ اليهودي من قبل العرب .

***

مـن الكتـب التاريخيـة المهمـة التـي اصبحـت مـرجعاً لعـدد كبير مـن الـدارسين والباحثين العرب ، كتاب الـدكتور احمد سوسة ،(العرب واليهود في التـاريخ)، وهو من النوع الذي يستجيب لاصول البحث التاريخي ، مهما كان هناك من آراء مخالفة له ، ونحن اصلاً لانعدم اطـلاقاً وجود اختلافات بين المؤرخين حول الظـواهر التاريخية الماضية . والكتاب — بميله الى الدقّة — يضع هدفا مباشرا وهو تأكيد عروبة فلسطين منذ خمسة آلاف سنة وليدحض الحق التاريخي لليهود في فلسطين .

وهذا السفـر الذي يقع في ثمان مئـة وثلاث وسبعين صفحة يبـدأ بدراسة تـاريخ فلسطين منذ الهجرات الاولى اليها ، الهجرة الكنعانية ودراسة الشعوب التي سكنتها مروراً بدراسـة التوراة والديانة اليهـودية وانتهاءً بدراسة الحركـة الصهيونية . لامجال لعرض كتاب بهذا الحجم الكبير ، غير ان زبدة هـذا الكتاب تتحدد في اعادة النظر في ما اعتبر حقـائق توراتية وتقديـم تاريخ حقيقـي لفلسطين قائمة على دراسة الـوثائق التاريخيـة والمقارنة بين اللغـات. فالمؤلـف ينطلق من تحديـد مصطلحات العبرانيين، الاسرائيليين، الموسويين ، اليهود ليدّلل على انها ليسـت « اربع تسميات لمسمى واحد ، وانما لكل منها مدول خاص »(٤٧)

فالعبري مصطلح كـان « يطلق في نحو الالف الثـانية قبل الميلاد وفيما قبـل ذلك على طائفة مـن القبائل العربية في شمال جزيـرة العرب في بادية الشـام وعلى غيرهم من الاقوام العـربية في المنطقـة ، حتى صـارت كلمة عبري مـرادفة لابـن الصحراء او ابـن البـادية بـوجه عـام .... ولم يكن لـلاسرائيليين والموسويين واليهـود اي وجود بعـد . لذلك نعت ابراهيم الخليل بـ« العبراني» كما ورد في التوراة انما اريد به معنى العبريين « العبيرو» وهـم القبائل البـدوية العـربية ، ومنهـا القبـائل الآرامية التـي ينتمي اليهـا ابراهيم الخليل نفسه »(٤٨).

اما مصطلح اسرائيل « فالمقصود به يعقوب حفيد ابراهيم الخليل وابناؤه هم بنو اسرائيل ... ودورهم محصور في منطقة « حاران» (حران حاليا) ، حيث وطنهم الاصلي الذي ولدوا ونشأوا فيه. اما فلسطين فهي ارض غربتهم ، وقد وجدوا في القرن السابع عشر قبل الميلاد . وهو نفس عهد ابراهيم الخليل ... وانتهى دور « اسرائيل » بعد ان هاجرت اسرة يعقوب الى مصر وانضمت الى يوسف كما يقول التوراة واندمجت وذابت في البيئة المصرية » (٤٩).

اما الدور الموسوي فجاء بعد الدور الذي تداولت فيه تسمية اسرائيل بزهاء ستمئة عام . والموسويون هم من الجنود الفارين على ارجح الاحتمالات وكان دين هؤلاء ودين موسى هو التوحيد الذي دعا اليه اخناتون . وقد هرب موسى واتباعه الى ارض كنعان هرباً من اضطهاد الوثنيين ، واسم موسى مصري بحت » (٥٠).

واخيرا اليهود « وهي التسمية التي اطلقت على بقايا جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذ نصر في القرن السادس قبل الميلاد »(٥١).

ويخلص الدكتور احمد سوسة الى ان اليهود لم يتركوا اي كيان سياسي يهودي خاص بهم في تاريخ فلسطين القديم ولكنهم تركوا ديانة مقتبسة من التراث الكنعاني البابلي الآرامي ، وأن عهد ملوكهم هو عهد كنعاني ان كيانهم قائم على الدين والدين عرضة للتغيير على خلاف القومية بما هي عليه من ثبات . وبالتالي فان كيان اسرائيل كان قائماً على الاغتصاب والاعتداء على شعب آمن له قوميته وثقافته في فلسطين منذ خمسة آلاف عام . النتيجة ان ارض فلسطين هي ارض الشعب العربي » (٥٢).

ان سر بقاء اليهودية واستمرارها طوال هذا الزمن هو انها دين ، وكما زالت الدولة الصليبية في الشرق وبقيت المسيحية ستزول اسرائيل بوضعها الشاذ الحالي »(٥٣)

النموذج الثالث الذي نقدمه في رصد تاريخ فلسطين هوكتاب الاستاذ يوسف اليوسف « تاريخ فلسطين عبر العصور ». ينتبه المؤلف الى نقطة جديرة بالاهتمام الا وهي ان « معظم ما كتب عن تاريخ فلسطين هذه الايام قد حتمته الظروف السائدة في القرن العشرين . وهكذا انصبت الابحاث بالدرجة الاولى على مناقشة التوراة وعلى دراسة التاريخ اثناء « العصور التوراتية ،مع ان تاريخ فلسطين او سواها ينبغي ان يدرس كاستجابة لنزعة العقل البشري الرامية الى معرفة الحقيقة في ذاتها ولذاتها ، وبغض النظر عن نتائجها السياسية ... » ويضيف : « ان تاريخ فلسطين اذا درس انطلاقاً من الرغبة في الحق فانه لن يكون الا في صالح الفلسطينيين من تلقاء ذاته او وفقاً لطبيعته الموضوعية » (٥٤).

اذا، ان مطلب الدقة والنزاهة والموضوعية لا يتناقض والحق الوطني ، لاسيما ان وجود دولتين « اسرائيـل » و «يهوذا» او عدم وجودهما في فلسطين ، او تـأسيسهما من قبل « العبرانيين » ليس من شـأنه كما يقول يوسف اليوسف ان يكـون اساساً منطقياً كافياً لقيام دولة يهودية في فلسطين (يقصد الان أ.ب.) وان انقطاع الوجود اليهودي في بلادنا طوال ثمانية عشر قرناً على وجه التقريب هو اساس الحجة التي تحرم اليهود من الحق في انشاء دولة لهم على اي شبر من تراب فلسطين » (٥٥).

النقطة التي يدحضها المؤرخون العرب اجمالاً هـي هذه بالذات اي الى حد يسمح تاريـخ فلسطين بتبرير الـوجود الراهـن للدولة اليهـودية — الصهيـونية في فلسطين . رأينا عند أحمد سـوسة نفي الوجـود اليهودي في فلسطين والنظر اليهم كغـرباء، اي ان فلسطين في كل تاريخها الطـويل لم تكن الا موطن غربة لليهـود . وهذا بدوره نفي لدعاوى الصهيونية المعاصرة .

ما يميز كتاب « تـاريخ فلسطين عبر العصور » هو الدراسة النقـدية للتوراة ونفي ان تكون مـرجعاً صالحاً لـدراسة تاريـخ فلسطين وتاريخ اليهـود بالذات. فتحـويل التوراة الى وثيقة، ثم القيام بعملية نقد لهذه الوثيقة ، نقد يستند الى جملة الاكتشافات الاثرية التي اصبحت في متناول الجميع ، وهي اكتشافات تسمح باعادة رسم صورة جديـدة لتاريـخ المنطقة، غير الصورة التـي رسمها عـدد كبير من الغـربيين والعرب انطلاقاً من الاقرار بصحة ما جاء في التوراة .

من الأمثلـة على ذلك، مايـورده المؤلف من تنـاقضات التـوراة، وهي فعلا تنـاقضات لاتسمح لأي مؤرخ أوفى خطأً من الدقة والنزاهة والموضوعية والمخيلة التاريخية ان يقر بما جاء فيـه من حوادث. مثـال؛ إبادة بني اسرائيـل لشعب مـديان الذي جـاء في الإصحاح الحادي والثلاثين مـن سفر العدو، حيث تمت الإبـادة في عصر موسى، ولكـن الإصحاح السادس والإصحـاح الثامن مـن سفر القضاة يتحدث عـن حروب طويلـة بين اسرائيل وشعب مديان بعد موت موسى ص٦٣.

يســأل مـؤلـف «تـاريخ فلسطين عبر العصـور»السـؤال التـالي:«اسرائيـل عبرانيـة أم كنعانية؟»(٥٦). يجيب المؤلف إنها، لاريب دولة كنعانية لجملة اسباب :فاسم اسرائيل هو كنعاني وهذا مـايجمع عليه كثير من المؤرخين، وهو المؤلف مـن كلمتين«اسر»و«ايل» وأيا كـان معنى «اسر» فـإن إيل هـو الالـه الأعلى عد الكنعـانيين، وحقيقة وجـود اقليمين في الكتلـة الجبلية الـواقعة إلى الجنـوب من مـرج بنـي عامـر، احدهما يسمـى اسرائيل وهـو الشمالي، وثانيهما يدعى يهوذا وهو الجنوبي، لايستخلصهما المرء من التوراة وحدها، بل من الوثائق الآشورية والبابلية قبل كل شيء»(٥٧).

وإن اسرائيل المذكورة في التوراة أو في الوثائق الآشورية:«لم تستطع جهود المنقبين جميعها ان تكشف فيها أي أثر غير كنعاني على الإطلاق مما لايدع مجالاً للشك في أنها لم تكن إلا مجتمعاً كنعانياً»(٥٨).

إذا «حين أطلق الصهاينة اسم «اسرائيل» على دولتهم الراهنة، إنما سرقوا الإسم من الكنعانيين، أي أصحاب البلاد الشرعيين»(٦٠).

ثم يسأل يوسف سامي اليوسف سؤالا آخر؛ هل كان يهوه كنعانياً هو الآخر؟ يجيب اليوسف قائلاً:«إن التنقيبات قد اكتشفت ثلاثة ألواح بابلية ترقى إلى القرن الثامن عشر ق.م وقد نقش اسم يهوه على كل منها، مما لايدع مجالا للريب في أن يهوه، أو الدائم ، إله يعبد في الهلال الخصيب منذ زمن لاندريه»(٦١)

الأهم من ذلك ان يوسف اليوسف يرى، انه لايمكن الثقة بما ترويه التوراة عن كل ماهوسابق للقرن التاسع ق.م. وهو يرى أنه«ليس لدينا أية وثيقة تاريخية تؤكد الوجود الفعلي لأي شخصية من الشخصيات الكبرى التي تعيش في الملحمة التوراتية: ابراهيم، اسحق، يعقوب، يوسف، موسى، يشوع بن نون، شاول ،داود، سليمان، فكيف يمكن للعقل السليم ان يثق بما تسرده التوراة؟ لاسيما أن الأحداث السابقة على القرن التاسع قبل الميلاد قد جرت قبل عصر الكتابة»(٦٢).

والحقيقة ان الشك بالوجود الفعلي لشخصيات كابراهيم واسحق ويعقوب،...الخ، شك له مايبرره، وهو إن تأسس على جملة وقائع تاريخية فإنه ولاشك، سيغير كثيرا من الأفكار والآراء التي تكونت لاحول تاريخ المنطقة العربية وتاريخ اليهود القديم فحسب، بل وتاريخ أفكار التوحيد ونشأة الدين التوحيدي.

واقع الحال، مهما كان التاريخ— تاريخ منطقة الشرق— ينطوي على جماعة من الناس سمها ماشئت عبرية، اسرائيلية، يهوذاوية، بنت علاقاتها مع الجماعات الأخرى عدائية أم سلمية، فإن الاستناد إلى وقائع تمّت إلى مرحلة ماقبل الميلاد لايعني أبدا أن هذه الجماعة قادرة أن تكون سندا تاريخياً لما نسميه اليوم— اليهود— بأن يستولوا بالقوة أم بطرق أخرى كالهجرة وماشابه ذلك على أرض يسكنها شعب توراث هذه الأرض بشكل مستمر مئات السنين.

فكيف إذا دلّلت الأبحاث التاريخية العلمية والوثائق التي بين أيدينا على بطلان الزعم بالحق التاريخي.

وإذا أجبر المؤرخ العربي على دخول معركة الجدل حول التاريخ، فهذا لأن الخصم المعاصر هو الذي جر العرب إلى هذه المعركة السجالية حول التاريخ، ليتجنّب القناعة ان هناك مشكلة ليست هي وليدة مرحلة الاستعمار في القرن التاسع عشر، بل هي وليدة تاريخ طويل من الصراع، مع أن التاريخ لايسجل أي صراع ذا قيمة بين العرب وبين

الجماعات المختلفة التي تدين باليهودية، فكما رأينا، استناداً إلى النماذج الثلاثة التي جئنا على ذكرها، فإن أي نموذج منها لايتحدث عن اليهود إلا في مرحلة سابقة عن ميلاد المسيح، ومنذ تلك المرحلة حتى هذه اللحظة جرت تطورات تاريخية واجتماعية وقومية وأخلاقية، غيرت الطابع القديم للتاريخ بصورة كيفية جداً.

ولو أن المسألة ترتد إلى حق جماعة تاريخي في فلسطين لتحدثنا عن حق أهل كريت المعاصرة كوارثين لجماعة الفلستينيين ، وعن حق الفرس وحق اليونانيين... الخ، بل ولأصبحت مصر المعاصرة وسورية والعراق عرض لجدل تاريخي بين العرب وغيرهم من الأمم المعاصرة التي ترى نفسها امتداداً لأقوام غارقة في القدم.

لقد احتفل مرة شاه ايران المخلوع بعيد تأسيس الامبراطورية الفارسية، وكان كورش الفارسي قد احتل في اواسط القرن السادس قبل الميلاد الأناضول والعراق والشام جميعها ومصر ، فلماذا يكون حق اليهودي الأوروبي المعاصر في فلسطين اكثر من حق الفارسي المعاصر فيها، ألا يحق لليوناني المعاصر، إذا اعتبر نفسه سليل الاسكندر المقدوني، ان يحاجج اليهودي المعاصر بأن حقه في فلسطين هو الآخر مؤسس على وجود استمر مايقرب من ٣٣٢ ق.م إلى ٦٤ ق.م.

إن المنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج(الوطن العربي الآن) قد أخذت طابعها العربي— الاسلامي الخالص منذ أكثر من ألف عام، رغم أنها خضعت خلال هذه الفترة لعدد كبير من الحكام غير العرب، واستعمرها الأوروبيون (وكان قد دخلها الصليبيون وداموا فيها مايقرب من مئتي عام). وهناك أقليات قومية احتفظت بعدد كبير من سماتها الثقافية، لاسيما تلك الأقليات التي احتفظت بوجودها التاريخي حتى الآن، كالبربر والأكراد، وهم جزء من سكان المنطقة الأصليين.

مايهمنا إبرازه هنا، ان عملية تدوين التاريخ، تاريخ المنطقة بعامة منذ آلاف السنين يجب أن لاتخضع لهاجس يفرضه الاستعمار الصهيوني للمنطقة، بل يجب ان تبقى صعيداً يتناول بكل نزاهة ودقة، وهذا ماتفتقده أصلاً الايديولوجيا الصهيونية التي تسعى لرسم صورة لتاريخ المنطقة استنادا إلى رغبة ايديولوجية زائفة وتشكيل صورة للتاريخ لاتوجد إلا في ذهن منشئها.

وبعد تطور علم التاريخ ووسائل ومناهج بحثه وتوافر أعداد هائلة من الوثائق والقدرة على فك رموز لغة الشعوب القديمة، لم يعد مقبولاً الاستناد إلى ....التاريخ البشري، إلى تاريخ جماعة تقاتل و..... تنتصر وتنهزم استناداً إلى رضا وعضب الإله الذي يحدد هو بالذات الوقائع والسيرورة التاريخية.

إن علم التاريخ وإن بدا علماً، هو أكثر العلوم تأثرا بالمواقف الايديولوجية المشبعة والأهواء والرغبات، لكنه محكوم على الأقل بجملة من الوقائع التي يختلف على فهمها وتفسيرها.

أما اختراع وقائع واحداث فهذا يبعدنا عن مجال علم التاريخ ويضعنا امام الأساطير التي لم تعد وعياً مطابقا لمرحلتنا التي نعيش، وهذا هو حال علاقة الصهيونية بالتاريخ، أي أن الصهيونية هي مع كل مايقال عن اختلاف داخلها بين المتدينين والعلمانيين، فإنها فيما يتعلق بالوعي التاريخي ليست إلا إعادة انتاج الأساطير مرة اخرى والتعامل معها كواقائع غير قابلة للدحض.

وإذا كان مجال الاختلاف في التاريخ هو الفهم والتفسير، فليس هناك ماهو موضوع خلاف مع الصهيونية، لأن الخلاف لايقوم على فهم وتفسير التاريخ، بل نحن أمام تناقض مطلق بين الوعي الأسطوري الصهيوني، والوعي التاريخي العلمي، وإذا ماخف أحد من العرب لإعادة انتاج تاريخ المنطقة استناداً إلى التسلسل الأسطوري التوراتي بحجة تطابقه مع الشائع من التاريخ، فإنه في هذه الحالة لن يقدم خطاباً مختلفاً من حيث الطبيعة عن خطاب الصهيونية...

إن مجال التاريخ، هو مجال فعل الارادة البشرية في شروط جغرافية وسياسية وثقافية واقتصادية معينة، وهذا ماينفي تدخل أي قوى غيبية عن التاريخ، كما ينفي عنه أية غايات غير بشرية.

اما حال الصهيوني مع التاريخ فهو على العكس تماماً، إن التاريخ لديه هو تاريخ تدخل الإله(يهوه) كقوة فوق التاريخ تسيره، عندها يغدو تاريخ الشرق العربي تاريخ صراع بين(يهوه) إله اليهود وبين شعوب المنطقة، أو بين اليهود الذين يدعمهم يهوه بوعده الإلهي وبين العرب الذين يعاندون إرادة الإله الذي لاينفك يطلق التهديدات والوعود وإعلان الحرب الخ، عندها تغدو إرادة اليهود تحقيقاً لارادة يهوه.

في النموذج الأول من الخطاب التاريخي الذي يقدمه ابراهيم المسلم، سنجد كل مكونات الخطاب التاريخي الإسطوري. لكنه خطاب شائع، يجد قبولا لدى الكثيرين. صحيح أنه ينتهي بتأكيد عروبة فلسطين في النهاية، لكنه خطاب يؤسس على نفس المرتكزات التوراتية المعروفة تقريباً مع بعض التغيير والمقارنة التالية شاهد على ذلك.

ابراهيم مسلم

١ —خرج ابراهيم فاراً بدينه... تاركاً ارضه... في أور الكلدانية وحطت القافلة في حاران ص١٧

٢ —ترك ابراهيم ارض حاران.. سارت القافلة باتجاه نهر الفرات وتأهبوا للعبور وتم العبور بإذن الله... دخل حلب ثم رحل منها إلى دمشق ثم رحل إلى فلسطين... وحطت قافلته في بيت أيل حيث اختار احد المرتفعات من الجبال وأقام خيامه في الجهة الشرقية.ص١٨

٣—جهز ملك مصر جيشاً دخل فلسطين وقاتل ابراهيم وقـومه، وانتهت الحرب في غير صالح ابراهيم وأسرت زوجته سارة... إن الله يأمره بالسفر إلى مصر.ص١٩
٤—وأخيرا حطت القافلة من مصر في بيت أيل.ص٢٠
٥—وبينما هو في سجوده سمع هاتفاً من السماء يقول له:
«ياابراهيم ارفع عينيك إلى السماء وانظـر الى مشارق الأرض ومغاربها لسوف يعطيك الله هذه الأرض ويورثها لذريتك وسيجعل الله في ذريتك النبوة والكتاب»ص٢١

التوراة

١—وأخذ شـارح ابرام ابنـه ولوطـا بن هـاران... فخرجـوا معاً مـن أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك(التكوين ١١—١٢)
٢—وخرجـوا ليذهبـوا إلى أرض كنعان(ابـراهيم ولـوط وساراي) واجتـاز ابرام في الأرض إلى مكان شكيـم إلى بلوطة مـورة... ثم نقل من هنـاك إلى الجبل شرقي بيـت ايل ونصب خيمته التكوين ١٢—١٣
٣—فحدث جوع في الأرض فـانحدر ابرام إلى مصر ليتغرب هنـاك، فحدث لما دخل ابـرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنـة... فـأُخــذت المرأة إلى بيـت فـرعـون. (التكوين ١٢—١٣)
٤—فصعد ابـرام من مصر... وسار في رحـلاته من الجنـوب إلى بيت أيل.(التكـوين ١٢—١٣)
٥—وقال الرب لابرام بعد اعتزال لوط عنه ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي انت فيه شمالاً وجنوبـاً وشرقاً وغرباً، لأن جميـع الأرض التي انت ترى لـك أعطيتها ولنسلك إلى الأبد.(التكوين ١٣—١٤)

حتى قصة انتصار داود على جالوت الكنعاني— الفلسطني الأسطورية التي وردت في التوراة ينقلها السيد مسلم بطريقته الخاصة مع الاحتفاظ بجوهر الاسطورة.

جـاء في التـوراة:«واصطف اسرائيـل والفلسطينيـون صفـاً مقابـل صفـاً. فترك داود الأمتعة التـي معه بيد حافـظ الأمتعة وركض إلى الصف وأتي وسـأل عن سلامة أخـوته، وفيما هو يكلمهم إذ برجل مبارز اسمه جليات دجالوت، الفلسطيني من جت صاعد من صفوف الفلسطينيين... وجميع رجال اسرائيـل لما رأوا الرجل هربوا منه وخـافوا جداً... فقال شـاوول لداود لا تستطيع ان تـذهـب إلى هذا الفلسطيني لتحـاربه لأنك غـلام وهو رجل حرب منذ صباه... وكان لما قام الفلسطيني وذهب وتقدم للقاء داود أن داود أسرع وركض نحو الصف الفلسطيني... فتمكن داود مـن الفلسطيني بالمقلاع والحجر وضرب الفلسطيني وقتلـه، ولم يكن سيف بيـد داود، فركـض داود ووقف مع الفلسطينـي وأخذ سيفه واخرجه من غمده وقتله وقطع به رأسه»(٦٢).

ويقول مسلم «والتقى الجمعان، ودخل الخوف إلى قلب طالوت فلم يجرؤ على مبارزة جالوت قائد الكنعانيين... وكان داود عليه السلام يرعى غنمه، ولم يشترك مع القوم في هذه الحرب، فلما سمع بما حدث من قومه وخور عزيمتهم، فغضب لله وتقدم صفوف المقاتلين ليعلن أنه هو الذي سيبارز جالوت، وللمرة الثانية بدأ القوم يشككون في مقدرة داود على المبارزة، لكن داود بإيمانه بالله وعزيمته الصادقة تقدم وقتل داود جالوت، وانتهى هذا الفصل من ضعف هوان بني اسرائيل، وهُزِمَ الكنعانيون، فإن إيمان داود بنصر الله هو الذي دفعه لقتال هذا الجبار»(٦٣).

طبعاً بعد ذلك يستمر عرض تاريخ اليهود من السبي حتى الاحتلال اليوناني ثم الروماني ثم الفتح الاسلامي وسيادة العرب، الذي يدحض أي حق لليهود في فلسطين.

والوعد الذي قطعه الله لابراهيم بأن يعطيه الأرض ويورثها لذريته، يتحول عند السيد مسلم إلى وعد لابراهيم قبل أن يرزق بذريته،«وإن كان الوعد لولد دون الآخر فإن اسماعيل عليه السلام هو أول أولاد ابراهيم، وحينما انتشر أولاد ابراهيم في الأرض وتفرقوا كان أبناء اسماعيل اكثر حظاً في امتلاك الأرض ومحافظتهم على وصية ابيهم ابراهيم عليه السلام»(٦٤) وبما ان اسماعيل هو جد العرب، فالعرب أحق من أبناء اسحق بأن يرثوا الأرض.

من السهولة أن تقبض على الأسباب التي تقف وراء نموذج كهذا من الوعي او التفكير.

فأغلب العرب، مسلمين كانوا أو مسيحيين وجميع المسلمين يعترفون بالديانة اليهودية كدين سماوي ويقرّون بأن التوراة كتاب الله، مع الإقرار بأنه قد حُرِّفَ في مرحلة تاريخية معينة، وينظرون إلى أنبياء اليهود بوصفهم أنبياء الله، وتبدأ أصلاً سَلسلة الأنبياء من آدم وشيت ونوح وأدريس وابراهيم مروراً بأنبياء اليهود وعيسى وانتهاءً بالرسول العربي الكريم محمد، وكتب التراث العربي الاسلامي تجمع على هذا الأمر، وتكفي العودة لتاريخ الطبري والكامل لابن الأثير وقصص الأنبياء للنيسابوري وغيرها للتأكد من ذلك، استناداً إلى القرآن الكريم.

إن شخصية ابراهيم الخليل وهي شخصية مركزية في تاريخ العرب واليهود من وجهة نظر دينية، عامل توحيد، فابناه اسماعيل واسحق اصل التنوع في الذرية، لكنهما يرتدان في النهاية الى ابراهيم أبي الأنبياء والصلة بين الاسلام وبين الابراهيمية صلة وثيقة— كما يرى مثلا سعد زغلول عبد الحميد— «وتوثيق الصلة بين الاسلام والابراهيمية عن طريق اسماعيل أي العرب المستعربة، كما يصبح ابراهيم أبا للعرب الباقية من العاربة أيضاً عن طريق زوجة اسماعيل الجرهمية، وعن طريق هاجر ام اسماعيل يصبح المصريون أخوالاً للعرب.».

لكـن الصلة الأهـم في النهايـة، تلـك التي تـربـط بين سكان المنطقـة برابـط الـديانـة التوحيديـة، من وجهة نظر المسلم، التي تبـدأ من ابراهيم مروراً بموسـى وعيسى وانتهاءً بمحمـد(ص) هذه الصلـة ذات الطـابع الانسـاني لاتترك مجالاً لأي تعصـب قومـي على العكس من الصهيوني المعاصر، الذي يرى في العـالم أجمع عدوا لليهودية او اليهودي، بعد أن حول اليهـودية من دين إلى قـومية، وبالتـالي حول اسحق ويعقوب«اسرائيـل» إلى نبع عرق خـاص يحمل من الصفات المتفـوقة مالايحمله اي عـرق آخر، ويمتلك من الـوعود الالهيـة الخاصة مـالاقيض لشعـب ان يمتلك، وهـذا مايفسر لنـا لماذا مازال المسلـم يبشر بإسلامه ويفرح عندما يعتنق انسـان ما في افريقية أو آسية أو أوروبة الاسلام، ولماذا مازال المسيحي يبشر بمسيحيته، وقد اعتنقت شعوب المسيحية في وقت متأخر من القرن التاسع عشر في افريقيا، اما اليهودي فـإنه قد انقطع عن التبشير باليهودية بـوصفها دين فئة محددة من الناس وامتيـازاً لايحق لأحد ان يناله، مع ان اليهـودية لم تستمر إلا بوصفهـا ديناً، وقد دللت التجربة التاريخية ان الوعي الديني، او الاعتناق الديني اكثر قدرة على الحياة من أية أفكار أخرى.

إن العربي المسلم أو المسيحي وهو ينظر إلى اليهودية كدين فإنه عملياً لايناصب اليهود أي عداء بسبب أن ديـانتيه، بالأصل تعترفان بسماويـة الدين اليهودي ولايجد حـرجاً من القول إن بعض من يدينـون بالدين اليهودي هم من أصل عـربي. عندها يشترك اليهودي العربي مع أبناء جنسه من المسلمين والمسيحيين بالانتماء القومي.

والمؤرخ العربي وهو يضع نصب عينيه دحض الدعـاوى الصهيونية فإنه لن ينجو شاء ام أبي من الموقف المتعاطف الذي قد يفسـد الحياد المطلوب في دراسة التاريخ، وعندي أن الخطأ الذي يمكن أن يرتكب في هذه الحالة هو الانطلاق مسبقاً من أن مجرد وجود اليهود في مـرحلة تـاريخيـة غارقـة في القـدم، في بعـض مناطـق فلسطين، يعطـي مبرراً للحركـة الصهيونيـة ان تنجب القنـاعة لـدى الآخريـن— ولاسيما الأوروبيين— بأن لهم حقـاً في فلسطين، وهو لهذا يريد ان ينفي اي وجود لشيء اسمه اليهود أو اليهودية في فلسطين، مع أن المسألة لاترتـد أبداً إلى أن اليهود عاشوا في مراحل ماقبـل الميلاد في أجزاء من فلسطين أولا.

فوجود اليهود في أجـزاء كثيرة من العالم ظاهرة تاريخيـة لها أسبابها، وهـم الآن يعيشون في مناطـق منذ فترة زمنية أطـول بكثير من الفترة التي يـدعون أنهم عاشـوها في فلسطين، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، لنفترض ان اليهود قـوم من الأقوام السامية التي عاشت في فلسطين فترة من الزمن، فمن ذا القادر الآن على التدليل أن اليهودي الروسي أو الألماني أو الفرنسي أو الزنجي أو الحبشي هو استمرار لهؤلاء اليهـود الذين عاشوا في فلسطين في فترة الحضور الكنعاني؟

لاأحد باستطاعته ان ينفي حق المؤرخ في التنقيب في الماضي، فهمّ التاريخ يقوم على دراسة الواقعة الانسانية التي مضت، والتاريخ شأنه شأن العلوم الانسانية والأخرى يعاني من مشكلة الموضوعية والدقة وعرضة للأهداف الايديولوجية .

ولكن لم يشهد التاريخ صراعاً إلى حد يقرر فيه هذا الصراع على الحقائق التاريخية مصير الحاضر.

فالمؤرخون قد يختلفون مثلاً من أيها أكثر أهمية في تاريخ مصر فرعون أم عبيده... من ذا الذي كتب هذه الوثيقة س أو ص.. حدثت هذه الواقعة ام لم تحدث، هل وجود ابراهيم حقيقة ام لا..الخ أما أن يجري نقاش حول من هو أحق الآن في العيش فلسطين، الشعب العربي الفلسطيني ام اليهودي— الصهيوني الأوروبي الاستعماري، فهذا لغو فارغ لأن عروبة فلسطين حقيقة اسطع من وأقوى من كل أساطير التوراة ومعجزات أنبيائها.

المشكلة هي التالية ولاشيء يثيرها أبداً هناك حركة استعمارية صهيونية —يهودية أوروبية، نجحت —في مرحلة الاستعمار الأوروبي إلى المنطقة— في احتلال بلد عربي كل سكانه الأصليين عرب بالمعنى الدقيق للكلمة، وطردت وشردت شعبه وأقامت دولة غريبة الوجه واليد واللسان في قلب المشرق العربي، ومازال وجودها مرتبطاً بالدول الاستعمارية القديمة والحديثة ولم يمر من هذه المشكلة حتى الآن اكثر من أربعين عاما.

حق الشعب العربي الفلسطيني وحق العرب يقوم على زوال هذه الدولة كبقية من بقايا الاستعمار الأوروبي في المنطقة. هذه هي الحقيقة الساطعة التي يخفيها العجز العربي والتخلف العربي والتبعية العربية والحضور الاستعماري الجديد في المنطقة.

كيف السبيل إلى إزالة الاستعمار الصهيوني—اليهودي؟ هذا هو السؤال الذي يتطلب اجابة عملية ونظرية وكل ماعدا ذلك يعني الدخول في جدل سفسطائي، والدوران حول المشكلة.

الهوامش:

١—جورجي كنعان، وثيقة الثيهودية في العهد القديم دمشق ١٩٧٧ ص٧
٢—جورجي كنعان مصدر سابق، ص٢١
٣—جورجي كنعان، مصدر سابق ،ص٢١
٤—جورجي كنعان ، مصدر سابق ،ص٢٢
٥— جورجي كنعان، مصدر سابق، ص١٠١
٦—هانيء الهندي، محسن ابراهيم«اسرائيل» فكرة... حركة... دولة، دمشق، ١٩٥٨،ص٣٠.
٧—هانىء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص٣٠
٨—هانيء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق،ص٣١
٩—هانىء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق ،ص٩٤
١٠—هانىء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص٩٤
١١—هانىء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص١٠٦—١٠٧
١٢—س. ناجي، المفسدون في الأرض، دمشق ١٩٧٣ ،ط٢،ص١١٠
١٣—من الفكر الصهيوني المعاصر، بيروت ١٩٦٨ ،ص٣٣
١٤—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص٣٦—٣٧
١٥—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص٣٩
١٦—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص٤٠
١٧— من الفكر الصهيوني المعاصر ص٤١
١٨—من الفكر الصهيوني المعاصر ،ص٤١
١٩—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص٤١
٢٠—من ا الفكر الصهيوني المعاصر ،ص٤٢
٢١—من الفكر الصهيوني المعاصر،ص٤٣
٢٢—من الفكر الصهيوني المعاصر ،ص٤٥ ـ٤٦ ـ٤٧ ـ٤٨ـ٤٩
٢٣—د. رشاد عبد الله الشامي، الشخصية اليهودية الاسرائيلية والروح العدوانية، سلسلة عالم المعرفة، العدد١٠٢ الكويت، حزيران ١٩٨٦ ،ص٢٨
٢٤—رشاد عبد الله الشامي، مصدر سابق ،ص٢٨ـ٢٩
٢٥—رشاد عبد الله الشامي، مصدر سابق، ص٢٩
٢٦—جورجي كنعان، العنصرية اليهودية، بيروت ١٩٨٣ ،ص٢٩
٢٧—جورجي كنعان، المصدر السابق، ص٣٥

٢٨—ندرة اليازجي، رد على التوراة، ص١٥٣ـ١٥٥
٢٩—ندرة اليازجي، مصدر سابق، ص١٧٥ـ١٧٦
٣٠—ندرة اليازجي، مصدر سابق، ص١٨٨
٣١—ندرة اليازجي، مصدر سابق،ص١٩٦
٣٢—يوري ايفانوف، احذروا الصهيونية ، موسكو ١٩٦٨،ص١٢
٣٣—الفكرة الصهيونية ، النصوص الأساسية بيروت ١٩٧٠،ص١٠ـ١١
٣٤—الفكرة الصهيونية، مصدر سابق، ص٥٥
٣٥—الفكرة الصهيونية، مصدر سابق، ص٥٦
٣٦—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص٣٣
٣٧—١٤شيمون بيرس، يوم قريب ويوم بعيد(من الفكر الصهيوني المعاصر) ص١٣٧
٣٨— شرجا غافني، السلام الاسرائيلي من كتاب«الصهيونية فكراً وهدفاً وممارسة» منشورات الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ١٩٧٥،ص١٧٦
٣٩—ابراهيم المسلم، لمحات من القضية الفلسطينية ودور الملك عبد العزيز آل سعود، الرياض ١٩٨٥،ص١٦
٤٠—لمحات من القضية الفلسطينية ص١٧ـ١٨
٤١—لمحات من القضية الفلسطينية، ص١٩ـ١٠
٤٢—لمحات من القضية الفلسطينية ،ص٢٣
٤٣—لمحات من القضية الفلسطينية،ص٢٧ـ٢٨
٤٤—لمحات من القضية الفلسطينية ص٣٠
٤٥—لمحات من القضية الفلسطينية،ص٣١
٤٦—لمحات من القضية الفلسطينية، ص٣٢
٤٧—انظر الدكتور احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، دمشق، بلا تاريخ، الطبعة السادسة .ص٤٦
٤٨—احمد سوسة،المصدر السابق، ص٦٤
٤٩— احمد سوسة، المصدر السابق، ص٦٥—٦٦
٥٠—احمد سوسة المصدر السابق، ص٦٦ـ٦٧
٥١—احمد سوسة، المصدر السابق، ص٦٧
٥٢— احمد سوسة، المصدر السابق ،ص٥٩١
٥٣—احمد سوسة، المصدر السابق،ص٦١٥
٥٤—يوسف سامي اليوسف، تاريخ فلسطين عبر العصور، دمشق ١٩٨٨،ص٥ـ٦

٥٥—يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق،ص٨ـ٩
٥٦—يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق ،ص٥٠
٥٧—يوسف سامي اليوسف ، المصدر السابق، ص٥١
٥٨—يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص٥١
٥٩—يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق ص٥٣
٦٠—يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق،ص٥٦
٦١—يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص٦١ـ٦٢
٦٢— الكتاب المقدس، ٤٥٥ـ٤٥٧
٦٣—ابراهيم المسلم، المصدر السابق،ص٢٩ـ٣٠
٦٤—ابراهيم المسلم، المصدر السابق، ص٣٦.

قـــــراءة في كتـــــاب

قراءة في كتاب

جغرافية باطلة وتاريخ صحيح؟!

● محمد محفل
رئيس التحرير

في سلسلة الكتب السائرة في ركاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب»(١)، للدكتور كمال صليبي، الصادر منذ عشر سنوات تقريباً، راجعنا كتاب(جغرافية التوراة«مصر وبنو اسرائيل في عسير») الصادر عن دار (رياض الريّس للكتب والنشر، لندن، كانون الثاني ١٩٩٤) للاستاذ زياد منى. ولم نكد ننهي مراجعته، لنفاجأ بكتاب آخر بعنوان «التوراة العربية وأورشليم اليمنية» ، للاستاذ، فرج الله صالح ديب. الصادر في بيروت، كانون الثاني ١٩٩٤، عن دار نوفل.

ولايختلف هذان الكتابان الاخيران بموضوعها، عما سبقهما إليه كمال صليبي، سوى بوقوع الكاتبين في أخطاء منهجية وجغرافية وتاريخية، اجتنبها الدكتور كمال صليبي، وكأننا أمام معيدين يكررون درس أستاذهم، دون أن يرقوا إلى مستواه.

نتناول في دراستنا هذه، لكتاب«جغرافية التوراة(مصر وبنو اسرائيل في عسير») مسألتين:

الاولى: في المنهج.

الثانية: الوثائق والشواهد التاريخية والآثارية المتعلقة بالمشرق العربي القديم(*) (لاسيما فلسطين) وتوافقها أو مخالفتها نظرية كمال صليبي وأشياعه وفي عدادهم زياد منى، صاحب كتاب(جغرافية التوراة«مصر وبنو اسرائيل في عسير»).

(*) لانجد هذا المصطلح الجغرافي/ التاريخي في الوثائق العتيقة، بل اشاعه الكتّاب العرب المسلمون القدماء للاشارة إلى العراق وبلاد الشام ومصر، في حين قالوا«المغرب مشيرين بذلك إلى شمال أفريقية والاندلس(م.م)

أولاً: في المنهج:

١ —يقول زياد منى: «يتناول الموضوع الرئيسي لهذا العمل بعض قضايا ومعضلات جغرافية مرتبطة بالعهد القديم (المقصود بذلك التوراة م. م.) ، علماً بأن هذا الفرع من الابحاث التوراتية يندرج علمياً ضمن اطار ماأتفق على تسميته بـ«جغرافية التوراة» ... أما العهد القديم نفسه هو عبارة عن مجموعة من النصوص المتباينة في قدمها عن تاريخ بني اسرائيل... ومن البديهي ان هذا التاريخ قد جرى في مكان محدد، يقول الرأي التقليدي: انه المنطقة الواقعة على أراضي القطرين المصري والعراقي، أي مابين نهري النيل والفرات... ويطلق علماء التوراة مصطلح«أرض التوراة» على البقعة الجغرافية التي يعتقدون أن أحداث الكتاب المقدس لليهودية والمسيحية قد جرت عليها... اذن، اسهامي هذا يندرج في اطار التهذيب العلمي لجغرافية التوراة المشار إليه آنفاً، ويرتكز بالطبع في المقام الأول على موضوعة الاستاذ صليبي ... لكني عملت قدر الامكان على حصر بحثي ضمن اطار الجغرافيا، باحثاً من خلالها على بعض الجوانب المجهولة من تاريخ جزيرة العرب، أو التي غرقت في النسيان، وليس أكثر من هذا(جغرافية التوراة ص ١٥ ومابعدها).

ثم يتعرض الكاتب لدراسات علماء التاريخ الذين أصبحوا، في رأي كاتبنا، في حيرة من أمرهم، لان التنقيبات والدراسات الآثارية لم تدعم وجهة نظرهم القائلة ان بلاد الشام ومن ضمنها فلسطين ومصر وبلاد الرافدين هي مسرح الوقائع، مهملين منطقة عسير في شبه الجزيرة العربية.

ويقول حرفياً: «لانه بعد أكثر من قرن من التنقيب الأثري المبرمج الذي قلب أرض فلسطين رأسا على عقب، ولم يعثر على أي لُقى أثرية(*) ثابتة تدعم آراءهم » ثم يتابع في الصفحة التالية:«رغم كافة القناعات والقناعات المتجددة، بقي هاجس غياب الدليل الأثري الحاسم يلاحق كتابات وتحليلات أصحاب المنهجية التقليدية وفهمهم الجغرافي... وقد يرى أحدهم أن التوراة ليست المرجع الذي يصح اعتماده للبحث في تاريخ بني اسرائيل وبعض جوانب تاريخ جزيرة العرب، لذا أسجل هنا ان هذا العمل لايناقش صحة أو خطأ تاريخية بعض الروايات الواردة في العهد القديم، فكل مايعالجه هو المكان الذي ينقل الكتاب المقدس لليهودية ان أحداثه قد وقعت ضمنه، أما منطلقي فهو فرضية صحة التاريخ بعموميته وخطأ الجغرافيا. (ص ١٧ ومابعدها).

يسترعي انتباهنا فيما جاء أعلاه، مايلي:

أ—عسير في شبه الجزيرة العربية هي مسرح التاريخ التوراتي.

---

*يقول بعضهم أثري ونعتقد أن كلمة (آثاري) تفيد المعنى بشكل أفضل نسبة لعلم (الآثار) ولانقول علم (الأثر) (م.م)

ب— لم يعثر علماء الآثار على أي دليل مادي في فلسطين يدعم المسلمات التاريخية«الفلسطينية» ومن هنا حيرة علماء التاريخ.

ج—الوقائع التوراتية صحيحة تاريخياً وباطلة جغرافياً.

قبل أن نرد على منطلقات كاتبنا علمياً، في النقطة الثانية بالدلائل والشواهد والمسلمات التاريخية والآثارية والنصية، نود طرح بعض الاسئلة المباشرة، المتعلقة بالنظرية والتطبيق.

أ) فبالنسبة لعسير وفلسطين، فان أسقطنا فلسطين (المحتلة) من حسابنا، فتحنا الباب على مصراعيه، أمام دعاويهم الاسطورية الباطلة، للتسلل إلى قلب الجزيرة العربية، بعد اغتصابهم فلسطين.

ب) ليس صحيحاً، ان علماء الاثار لم يعثروا حتى الآن على أي دليل مادي في فلسطين، يدعم المسلمات التاريخية«الفلسطينية».

ان كاتبنا من أصحاب«لاتقربوا الصلاة». أما «وأنتم سكارى» فتجاهلها ولم تخطر بباله. وهنا نتفق معه تماما بأن علماء الآثار «لم يعثروا على أي دليل... » اسرائيلي قديم أو يهودي يضاهي مئات الأدلة الكنعانية من لقى وأسوار مدن وقنوات سقاية وري وأدوات منزلية الخ... في عشرات المواقع الآثارية الكبرى اضافة لمئات أخرى أقل أهمية، والتعليل المنطقي البسيط هو أن الاسرائيليين القدماء ولاأقول عبرانيين ولغة عبرية(*) كما يحلو لكاتبنا تكراره، نقول أن أولئك الاسرائيليين القدماء لم يكونوا سوى جماعات من البدو الرعاة أمام حضارة ترقى بأصولها إلى الالف الرابع(ق. م)، حينما راحوا يتسللون تدريجياً إلى الأراضي الفلسطينية، اعتباراً من القرن الثالث عشر(ق.م) —ان سلمنا جدلاً بتقويم المدرسة التوراتية— من فترة يشوع وحتى عصر سليمان، الذي استعان بملك صور (حيرام) لبناء هيكله، لجهل عشيرته بأمور الحدادة والبناء الخ...(٢) وأين هذا الطراز الكنعاني في البناء الحصين لأسوار المدن والقلاع الماثل للعيان منذ القديم، في مختلف بقاع بلاد الشام: السورية/ اللبنانية/ الفلسطينية، والظاهر للعيان بشكل رائع في أوغاريت وغيرها من المواقع الأثرية في ربوعنا، أنجد لذلك مثيلاً في عسير؟!

ج) وثالثة الأثافي هي التسليم بزعم، ان الروايات التوراتية صحيحة **بعموميتها ويكفينا ان ننقل جغرافيتها إلى قلب الجزيرة العربية، ليستقيم الأمر**.(الاشارة من عندنا)

حقاً، نحن في حيرة من أمرنا، وماعلينا إلا أن نقارن بين مقطعين وردا في صفحتين مجاورتين، من كتاب مؤلف «جغرافية ا لتوراة» لندرك مدى التناقض الواضح في منطق الأستاذ زياد منى.

---

*لانجد مطلقاً عبارة «لغة عبرية» في أي سفر من أسفار التوراة . (م.م).

جاء في (الصفحة ١٥) : « أما العهد القديم نفسه، فهو عبارة عن مجموعة من النصوص المتباينة في قدمها عن تاريخ بني اسرائيل، والتي تنقل بالاضافة إلى الخرافات والأساطير والتاريخ، كتابات وأحكاماً دينية تأملية نسكية».

وبالنسبة لصحة روايات التوراة أو عدمها، فيقول كاتبنافي (الصفحة١٨) :« ... أما منطلقي فهو فرضية صحة التاريخ بعموميته وخطأ الجغرافيا».

وطبعا، المقصود هنا صحة الروايات التوراتية تاريخياً، مع خطأ جغرافيتها الفلسطينية... وهنا، لابد من طرح السؤال المشروع التالي: أيّ من القولين يجب اعتماده؟ وكيف نوفق بين طرفي المعادلة:

صحة تاريخ نص ——— مفعم بالاساطير والخرافات.

لن ندخل في جدل عقيم حول روايات وأخبار مختلف الاسفار التوراتية وتاريخ كتابة تلك الاسفار ومن شارك في انشائها، الخ... فهذا ليس قصدنا ولايتسع المجال هنا لذلك، ولكن، لنضع القارىء في الصورة، لابد من توضيح بعض جوانب الموضوع، فالنسخة التوراتية الموجودة حالياً بين أيدينا، مأخوذه عن المخطوطة الماسورية،(٣) التي أعدتها جماعة من اليهود في طبرية—بتأثير من الكتابتين العربية والسريانية— من القرن السادس إلى القرن العاشر للميلاد، عندما قام هؤلاء بوضع النقاط والحركات لضبط النص الأصلي، فثبتوا بذلك الألفاظ ووحّدوا قراءتها. وأقدم مخطوطة كاملة للتوراة بالقلم الآرامي المربع تعود الى القرن العاشر للميلاد ونعرف منها نسختين: الأولى كانت في كنيس في حلب، ثم اختفت، أما الثانية، فلا تزال في متحف لننغراد(سان بترسبورغ)(٤). كما وجدت عدة ترجمات للتوراة، قبل النسخة الماسورية وبعدها اعتباراً من القرن الثالث (ق.م) وحتى القرن التاسع عشر، بمختلف اللغات: من يونانية (السبعينية) وسريانية (البشيطا/ البسيطة) ولاتينية(الوجاتا/ الشعبية) وعربية وأوربية. وقد يختلف عدد الأسفار من ترجمة لاخرى، فبعضها مثلاً يشتمل على بعض الأسفار القصصية والتاريخية، تعتبر غير شرعية ، ولانجدها في النسخة المعتبرة شرعية لدى الأحبار اليهود. وطبعاً لدينا أيضا التوراة السامرية، التي لاتضم سوى الأسفار الخمسة الأولى، المنسوبة في رأيهم للنبي موسى، وهي: التكوين والخروج واللاويين(الاحبار)، والعدد وتثنية الاشتراع، إضافة لسفر يشوع في بعض النسخ القديمة.

ونكرر قائلين: لسنا بصدد دراسة نقدية لأسفار التوراة، ان في الشكل أو المضمون، وان كان لنا عودة حول استعمال كاتبنا لكلمة«اللغة العبرية». وفي الواقع، لانهدف من مطالعتنا هذه سوى الرد على أولئك الذين خلطوا الأوراق وأشاعوا البلبلة في الأذهان، ولاندري، ألم يرغمنا تحليل محتوى الكتاب (جغرافية التوراة..) على اعتبار كاتبنا في عدادهم، وسيبدو هذا الأمر جلياً واضحاً، عندما نعرض لبعض الوثائق التاريخية الآثارية التي أهملها كاتبنا، على غرار كمال صليبي، وفيما بعد فرج الله صالح ديب.

وهكـذا، فنحـن أمـام نـص تـوراتي— النسخة الماسـوريـة— وقـد اعترف الثـلاثـة: صليبي/ زياد منى/ فرج الله صالح ديب، بأنهم اعتمدوه، مع تعديل طفيف، والحالة هذه، فنحن أمام نص تاريخي صحيح بعموميته—في رأيهم— وماعلينا سوى أن نقوم بعمليات قلب واستبدال لأسماء الأشخـاص والمواقع، بين «عبرية النص التوراتي» واللغـة العربية، فنصحح المسار ويصبح الأمـر واضحاً، عندما ننقل مسرح التاريـخ التوراتي من فلسطين الى عسير، في شبه الجزيرة العربية، وهذا هو منهجهم باختصار.

أما منهجنا، فيختلـف عنهم كل الاختلاف. فنحـن أمام نص توراتي مليء بـالخرافات والأساطير، اضافةً لـوقائع تاريخية أو شبه تاريخيـة، مع بعض الأحكام الدينية والقـانونية والتشريعية، الخ.......

ولايمكـن فهـم وادراك وتفسير هـذا كلـه، إلا في سيـاقـه التـاريخي العـام وفي ضـوء دراسات مقارنة، واضعين نصـب أعيننا دراسات مختلف العلوم المساعـدة للتاريخ، ودون أن نسقط من حسابنا مختلف وثائق حضاراتنا القديمة من مصرية ورافدية وكنعانية وآرامية الخ... وقبل ان ننتقـل إلى النقطة الثـانية عسى أن يجيبـونا عما يلي: ان كنتـم تعتقدون ان عسير وماجـاورها هـي المسرح الجغرافي الـواقعي للعـالم التوراتي، فـأين هـي الكتابـات والنقوش اليمنية القديمة، المتعلقة بتاريخ شبـه الجزيرة العربية، في قسمها الجنوبي الغربي، مع عسير الى الشمال، وكلها بالقلم المسند، بأشكاله المختلفة، وقد أصبحت هذه الكتابات والنقوش معـروفة عالمياً في الأوسـاط العلمية، وتقدر حاليـاً بالمئات والألوف وهـي، مع علم الآثار، الفيصـل العلمي في موضوع كهـذا. ومع أن تفسير هذه الكتابـات والنقوش مازال محدوداً، فقراءتها أصبحـت معروفة جزئياً، ومـع ذلك فقد أهملتموها لصـالح نص «تـوراتي» أقحمتموه في جغـرافيـة عسير وجيزان وغيرهـا من ربـوع جنـوب غربي شبـه الجزيرة العربية(٥).

ثم، مامعنـى هذه الطريقة المبتكـرة في غياب الاشارة الى المصادر والمراجـع. فباستثناء كمال صليبي الـذي ذكر بعضـاً منها، فـوجئنا بـأسلوب مبتكـر غامـض، ولنذكـر بعض نماذجه:

في الصفحة ١٦: «...هذه المنهجية جعلت الكثير من العلماء في حيرة من أمرهم..» من هم هؤلاء العلماء، وماهي مصادركم حول ذلك؟!

في الصفحة١٧: «..فاتحةً بذلك مجالات جديدة أمام اتجاه ثالث رأى أن المنهاج العلمي الـوحيـد في صحتـه يجب أن نبحـث عـن تلك التجـربـة في حضـارات جـزيـرة العـرب الجنوبية..» حقاً من هم ممثلو هذا الاتجاه من العلماء؟!

في الصفحة ٢٥: «يتفـق أهل الاختصـاص من علماء التـوراة أن أسفار العهـد القديـم جُمعت وكُتبـت عبر قرون عـديدة اعتماداً على مصادر مختلفـة تُعرف في هـذا العلم بـاسم التقاليـد، كما أن التيار الـرئيسي بين العلماء يرى أن أقـدم تلك النصـوص يعود إلى القـرن العاشر قبل الميلاد».

من هم المعنيون وأين جاءت هذه الأقوال؟! علماً أن الجميع متفقون حالياً على أن أقدم وثائق لها علاقة بالأسفار التوراتية عُثر عليها بالقرب من البحر الميت، في خربة قُمران(*) ولاتشكل هذه الو ثائق سوى(٤٪) من أسفار التوراة، ومع أن الاختصاصين اختلفوا حول أصولها وتاريخها المطلق، فقد أجمعت أغلبيتهم على أن تاريخ أقدم مخطوطة لايرتقي إلى ماهو أقدم من عام (١٥٠ق.م).

في الصفحة ٣٠:«..لقد أدرك العديد من أهل الاختصاص أهمية اعطاء الانتباه اللازم لهذه الحالة اللغوية، وأفردوا لها العديد من المؤلفات».

من هم هؤلاء«أهل الاختصاص» وأين هي هذه المؤلفات؟!

في الصفحة ٤٧:«كما أشار المؤرخون الرومان، وبمعلومات عابرة إلى شخصية اسطورية؟ خرافية؟ باسم Nectanabus تمكنت في عصور سحيقة من اخضاع العرب..»

من هم هؤلاء؟ وأين ورد هذا القول؟!

في الصفحة ٧٠:«وفي عملية بحثي قمت بقراءة الأسماء الواردة في النقوش المصرية بالأحرف الساكنة، مهملاً كافة التحريكات المقترحة من قبل أهل الاختصاص..»

هكذا نقبل رأي أهل الاختصاص ان وافقنا وإلا اسقطناه دون تردد.

في الصفحة ١٠٣:« لكن هذا الافتراض غير جائز لأن أهل الاختصاص يشددون على أن مصر لم تكن من الشعوب السامية وتوصف بأنها حامية..»

ولكن من هم أهل الاختصاص هذه المرة؟ فلنقرأ ماجاء في (سفر التكوين، الاصحاح العاشر الفقرة٦):

«وبنو حام كوش ومصرائيم وفوط وكنعان..» وسؤالنا: هل أهل اختصاصكم هم دائماً من هذا النموذج التوراتي؟!

في الصفحة ١٠٥:«أما مسألة كنعان، فلابد أن المقصود بهم أيضاً هم بعض من شعوب جنوبي جزيرة العرب وليس فينيقيي بلاد الشام.. أما مسألة كنعان فهي معقدة، وسأتجنب الخوض فيها في هذا المؤلف».

---

*حيث عثر في عين الفشخة ، شمالي غرب البحر الميت، في خربة قمران على مخطوطات بالخط الآرامي المربع وذلك اعتباراً من عام ١٩٤٧. وتعود هذه المخطوطات لفرقة يهودية نسكية ، مازال أمرها موضوع دراسة الباحثين .انظر على سبيل المثال

A. Dupont- Sommer, Les Ecrits Esséniens Découverts près de La Mer Morte, Payot, Paris, 1960.

حيث نجد دارسة شاملة لمخطوطات قمران، ويُعتبر دوبون سومر من كبار الباحثين في مجال الدراسات الآرامية / التوراتية.

نقول لصاحبنا بكل تواضع: أن مسألة كنعان ليست بهذا التعقيد كما تزعمون، ولقد نشرنا حول الموضوع دراسة تمهيدية، في عام ١٩٧٢ بعنوان«بلاد كنعان والاسرائيليون القدماء» في مجلة(صوت فلسطين، العدد ٥٠، ١٩٧٢، ص ص١٧—٣٤) حيث رأينا أن تسمية «كنعان» ظلت سائدة لدى السكان المحليين حتى الفترة المسيحية الأولى، بينما اسم «فينيقيين» ذاع في المؤلفات اليونانية مشيراً إلى الكنعانيين(ص٢٨—٢٩). وقد عُثر على قطعة نقد من العصر السلوقي، القرن الثاني قبل الميلاد منقوش عليها على الوجه الأول. باللغة الكنعانية«لاذقية التي في كنعان»(*)، وعلى الوجه الثاني باللغة اليونانية«لاذقية»(**) التي في فينيقية. وأطلق اسم لاذقية على بيروت في العصر السلوقي الهلنستي. فماذا يعني ذلك؟! الاغريق هم الذي أطلقوا اسم «فينيقيين» على كنعانيي بلاد الشام الساحلية، وقد استشهد كمال صليبي بهذا، في كتابه(**التوراة جاءت من جزيرة العرب** الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ص ٣٣):«.. وكون فينيقيا قد سميت كنعان من قبل سكانها أنفسهم أمر معروف من خلال قطعة نقد هيلينية(الصحيح سلوقية/ هلنستية وليس هيلينية م.م) من بيروت تصف هذه المدينة بأنها «في كنعان» (بـــكنْعَن)، وبالاغريقية بأنها في «فينيقيا».

كما رَأينا أعلاه، يلجأ الكاتب إلى الاسلوب المعمى في استشهاده، كأن يقول«أهل الاختصاص، جاء في المصادر، الخ..» ولكن من هم أهل الاختصاص هؤلاء، وماهي هذه المصادر، فالله أعلم، علماً أنه وضح الأمر في احدى المرات، عندما أشار الى نص توراتي أسطوري، لاعلاقة له بالعلم التاريخي، لامن قريب ولامن بعيد(٦).

ونأتي الآن الى النقطة الثانية، المتعلقة بالوثائق والشواهد التاريخية والآثارية والنصية ولابد من الاجابة عن بعض الاسئلة، ولامجال هنا لاجتهادات لغوية عقيمة أمام براهين وأدلة أقر بها القاصي والداني.

---

*جاء في النقش حرفيا«...بكْنعَن»

**نسبة إلى والدة سلوقس(لاوديكة) ونجد عدة مدن«سلوقية» باسمه وأفامية (نسبة لزوجته اياما) وكذلك مدن «انطاكية» الخ..

ولنأخذ بعض النماذج المصرية:

١ —نص من المملكة الوسطى، أمر بنقشه أحد قواد الفرعون(سنوسرة الثالث(*) ١٨٧٨ —١٨٤٣ق.م) وهو عبارة عن نصب حجري عثر عليه غربي حوض النيل في أبيدوس، شمالي وادي الملوك، في مصر الوسطى، وجاء على لسان القائد العسكري(سوبك خو): «توجه جلالته نحو الشمال لقهر الأعداء فوصل إلى منطقة غريبة اسمها شكْمم (شخم(**)التوراتية، **سفر التكوين، ٣٣:١٨، ٣٤**) وأنجز جلالته عملاً بطولياً وسَقطَت شَكْمَم وكذلك بلاد الرتنو التعسة..»(٧) كما يقول النص: شمالاً، نحو بلاد الشام الجنوَبيةَ، ومن ضمنها فلسطين ولم يأت على ذكر الجنوب والشرق، نحو عسير، عبر البحر الأحمر، وشخم كلمة كنعانية وليست عبرية، ونحن نعرف أنها بلدة عريقة في القدم وكشف التنقيب عن هيكل(بعل بريث/ رب العهد) الكنعاني وكذلك عن الأسوار الكنعانية القديمة، بمرضومها السكلوبي (حجارة مرصوفة بلا ملاط ولارباط) وشكمم / شخم هي شكيم بالقرب من نابلس المعاصرة، ولاعلاقة لها لامن قريب ولامن بعيد بَعَسير وجيزان.

أما بلاد الرتنو، فهي باجماع علماء التاريخ والآثار، بلاد الشام الجنوبية، وعلينا أن لاننسى ماعثر عليه في السنوات الماضية، في (ابلا/ تل مرديخ من لقى أثرية مصرية، أكثر قدماً).

٢ —حملات الفرعون(تحوتمس الثالث(***) (١٤٩٠ —١٤٣٦ق.م) على بلاد الشام، مع النص الطويل المنقوش على جدران الكرنك، الذي يروي بالتفصيل أخبار تلك الحملات من مجدو(****) إلى نهارينا(*****)، مع قطنا ومتياني الخ...

٣ —رسائل تل العمارنة، أي المراسلات بين الفرعونين(أمنحوتب الثالث ١٤٠٥ —١٣٦٧ق.م وخليفته أمنحوتب الرابع / اخناتون ١٣٦٧ —١٣٥٠ق.م)

---

*واسمه باليونانية سِسُوسْتويس كما ذكر هرودوتس (التواريخ ٢، ١٠٢الخ..) وفيما بعد لدى غيره من الكتاب اليونانيين.

**وتعني كتف، وفي الواقع تقع عند سفح جبل جزريم ، بالقرب من نابلس،

***لم يستلم الحكم بمفرده إلا في عام ١٤٦٨ق.م بعد صراعه المرير مع الملكة حتشبسوت لمدة ٢٢سنة ، قبل ان يلحق بها الهزيمة.

****حيث يقع (تل المتسلّم) حالياً ، على بعد حوالي ٣٠كم جنوبي شرق حيفا وكشف التنقيب عن عدة طبقات أثرية وعن سرداب شق في الصخر ويصل الى نبع ماء، كدليل على مهارة الكنعانيين الهندسية . كما أكتشفت نقوش على قطع عاجية ترجع إلى القرن الرابع عشر ق.م. تبرز مهارة الكنعانيين وحضارتهم.

*****المقصود حوض الفرات السوري، شمالي دير الزور مع المنطقة الواقعة حول حوضي الخابور والبليخ بل وحتى الساجور.

٤—حملات الفرعون(رعمسيس الثاني ١٢٩٠—١٢٢٤ق.م) واصطدامه مع الحثيين،ولاسيما في معركة قادش (تل النبي مَنْد/ مَنْتُو/ مَنْدو؟) جنوبي بحيرة حمص(قطينة)، عام ١٢٨٦ ، والتي خلّدها المصريون على لوحة مثبتة أمام جدار في معبد الكرنك المصري، وكما يقول(سير ألن جارنر)(٨):«...أما النص الحثي فهو أقل كمالاً وقد عثر عليه منقوشاً على لوحين من الطين مكتوباً بالبابلية الاسفينية (المسمارية م.م) وهو ليس نسخة طبق الأصل ولكنه يتضمن الى حد كبير عبارات وتعبيرات متماثلة، وهو أمر هام، لأنه يؤكد دقةعمل اللغويين في حقلين متباعدين من الدراسة».

واضافة لذلك، لدينا نصب ذلك الفرعون عند مصب نهر الكلب، بين بيروت وجونية، فهل نهر الكلب هذا يقع في عسير؟!... ونعلم انه تم الكشف في نفس الموقع عن ثلاثة أنصاب تذكارية أخرى محطمة، ذات صلة بموضوعنا.

٥—حملات الفرعون (سيتي الأول ١٣٠٦—١٢٩٠) على فلسطين، حيث تم العثور في موقع تل الحصى بالقرب من (بيت شان/ بيسان)، على لوحة في معبدها الكنعاني، ذُكر عليها أخبار حملة الفرعون على بعض أنحاء فلسطين وغيرها من بلاد الشام الوسطى(بيت رحوب/ تل القاضي، بيت شائيل، بحل(فحل)، حماة الخ..) . وهذ النص دليل مزدوج (نصي وآثاري) ميداني، يذكر بعض المواقع في بلاد الشام، وأية«بهلوانية لغوية» مقلوبة، لن تعطينا جواباً مقنعاً، مع وجود النصب في فلسطين أصلاً.

هذا غيض من فيض بالنسبة للوثائق المصرية، ولامجال في عجالتنا لأكثر من ذلك.

ونأتي الآن إلى الوثائق الآشورية، التي تتقاطع مع الروايات التوراتية، لتشير إلى بلاد الشام بصورة قاطعة جازمة:

١—حملات (شُلْمَنْأسرَ الثالث ٨٥٨—٨٢٤ق.م) الآشوري ومن أهمها(معركة قرقر) عام ٨٥٣(ق.م). وتقع قرقر جنوبي بلدة جسر الشغور الحالية، غربي نهر العاصي، ونجد صدى لاسم الموقع في تل قرقور، الواقع في نفس المنطقة، نقرأ في لوائح هذا الملك أخبار هذه الحملة وكيف عبر نهر دجلة ثم نهر الفرات، في ذروة فيضانه على أطواف من جلد الماعز، ثم وصل الى منطقة نهر الساجور، حيث تلقى الجزية من ملوك (كركميش/ جرابلس حالياً)، ثم تقدم نحو حلب وتلقى الجزية وقدم قرباناً الى «حدد» اله حلب، ومن حلب اتجه نحو حماة ومنها إلى موقع قرقر، حيث احتشد الحلف الآرامي الأكبر.(٩). وضم هذا الحلف عدة ملوك آراميين ومعهم جنديبو العربي وغيرهم. ومن الملوك الآراميين الذي جاء ذكرهم في الوثيقة الآشورية ملك حماة الآرامية (يرخوليني)، وقدم تمَ العثور على عدة وثائق في مواقع قريبة من حماة وتابعة لمملكتها مثل(محردة وقلعة المضيق والرستن، تذكر اسم (يرخوليني، الذي بنى معبداً للربة بعلاتي(١٠).

من جديد مارأي أصحاب نظرية «عسير»؟! . فحماة المذكورة هي على العاصي وليست في عسير.

٢—ونأتي إلى الملك الآشوري «تغلاث فلاسر الثالث» (٧٤٤—٧٢٧ق.م) ولدينا نص يذكر اسماء الملوك الذين أرسلوا الجزية إلى ملك آشور، فاضافة الى (منحيم، ملك السامرة و(حيرام، ملك صور) الخ.. نجد (بنامو، ملك شمأل)، وشمأل هي عاصمة مملكة (يادي الآرامية)، حيث يقوم حالياً (تل زنشرلي/ زنجرلي) على السفح الشرقي لجبال الأمانوس، قرب منابع (نهر الأسود/ قراصو)، ولقد عثر علماء الآثار في الموقع على عدد من النصوص الآرامية التي تأتي على ذكر (بنامو، ملك شمأل).

كما أن هاتين الروايتين تتقاطعان أحياناً مع ما نجده في التوراة (**سفر الملوك الثاني** الاصحاح ١٥، الفقرة ٢٧—٣٠).

ولو أردنا أن نتابع لذكرنا عشرات الأمثلة شبيهة بما ذكرناه آنفاً.

ونكرر قولنا: ان كانت مختلف الوثائق والسجلات التي ذكرناها أعلاه لا علاقة لها بجغرافية بلاد الشام ومن ضمنها فلسطين، بل ترتبط بعسير في شبه الجزيرة العربية، فأين تلك المتعلقة بسورية؟!. ثم ان كان الكنعانيون والآراميون وغيرهم ممن ورد ذكرهم في السجلات القديمة، لم يسكنوا ربوعنا، بل عاشوا في عسير، والى جانبهم الاسرائيليون القدماء، فمن سكن بلادنا في الألفين الثاني والأول (ق.م)؟! ...أم كانت ربوعنا مهجورةً ومتروكةً للسباع والبهائم؟!...

—الملاحظات المعرفية البحتة—

جاء في الصفحة ١٨: «...كان عبارة عن تحالف أو تجمع لقبائل أو عشائر ناطقة بلهجة كنعانية تسمى حالياً بالعبرية، رغم أن المصطلح الأخير لا يرد في التوراة لتعريف لغة بني اسرائيل، لكن بغياب بديل علمي مقبول رأيت عدم امكانية تجنب توظيفه».

هذا غير صحيح البتة، وكم من باحث يعمل في هذا الميدان يقول دون أي تردد «اللغة التوراتية» ولا أدري، لماذا أصبح البعض (ملكياً أكثر من الملك)، وحينما يشير كتبة التوراة إلى لغة أسلافهم لا يقولون «لغة عبرية» وهذه تسمياتهم، من الأقدم إلى الأحدث:

—(**سفر أشعيا** الاصحاح ١٨،١٩: «في ذلك اليوم تكون خمس مدن في أرض مصر تتكلم بلغة كنعان وتحلف لرب الجنود يقال لاحداها الشمس» .(وحرفياً كما جاء في التوراة: مدبّروت تتكلم (سفَة/ شفة، لغة) كنَعَنْ).

—**سفر الملوك الثاني** الاصحاح ١٨،٢٦: « فقال إلياقيم بن حلقيا وشبنة ويوآح لربشاقا كلّم عبيدك باللغة الآرامية فانا نفهمها ولا تكلمنا باليهودَية على مسامع الشعب القائمين على السور»

—**سفر نحميا** الاصحاح ١٣،٢٤: «وكان نصف كلام أولادهم بلغة أشدود ولم يكونوا يحسنون التكلم باليهودية بل بلسان شعب وشعب».

أما مفهوم«لغة عبرية» للدلالة على لسان معتنقي الـديانة اليهودية، التي راحت تتطور في بابـل، ثم بعـد العودة مـن السبي، في فلسطين، فـلانجده الا اعتبـاراً من القـرن الأول للميـلاد وذلك في انجيلي (لـوقـا ويوحنـا) وذلك اشـارة الى صلـب السيد المسيـح، والى اللوحة فوق رأسه كالتالي:

—(**انجيل يوحنا،**الاصحاح ٢٣، ٣٨:«وكان عنوان فوقه مكتـوباً بالحروف اليونانية واللاتينية والعبرانية..»

—**انجيل يوحنا**، الاصحاح١٩،٢٠:«وهذا العنوان قرأه كثيرٌ من اليهود لأن الموضع الذي صُلب فيه يسوع كان قريباً من المدينة وكان مكتوباً بالعبرانية واليونانيةواللاتينية.».

ولذلك نـرفض اصطلاح اللغة «العبرية». وينطبـق نقدنا لكتاب(جغـرافية التوراة..) على نموذجه الأصلي، (**التوراة جـاءت من جزيـرة العرب**)، حيث ينقل زيـاد منى، دون تعديل كبير أقوال كمال صليبي.

ولنأخـذ نموذجاً من كتـاب هذا الأخير:« وحينما تكلم القرآن عـن الآباء العبريين أو عن اسرائيل أو عن الأنبياء اليهود...»(١١)

نود أن نقول للدكتور صليبي ومشايعيه بـأن القرآن الكريم لم يأت ولم مرة واحدة، على ذكر «عبريين، عبرانيين، لغة عبرية الخ...» بل أشار إلى القوم كالتالي في بعض سوره:

هوداً(٦مرات، البقرة ١١١، ١٣٥، ١٤٠، الاعراف ٦٥، ٥٨).

اليهود(البقرة١١٣،١١٣،١٢٠، المائدة ١٨،٥١،٦٤،٨٢، التوبة٣٠)

يهودياً(مرة واحدة، آل عمران ٦٧).

كما جاء ذكر«**بنو اسرائيل**» ثلاث وأربعين مرة في سبع عشرة سورة مختلفة.

ونأتي الى «بيـت القصيد» كما جـاء في كتاب زياد منـى: « الآن، لقد بينـت قراءتي لهذه النصوص الجغـرافية في ضوء جغـرافية عسير، انها لم تستفد مـن ناحية التعـرف على مدى قدم النصـوص التوراتية وصحتها فحسـب(*)، بل أنها أسهمت أيضاً، والى حـد ما، في التعرف على بعض من آلهة العرب القديمة، وعلاقة العربية والعبرية.

أخيراً اترك للقارىء، إما مشاركتي هذه القناعات، اوالاختلاف معه»(١٢).

كلا، واستنـادا على كل ماجـاء أعلاه، لانشارككـم قناعاتكـم، بل نحن وإيـاكم على طرفي نقيض.. ولنا ثقة كاملة بنباهة القارىء العربي.

---

* وقول المؤلـف هذا، يتناقـض مع ما ذكـره أعلاه (ص١٥)، عندما قـال: «أما العهد القـديم (المقصود هنـا التوراة.م.م) نفسه، فهـو عبارة عن مجمـوعة من النصـوص المتباينة في قـدمها عـن تاريخ بنـي اسرائيل والتي تنقـل بالاضافـة إلى الخرافات والأساطير والتاريخ كتابات وأحكاماً دينية ونسكية».

الحواشي

١—الدكتور كمال صليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العرب** الطبعة العربيـة الثانية، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٦ .

٢—هنا لابد من الاشارة الى كتاب أثار ضجة في الأوساط العلمية العالمية منذ صدوره في عام١٩٩٤ وأدى بصاحبه **توماس طومسون** أستاذ علم الآثار في (جامعة مليووكي الامريكية) إلى فقد مركزه الاكاديمي بضغط من الاوساط الصهيونية وعنوان الكتاب:

Early History Of The Israelite People، من اصدار دار E.J.Brill ليدن نيويورك— كولن، ١٩٩٤ . وقد صدر عن دار(بيسان للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٩٥) نسخة مترجمة للكتاب بعنوان«**التاريخ القديم للشعب الاسرائيلي**» بقلم الاستاذ صالح علي سوداح.

علماً ان النسخة العربية قد أفقدت الاصل بعض أهميته لاهمال المترجم ذكر المصادر والمراجع والملاحظات الهامشية، وعلى أي حال، يظل العمل مشكوراً وذا نفع، لاسيما لغير ذوي الاختصاص.

اذ ان الاستاذ طومسون قد اعاد النظر في مختلف الدراسات المتعلقة بالموضوع، والتي صدرت منذ حوالي القرن، داحضاً مفاهيم وفرضيات أنصار المدرسة التاريخية/ الآثارية التوراتية ، وياحبذا لو تناول بعض باحثينا العرب (كزياد منى وأقرانه) موضوع تاريخ فلسطين القديم بهذه الجدية والشمول، مقلعين عن مشتقاتهم اللغوية و«بهلوانياتهم الجغرافية » لصالح الجميع. وعلى كل لأهمية كتاب الاستاذ طومسون، لنا عودة إليه في الاعداد اللاحقة لمجلتنا.

٣—بشأن ذلك انظر: **قاموس الكتاب المقدس** الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧١، ص ٧٦٣ .

٤—**قاموس الكتاب المقدس** ص ٨٤٥، بالنسبة لنسخة حلب، فهي موجودة حالياً في فلسطين المحتلة.

ونحن نعلم حالياً كيف جرى تهريبها من حلب عبر تركية وذلك من كتاب نُشر مؤخراً بالفرنسية بعنوان **Le Siècle D'ISRAEL** دار Fayard ١٩٩٤، حيث يذكر الكاتبان (ص٥٣١ ومابعدها) طريقة تهريبها بملابساتها المختلفة.

٥—انظر على سبيل المثال كتاب: **مختارات من النقوش اليمنية القديمة**، اعداد محمد عبد القادر بافقيه وآخرون، منشورات : المنظمة العربية للتربية والثقافة العلوم ، ادارة الثقافة ، تونس ١٩٨٥ .

٦—انظر حول ذلك كتاب: محمد محفل، **المدخل إلى اللغة الآرامية**، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الخامسة ١٩٩١ / ١٩٩٢ ، ص ٥ ومابعدها.

7-JOHN A.,. Wilson Egyptian Historical Texts ; (In J . Pritchard's Near Eastern Texts, Princeton) P. 227.

٨—**مصر الفراعنة**ترجمة: د.نجيب ميخائيل ابراهيم ، مراجعة :د. عبد المنعم أبو بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٣، ص ٢٩٢، ومابعدها

9-**A. Dupont - Sommer**, Les Araméens, Lib. A. Maisonneuve. Paris , 1949, P.P.35 F. F .

وصدرت نسخة عربية مترجمة في عام ١٩٨٨عن دار أماني ، طرطوس، طبعة أولى بقلم ناظم الجندي، ومراجعة د. توفيق سليمان.

10-H. Sader , Les États Araméens depuis leur Fondation jusqu a` leur tranformation en Provinces Assyriennes, 1984, Dissertation.

ولمزيد من التفاصيل انظر: د. علي أبو عساف، **الآراميون**، دار أماني ، طرطوس، طبعة أولي ١٩٨٨، ص ٧٠ومابعدها.

١١—**التوراة جاءت**..ص ٦٩ .

١٢—**جغرافية التوراة**..ص ١٧٥ .

****

Directeur de la Revue	**Abdul Gani Ma' Al Bared** Recteur de l' Université de Damas
Directeur de la Rédaction	Mouhammad Mouhaffel
Rédacteur en Chef Adjoint	Qbdul Karim Ali

Revue Historique éditée par la Comité de Rédaction de l'histoire Arabe:

Dr. Abdul Gani Ma' Al Bared
Dr. Adel Awwa
Dr. Nour el- din Hatoum
Dr. Chaker Fahham
Dr. Mouhammad Kheir Fares
Dr. Hamed Khalil
Dr. Khairieh Quasmieh
Dr. Taib al Tizini
Dr. Soultan Mouhaissen
M. Mouhammad Mouhaffel
Dr. Souheil Zakkar
Dr. Id Mur'i
Dr. Faisal Abdulah
Dr. Ali Ahmad
Dr Ibrahim Za` Rour
M. Abdul Karim Ali

دراسات تاريخية

مجلـة علميـة فصليـة محكّمـة

«تعنى بتاريخ العرب»

تصدر عن لجنة كتابة تاريخ العرب ـ جامعة دمشق

السنة السابعة عشر / العددان / ٥٧ ـ ٥٨ / أيلول ـ كانون أول / ١٩٩٦

الاشتراكات	للافراد	للمؤسسات	للطلاب
في القطر العربي السوري	(٢٠٠) ل.س.	(٤٠٠) ل.س.	(١٠٠) ل.س.
في الاقطار العربية	(٢٠) دولار امريكي	(٤٠) دولار امريكي	
في البلاد الاجنبية	(٣٠) دولار امريكي	(٦٠) دولار امريكي	

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة منذ عام ١٩٨١ بالبدل نفسه لكل عام، ويتم تسديد بدل الاشتراك بشيك الى لجنة كتابة تاريخ العرب، أو بتحويل المبلغ الى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٢٣/٣٣٢٣.

المراسلات: لجنة كتابة تاريخ العرب- مجلة دراسات تاريخية- جامعة دمشق.
المكاتب: جامعة دمشق- هاتف /٢١٢٤٤٦١/

تصدرها وتشرف على تحريرها

لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المدير المسؤول: أ.د. عبد الغني ماء البارد
رئيس جامعة دمشق

رئيس التحرير: أ. محمد محفل

مدير التحرير: أ. عبد الكريم علي

هيئة التحرير والاشراف:

د. عبد الغني ماء البارد
د. عادل العوا
د. نور الدين حاطوم
د. شاكر الفحام.
د. محمد خير فارس

د. حامد خليل
د. خيرية قاسمية
د. طيب تيزيني
د. سلطان محيسن
أ. محمد محفل

د. سهيل زكار
د. عيد مرعي
د. فيصل عبد الله
د. علي احمد
د. ابراهيم زعرور
أ. عبد الكريم علي

تصميم الغلاف د. بثينة ابو الفضل

شروط النشر في المجلة

ان مجلة دراسات تاريخية هي جزء من مشروع كتابة تاريخ العرب، وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الغرض الاساسي، وهو كتابة تاريخ العرب من منطلق وحدوي، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيد بأسلوب البحث العلمي، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي، وتسليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الامة العربية واعطته خط مساره الخاص، وايضاح ماالفه الغموض، وتصحيح ماشوه وكشف الزيف ان وقع، وكل مايمكن ان يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية.

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها وبكل مقترحا ورأي يساعد في مسيرتها، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب ومايتصل به، على ان يراعى فيها مايلي:

آ: ان تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي.

ب – ان لايكون البحث منشورا من قبل.

جـ – ان يكون مطبوعا على الآلة، خاليا من الاخطاء الطباعية.

د – تعرض البحوث، في حال قبولها مبدئيا، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتها للنشر، وفق المعايير المذكورة اعلاه، والتعديلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء. وتبقى عملية التحكيم سرية.

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف أو الاختزال، بما يتوافق مع اغراض الصياغة.

ولاتنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع، ولذلك يحسن ان يتقيد السادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها، على النحو التالي:

أ – في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الاولى):

ذكر اسم المؤلف كاملا وتاريخ وفاته بين قوسين (   ) ان كان متوفى، اسم المصدر او المرجع وتحته خط، عد د المجلدات أو الاجزاء، اسم المحقق ان وجد، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

ب – في محاضر المؤتمرات:

ذكر اسم الباحث كاملا، عنوان الدراسة كاملا بين قوسين مزدوجين «   »، عنوان الكتاب كاملا، اسم المحرر او المحررين، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

جـ – في المجلات:

اسم الباحث كاملا، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين «   » اسم المجلة كاملا وتحته خط، رقم المجلد او السنة، رقم العدد وتاريخه، الصفحة.

ثم ذكر الرمز الذي يشار به الى المجلة في المرات التالية:

د – في المخطوطات (للمرة الاولى):

اسم المؤلف كاملا، عنوان المخطوط كاملا، الجهة التي تحتفظ به، تاريخ النسخة وعدد أوراقها، رقم الورقة من الاشارة الى وجهها (آ) وظهرها (ب). ثم ذكر مايشار به الى المخطوط في المرات التالية.

وتكتب الاسماء الاجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين (   )، ويشار الى الملاحظات الهامشية بنجمة *. وترقم الحواشي بارقام تتسلسل من اول البحث الى آخره، دون التوقف عند نهاية الصفحات.

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه والاعداد الصادر خلال ذلك العام، مع عشرين (مستلة) من البحث.

محتويات العدد

تاريخ الاستيطان البشري في جنوب الأردن في عصور ماقبل التاريخ. ص٣

د. خالد أبو غنيمة

إشكالية مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك الخاص بتحطيم الأيقونات ومدى تأثيره في سياسة الامبراطور ليو الثالث اللاأيقونية . ص٧١

د. عبد الرحمن محمد العبد الغني

التجارة بين مصر والشام في العصر الفاطمي . ص١٠٩

د. محمد زيود

اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى . ص١٥٩

د. علي أحمد

المدرسة المملوكية في قلعة الكرك . ص١٩٩

د. وائل الرشدان

أعمال الرحلة من المشرق إلى المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى . ص٢٣١

عبد الكريم علي

تنويه واعتذار

إلى قرائنا الأعزاء .. أصدقاء مجلة دراسات تاريخية ، أسعد الله أوقاتكم .. وأمنياتنا لكم بموفور المحبة والعافية وبعد ...

لقد حالت ظروف قاهرة دون انتظام صدور أعداد المجلة في مواعيدها المحددة ، وهذا لايعني أن الفترة الزمنية الماضية لن تغطى كما هو مقرر لها .

ومع أملنا بأن لاتتكرر مثل هذه الظروف فإننا نثق بقدرتكم على التسامح بما تملكوه من رحابة صدر وتفهم لمثل هذه المواقف التي تتعرض لها أحياناً بعض الأعمال .. هذا من جهة.

ومن جهة ثانية ، فإننا نغتنم فرصة صدور العدد الجديد للمجلة لنبادلكم التحية ونقول لكم كل عام وأنتم بخير ، ونحن سعداء بصداقتكم وثقتكم فينا . مع تحيات أسرة تحرير مجلة دراسات تاريخية .

هيئة تحرير مجلة

دراسات تاريخية

تاريخ الاستيطان البشري في جنوب الأردن في عصور ماقبل التاريخ

د. خالد أبو غنيمة

« أستاذ مساعد »

جامعة اليرموك / أربد

معهد الآثار والانثروبولوجيا / قسم الآثار

تاريخ الاستيطان البشري في جنوب الأردن
خلال عصور ما قبل التاريخ

يشمل هذا البحث المنطقة الواقعة في الجزء الجنوبي من الأردن ، وبشكل خاص الممتدة من وادي الموجب شمالاً حتى وادي عربة وخليج العقبة جنوباً . ويعتني هذا البحث بمنطقة جنوب الأردن ، إذ أنها تمتاز بتنوع بيئي واستمرارية في الاستيطان الكثيف من العصر الحجري القديم وحتى الفترة الحالية . ويستعرض تاريخ الاستيطان البشري في عصور ما قبل التاريخ في منطقة جنوب الأردن ، من خلال المسوحات والتنقيبات الأثرية التي جرت في المنطقة . ومن وجوه التنوع الجغرافي الكبير في جنوب الأردن، إذ أنه يشتمل على المناطق الجغرافية الثلاث التي تتمثل في الأردن وهي : منطقة المرتفعات الجبلية ، والصحراء ، ومنطقة الأغوار .

وتشير نتائج المسوحات والتنقيبات الأثرية الحديثة إلى غنى الأردن بمواقع عصور ماقبل التاريخ . وعلى الرغم من هذه المكانة الأثرية ، إلا أن الاهتمام بدراسة عصور ماقبل التاريخ في الأردن بدأ متأخراً عن البلدان المجاورة . فبدأ الاهتمام بدراسة مخلفات عصور ماقبل التاريخ في فلسطين بالحفريات التي أجراها ف . تورفيل - بتري (F. Turville - Petrie) في مغارة الزطية عام ١٩٢٥ . وبدأ الاهتمام في سورية مع بداية الثلاثينات مع قدوم الفرد روست (A. Rust) وقيامه بالتنقيب في مغائر يبرود . إلا أن الاهتمام في الأردن بدأ مع حفرية تليلات الغسول ، إلى الشمال الشرقي من البحر الميت، باشراف مالون

وكويل (Mallon and Koeppel) ، والتي تعود للألفين الخامس والرابع ق.م وذلك في الفترة الواقعة ما بين ١٩٢٩ و ١٩٣٨ .

المسوحات الأثرية في جنوب الأردن :

وتعتبر المسوحات الأثرية التي قام بها نلسون جلوك (N. Glueck) في مناطق شرق الأردن بين الأعوام ١٩٣٠ - ١٩٤٩م من أوائل المسوحات الأثرية التي جرت في الأردن . وزار جلوك خلالها العديد من مواقع ماقبل التاريخ ، ولكن ، مما يؤخذ على عمله أنه أشار إلى مخلفات عصور ماقبل التاريخ بمصطلح العصر الحجري دون تحديد(١) . وتلى ذلك المسح الذي قام به ألكس كيركبرايد ولانكستر هاردنج (A. Kirkbride and L. Harding) في وادي رم عام ١٩٤٧ ، ونتج عنه الكشف عن العديد من المواقع ، ومنها مواقع عين أبو نخيلة(٢) . وتلى ذلك قيام فرانسوا زينور (F. Zeuner) وفريقه بأعمال مسح أثري لمناطق متفرقة من شرق الأردن خلال عام ١٩٥٥شملت منطقة الأزرق ، ومنطقة جرش، إضافة إلى وادي رم ، والمنطقة الواقعة إلى شمال خليج العقبة (٣) . ونتج عن المسوحات الأثرية الذي أجرتها ديانا كيركبرايد (D. Kirkbride) في الخمسينات في منطقة البتراء ، ووادي رم في جنوب الأردن، وجرش في وسط الأردن ، ووادي شعيب في غور الأردن اكتشاف العديد من المواقع التي تعود إلى المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث . كما قامت بإجراء تنقيبات أثرية في موقع عين أبو نخيلة في وادي رم ونتج عن ذلك تصحيح التأريخ الذي اقترحه موسى ستيكيلس للموقع (M. Stekelis)(٤) وأعادته إلى العصر الحجري الحديث، قبل الفخاري (ب).

وأشار أندرو جارارد ونيكولاس ستانلي - برايس (A. Garrard and N.Stanley - Price) إلى وجود مواقع أثرية في منطقة وادي رم، وذلك من خلال مسحهما الأثري لوادي رم عام ١٩٧٥(٥).

كما قام هانس غيورغ جيبل (H. G. Geble) بإجراء مسوحات منهجية ومنظّمة منذ عام ١٩٨١ بهدف اجراء دراسة جيومورفولوجية في المنطقة المحيطة بموقع البيضا ودراسة وتثبيت المواقع الأثرية التي اكتشفتها كيركبرايد سابقاً . كما قام بحفر بعض الأسبار في عدد من مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب »(٦) . واستمر العمل في منطقة البتراء بالمسح الأثري الذي قام به دانيل شيل وهانس - بيتر أوربمان (D. Schyle and H. - P. Uerpman) في منطقة البتراء ضمن مشروع أطلس تيوبنجن عام ١٩٨٣ ، ونتج عنه الكشف عن عدد من مواقع العصر الحجري القديم الأوسط والأعلى والمرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم ، والعصر الحجري الحديث(٧) . وأشار ماكسويل ميلر (M. Miller) ، إلى مواقع تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى ، والأوسط . خلال المسح الأثري لوادي الموجب عام ١٩٧٨ (٨) .

ويعد مشروع المسح الأثري لوادي الحسا الذي بدأه بيرتون مكدونلد (B. Macl Donald) بين الأعوام ١٩٧٩ و ١٩٨٣ ، وأكمله جيوفري كلارك (G. Clark) وفريقه من خلال مشروع العصر الحجري القديم في الضفة الجنوبية من وادي الحسا، البالغ طوله ٧٠ كم (Wadil el - Hasa Palaeolithic Project) منذ عام ١٩٨٤ وحتى الآن، من أهم المسوحات التي جرت في الأردن، إذ زودنا بمعلومات هامة عن عصور ماقبل التاريخ . ونتج عن هذه المسوحات تسجيل واستطلاع واستكشاف ١٠٧٤ موقعاً منها ٥٤٢ موقعاً تعود

لفترات تمتد من العصر الحجري القديم وحتى العصر الحجري النحاسي(٩) . ولكن ، لابد من التنويه إلى إنّ عدداً كبيراً من هذه المواقع لم تحتو إلا على القليل من الأدوات الصوانية . وقام كلارك وفريقه بدراسة أنماط الاستيطان في المنطقة، إذ تناولت دراسته أحجام وتوزيع مناطق الاستيطان ومقارنتها مع مسوحاته في منطقة النقب . وقام بدراسة العلاقة بين أحجام المستوطنات والارتفاعات المختلفة وأحجام المستوطنات ذات المساحات المتساوية والارتفعات المختلفة ، ومساحات المستوطنات المختلفة ذات الارتفاعات المتساوية ، وربط هذا التوزيع بفترات معينة وبالتغيرات المناخية في منطقة جنوب الأردن . وقد بدأ الفريق الأميركي نفسه ، مسحاً جديداً في المنطقة يشمل الضفة الشمالية لوادي الحسا منذ عام ١٩٩٠، نتج عنه اكتشاف عدد من مواقع ماقبل التاريخ(١٠) .

ويعتبر مشروع دونالد هنري (D. Henry) الذي قام به بين عامي ١٩٧٩ و ١٩٨٤ في منطقتي رأس النقب والقويرة في جنوب الأردن، من أهم المشاريع المنظّمة والمنهجية التي درست المنطقة . وقد شارك الباحث في الفريق الأثري المشارك في أعمال المسح في موسمي ١٩٧٩ و ١٩٨٠ ، إذ قام هنري بدراسة أحوال البيئة القديمة لمعرفة أنماط الاستيطان المختلفة في العصور القديمة في منطقتي رأس النقب والقويرة . وتتمثل فيها ثلاث مناطق جغرافية نباتية (البحر المتوسط، وإيرانو - طورانية Irano - Torania وصحارى - سندیان Shara Sindian متجاورة تمثلت في منطقة الاراضي العليا ومنطقة سفوح الهضبة ومنطقة قعر الوادي) . وقد تم تسجيل واحد وسبعين موقعاً أثرياً ابتداء من العصر الحجري القديم وحتى نهاية العصر الحجري - النحاسي ، وحفرت أسبار اختبارية في ١٩ موقعاً(١١) . وأشارت نتائج المسوحات إلى وجود علاقة قوية بين كثافة مناطق

الاستيطان في الفترات القديمة ومستوى ارتفاعها عن سطح البحر . ففي المناطق التي يصل ارتفاعها إلى ١٠٠٠م ، يصل عدد المواقع أعلى نسبة إذ بلغ عددها ثمانية مواقع في الكيلو متر امربع . أما المناطق التي يتراوح ارتفاعها مابين ١٠٠٠ - ١٢٠٠م فإن استيطانها كان خلال إطار بيئات مناخية مختلفة ومتنوعة في الماضي . بينما نجد أن المناطق ذات الارتفاع ٩٦٠م لم تكشف عن أية أدلة على سكنى تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى ، والأوسط ، والأعلى . وتميزت مواقع المناطق المنخفضة بأنها مؤقتة وموسمية ، ومقتصرة على فصول الشتاء الممطرة . أما المناطق المرتفعة ١٢٠٠ - ١٣٠٠م ، فقد استخدمت للسكنى الطويلة خلال فترات الدفء المناخي فقط(١٢) .

وأشار سليمان الفرجات من فريق التنقيب في منطقة الحميمة إلى وجود ثلاثة مواقع تعود إلى العصور القديمة ، منها اثنان يرجعان للعصر الحجري الحديث قبل الفخار (ب) ، والثالث يعود للعصر الحجري القديم(١٣) . وأشرف فريق من دائرة الآثار العامة الأردنية على مسح المنطقة مجدداً من خلال مسح منطقة الطريق الجديد لرأس النقب - العقبة عام ١٩٩١ ، نتج عنه تثبيت وتحديد مواقع جديدة تعود للعصر الحجري القديم ، والعصر الحجري الحديث ، والعصر الحجري النحاسي(١٤) .

كما أجرى و . ج . جوبلنج (W. J. Jobling) مسحاً أثرياً للمنطقة الواقعة بين معان وخليج العقبة اعتباراً من عام ١٩٧٩ ولغاية ١٩٩٠ . وقد شمل المسح وادي عربة وحوض الحسمى ، ونتج عنه اكتشاف مايقارب عشرين بناء دائرياً قليل المساحة أرخت إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري . كما وأشار إلى موقع عين الجمام كأحد مواقع العصر الحجري الحديث ، وتليلات

محطة المدورة ، وجبل أم المقور ، إضافة إلى عدد من مواقع العصر الحجري ـ النحاسي : مثل هضبية الفلا ، وسيل الحمام ، وتل الخرزة . وقد قام جوبلنج بحفر خندقين في تل الخرزة ، نتج عنهما تمييز ١٩ طبقة أثرية واستمرارية للاستيطان البشري منذ العصر الحجري ـ النحاسي وحتى العصر البرونزي الوسيط . وقد عصر في طبقات العصر الحجري النحاسي على أدوات صوانية وعظام حيوانات[١٥] .

وأشار المسح الأثري لمنطقة جنوب معان الذي قام به ادواردو بورزاتي (E. Borzati) منذ عام ١٩٨٥ ، إلى وجود مواقع تعود إلى العصر الحجري القديم ، والعصر الحجري الحديث قبل الفخاري ، والعصو الحجري النحاسي[١٦]. كما قام مجاهد المحيسن بمسح أثري لمناطق معان والشوبك ، وعثر على عدة مواقع تعود للعصر الحجري القديم[١٧] .

وقامت أليسون بتس (A. Betts) بدراسة الأدوات الصوانية التي جمعها والمسلي وايت (W. White) من عدة مواقع في منطقة معان، ومن داخل الحدود السعودية وأرجعت بعضها إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري[١٨] .

وفي وادي العسال الذي يقع إلى الغرب من الكرك، جرى مسح أثري من قبل ليندا جاكوبس (L. Jacobs) في عام ١٩٨١ . وتبيّن من المسح وجود ٩٠ موقعاً أثرياً منها ثلاثة ترجع للعصر الحجري القديم الأوسط ، وواحد للحجري النحاسي[١٩] .

ونتج عن المسح الأثري لمنطقة وادي الكرك بإشراف أودو فورشيش (U. Worschech) ابتداء من عام ١٩٨٣ ، اكتشاف وتوثيق عدد من المواقع الأثرية، منهما اثنان يعودان للعصر الحجري القديم ، وموقع يعود للمرحلة اللاحقة للعصر

الحجري القديم ، وآخر يعود للعصر الحجري النحاسي ، وهو موقع أم سدرة[٢٠] .

وقد شهدت المنطقة الممتدة من البحر الميت شمالاً وخليج العقبة جنوباً ، نشاطاً ميدانياً مكثفاً تم فيه دراسة مناجم تعدين النحاس ومناطق استخراجه الذي بدأ استغلاله في العصر الحجري النحاسي في الألف الرابع ق . م . فقد تم مسح أثري لمنطقة وادي عربة عام ١٩٧٩ من قبل ت . ريكس (T. Raikes)، اشار فيه إلى وجود مواقع تعود للعصور الحجرية القديمة[٢١] . وقامت بعثة أثرية بإشراف بيرتون مكدونلد (B. MacDonald).بمسح منطقة الغور الجنوبي ومنطقة وادي عربة عام ١٩٨٥ و ١٩٨٦ . ونتج عن المسح تثبيت وإعادة تحديد خمسة مواقع للعصر الحجري الحديث ، وثمانية مواقع للعصر الحجري النحاسي ، إضافة إلى مواقع تعود للعصر الحجري الحديث / العصر الحجري النحاسي ، ومواقع للعصر الحجري النحاسي / العصر البرونزي[٢٢]. كما قامت بعثة ألمانية ــ أردنية بالاستكشاف والتنقيب في منطقة فينان ، بهدف التعرف على أوجه استغلال واستخراج النحاس من مناجم المنطقة[٢٣] .

التنقيبات الأثرية في جنوب الأردن :

كشفت المسوحات الأثرية الآنفة الذكر، عن تسجيل وتدوين عدد كبير من المواقع الأثرية الهامة التي تعود إلى مختلف فترات عصور ماقبل التاريخ . وقد تركز اهتمام المنقبين في جنوب الأردن في اختيار المواقع الأثرية التي تعود إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري (ب) ، كمناطق لإجراء التنقيبات الأثرية فيها . بينما نجد أن المواقع الأثرية التي تعود إلى العصر الحجري القديم ، بأقسامه الثلاثة والمرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم قد تركت دون تنقيب باستثناء

إجراء بعض الأسبار التجريبية . ويبدو أن السبب في ذلك يعود إلى عدم العثور على مواقع داخل الكهوف أو ذات طبقات استراتغرافية . وقد أجريت تنقيبات أثرية منظمة في مناطق متعددة من جنوب الأردن منذ منتصف هذا القرن ، وأستعْرِض فيما يلي هذه التنقيبات بحسب تسلسلها التاريخي .

تعتبر تنقيبات ديانا كيركبرايد في موقع عين أبو نخيلة في وادي رم من أوائل التنقيبات التي جرت في جنوب الأردن . فقد قامت كيركبرايد بحفر عدة مربعات في الموقع بهدف التأكد من التاريخ المقترح من قبل ستيكيلس(٢٤) . كما قامت كيركبرايد بالتنقيب في البيضا بالقرب من البتراء ، وتعتبر التنقيبات التي أجرتها كيركبرايد في هذا الموقع منذ عام ١٩٥٨ من أهم الحفريات التي جرت في مواقع العصور الحجرية في شرق الأردن، من حيث النتائج التي تم التوصل إليها ، والتي كشفت عن ست سويات أثرية تعود للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري (ب) . وأظهرت هذه الحفريات التطور في مجال العمارة من خلال الانتقال من البيوت الدائرية الشكل إلى البيوت المستطيلة . وكشفت عن سوية أخرى تعود للفترة النطوفية . وإضافة لذلك ، فقد درست النباتات القديمة ، وعظام الحيوانات القديمة ، والبيئة في الموقع من قبل الاختصاصيين كل في مجاله (٢٥) .

وقام هنري بحفر عدة أسبار تجريبية في مواقع راس النقب ، والقويرة ، والحميمة كموقع طور صبيحة ، وطور فرج ، وطور عايدة ، وطور حمار ، ومواقع J412, J403, J14 أثناء المسوحات الأثرية التي قام بها اعتباراً من ١٩٧٩ في هذه المناطق(٢٦) . وقامت كريستال بنت (C. Bennet) عام ١٩٧٩ بحفر اسبار استكشافية في موقع الذراع، كشفت عن وجود بعض الحفر السكنية التي تعود للعصر الحجري الحديث الفخاري(٢٧) . وقام إيان كوجيت

(I. Kuijt) ومحاسنة في عـام ١٩٩٤ بتنقيبـات أثرية في موقعـي الـذراع ووادي الويضة ، نتج عنها الكشف عن بقايا معمارية في موقع الـذراع[٢٨] . كمـا قـام جيل بحفر بعض الأسـبار التجريبيـة في عـام ١٩٨١ في المواقـع الـتي اكتشـفها في المنطقة المحيطة بالبتراء ، مثل الضمان ، وشكارة مسـاعيد ، والبعجـة ، والثغـرة ، وصبرا « ١ »[٢٩] . وأجرت البعثة المشرفة على المسح الأثري لوادي الحسا عدة أسبار بهدف التأكد من بعـض المواقـع المكتشـفة في المنطقـة ، مثـل وادي الحسـا ١٠٦٥ ، ووادي الحسا X ٦٢٣ ، وادي الحسا X ٧٨٤[٣٠] . وأجـرى لطفـي خليل موسمين من الحفريات عامي ١٩٨٥ و ١٩٨٦ في موقـع المقـص بـالقرب من العقبة ، كشـف عـن وجـود مبـان سـكنية في الموقـع تعـود للعصـر الحجـري النحاسي[٣١] . وقامت بعثة أردنية ـــ ألمانيـة مشـتركة بإجراء عـدة مواسـم مـن التنقيبات الأثرية اعتباراً من عام ١٩٨٥ في موقع البسـطة بـالقرب مـن الطفيلـة ، وأسفرت هذه التنقيبات عن الكشف عـن مخلفـات قريـة تعتـبر مـن أكـبر مواقـع الشرق الأوسـط مسـاحة ، وتعـود إلى العصـر الحجـري الحديـث قبـل الفخـاري «ب»[٣٢] . وقام الفريق الأردني المشارك في فريق المسح الأثـري لمنطقـة فينـان بالتنقيب في موقع وادي فينان ٤ خلال موسمي ١٩٨١ و ١٩٨٣ . وقـد شـارك الباحث في التنقيب في موسـم ١٩٨٣ ، وأسـفرت التنقيبـات عـن الكشـف عـن مخلفات معمارية ومادية تعـود إلى العصـر الحجـري الحديـث الفخـاري (الثقافـة اليرموكية)[٣٣] ، وبـدأ الفريـق الأثـري سـنة ١٩٩٣ أعمـال التنقيـب في موقـع الغوير « ١ » ويعود تاريخه إلى المرحلة « ب » من العصر الحجري الحديث قبـل الفخاري[٣٤] .

ومما لاشك فيه أن التحريات الأثريـة وكذلـك التنقيبـات في جنـوب الأردن

لاتزال في بدايتها ، وقد تزودنا التنقيبات مستقبلاً بكثير من المعلومات حول المنطقة وتاريخها . وعلى الرغم من أن مسوحات أثرية شاملة قد جرت في منطقة جنوب الأردن ، وزودتنا بمعلومات غنية عن الفترات القديمة ، إلا أن القليل من المواقع قد جرى فيها تنقيبات أثرية وخصوصاً مواقع العصر الحجري القديم بفتراته المختلفة . وسنقصر حديثنا هنا على المواقع الأثرية التي جرى التنقيب فيها أو تلك التي درست بشكل منهجي منظم .

العصر الحجري القديم الأدنى (جدول رقم ١) (خارطة رقم٢) :

لم يعثر حتى وقتنا الحاضر على أية موقع يحتوي على مخلفات تعود إلى فترة العصر الحجري القديم الأدنى الباكر في منطقة جنوب الأردن، علماً أن منطقة غور الأردن قد احتوت على موقعين هامين يمثلان هذه الفترة ، هما أبو هابيل وأبو الخس ، بينما تمثلت مرحلة العصر الحجري القديم الأدنى الأوسط (الأنشولية الوسطى) بموقعين سطحيين .

وتوجد مواقع المرحلة الثالثة وهي العصر الحجري القديم الأدنى / الأعلى ، في مواقع سطحية مكشوفة في المرتفعات الجبلية المطلة على الوديان والبحيرات القديمة (مثل الحسا والجفر) . وأهم هذه المواقع :

١ ـ أبو الجرذان[٣٥] :

يقع إلى الشمال من مدينة معان وعلى بعد ٥ كم . تم التعرف على الموقع أثناء المسح الأثري لمنطقة معان بإشراف مجاهد المحيسن عام ١٩٨٦ ، وهو يقع على الجانب الأيسر لوادي الجرذان ، ضمن الترسبات النهرية لوادي الجرذان ،

وهي ترسبات غرينية صفراء اللون تبلغ سماكتها حوالي ١٥م ، أرخها بندر (Bender) إلى فترة البليستوسين المتأخر(٣٦) . وتنتشر ضمنها خمس قطع وجدت في أماكنها الطبيعية . وتمتاز الأدوات الصوانية بوجود المقاشط الجانبية (Side Scrapers) والشظايا الليفلوازية (Levallois Flakes) إضافة إلى المقاشط العلوية (End Scrapers) والمخارز (Borers) . كما تم العثور على خمس أدوات من ذات الوجهين (Biface) منها اثنتان بشكل مثلثي طويل ، ومن النوع البيضوي وقطعة أبيفيلية . واللافت للنظر أن الموقع قد تعرض لعوامل تعرية في المنطقة الشمالية الشرقية . وأرخ الموقع بناء على مقارنة الأدوات الصوانية مع المناطق المجاورة إلى الفترة الآشولية المتأخرة .

٢ - الجفر موقع ٧٢(٣٧) :

يقع على بعد ١٢كم إلى الشرق من مخفر الجفر على منتصف الطريق بين معان والجفر . وتشتمل الأدوات التي جمعها زينور من الموقع ، على فؤوس يدوية بالإضافة لشظايا ، وأنوية ، لصناعة الأدوات .

٣ - الفجيج(٣٨) :

يقع على بعد ٤كم إلى الشمال الشرقي من قلعة الشوبك . اكتشفت الموقع عام ١٩٧٩ جاري رولفسون (G. Rollefson) . وتنتشر الأدوات الصوانية على مساحة ١٥ دونماً داخل المحطة الزراعية الحالية ، ويشرف الموقع على وادي البستان مباشرة . وكانت الأدوات الصوانية الملتقطة عن السطح وعددها ١٣٤ قطعة من ذوات الوجهين ذات الأشكال المختلفة ، إذ صنف ٣١ قطعة ذات شكل رمحي و ٣٦ قطعة قلبية ، و ٣٧ قطعة بيضوية ، إضافة إلى السواطير ذوات الوجهين جانبية وأبيفيلية . كما تم تصنيف نوع جديد أطلق عليه اسم D

باللاتينية .

وقد ظهرت نماذج مشابهة لهذا النوع في منـــاطق الأزرق في الصحـراء الأردنية، إضافة إلى المقاشط الجانبية والمسننات والثلمات الـتي بلـغ عددهـا ١٢٣ قطعة . ويؤرخ الموقع للثقافة الآشولية المتأخرة .

٤- موقع ج ٤٠١[٣٩] :

عثر على الموقع عام ١٩٨٠ من قبل هنري بالقرب من وادي كلخـة، وهـو يرتفع نحو ١٠٠٠م تقريباً عن مستوى سطح البحـر ، وتنتشـر الأدوات الصوانيـة على سطح مساحته تبلغ ٤٠٠٠ متر مربع . وتشير دراسة الأدوات التي التقطـت عن السطح ، والتي بلغ عددها ٦٦ قطعة منها ٢٧ أداة بأنها تتميز بوجود أدوات ذات الوجهـين (Bifaces) القلبيـة ، واللوزيـة ، والرمحيـة الشـكل، إضافـة إلى الأدوات المشذبة (Retouched Tools) ، والمقاشط الجانبية (Side Scrapers) والثلمات (Notchs) ، والقطع المطروقة (Troncations) ،والمثاقب (Borers) ويشير هنري إلى تشابه الصناعة التي وجدت في الموقع مـع تلـك الـتي وجـدت في موقع الفجيج من حيث أنهما على نصال (Blades) .

العصر الحجري القديم الأوسط (جدول رقم ٢) (خارطة رقم ٢):

أشارت نتائج المسوحات الأثريـة في مطقـة جنـوب الأردن وخاصـة منطقـة وادي الحسا ورأس النقب إلى وجود كثيف لمواقع هذه الفـترة ، وتم تـأكيد ذلـك عن طريق الأسبار الاستكشافية والتجريبية التي جرت في بعض هذه المواقع . وقد عثر على المخلفـات المادية لإنسـان النياندرتـال في مواقـع مكشـوفة ، وملاجـيء صخرية ، و لم يتم حتى الآن العثور على كهوف أو مغائر تعود إلى هذه المرحلـة. ولابد من التنويه إلى عـدم اكتشـاف بقايـا إنسـانية تعـود لإنسـان النياندرتـال في مواقع هذه الفترة في الأردن . وتالياً بعض المواقع الـتي جـرت بهـا أسـبار تجريبيـة وكشفت عن وجود تراكمات طبقية :

١ ـ طور صبيحة (ج ٨)[٤٠]

يقع على الطرف الغربي لحـوض الجديـدة ، وهـو ملجـأ صخـري اكتشـفه وحفر أسباراً تجريبية فيه هنري منذ عام ١٩٧٩ . وكشـفت الأسـبار عـن ثـلاث طبقات تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط ، وكانت الطبقة « ج » أغناها بالأدوات الصوانية ، إذ احتوت على ٩٠٪ مـن الأدوات الصوانيـة المكتشـفة في الموقع . وتمـيزت الأدوات الصوانيـة بالمدببـات الليفلوازيـة (Levallois Points) إضافة إلى المقاشط الجانبية والمقاشط العلوية .

٢ ـ عين الدفلة (وادي الحسا موقع ٦٣٤)[٤١]

ملجـأ صخـري يقـع بـالقرب مـن وادي العلي في وادي الحسـا . كشـفت الأسبار فيه عن وجود مدببات ليفلوازية طويلة ، تذكرنـا بتلـك الـتي وجـدت في مغارة الطابون في فلسطين . وكذلك عثر على بقايا حيوانية ونباتية .

العصر الحجري القديم الأعلى (جدول رقم ٣) (خارطة رقم ٣) :

تعتبر مواقع هذه الفترة قليلة كما هو الحال في بقية مناطق الشرق ، وإن كانت منطقة وادي الحسا قد أفرزت عدداً كبيراً من المواقع التي في غالبيتها سطحية . ولم يتم إجراء حفريات أو تنقيبات أثرية في مواقع هذه الفترة ، وإنما جرت بعض الأسبار التجريبية ، وتالياً أهمها :

١ - موقع (٦٨١)[٤٢] :

يقع في الجهة الشمالية الغربية من بحيرة البلايستوسين التي وجدت في منطقة وادي الحسا في فترة ماقبل التاريخ . يعتبر هذا الموقع من أهم مواقع هذه الفترة في منطقة جنوب الأردن ، إذ تنتشر الأدوات الصوانية على مساحة تقدر بحوالي ١٢٠٠٠ متر مربع ، وقد عثر على مايقارب ٣٠٠٠٠٠ قطعة صوانية . وتدل الأسبار التي قام باجرائها كلارك في الموقع بأنه استخدم كمخيم غير ثابت (Base - Camp) . تمتاز الأدوات الصوانية بوجود المقاشط العلوية ، والمناقيش، والشفرات ، والشظايا المشذبة الحواف ، والمثاقب ، والمقاشط الجانبية ، والمدقات . وإضافة إلى الأدوات الصوانية فقد عثر على بقايا حيوانية ونباتية . وقد تم تأريخ الموقع بوساطة الحصول على تاريخ كربون مشع ، وكان ٢٠٣٠٠+ من الوقت الحاضر .

٢ - موقع X ٦٢٣[٤٣] :

يقع فوق هضبة صغيرة مستديرة الشكل بالقرب من شاطىء البحيرة القديمة. وهو موقع صغير المساحة إذ تبلغ مساحته ٤ أمتار مربعة فقط . ويعتقد كلارك بأن الموقع استخدم كمكان لتصنيع الأدوات .

٣ ـ موقع ٧٨٤ X[٤٤] :

وهو ملجأ صخري يقع في وادي الحسا . تتميز الأدوات الصوانية المكتشفة بأنها مصنوعة من النصال ، والنصال الصغيرة ، والشظايا وتكونت من المكاشط العلوية والمناقيش . وتشير هذه الأدوات إلى تشابه مع الأدوات الكبارية أكثر من كونها مرحلة انتقالية بين العصر الحجري القديم الأعلى والمرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم . كما يؤكد التاريخ الذي تم الحصول عليه من عينة إلى ١٩٠٠٠ + ١٣٠٠ من الوقت الحاضر .

المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم (جدول رقم ٤) ، (خارطة رقم ٤) :

تمتاز منطقة جنوب الأردن باحتوائها على مواقع تعود لثقافات المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم سواء الكبارية ، والكبارية الهندسية ، والثقافة النطوفية . وأطلق بعض الباحثين على بعض الثقافات أسماء محلية كالحمارية والكلخية على صناعات صوانية وجدت في بعض مواقع المنطقة مثل الحمارية . وتبدو غالبية المواقع سطحية ، ولم تقم بها حفريات منتظمة ، بل أجريت أسبار تجريبية في بعض المواقع .

١ ـ البيضا[٤٥] :

تقع على بعد ٥ كم جنوبي البتراء . أظهرت التنقيبات الأثرية التي اشرفت عليها كيركبرايد ، وجود سوية أثرية تعود للثقافة النطوفية أسفل السويات الأثرية التي تعود للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » . وتمتاز الأدوات الصوانية النطوفية بوجود كثيف للأدوات ذات تشذيب حلوان

(Helwan Retouche) وتشذيب شديد الانحدار (Abrupt Retouche) ، إضافة إلى أعداد كبيرة من المقاشط العلوية المصنعة على نصال (Blades) ، والمثلمات (Notches) ، والمسننات (Denticulates) ، إلى جانب الأدوات القزمية .

٢ـ ج ٢٠٢[٤٦] :

وهو موقع مكشوف في منطقة رأس النقب ، اكتشفه هنري عام ١٩٨٠ أثناء المسح الأثري لرأس النقب . ودلت الأسبار التجريبية عن وجود أدوات صوانية تعود للثقافة الكبارية الهندسية .

٣ـ ج ٥٠٤[٤٧] :

يقع بين جبل المشرق في الشمال وجبل الميسي في الجنوب. تدل نتيجة الأسبار التي حفرت عام ١٩٨٢ على وجود أدوات صوانية تتميز بالمقاشط العلوية ، والأدوات المثلمة ، والأدوات المشذبة ، والأدوات القزمية غير الهندسية.

٤ـ صبرا « ١ »[٤٨] :

يقع في الجزء الشمالي من وادي صبرا وهو موقع مكشوف . أظهرت الأسبار الاستكشافية التي أجراها شيل عام ١٩٨٧ عن وجود سويتين أثريتين : العليا وتمثل الثقافة الخيامية ، واشتملت السوية السفلى على قطع صوانية بلغ عددها ١٨١٩ منها ٩٨ أداة . وامتازت هذه الأدوات بوجود كثيف للأدوات القزمية الهندسية وغير الهندسية للمقاشط العلوية . وتمتاز الأدوات القزمية بتشذيب حلوان ، والذي يميز الفترة النطوفية القديمة .

٥ـ الطبقة (موقع ١٠٢١)[٤٩] :

يقع على الضفة اليمنى لوادي الأحمر على بعد ٣٠٠م تقريباً من موضع

التقائه مع وادي الحسا . تنتشر الادوات الصوانية على مساحة تبلغ ٥٠٠٠ متر مربع . وتميزت الادوات الصوانية التي التقطت عن السطح وعددها ٥٤٥ قطعة بوجود مقاشط علوية ، وأدوات قزمية هندسية ، ومثلمات ، ومسننات .

٦ ـ المدمغ[٥٠] :

ملجأ صخري يقع إلى الشمال الغربي من البتراء . ودلت الأسبار التي أجرتها كيركبرايد في الموقع عام ١٩٦٦ عن اكتشاف بقايا عظام حيوانية وأدوات صوانية تعود للفترة النطوفية ، كما قامت بعثة ألمانية بإجراء أسبار عام ١٩٨٣ ، أظهرت أدوات قزمية غير هندسية .

العصر الحجري الحديث (جدول رقم ٥) (خارطة ٥ و ٦) :

يجمع غالبية العاملين في آثار ماقبل التاريخ على تقسيم هذا العصر إلى مرحلتين ، هما العصر الحجري الحديث المبكر (حوالي ٨٥٠٠ ـ ٥٥٠٠ ق.م) ويشمل مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » ، « ب » والعصر الحجري الحديث المتأخر (٥٥٠٠ ـ ٣٧٥٠ ق.م) ويشمل العصر الحجري الحديث الفخاري (اليرموكية ، المرحلة « أ » و « ب ») .

العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » :

لايزال هذا العصر من أكثر العصور غموضاً ، فالمعلومات المتوافرة عن هذه الفترة قليلة جداً سواء في الأردن أوفي البلاد المجاورة ، والمواقع التي تعود إلى هذه الفترة تعد على الأصابع ولايزال موقعا أريحا والمريبط هما المرجعين الأساسيين لمعلوماتنا عن هذه الفترة . فمن خلال ماعثر عليه في هذين الموقعين نستطيع التعرف إلى خصائص هذه المرحلة وخاصة على عمارة هذه الفترة ، والتي تتميز

بالبناء الدائري والغائر أحياناً في الأردن ، والمشيدة من الطوب أو الحجارة ، وذلك حسب ماهو متوافر في البيئة الجغرافية . وتتمثل هذه الفترة في منطقة جنوب الأردن بثلاثة مواقع هي الذراع ، وجبل القويسي ، وصبرا « ١ » . وتم التعرف على هذه المواقع من خلال رؤوس السهام الخيامية التي وجدت في المواقع. ويبدو أن هذه المواقع استخدمت محطات لخدمة الصيادين الذين كانوا يستخدمون الصيد وسيلة معيشية لفترات قصيرة جداً .

١ـ الذراع[٥١] :

أُكتُشِف الموقع عام ١٩٧٦ من قبل ريكس ، وأظهرت الأدوات الصوانية التي وجدت على السطح وخاصة رؤوس السهام الخيامية أن الموقع يعود إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » . وفي عام ١٩٩٤ قام كوخيت ومحاسنة بإجراء حفرية في الموقع، الذي بلغت مساحته في هذه الفترة حوالي ٤٠٠٠ م٢ أسفرت عن الكشف عن بقايا عمائرية تتمثل ببنائين تحت مستوى الأرض . كما عثر على بقايا بيت دائري مبني من الحجارة ، ويبلغ ارتفاع الجدران فيه حوالي ٨٥سم . وإضافة إلى البقايا العمائرية ، فقد عثر على رؤوس سهام خيامية ومثاقب وقدوم داخل البيوت وخارجها . وهناك تأريخ كربون ١٤ يعطي ٩٩٦٠ + ١١٠ تاريخاً للموقع .

العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » :

تمثلت هذه الفترة بالعديد من المواقع والتي في غالبيتها كانت تشتمل على بقايا عمائرية (خارطة ٦) .

١ـ عين أبو نخيلة :

تقع أطلال هذا الموقع الذي تبلغ مساحته ٥٠ × ٤٥م ، والذي تبدو مخلفاته

المعمارية على الشكل البيضوي غير المنتظم ، ظاهرة على السطح ، على بعد ٥كم جنوب بقايا المعبد النبطي ومركز الشرطة . ويحتوي الموقع على مجموعة من العيون في أسفل جبل رم . اكتشف الموقع عام ١٩٤٧ من قبل الكس كيركبرايد ولانكستر هاردنج[٥٢] ، وقام بدراسة الأدوات الصوانية موسى ستيكليس الذي أرخ الموقع إلى السوية الثامنة لأريحا[٥٣] . وكشفت ديانا كيركبرايد التي قامت بإجراء حفرية تجريبية في الموقع عام ١٩٥٧عن مخلفات معمارية تتضمن نمطين من المباني ، أحداهما دائري الشكل والآخر مستطيل الشكل . ويتألف أحد المباني من غرفة دائرية الشكل مشيدة تحت مستوى الأرض على غرار مباني البيضا ، باستثناء أنه لاتوجد تجاويف للأعمدة في الجدران . وبالإضافة إلى الأدوات الصوانية التي امتازت بوجود رؤوس السهام ، فقد تم العثور على عدد من المخلفات الأثرية كالآلات الحجرية وأدوات الزينة ، وأرجعت المنقبة قلة سماكة المخلفات السكنية في الموقع إلى قصر فترة الاستيطان التي شُغل الموقع خلالها ، وتعتقد بإنه لم يكن مسكوناً على مدار العام ، وإنما كان محطة لأغراض الصيد . ويؤيد ذلك كثرة رؤوس السهام المختلفة ، والتي وجدت بأعداد كثيرة . واقترحت المنقبة إرجاع تاريخ الموقع إلى المرحلة الانتقالية بين العصرين الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » والحجري الحديث الفخاري « أ » (٥٤) .

٢ـ البسطة[٥٥] :

يمتاز موقع البسطة بمساحته الكبيرة ، إذ تبلغ أكثر من ١٤ هكتاراً ، وبطرازه المعماري المتميز ، وبكون القرية قد بنيت حسب تخطيط مسبق . فقد كشفت التنقيبات الأثرية التي جرت في الموقع منذ عام ١٩٨٥ وحتى الآن عن قنوات مبنية من الحجارة الدبش بعرض ٢٠ سم وعمق ٤٠سم ، ولم تكن هذه القنوات مقصورة من الداخل ، ولاتسد الفجوات في جدرانها بأية مواد ، مما

ينفي استخدامها لتصريف أو جمع المياه ، ويعتقد بأنها استخدمت لعمل توازن بين المباني المختلفة . وقد عثر على نموذجين من المباني ، امتاز الأول بغرف ووحدات سكنية مختلفة المساحات مع عدم وجود مساحات فارغة بين الأبنية ، ومن أهم هذه المباني الغرفة التي بلغت مساحتها ٢٤،٥ × ٩م . بينما امتاز الثاني بمجموعة من وحدات سكنية مكررة بنيت بتخطيط مسبق ، فكل وحدة سكنية تحتوي على ساحة مركزية أو غرفة واسعة محاطة بثلاثة أو أربعة صفوف من الغرف الصغيرة المساحة على ثلاث جهات . واحتوت الجهة الرابعة صفين من الغرف الصغيرة المساحة المتعاكسة الاتجاه . (لوحة رقم) . وتم الكشف عن مجموعة من الهياكل البشرية المدفونة تحت أرضيات المنازل أو القنوات الحجرية .

٣ ـ البيضا(٥٦) :

تعتبر البيضا من أوائل مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » التي تم التنقيب فيها في منطقة جنوب الأردن . وهي تقع في وادٍ على مسيرة ساعة إلى الشمال من مدينة البتراء الأثرية النبطية في طريق بين الجبال ، وتحيط بها التلال الرملية من الجانبين . وتقع على سطح تبلغ مساحته ٦كم وعلى ارتفاع ١٠٠٠م عن سطح البحر . بدأت أعمال التنقيب بإشراف د. كيركبرايد على مدى ثمانية فصول، من ١٩٥٨ ولغاية ١٩٦٧، وكان الموسم الأخير عام ١٩٨٣ . وكشفت التنقيبات الأثرية عن مرحلتين أثريتين ، الأولى تعود للفترة النطوفية ، والثانية تحتوي على ست سويات أثرية تعود للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » ، رقمتها ١ إلى ٦ من الأحدث إلى الأقدم . وتفصل بين المرحلتين طبقة عازلة من التراب بسماكة ٣أمتار . وتحتوي السويات الست على بقايا لست قرى تختلف في هندستها وبنائها الواحدة عن الأخرى ، إنما الصفة العامة الجامعة بينها هي أنها دون مستوى الأرض ويُنزل إليها بثلاث درجات

حجرية . واقيمت بيوتها من الحجارة الغفل الكبيرة ، وسدت الفجوات بينها بالحجارة الصغيرة والحصى .

وتعتبر السوية السادسة ممثلة لأولى المراحل السكنية في الموقع ، حيث جاءت هذه المباني دائرية الشكل ومبنية من جدران حجرية تتخللها تجاويف لأعمدة خشبية. وتم الكشف عن خمسة بيوت رصفت أربعة منها بالجص . ووجد في اثنين منها ثقوب لدعامة ، تمثل الدليل الوحيد في الموقع على كيفية وضع السقف. وقد وجدت هذه البيوت متلاصقة بعضها ببعض، مما دعا المنقبة لتشبيهها بخلية النحل . كما عثر في أحد البيوت على كميات من الحبوب المتخشبة من الشعير ، والقمح ، والفستق .

أما السوية الخامسة، فاحتوت على بيوت دائرية بجدران سميكة عرضها نصف متر، وتشبه بيوت أريحا في مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » ، إلا أن بيوت البيضا امتازت بأن أرضياتها وجدرانها غطيت بالقصارة البيضاء .

بينما جاءت بيوت السوية الرابعة بيضوية الشكل بزوايا دائرية ، وكان البيت مكوناً من غرفة واحدة ، تنخفض ارضياتها تحت مستوى الأرض ، وينزل إليها بثلاث درجات ، وشيدت من الحجر الرملي ، كما غطيت الأرضيات والجدران بالقصارة . وتفصل هذه الغرف عن بعضها البعض ساحات مكشوفة ، واحتوت بعض الغرف على مواقد لها حواف تبرز عن مستوى أرضية الغرفة ، ومغطاة بالقصارة أيضاً . أما مباني السوية الثالثة والسوية الثانية فهي متشابهة ، وقد كشفت المنقبة عن المخطط الكامل لبنائين ، واحد في السوية الثالثة والآخر في السوية الثانية ، وهما متشابهان في مخططهما الذي يتألف من ممر ضيق

٨ × ١م ، وتصطف ثلاث غرف على كـل جـانب . وتبلـغ أبعـاد هـذه الغـرف حوالي ١ × ١،٥م ، وهي مغطاة بالقصارة من الأعلى ، ويبلـغ ارتفـاع الجـدران المتبقية حوالي المتر . وتقع هذه المباني تحت مستوى الأرض ، ويُنزل إليها بثـلاث درجات وأرضياتها مغطاة بالجص ، وتحتوي بعض هـذه الغـرف علـى مصـاطب حجرية . ونتفق مع المنقبة على أن هذه المباني اسـتخدمت كمبـان ذات وظـائف عامة ، حيث يستدل من مساحتها ومن محتوياتها على أنها كانت مراكـز تجاريـة وصناعية لصناعة المنتوجات الصناعية وبيعها ، كالجواريش ، المدقـات ، وأدوات الزينـة ، والأدوات الصوانيـة والعظميـة . كمـا وجـدت إلى الجنـوب مـن مبـاني الممرات غرفة واسعة مساحتها ٩ × ٧م ، مستطيلة الشكل ، وينزل إليها بثـلاث درجات، مما يؤكد أن هذه الساحة كانت تحت مستوى الأرض أيضاً . واحتوت الساحة على موقد كبير له حافة بارزة من الحجـر . وطليـت الارضيـة والجـدران بالقصارة البيضاء ، وظهر على بعض طبقاتها حزوز مـن الخطـوط الحمـراء علـى مسافة ٢٥سم من الحائط ، تمتد إلى أسفله لتؤلف شـريطاً تزينيـاً يذكرنـا ببيـوت شاتال هويوك (Catal HOYUK) وهـاجيلار (Hacilar) في الأناضول . وعـثر على الأدوات الصوانية والتي قـام بيـدر مورتنسـن (P. Mortensen) بدراسـتها وتصنيفهـا[٥٧] . وعـثر أيضـاً علـى أدوات عظميـة كالمخـارز ، والدبـابيس ، والملاعق ، وكان بعضها مصقولاً والقليـل منهـا يحمـل زخرفـة أو محززاً . وعـثر كذلك على أدوات الزينة ، وتتضمن عدداً من الخرز المصنوع مـن العظـم ، ومـن الصدف ، ومن الحجـر . كمـا وجـد العديـد مـن التمـاثيل الطينيـة ، والـتي تمثـل أشكالاً حيوانية في الغالب . كما عثر علـى اربعـين هيكـلاً بشـرياً مدفونـة تحـت أرضيات المنازل ، ولم يعثر على جماجم هذه الهياكل . إذ كانت هذه الفترة تمتـاز

بفصل الجماجم عن الهيكل . وقد وُجدت أمثلة شبيهة لهذه العادة في العديـد مـن مواقع بلاد الشام مثل أريحـا في فلسـطين ، وعـين غـزال في الأردن ، والمريـط في سورية . وكذلك عثر على بذور نباتية كالقمح ، والشعير ، والعدس ، والفتسق، والبلوط[٥٨] .

٤ـ البعجة «١»[٥٩] :

موقع اكتشفه جيبل عام ١٩٨١ ، وقام بحفر أسبار تجريبيـة فيـه ، ويقـع إلى الشمال من البتراء . وهو قرية أثرية كبيرة ، وتبلغ مساحة الموقع حوالي ١٠٠٠٠ متر مربع . وعـثر فيـه علـى مبـان مسـتطيلة الشـكل مبنيـة مـن الحجـارة الجيريـة والرملية.

٥ـ جبل القويسي (ج ٢٤)[٦٠] :

ملجأ صخري اكتشفه هنري عام ١٩٧٩، خلال المسح الأثري لمنطقة رأس النقب . وأظهرت الأسبار التي فتحها هنري عـن ثـلاث سـويات اثريـة ، رقمهـا أ ، ب ، ج . احتـوت السـويتان « أ » و « ب » علـى أدوات تعـود للعصـر الحجري النحاسي ، بينما زودتنا السوية « ج » بأدوات تعود للعصـر الحجـري الحديث قبل الفخاري « أ » ، وفصلت بينهم سوية رملية عازلة بسـماكة ٢٠ ـ ٣٠سم ، واحتوت السـوية « ج » علـى ١٨٨٤ قطعـة صوانيـة منهمـا ٢٠ أداة فقـط . وتمـيزت المجموعـة الصوانيـة بوجـود النصيـلات (Bladelette) الـتي استخرجت من الأنوية ذات منطقة الطرق المزدوجة . وعثر على ثلاثة من رؤوس السهام ذات المقبض ، مع أثلمة متقابلة .

٦ـ صبرا «١»[٦١] :

موقع مكشوف في الجزء الشمالي لوادي صبرا بالقرب من البتراء ، اكتشـفه وحفر فيه أسباراً جيبل ، وقد كشفت الأسبار عن سويتين أثريتين تفصـل بينهمـا

طبقة من الجير الأبيض . السوية الأولى (العليا) تحتوي على مخلفات تعود للثقافة الخيامية بينما السوية الثانية (السفلى) تشتمل على مخلفات تعود للفترة النطوفيـة القديمة .

٧ـ الضمان[٦٢] :

تقع على بعد ١كم غرب / شمال ـ غرب صـبرا « ١ » وبـالقرب مـن عـين الضمان . وأظهرت الأسبار التي حفرها جيبل في الموقع عن بعض البقايا العمائرية ذات المخطط المستطيل الشكل والمشيدة من الحجارة . وتتميز الأدوات الصوانيـة بوجـود نسـبة عاليـة مـن الأدوات المشـذبة إضافـة إلى وجـود رؤوس السـهام والمثاقب. ويرجع جيبل تـاريخ الموقـع إلى مرحلـة العصـر الحجـري الحديـث قبـل الفخاري « ب » الأوسط .

٨ـ خربة الحمام :

تقع على المنحدرات الجنوبية الشرقية لوادي الحسا . وهـو موقـع مكشـوف أشار إليه عام ١٩٧٩ مكدونلد تحت رقم ١٤٩[٦٣] ، ثـم زاره رولفسـون عـام ١٩٨٥[٦٤] . تبلغ مساحة الموقع ٢ ـ ٤ هكتاراً ويقع على ارتفـاع ٣٠٠م فـوق مستوى البحر . وتم التعرف داخل المقطع الجـانبي للطريـق علـى مبـان مسـتطيلة الشكل مبينة من الحجـارة ، ومقصـورة مـن الداخـل ومدهونـة بـاللون الأحمـر . إضافة إل ذلك ، فقد عثر على مدقـات ، وأجـران حجريـة ، وتمـاثيل إنسـانية . وتتميز الأدوات الصوانية بالمناقيش والمقاشط الجانبية إضافة إلى المثاقب والأدوات المثلمة والأنوية .

٩ـ الغوير «١»[٦٥] :

يقع موقع الغوير « ١ » على الضغفة الجنوبية لـوادي الغويـر ، أحـد روافـد وادي فينان . اكتشف الموقع خلال مشروع المسح الأثري المعدني الذي أشـرفت

عليه بعثة أردنية ـ ألمانية مشتركة في منطقة وادي عربة ووادي فينان بين ١٩٨٤ و ١٩٩٣ . تمتد مساحة الموقع على ٦٠٠٠ متر مربع . وأظهرت التنقيبات الأثرية لعام ١٩٩٣ مباني مستطيلة الشكل ذات ارضيات مطلية بالجص ومدهونة باللون الأحمر . كما تم الكشف عن غرف بمساحة ٤ × ٤,٥م أعيد استعمالها كغرف صغيرة المساحة ١،٥ × ١م تذكرنا بمباني الممرات مع وجود نوافذ صغيرة استخدمت كمداخل . كما عثر في المنطقة الجنوبية الغربية من الموقع على مبان دائرية الشكل مع مدخل في الجهة الشمالية من المبنى ، ويقابل المدخل كوة (Niche) . وعثر فوق أرضية المبنى وبالقرب من الكوة على تمثال حجري صغير . وقد استخدمت الحجارة الغشيمة في بناء جدران هذه المباني . وبالإضافة إلى المباني ، فقد عثر على أدوات صوانية تتميز بوجود رؤوس السهام (Arrowheads) ، والسكاكين (Knives) ، والمناجل (Sickles) ، والمثاقب (Borers) ، وأدوات ثقيلة ، مثل أدوات الجرش والطحن ، والزبادي ، وتماثيل حجرية وطينية تمثل أشكالاً بشرية وحيوانية ، كما عثر على أدوات الحلي المصنوعة من العظم أو الحجر الأخضر (Green Stone) . ويرجَّح أن تاريخ الموقع يعود إلى الربع الثاني من الألف السابع .

العصر الحجري الحديث الفخاري (جدول رقم ٦) :

١ ـ الذراع[٦٦] :

اكتشف الموقع عام ١٩٧٦ من قبل ريكس ، ثم قامت بنت ، بإجراء أسبار استكشافية في الموقع عام ١٩٧٩ أظهرت وجود بقايا عمائرية تتمثل ببعض حفر ذات أرضيات وجوانب محاطة بالحجارة والطين . وأظهرت الكسر الفخارية التي وجدت في الموقع أنه يعود إلى العصر الحجري الحديث الفخاري .

٢ - تل وادي فينان[(٦٧)،(٦٨)] :

يقع على الضفة الجنوبية لوادي فينان على ارتفاع يتراوح بين ٢٥٠ ـ ٣٠٠م عن سطح البحر . وكشفت التنقيبات الأثرية التي جرت عامي ١٩٨٨ و١٩٩٠ عن ثلاث طبقات أثرية في الموقع . واحتوت الطبقتان الاولى والثانية عن بقايا تعود إلى منتصف الألف الخامس ، بينما اشتملت الطبقة الثالثة على بقايا تعود للفترة الرومانية ــ البيزنطية (القرن الرابع م) . وأظهرت التنقيبات في الطبقتين الأولى والثانية بقايا معمارية تتألف من غرفتين وساحة تقع إلى الشرق من الغرفتين (لوحة رقم) . وبلغت مساحة الغرفة الأولى ٤،٩ × ٣،٥م والثانية ٨ × ٣،٥م بينما بلغت مساحة الساحة ١٠ × ٧م . كما عثر على مواقد للنيران. وكانت أرضيات الغرف والساحة من الطين أو الحصى . وعثر على أدوات فخارية تشتمل على جرار وزبادي إضافة إلى أدوات صوانية تميزت بوجود المناجل ، والمقاشط العلوية والسكاكين ، والمثاقب . ويلاحظ غياب رؤوس السهام في الموقع ، كما تم العثور على أدوات عظمية ، وصدف ، وخرز، وتماثيل فخارية وحجرية .

العصر الحجري النحاسي (جدول رقم ٧) ، (خارطة رقم ٧) :

١ - المقص[(٦٩)] :

يقع على بعد ٤كم إلى الشمال الغربي من العقبة ، اكتشف أثناء شق طريق وادي عربة - العقبة عام ١٩٦٧ ، ثم ذكره ريكس عام ١٩٧٦، وأخيراً قام لطفي خليل بإجراء موسمين من التنقيبات في الموقع أعوام ١٩٨٥ و ١٩٩٠ . وأسفرت نتائج التنقيبات عن الكشف عن بيوت وغرف مستطيلة ومشيدة من

الحجارة الغفل ، وغطيت الواجهات الحجرية بالطين المخلوط بـالتبن . كما عثر خلال موسم ١٩٨٥ على حفرة داخل أرضية احدى الغرف ، يبلغ قطرها حوالي المتر ، وكانت مقصورة من الداخل . كما عثر خلال موسم ١٩٩٠ في أسفل الحفرة السابقة على حفرة أخرى يبلغ قطرها حوالي ١،٩٥م وعمقها حوالي ٧٥سم وهي مقصورة من الداخل ، وكانت الحفرتان خاليتين من أية موجودات أثرية سواء فخارية أو غيرها . وإضافة إلى ذلك ، فقد عثر على العديد من الأدوات الحجرية ، كالفؤوس الحجرية ، والمدقات بأشكال مختلفة ، وطاسات حجرية ، وهروات حجرية ، مصنوعة من البازلت . ويبدو أن موقع المقص كان مركزاً صناعياً ، إذ عثر على كتل خامات غنية بالنحاس وحبيبات نحاس مخلوطة مع الفحم والرماد في المقص ، مما يشير إلى أن عمليات صهر النحاس كانت تتم في الموقع . وأشار المنقب إلى وجود مواد صدفية خام ، وبقايا مخلفات صناعية ، وقطع صدفية مصنعة مما يشير إلى إمكانية استخدام الموقع كمركز لصناعة الحلي الصدفية في العصر الحجري النحاسي ، وخصوصاً أن الموقع قريب من خليج العقبة الغني بأنواع مختلفة من الصدف .

الخاتمة :

يتضح مما سبق عرضه من حديث حول التنقيبات الأثرية في منطقة جنوب الأردن ، أن هذه المنطقة لعبت دوراً هاماً في بناء حضارة الإنسان في منطقة الأردن خاصة وبلاد الشام بشكل عام . فقد أظهرت التنقيبات والمسوحات الأثرية أن المنطقة كانت مأهولة بالسكان منذ العصر الحجري القديم الأدنى حتى بداية العصور التاريخية . وتبيّن النتائج أن المنطقة قد مرت بمراحل ازدهار حضاري واسع في بعض الفترات كما هو الحال في المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » . ومع تراجع هذا الازدهار في بعض الأحيان ، إلا أننا نجده يعود للازدهار مرة أخرى . ويبدو أن هذا التراجع كان بسبب تأثر منطقة جنوب الأردن بالمؤثرات المناخية والبيئية التي أثرت في بلاد الشام بشكل عام في فترة عصور ماقبل التاريخ حيث أظهرت نتائج مسوحات هنري في منطقة رأس النقب أن المنطقة قد سادها مناخ جاف في فترة العصر الحجري النحاسي التأثيرات في منطقة رأس النقب .

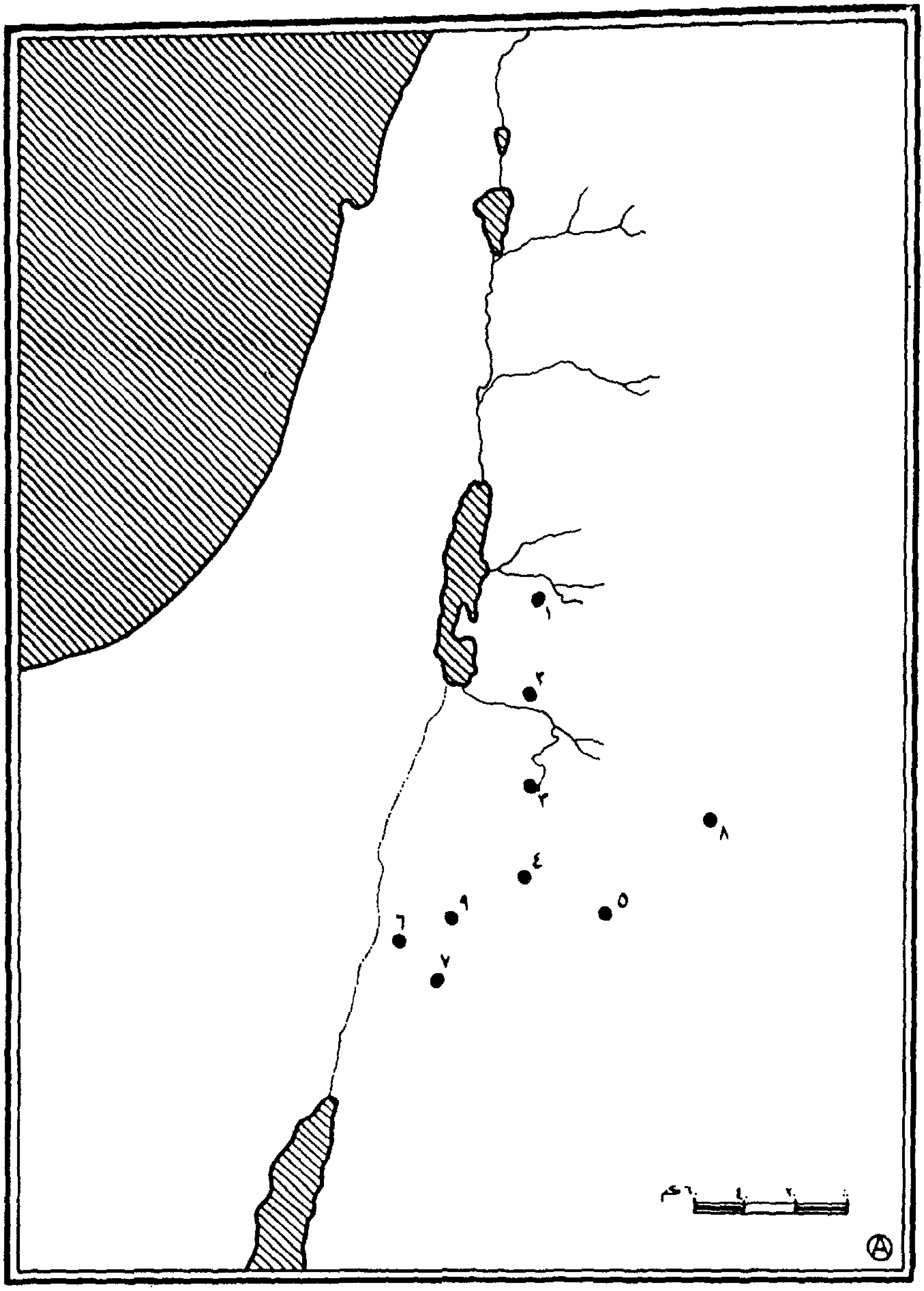

خارطة رقم ١ : مواقع العصر الحجري القديم الأدنى

١ ـ خربة المحاريم ـ ٢ ـ وادي الحسا ـ ٣ ـ الفجيج ـ ٤ ـ أبو الجرذان ـ ٥ ـ الجفر « ٧٢ » ـ ٦ ـ الفرذخ ـ ٧ ـ رأس النقب ج « ٤٠١ » ـ ٨ ـ باير ـ ٩ ـ بسطة « ٣ » .

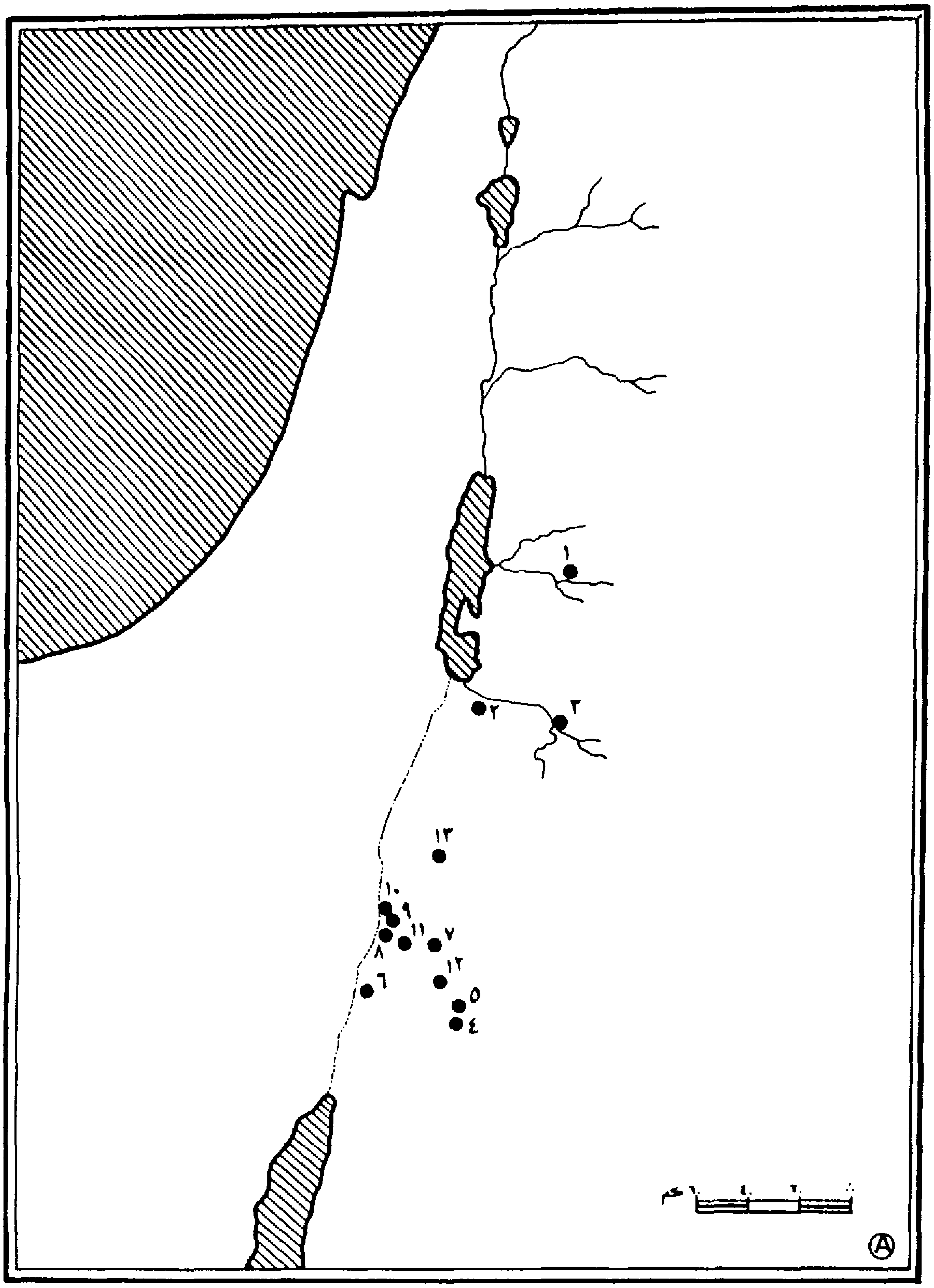

خارطة رقم ٢ : مواقع العصر الحجري القديم الأوسط

١ ـ وادي العسال ـ ٢ ـ عين الدفلة ـ ٣ ـ موقع « ٦٢١ » ـ ٤ ـ طور فرج ـ ٥ ـ طور صبيحة ـ ٦ ـ كلخة ـ ٧ ـ رأس سليمان ـ ٨ ـ رأس نيازي ـ ٩ ـ السنخ « ٢ » ـ ١٠ ـ الضمان ـ ١١ ـ الغرندل ـ ١٢ ـ رأس النقب ـ ١٣ ـ وادي الغوير .

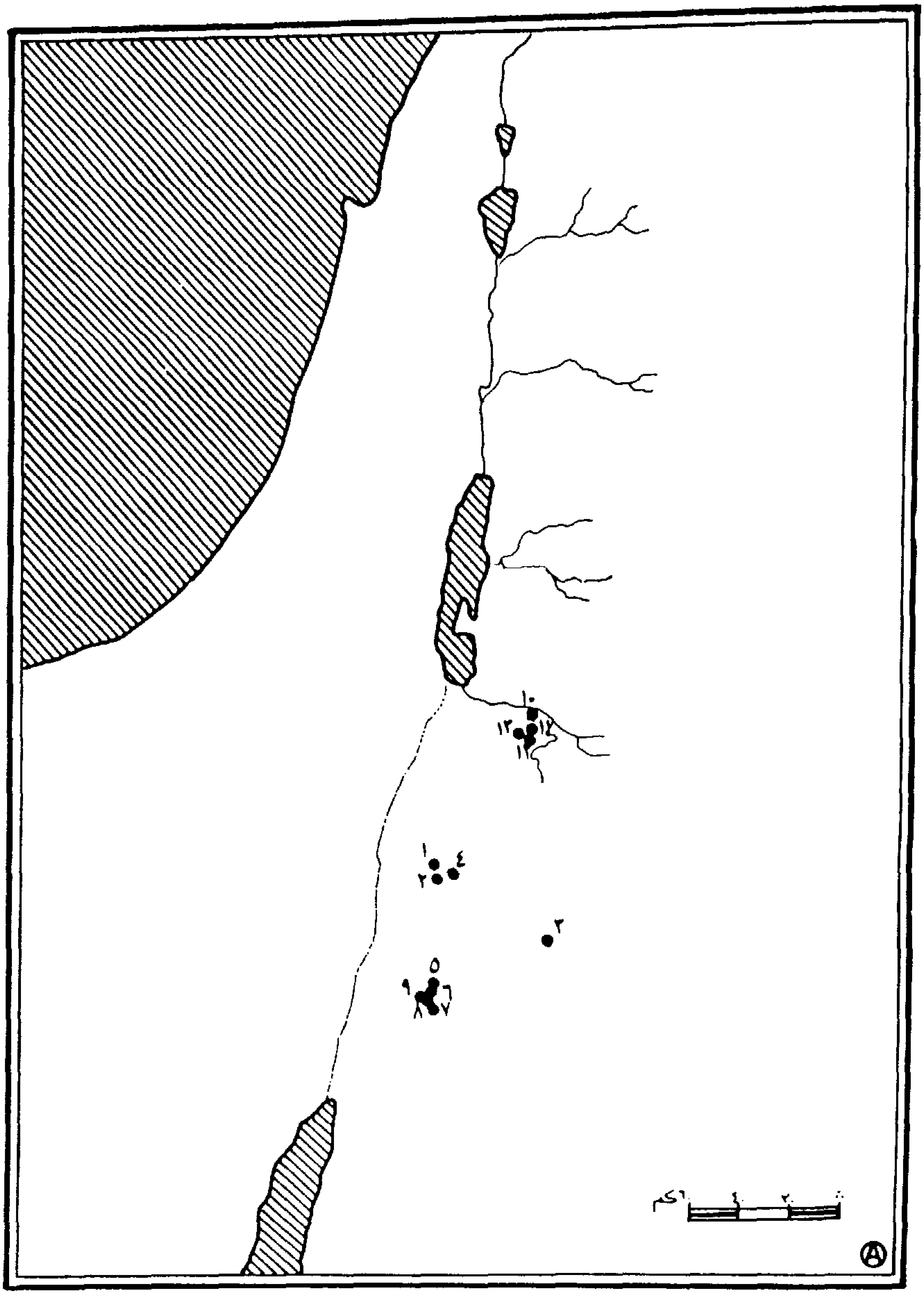

خارطة رقم ٣ : مواقع العصر الحجري القديم الأعلى

١ - أبو شاهر - ٢ - أنساب - ٣ - الجفر « ٧١ » - ٤ - صبرا - ٥ - طور عايد (ج ٤٣٢) - ٦ - ج « ٥ » - ٧ - ج ٤٠٣ - ٨ - ج « ٤١٢ » - ٩ - ج « ٤٣٣ » - ١٠ - موقع « ٦١٨ » - ١١ - موقع « ٦٢٣ » - ١٢ - موقع ٦٢٣ × - ١٣ - موقع ٧٨٤× .

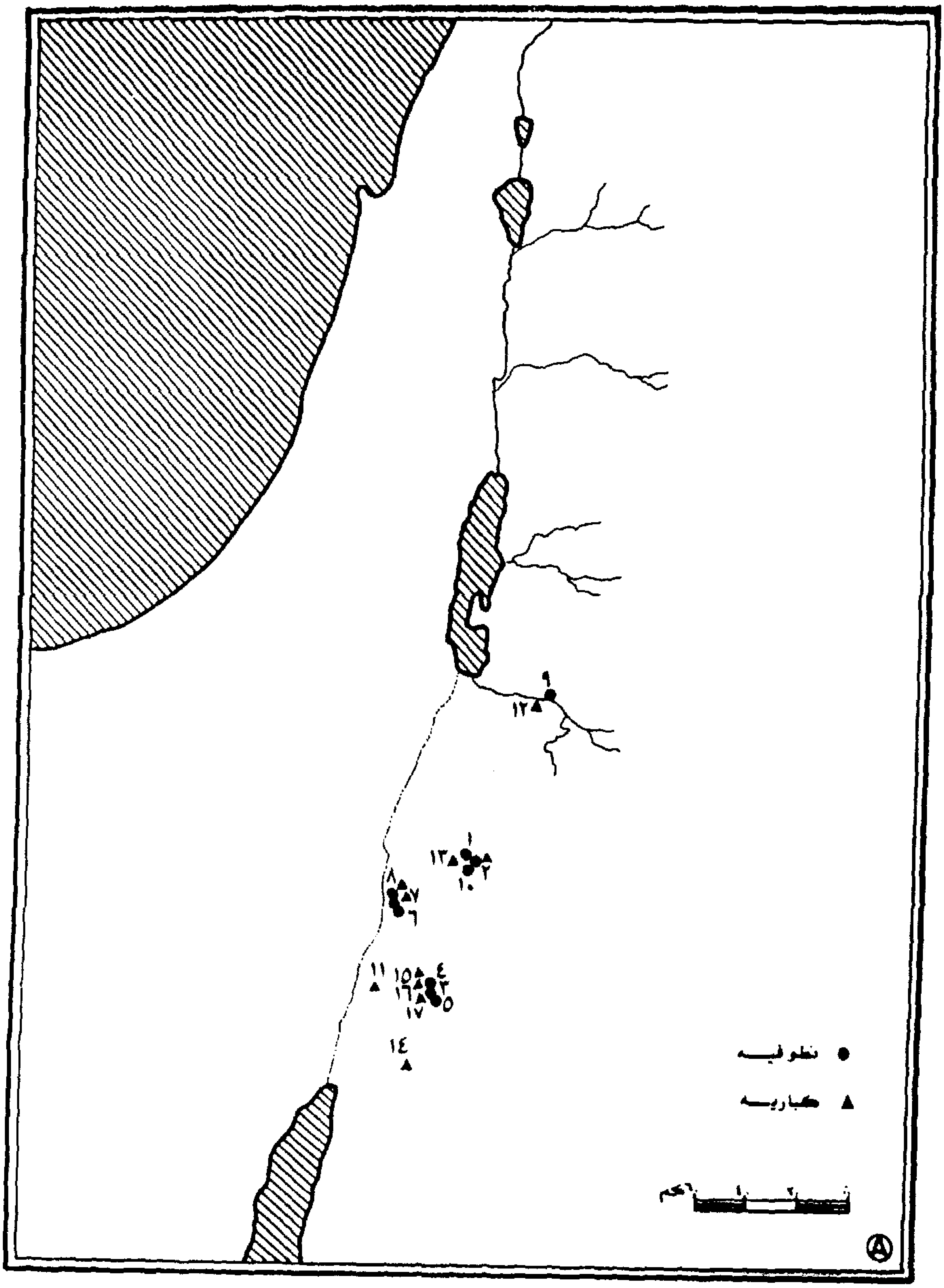

خارطة رقم ٤ : مواقع المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم

١ ـ البيضا ـ ٢ ـ الثغرة « ١ » ـ ٣ ـ ج « ٢ » ـ ٤ ـ ج « ٤٠٦ أ » ـ ٥ ـ ج « ٤٣٦ » ـ ٦ ـ السنخ ـ ٧ ـ صبرا « ١ » ـ ٨ ـ الضمان ـ ٩ ـ الطبقة ـ ١٠ ـ وادي سليسل ـ ١١ ـ ج « ٥٠٤ » ـ ١٢ ـ قلعة الحسا ـ ١٣ ـ المدمغ ـ ١٤ ـ وادي رقم ـ ١٥ ـ ج « ٤٠٧ » ـ ١٦ ـ ج « ٤٠٦ ب » ـ ١٧ ـ ج « ٤٠٥ » .

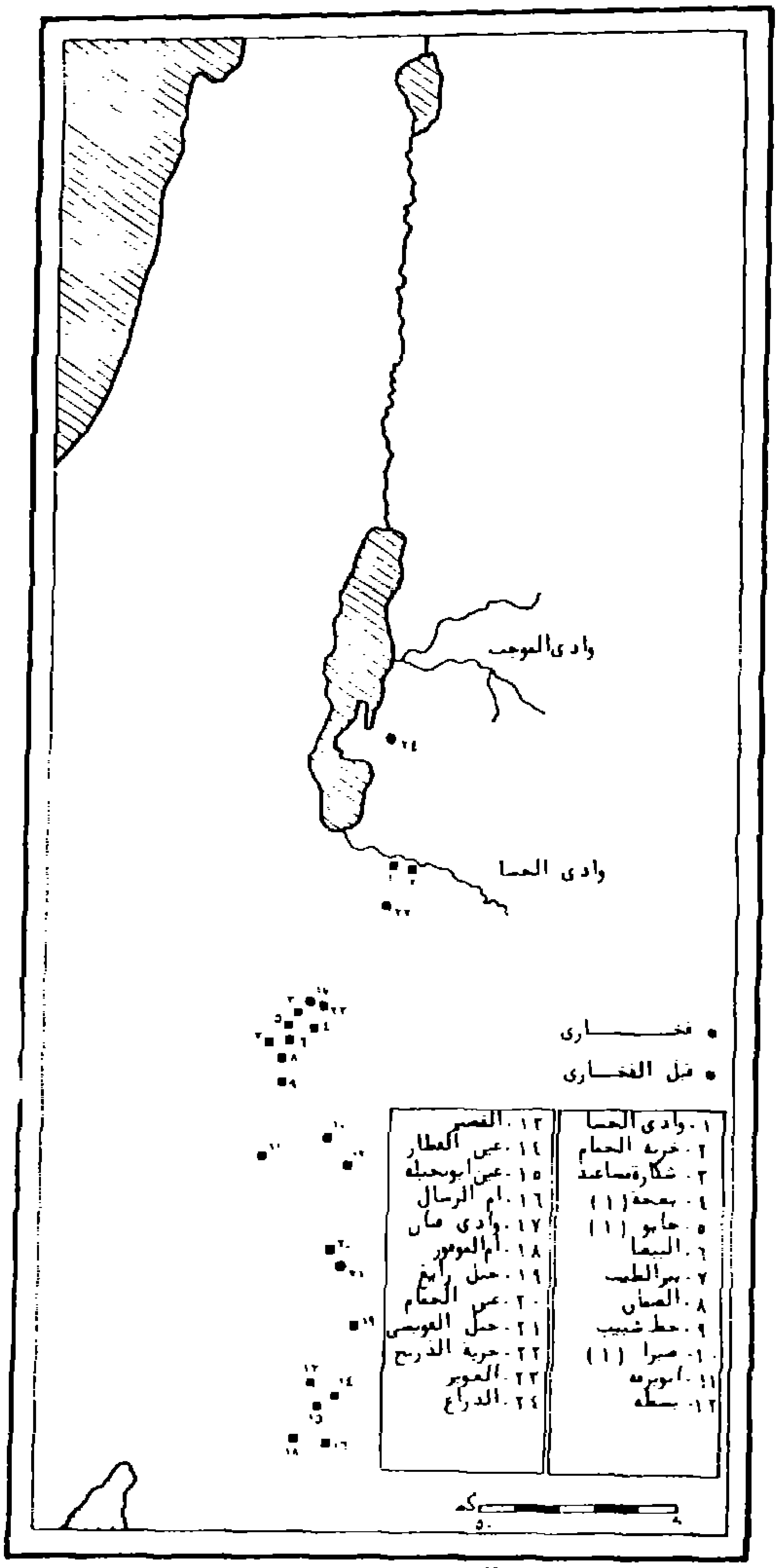

رسم : موسى مطابقة

خارطة رقم ٥ : خريطة توضح مواقع العصر الحجري الحديث في جنوب الأردن

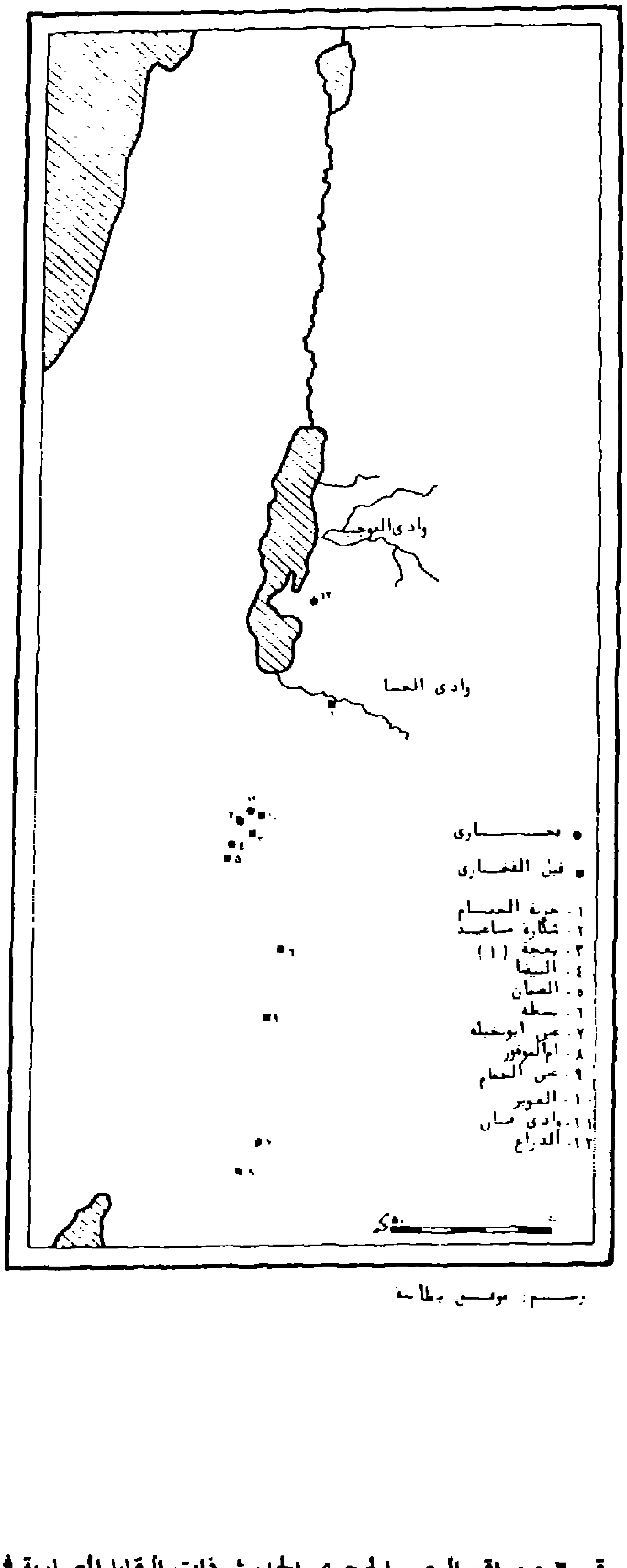

رسم: موسى بطاينة

خارطة رقم ٦ : مواقع العصر الحجري الحديث ذات البقايا المعمارية في جنوب الأردن

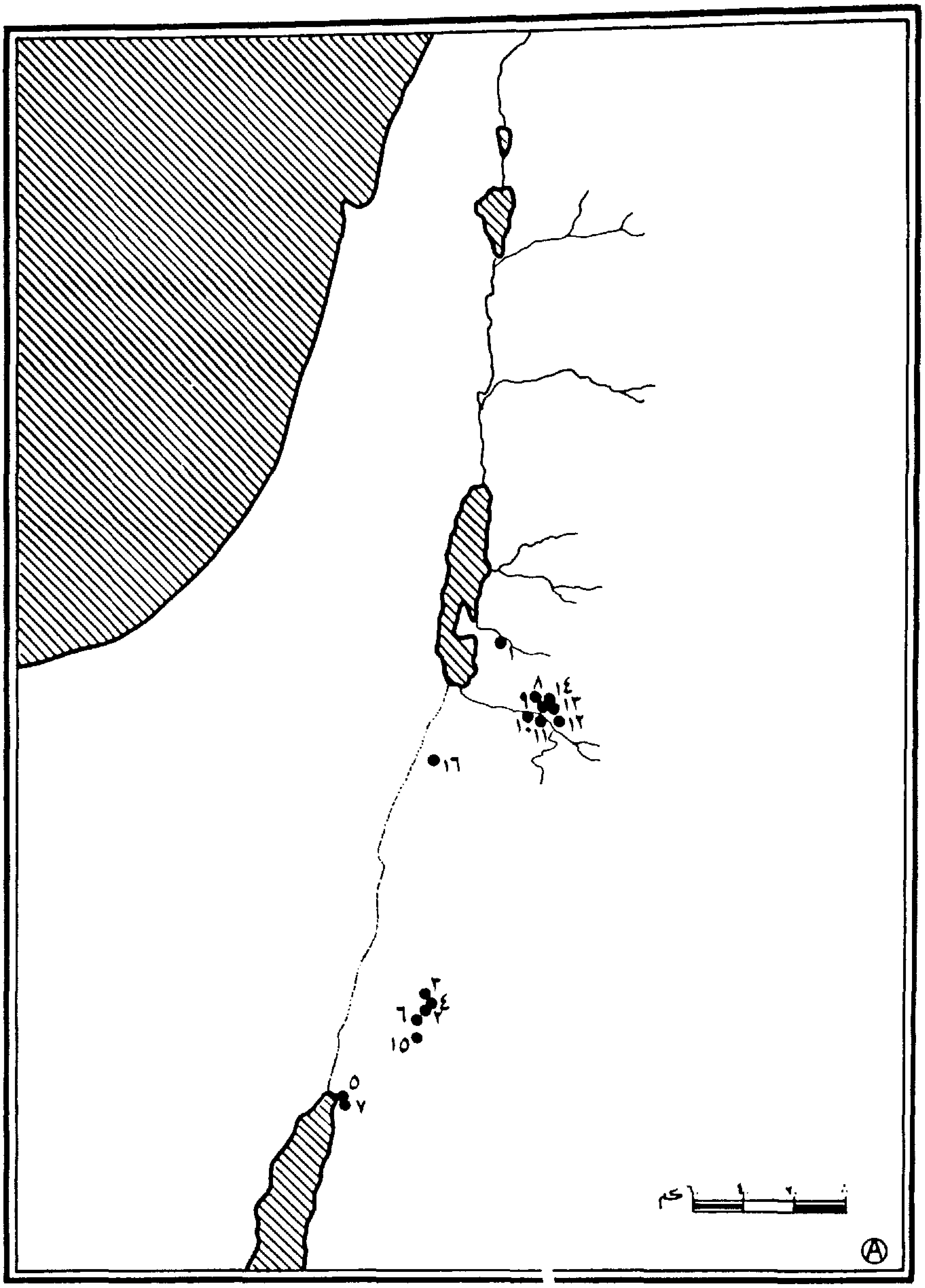

خارطة رقم ٧ : مواقع العصر الحجري ـ النحاسي

١ ـ أم سدرة ـ ٢ ـ تل الخرزة ـ ٣ ـ جبل القويسي ـ ٤ ـ جبل الجيل ـ ٥ ـ حجيرة الغزلان ـ ٦ ـ سيل الحمام ـ ٧ ـ المقص ـ ٨ ـ موقع « ٣٠٨ » ـ ٩ ـ القصر (موقع « ٦١٦ ») ـ ١٠ ـ موقع « ٦٤٧ » ـ ١١ ـ موقع « ٨٥٨ » ـ ١٢ ـ موقع « ٨٦٦ » ـ ١٣ ـ موقع « ٩١٥ » ـ ١٤ ـ موقع « ٩٣٩ » ـ ١٥ ـ هضيبة الفلا ـ ١٦ ـ وادي الفدين « ٤ » .

جدول رقم ١ : مواقع العصر الحجري القديم الادنى الباكر والأوسط والأعلى

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- موقع ٣٣٧	+٦٥٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	اشولي وسيط	MacDonald 1980;1988
٢- موقع ٣٥٠	+٦٥٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	أشولي وسيط	MacDonald 1988
٣- أبو الجرذان	+١١٤٠	مكشوف	مسح أثري	معان	أشولي حديث	Muheisen 1988
٤- باير	+٦٦٠	مكشوف	مسح أثري	وادي باير	أشولي حديث	Field 1960; Releston and Rollefson 1982
٥- بسطة٣	+١٤٢٠	مكشوف	مسح أثري	جبال الشراة	أشولي حديث	Muheisen 1988
٦- موقع ج١٠٤	+١٠٠٠	مكشوف	مسح أثري	رأس النقب	أشولي حديث	Henry, 1982;1985
٧- الجفر ٧٢	+٦٥٠	مكشوف	مسح أثري	حوض الجفر	أشولي حديث	Zeuner 1957
٨- خربة المحاريم	+٨٧٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الموجب	أشولي حديث	Miller 1979
٩- الفرذخ	+١٦٤٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	أشولي حديث	Muheisen 1988
١٠- فجيج	+١٢٨٠	مشكوف	مسح أثري	وادي البستان، الشوبك	أشولي حديث	Rollefson 1981,1985
١١- فيجاي	+١٢٠٠	مكشوف	مسح أثري	منطقة معان	أشولي حديث ، محيسن	Muheisen 1988, 1993

جدول رقم ٢ : مواقع العصر الحجري القديم الأوسط

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- حرف الدراويش	٩٣٦+	مكشوف	مسح أثري	الطفيلة	موستيري	Bender 1974. Muheisen 1988
٢- ج٤٣٠	٠٠٠+	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	موستيري	Henry 1988
٣- رأس سليمان	٩٦٠+	مكشوف	أسبار	البتراء	موستيري	Gebel 1985. Schyle and Uerpman 1988
٤- رأس نيازي	٠٠٠٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	موستيري	Schyle and Uerpman 1988
٥- السنخ٢	٩٧٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	موستيري	Gebel 1985. Schyle and Uerpman 1988
٦- الضمان٣	٧٦٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	موستيري	Schyle and Uerpman 1988
٧- طور صبيحة	١٢٥٠+	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	موستيري	Henry 1982.1988
٨- طور فرج	٩٠٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	رأس النقب	موستيري	Henry 1982.1988
٩- عين الدفلة	٧٨٠+	ملجأ صخري	أسبار	وادي الحسا	موستيري	Clark et at 1988
١٠- القرندل	٣٠٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي عربة	موستيري	Muheisen 1988
١١- موقع ٦٢١	٨١٠+	مكشوف	أسبار	وادي الحسا	موستيري	Clark et at 1988
١٢- موقع c10-7 C10-11 D7-14	٣٠٠+/٧٠٠	مكشوف	مسح أثري	وادي لعسال	موستيري	Jacobs 1981,1982 1983,1984 and 1985
١٣- نقب الربيع	١٠٠٠+	مكشوف	أسبار	البتراء	موستيري	Gebel 1985. Schyle and Uerpman 1988
١٤- وادي الغوير	٧٠٠+	مكشوف	مسح أثري	الشوبك	موستيري	Muheisen 1988

جدول رقم ٣ : مواقع العصر الحجري القديم الأعلى

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- أبو شاهر	٠٠٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قديم أعلى	Schyle and Uerpmann 1988
٢- أنساب	٠٠٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قديم أعلى	Schyle and Uerpmann 1988
٣- الحفر «٧١»	٦٠٠+	مكشوف	مسح أثري	حوض الجفر	قديم أعلى	Zeuner 1957
٤- صبرا	٨٠٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قديم أعلى	Schyle and Uerpman 1988
٥- طور عايد (ج٤٣٢)	٠٠٠٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	رأس النقب	قديم أعلى	Henry 1988
٦- موقع ج٥	٠٠٠٠+	مكشوف	مسح أثري	رأس النقب	قديم أعلى	Henry 1982
٧- موقع ج٧٤٠٣	١٠٢٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	رأس النقب	قديم أعلى	Henry 1982.1988
٨- موقع ج٤١٢	٨١٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	رأس النقب	قديم أعلى	Henry 1982,1988
٩- موقع ج٤٣٣	٠٠٠+	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	قديم أعلى	Henry 1982.1988
١٠- موقع ٦١٨	٨٠٠+ - ٨١٥	مكشوف	أسبار	وادي الحسا	قديم أعلى	Clark et at 1988
١١- موقع ٦٢٣	٨٠٠+	مكشوف	أسبار	وادي الحسا	قديم أعلى	Clark et at 1988
١٢- موقع ٦٢٣	٨٠٧+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قديم أعلى	Clark et at 1988
١٣- موقع X٧٨٤	+805	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قديم أعلى	Clark et at 1988

جدول رقم ٤ : مواقع المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١ـ الثغرة «١»	٩٨٠+ - ١٠٠٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	كبارية	Gebel 1988
٢ـ ج ٤٠٥	٩٧٨+	مكشوف	مسح أثري	رأس النقب	كبارية	Henry 1988
٣ـ ج٤٠٦ ب	٩٠٠+	مكشوف	مسح أثري	جبل كلخة	كبارية	Henry 1982,1988
٤ـ ج ٤٠٧	٩٢٢+	مكشوف	مسح أثري	رأس النقب	كبارية	Henry 1988
٥ـ ج ٥٠٤	٩٠٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	جبل كلخة	كبارية	Henry 1982,1988
٦ـ صبرا «٢»	٨٠٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	كبارية	Schyle and Uerpman 1988
٧ـ قلعة الحسا	٨٥٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	كبارية	Copeland and vita - finzi 1978
٨ـ المدمغ	٠٠٠٠+	ملجأ صخري	أسبار	البتراء	كبارية	Kirkbride 1958,1966
٩ـ موقع ٦١٨	٨١٠+	مكشوف	أسبار	وادي الحسا	كبارية	Clark et at 1987
١٠ـ موقع ١٠١٥	٨١٠+	مكشوف	أسبار	وادي الحسا	كبارية	Clark et at 1988
١١ـ ج ٢١	١٠٩٠+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٢ـ ج ٢٢	١٠٩٠+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٣ـ ج ٣١	١٠٤٠+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٤ـ ج٢٠١ ب	٨٠٠+	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1982,1985
١٥ـ ج٢٠٢	٠٠٠٠+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٦ـ ج ٢٠٣	٧٧٢+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٧ـ ج ٢٠٥	٠٠٠٠+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٨ـ الضمان	٧٦٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	البتراء	كبارية هندسية	Kirkbride 1966; Schyle and Uerpman 1988
١٩ـ قاع ام سلاب	١٠٣٩+	مكشوف	مسح أثري	الحسى	كبارية هندسية	Zenner 1957
٢٠ـ وادي رم	٩٦٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي رم	كبارية هندسية	Stanley - Price and Garrard 1975
٢١ـ البيضا	١٠٠٠+	مكشوف	حفرية	البتراء	نطوفية	Byrd 1989, Kirkbride 1966
٢٢ـ الثغرة «١»	٩٨٠+-١٠٠٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	نطوفية	Gebel 1988
٢٣ـ ج ٢	٧٠٠+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	نطوفية	Henry et al 1983
٢٤ـ ج٤٠٦ أ	٩٧٨+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	نطوفية	Henry 1988

٢٥- ج ٤٣٦	+٠٠٠٠٠	ملجأ صخري	مسح أثري	رأس النقب	نطوفية	Henry 1988
٢٦- السنخ «١»	+٩٦٠-٩٨٠	مكشوف	أسبار	البتراء	نطوفية	Schyle and Uerpman 1988
٢٧- صبرا «١»	+٨٢٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	نطوفية	Gebel 1988 Geble and Starck 1988
٨- الضمان «٢»	+٨٢٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	نطوفية	Gebel 1988
٩- الطبقة موقع ١٠٢١	+٧٠٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	نطوفية	Byrd and Rollefson 1984
١٠- وادي سليسل	+١٠١٠- ١٠٣٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	نطوفية	Gebel 1988

جدول رقم ٥ : مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- جبل القويسي	٠٠٠٠٠	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	قبل فخاري أ	Henry 1982.1985
٢- صبرا «١»	٨٢٠٠-	مكشوف	أسبار	البتراء	قبل فخاري أ	Gebel 1988
٣- الذراع	٢٠٠-	مكشوف	أسبار	وادي عربة	قبل فخاري أ	Raikes 1980: Bennet 1980
١- أبو برقة	٣٠٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Gebel 1988. Gebel et al 1985
٢- أبو نخيلة	٠٠٠٠+	مكشوف	أسبار	وادي رم	قبل فخاري ب	Kirkbride 1960. 1978
٣- أم الزرمان	٠٠٠٠-	مكشوف	مسح أثري	وادي رم	قبل فخاري ب	Zeuner 1957
٤- أم القور	٠٠٠٠+	مكشوف	مسح أثري	الحسا	قبل فخاري ب	Jobling and Tangri 1991
٥- البسطة	١٤٥٠+	مكشوف	حفرية	الطفيلة	قبل فخاري ب	Gebel et al 1988
٦- البعجة «١»	١١٢٠+ - ١١٦٠	مكشوف	أسبار	البتراء	قبل فخاري ب	Gebel et al 1985, Gebel 1988
٧- بير الطيبة	١١٢٠+ - ١١٦٠	مكشوف	أسبار	البتراء	قبل فخاري ب	Kirkbride 1966, Geble et al 1985
٨- البيضا	١٠٠٠-	مكشوف	حفرية	البتراء	قبل فخاري ب	Kirkbride 1958 - 68, 1983
٩- الثغرة	٩٨٠- - ١٠٠٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Gebel 1988
١٠- ج ٢٤	٠٠٠٠٠	ملجأ صخري	أسبار	البتراء	قبل فخاري ب	Henry 1982, 1985, 1988
١١- جابو «١»	١٠٨٠- - ١١٢٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Gebel 1988
١٢- جبل زبع	٢٥٤٠	مكشوف	مسح أثري	الحسمى	قبل فخاري ب	Vianello 1985
١٣- جرف الدرويش	٩٥٥٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Raikes 1963, 1967
١٤- خربة الحمام	٣١٠٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	Rollefson and kafafi 1986
١٥- خط الشبيب	٠٠٠٠٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Zeuner 1957
١٦- شكارة مساعيد	٩٨٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Kirkbride 1966, Gebel et al 1985
١٧- الصفية	٠٠٠٠٠	مكشوف	حفرية	وادي الموجب	قبل فخاري ب	

١٨- صبرا «١»	٨٢٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Gebel 1988
١٩- الضمان	٧٦٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Kirkbride 1966, Gebel et al 1985
٢٠- عين الجمام	١٢٠٠+	مكشوف	مسح أثري	رأس النقب	قبل فخاري ب	Bisheh et al 1993
٢١- عين القطار	٤٦٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي رم	قبل فخاري ب	Zeuner 1957
٢٢- الغوير ١	٢٨٠+ - ٣٢٠	مكشوف	حفرية	وادي فينان	قبل فخاري ب	Najjar 1994
٢٣- موقع ٤٢	٧٣٥+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald 1980, 1988
٢٥- موقع ٥٥٩	٩٢٢+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983
٢٦- موقع ٦٢	٩٢٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983
٢٧- موقع ٥٦٤	٩١٥+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983
٢٨- موقع ٦١٠	٩١٥+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983
٢٩- موقع ٩٢٤	٩٠٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983
٣٠- موقع ٩٦٥	٧٤٥+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983
٣١- موقع ١٠٠٧	٥٦٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983
٣٢- موقع ١٠٠٨	٥٧٥+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983

جدول رقم ٦ : مواقع العصر الحجري الحديث الفخاري

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- خربة الحمام أبو غراب	+٣١٠٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	فخاري «ب»	MacDonald 1988
٢- خربة ذريح و.ح.٥٢٤	+٧٠٠٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	فخاري «ب»	Bossut et al 1988 MacDonald 1988
٣- ذراع	+٢٠٠	مكشوف	تنقيب	الكرك	فخاري «ب»	Bennet 1980 Kuijet and Mahasneh 1995
٤- موقع ٨٥٧	+٩٠٥	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	فخاري «ب»	MacDonald 1988
٥- موقع ٨٧٠	+٩٣٦	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	فخاري «ب»	MacDonald 1988
٦- وادي فيدان «٦»	+٦٠٠	مكشوف	مسح أثري	وادي عربة	فخاري «ب»	Raikes 1980
٧- وادي فينان	+٢٦٠ - ٣٠٠	مكشوف	تنقيب	وادي فينان	يرموكي	Najjar et al 1991; Najjar 1994
٨- وادي الويضة	-٤٥	مكشوف	تنقيب	الكرك	يرموكي	Kuijt and Mahasneh 1995

جدول رقم ٧ : مواقع العصر الحجري ـ النحاسي

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١ـ أم سدرة	+....	مكشوف	مسح أثري	وادي الكرك	....	Worschech 1985
٢ـ تل الخرزة	+....	مكشوف	أسبار	معان العقبة	دائرية	Jobling 1983, 1984
٣ـ جبل القويسي ج٢٤	+....	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	دائرية	Henry 1982, 1985, 1988
٤ـ جبل الجيل ج١٤	+....	مكشوف	أسبار	رأس النقب	دائرية	Henry 1988; Henry et al 1983
٥ـ حجيرة الغزلان	+١٥٥٠	مكشوف	أسبار	العقبة	....	Khalil 1987
٦ـ سيل الحمام	+....	مكشوف	مسح أثري	معان العقبة	....	Jobling 1983
٧ـ المقص	+١٥٥٠	مكشوف	تنقيب	العقبة	مستطيلة	Amr' 1987
٨ـ موقع ٣٠٨	+٥٧٥	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	....	MacDonald 1988
٩ـ موقع ٦١٦ القصر	+٨٧٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	....	MacDonald 1988
١٠ـ موقع ٦٤٧	+٦٦٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	دائرية ومستطيلة	MacDonald 1988
١١ـ موقع ٨٥٨	+٩٠٥	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	دائرية ومستطيلة	MacDonald 1988
١٢ـ موقع ٨٦٦	+٩٢٢	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	دائرية ومستطيلة	MacDonald 1988
١٣ـ موقع ٩١٥	+٩٣٥	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	ثلاثة مباني مستطيلة	MacDonald 1988
١٤ـ موقع ٩٣٩	+٩٢٦	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	مستطيلة	MacDonald 1988
١٥ـ هضبة الفلا	+....	مكشوف	مسح أثري	معان العقبة	....	Jobling 1983, 1984
١٦ـ وادي فيدان٤	+.....	مكشوف	تنقيب	وادي فينان	مستطيلة	Adama and Genz 1995

المراجــع

Glueck, N., 1934 Explorations IN Eastern Palestine I. - ١

Annual OF The American Schools OF Oriental Research 14 : 1 - 118 .

Glueck, N., 1939 Exporations IN Eastern Palestine II. **AASOR:** 8 - 19 .

Kirkbride, A.,AND Harding, L., 1946 Hasma. — ٢

Palestine Exporation Quarterly 79 : 7 - 26 .

Zeuner, F., With Contribution By Kirbride, D.,AND - ٣

Park. P. C., 1957 Stone Age Exportion IN Jordan I. **PEQ** 89 : 17 - 55 .

Kirkbride, D., 1960 Ain Abu Nkeileh. **Revue Biblique** - ٤

67 : 232 - 235 .

Kirkbride, D., 1978 The Neolithic IN The Wadi Rumm : Ain Abu Nekheileh. Pp. 1 - 10 IN **Archaeology IN The Levant. Essays For Kathleen Kenyon.** Edit Roger MooreyAND Peter Parr. Warminster : ArisAND Phillips Ltd.

STANLEY - PRICE, N. P.,AND Garrard, A.. 1975 A - ٥
Prehistoric Site IN The Wadi Rumm Area OF The Hisma
Annual OF The Department OF Antiquities OF Jordan 20
: 91 - 98 .

Gebel, H. G., 1988 Late Epipalaeolithic - Aceramic - ٦
Neolithic Sites IN Petra Area. IN : Garrard, A.,AND Gebel H.
G. (Eds) : **The Prehistory OF Jordan** : 101 - 134 . Bar,
Intern. Series 396. Oxford.

Gebel, H., G.AND Starch, J. M., 1985 Investigations IN to
The Stone Age OF The Petra Area (Early Holocene
Research). A Preliminary Report On The 1984 Campaigns.
ADAJ 29 : 89 - 114 .

Schyle, D.,AND Uerpman. H. P., 1988 Palaeolithic - ٧
sites IN The Petra - Area . IN : Garrard, A.,AND Gebel H., G.
(Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** 39 - 65. Bar. Intern.
Series 396. Oxford.

Miller, J., 1979 Archaeological Survey South OF - ٨
Wadi Mujib. **ADAJ** 23 : 79 - 92.

MacDONALD, B., Banning E.AND Pavlish, L., 1980 - ٩

The Wadi El Hasa Survey 1979 : A Preliminary Report. **ADAJ** 24 : 169 - 183 .

MacDONALD, B., Rollefson, G.AND Roller, D., 1982 The Wadi El Hasa Survey 1981 : A Preliminary Report. **ADAJ** 26 : 117 - 131 .

MacDONALD, B., 1983 The Wadi El Hasa Survey 1982 : A Preliminary Report. **ADAJ** 7 : 311 - 323 .

Mac Donald. B., 1988 **The Wadi El Hasa Archaeological Survey 1979 - 1983 , West - Central Jordan .** Wilfrid Laurier University Press .

Clark, G., Lindly, J., Donaldson. M., Garrard, A., Coinman N., Schuldenrein. J., Fish, S.AND Olzewski, D., 1988 Excavations At Middle, UpperAND Epipalaeolithic Sites IN The Wadi Hasa. West - Central Jordan. IN : Garrard, A.,AND GEBEL , H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** : 209 - 285 Bar. Intern Series 396. Oxford.

Clark, G. A., Neeley, M. P., MacDONALD, B., – ١٠

Schuldenrein, J.AND Amre, Kh, 1992 Wadi A Hasa Paleolithic Project 1992 : Preliminary Report. **ADAJ** 36 : 13 - 23 .

Clark, G. A. Olszewski, D. I. Schuldenrein, J., **Rida**. **N**.AND Eighm. J. D., 1994 SurveyAND Excavation IN Wadi A Hasa : Preliminay Report Ot The 1993 Field Season. **ADAJ** 38 : 41 - 55 .

١١ - Henry, D., 1979 Palaeolithic Sites Within Theras En - Naqb Basin, South Jordan. **ADAJ** 23 : 93 - 99 .

Henry, D., 1979 Palaeolithic Sites Within Theras En - Naqb Basin, South Jordan. **PEQ** 111: 79 - 85 .

Henry . D., 1982 The Prehistory OF Southern JordanAND Relationships WITH The Levant . **Journal OF Field Archaeology 9/4 : 417 - 47 .**

Henry. D., 1988 Summary of Prehistoric AND Palaeoenvironment Research IN Northern Hisma. IN : Garrard, A.,AND Gebel, H. - G. (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** : 7 - 37 Bar. Intern Series 396. Oxford.

١٢ - Henry, D., 1982 The Prehistory OF Southern Jordan and Relationships with The Levant. **Journal OF Field Archaeology 9/4 : 417 - 47 .**

١٣ - فرجات ، سليمان ١٩٩٣ نظام الري عند الأنباط في منطقة الحميمة ، حولية دائرة الآثار العامة ٣٥ : ١٧ - ٣٠ .

Bisheh.G. Farajat. S., Palumbo. G.AND Waheeb. - ١٤

M.. 1993 Archaeological Rescue Survey OF The Ras An - Naqab - Aqaba Highway Alignment 1992. **ADAJ** 37 : 119 - 133 .

-Jobling W. J., 1982 Aqaba - Ma'an Survey, January - ١٥

February 1981 . **ADAJ** 26 : 199 - 209 .

Jobling. W. J., 1983a The 1982 ArchaeologicalAND Epigraphic Survey of the Aqaba - Ma'an Area OF Southern Jordan. **ADAJ** 27 : 185 - 196 .

Jobling. W., J., 1983b Preliminary Roport ON THE Fourth Season OF The Aqaba - Ma'an ArchaeologicalAND Epigraphic Survey, 1982 - 1983 . **ADAJ** 27 : 197 - 209 .

Jobling. W., J., 1984 The Fifth Season OF The Aqaba - Ma'an Survey 1984. **ADAJ** 28 : 191 - 202 .

Fobling. W. J., 1985 Preliminary Report OF The Sixth Season OF The Aqaba - Ma'an EpigraphicAND Archaeological Survey. **ADAJ** 29 : 211 - 220 .

١٦ - سليمان ، امصيطف ١٩٨٧ **تقرير عن نتائج المسح الأثري لمنطقة جنوب معان** . تقرير غير منشور في سجلات دائرة الآثار لعامة (قسم التسجيل) .

١٧ — Muheisen, M., 1988 **Le Paléolithique Et L'epipaleplithique en Jodanie** Teèse de Doctorat University OF Bordeaux I.

١٨ - Betts, A., 1987 The Walmesley White Collection : Flint FROM North Arabian Prehistoric Sites. **PEQ** 118 : 122 - 28.

١٩ - Jacobs, L. K., 1983 Survey of The South Ridge of The Wadi Isal. 1981 . **ADAJ** 27 : 245 - 274 .

٢٠ - Worschech. U., 1985 Preliminary Report ON THE Third Survey IN THE North - West Ard- El Kerak 1985 **ADAJ** 29 : 161 - 173 .

Rollefson, G., 1985 Description of the Chipped Stone Artifacts FROM THE Moab Survey (Worschech). **Biblische Notizen Beiheft** 2 : 78 - 85 .

Rollefson. G., 1986 Chipped Stone Articacts From Two Prehistoric Sites From The Moab Survey (Worschech) **Zeitschrift Des Deutschen Palastina - Vereins** 102 : 53 - 67

٢١ - Raikes T. D., 1980 Notes On Some Neolithic and Later Sites IN Wadi Araba and the Dead Sea Valley

LEVANT 12 : 40 - 60 .

Kouchy, F. L. and MacDONALD, B., 1985 The - ٢٢
Northeast Araba Archaeological Reconnaissance Survey, 1985. **ADAJ** 29 : 293 - 94.

MacDONALD, B., Clark, G., Neeley, M., Adams, R.,AND Gregory, M., 1987 Southern Ghors and Northreast Arabah Achaeological Survey 1986. Jordan A Preliminary Report. **ADAJ** 31 : 391 - 418 .

Hauptmann, A.,AND Weisgerber, G., 1987 — ٢٣
Archaeometallurgical and Mining - Archaeological Investigations IN THE Area OF Feinan, Wadi Araba (Jordan). **ADAJ** 31 : 419 - 38 .

Kirkbride,D., 1960 Ain Abu Nkeileh. **Revue** — ٢٤
Biblique 67 : 231 - 232 .

Kirkbride, D., 1978 The Neolithic IN THE Wadi Rumm : Ain Abu Nkheileh. Pp. 1 - 10 IN **Archaeology IN THE Levant, Essays For Kathleen Kenyon** Edit. By Roger MooreyAND Peter Parr. Warminster, : ArisAND Phillips Ltd.

Kirkbride, D., 1966a Five Seassons AT THE Pre - - ٢٥
Pottery Neolithic Village Beibha IN Jordan. **PEQ** 98: 8- 72 .

Henry, D., 1979 Palaeolithic Sites within The Ras En - ٢٦

- Naqb Basin, Southern Jordan. **PEQ** 111 : 79 - 85 .

Henry, D., 1982 The Prehistory OF Southern JordanAND Relationships WITH The Levant. **Journal OF Field Archaeology** 9 : 417 - 44 .

Henry, D., 1988 Summary of PrehistoricAND Palaeonvironmental Research in The Northen Hisma IN : Garrad. A.,AND Gebel, H. - G. (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan :** 7 - 37 Bar, Intern. Series 396. Oxford. B. A. R.

Henry. D., Hassan. E. Jones. M.AND Henry. K. C., 1981 An Investigation OF THE PrehistoryAND Palaeonvironments OF Southern Jordan (1979 Field Seasson). **ADAJ** 25 : 113 - 46 .

Bennet, C., 1980 Soundings At Dhra, Jordan. – ٢٧

Levant 12 : 30 - 39 .

Kuijt, I.,AND Mahasneh, M., 1995 Dhra'AND Ain -٢٨

Waida.. **American Journal OF Arachaeology** 99/3 : 504 - 5 .

Gebel. H. - G., 1988 Late Epipalaeolithic - Aceramic - ٢٩

Neolithic Sites in Petra. IN : Garrad. A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** : 67 - 100 . Bar. Intern. Series 396. Oxford.

Clarck. G., Lindly.J., Donaldson, M., Garrard, A., - ٣٠

Coinman. N., Schuldenrein. Fish. S.AND Olszewski, D., 1988 Excavations at Middle, UpperAND Epipalaeolithic Sites at Wadi Hasa, West - Central Jordan IN : Garrard, A.,and Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan :** 209 - 85 Bar. Intern. Series 396 . Oxford.

Khalil, L., 1987 Preliminary Report ON THE 1985 - ٣١

SEASON OF Excavation At Maqass - Aqaba, **ADAJ** 31 : 481 - 84 .

Nissen. H., Muheisen. M.,AND Gebe., H. 0- G., - ٣٢

With Contributions By Becker, C., Neef. R., Pachur. H., Qadi. N.AND Schult, A., 1987 Report ON THE First Two Seasons At Basta (1986 - 1987). **ADAJ** 31 : 79 - 119 .

Najjar, M., Abu Dayya, A., Suleiman, E., - ٣٣

Weisgerber, G.AND Huptmann. A., 1991 Tell Wadi Feinan : The First Pottery NEOLITHIC Tell in The South OF Jordan. **ADAJ** 34 : 27 - 56 .

Najjar. M., 1994 Ghuwair I, A Neolithic Site IN - ٣٤

Wadi Feinan. IN : Kerner, S., (Ed.) : **The Near East IN**

Antiquity. German Contributions TO THE Archaeology OF Jordan , Palestine, Syria, LebanonAND Egypt. Vol. 111 : 75 - 85 .

Muheisen M. 1988 **Le Paléolithique et** ـ ٣٥

Epipale'olithique EN Jordanie . Thèses de Doctorat Es - Seience. Universite De Bordeaux I.

مجاهد الحيسن ١٩٩٣ الثقافة الأشولية في الأردن ١٥٠٠٠٠ ـ ٩٠٠٠٠ . **مجلة**

أبحاث اليرموك المجلد التاسع، العدد الرابع : ١٥٣ ـ ١٨١ .

Bender, F., 1974 **Geology OF Jordan.** Berlin. ـ ٣٦

Zeuner. F., with Co - Operation By Kirkbride, ـ ٣٧

D.,AND Park. P. C., 1957 Stone Exploration IN Jordan. I. **PEQ** 89 : 17 - 55 .

Rollefson, G., 1981 A Late Acheulian Site At Fjaje, ـ ٣٨

Wadi EL Bustan, Southern Jordan. **Paléorient** 7/1 : 5 - 21.

Rollefson, G., 1985 Late Pleistocene EnvironmentsAND Seasonal Hunters Stratigies : A Case Study From Fjaje, NEAR Shobak, Southern Jordan. **Studies IN The History and Archaeology of Jordan** 2 : 103 - 107 FIGS.

Henry, D., 1982 The Prehistory of Southern – ٣٩

JordanAND Relationships with the Levant. **Journal OF Field Archaeology** 9/4 : 417 - 444 .

Henry, D., 1988 Summary OF PrehistoricAND Palaeonvironmental Research in the Northern Hisma. IN : Garrar, A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan.** Bar, Intern. Series 96 : 7 - 37 Oxford, B. A. R.

Henry, D., 1982 The Prehistory OF Southern – ٤٠

JordanAND Relationships with the Levant. **Journal OF Field Archaeology** 9/4 : 417 - 444 .

Henry, D., 1988 Summary OF Prehistoric and Palaeonvironmental Research in The Northern Hisma. IN : Garrar, A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan.** Bar, Intern. Series 396 : 7 - 37 . Oxford. B. A. R.

Clark. G., Lindly, J., Donaldson, M., Garrard, A., - ٤١

Coinman, N., Schuldenrein, J., Fish, S.AND Olszewski, D., 1988 Excavations at Middle, UpperAND Epipalaeolithic Sites in The Wadi Hasa, West - Central Jordan. IN : Garrard, A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** Bar. Intern. Series 396 : 209 - 285 . Oxford. B. A. R.

Clark. G., Lindly, J., Donaldson, M., Garrard, - ٤٢

A., Coinman, N., Schuldenrein, J., Fish, S.and Olszewski, D., 1987 Excavations at Middle, UpperAND Epipalaeolithic Sites in the Wadi Hasa, West - Central Jordan. IN : Garrard, A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** Bar. Intern. Series 396 : 209 - 285 . Oxford. B. A. R.

Clark. G., Lindly, J., Donaldson, M., Garrard, A., Coinman, N., Schuldenrein, J., Fish, S.and Olszewski, D., 1988 Excavations At Middle, Upper and Epipalaeolithic Sites IN the Wadi Hasa, West - Central Jordan. IN : Garrard, A.,and Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** Bar. Intern. Series 396 : 209 - 285 . Oxford. B. A. R.

Clark. G., Lindly, J., Donaldson, M., Garrard, A., - ٤٣

Coinman, N., Schuldenrein, J., Fish, S.and Olszewski, D., 1988 Excavations AT Middle, Upper and Epipalaeolithic Sites IN THE Wadi Hasa, West - Central Jordan. IN : Garrard, A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** Bar. Intern. Series 396 : 209 - 285 . Oxford. B. A. R.

Clark. G., Lindly, J., Donaldson, M., Garrard, A., - ٤٤

Coinman, N., Schuldenrein, J., Fish, S.AND Olszewski, D.,

1988 Excavations At Middle, UpperAND Epipalaeolithic Sites IN THE Wadi Hasa, West - Central Jordan. IN : Garrard, A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan** Bar. Intern. Series 396 : 209 - 285 . Oxford. B. A. R.

Kirkbride. D., 1966 Five Seasons At The Pottery – ٤٥

Neolithic Village Beidha IN Jordan. **PEQ** 98 : 8 - 72 .

Henry. D., 1982 The Prehistory OF Southern Jordan - ٤٦

and Relationships with The Levant. **Journal of Field Archaeology** 9/4 : 417 - 44 .

Henry. D., 1988 Summary of Prehistoric and Palaeonvironmental Research IN THE Northern Hisma. IN : Garrard. A.,and Gebel H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan.** Bar. Intern. Series 396 : 7 - 37 Oxford. B. A. R.

Henry. D., 1982 The Prehistory OF Southern – ٤٧

JordanAND Relationships with the Levant. **Journal OF Field Archaeology** 9/4 : 417 - 44 .

Henry. D., 1988 Summary of PrehistoricAND Palaeonvironmental Research in the Northern Hisma. IN : Garrard, A.,AND Gebel H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF**

Jordan. Bar. Intern. Series 396 : 7 - 37 Oxford. B. A. R.

Gebel, H. G., 1985 Late Epipalaeolithic - Aceramic - ٤٨
Neolithic Sites IN Petra Area. (Early Holocene Research). A Preliminary Report on the 1984 Campaignes. **ADAJ** 29 : 89 - 114.

Gebel. H. - G., 1988 Late Epipalaeolithic - Aceramic Neolithic Sites in the Petra Area. IN : Garrard. A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan.** Bar. Intern. Series 396 : 67 - 100 . Oxford. B. A. R.

Byrd, B.,And Rollefson, G., 1984 Natufian — ٤٩
Occupation IN THE Wadi El - Hasa, Southern Jordan. **ADAJ** 228 : 143 - 50 .

Kirkbride, D., 1958 A Kebaran Rockshelter in Wadi - ٥٠
Madamagh, Near Petra, **Man** 58 : 55 - 58 .

Kirkbride, D., 1966 Five Seasons At The Pre - Pottery Neolithic Village Beidha IN Jordan . **PEQ** 98 : 8 - 72 .

Schyle. D.,AND Uerpmann. H. - P., 1988 Palaeolithic Sites IN Petra Area. IN : Garrard, A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehisotory of Jordan** Bar Intern. Seires 396 : 39 - 65 Oxford. B. A. R.

٥١ - Bennet. C., 1980 Soundings At Dhra, Jordan. **Levant** 12 : 30 - 39 .

Raikes. T. D., 1980 Notes on Some Neolithic and Later Sites IN Wadi ArabaAND THE Dead Sea Valley, **Levant** 12 : 40 - 60.

Kuijt, I.,and Mahasneh, M., 1995 Dhra' and Ain Waida. **American Joural of Archaeology** 99/3: 504 - 5 .

٥٢ - Kirkbride, A.,AND Harding, I., 1947 Hasma. **PEQ** 79 : 7 - 26 .

٥٣ - Stekelis, M., 1947 Hasma. **PEQ** 79 : 26 - 27 .

٥٤ - Kirkbride, D., 1960 Ain Abu Nkeileh. **Revue Biblique** 67 : 231 - 232 .

Kikbrid, D., 1978 The Neolithic on the Wadi Rumm : Ain Abu Nekheileh. Pp. 1 - 10 IN **Archaeology IN THE Levant, Essays For Kathleen Kenyon.** Edit. By Roger Moorey and Peter Parr. Warminster : ArisAND Phillips Ltd.

٥٥ - Nissen. H., Muheisen. M.,and Gebe., H. 0- G., with Contributions by Becker, C., Neef. R., Pachur. H., Qadi.

N.and Schult, A., 1987 Report on the First Two Seasons at Basta (1986 - 1987). **ADAJ** 31 : 79 - 120 .

Nissen. H., Muheisen. M.,and Gebe., H. 0- G., WITH Contributions BY Becker, C., Neef Hermansen. D., Karasneh. W., Qadi, N. Schults, M.,and Scherer, A., 1991 Report On the First Two Seasons at Basta (1986 - 1987). **ADAJ** 315 : 13 - 40 .

Kirkbride, D., 1960a A Short Account of the – ٥٦

Excavations at Petra IN 1955 - 56. **ADAJ** 4 - 5 : 117 - 22 .

Kirkbirde,D., 1960b The Excavation of A Neolithic Village AT Seyle Aqlat, Beidha, Near Petra. **PEQ** 92 : 136 - 145 .

Kirkbirde,D., 1962 Excavation of THE Prepottery Neolithic Village at Seyl Aqlat, Beidha. **ADAJ** 6 - 7 : 7 - 12 .

Kirkbirde,D., 1963 Seyl Aqlat, A Pre - Pottery Village near PETRA. **Illustrated London News** January 19 : 82 - 84 .

Kirkbride, D., 1966a Five Seasons at the Pre - Pottery Neolithic Village Beidha in Jordan. **PEQ** 98 : 8 - 72 .

Kirkbirde,D., 1966b Beidha. An Early Neolithic Village Jordan. **Archaeology** 19/3 : 199 - 207 .

Kirkbride, D., 1966e Beidha 1965 Campaigns. **Archaeology** 19/4: 268 - 272 .

Kirkbride, D., 1967 Beidha 1965 An Interim Report. **PEQ** 99 : 5 - 13 .

Kirkbride, D., 1968 Beidha 1975 An Interim Report. **PEQ** 100 : 90 - 96 .

Kirkbride, D., 1968 Beidha Early Neolithic Village, Life South of the Dead Sea. **Antiquity XLII :** 263 - 74 .

Kirkbride, D.,1984 The Environment of the Petra Region During THE Pre - Pottery Neolithic **Studies OF The History AND Archaeology OF Jordan** 2 : 117 - 124 .

Mortensen. P., 1970 A Preliminary Study of the - ٥٧

Chipped Industry FROM Beidha **Acta Archaeologia** 41 : 1 - 54.

Mortensen. P., 1988 A Note on A Small Box WITH Blades and Arrowheads from beidha and Implications. IN : Garrad, A.,and H. Gebel. (Eds.). **The Prehistory of Jordan.** Bar. Intern Series 396 : 199 - 207 . Oxford. B. A. R.

Perkins. D., Jr., 1966 The Fauna From Madamagh - ٥٨

AND Beidha . A Preliminary Roport. **PEQ** 98 : 66 - 67 .

Gebel, H. G., 1985 Late Epipalaeolithic - Aceramic - ٥٩

Neolithic Sites in Petra Area. (Early Holocene Research). A

reliminary Report on the 1984 Campaignes. **ADAJ** 29 : 89 - 114.

Gebel. H. - G., 1988 Late Epipalaeolithic - Aceramic Neolithic Sites in the Petra Area. IN : Garrard. A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan.** Bar. Intern. Series 396 : 67 - 100 . Oxford. B. A. R.

Henry. D., O., 1982 The Prehistory of Southern -١٠
Jordan AND Relationships with the Levant. **Journal of Field Archaeology** 9/4 : 417 - 47 .

Henry. D., 1988 Summary of Prehistoric and Lalaeonvironmental Research in THE Northern Hisma. in : Garrard, A.,AND Gebel H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan.** Bar. Intern. Series 396 : 7 - 37 Oxford. B. A. R. Intern. Series 396 . Oxford. B . A. R.

Gebel, H. G., 1985 Late Epipalaeolithic - Aceramic -١١
Neolithic Sites in Petra Area. (Early Holocene Research). A Preliminary Report ON THE 1984 Campaignes. **ADAJ** 29 : 89 - 114.

Gebel. H. - G., 1988 Late Epipalaeolithic - Aceramic Neolithic Sites in The Petra Area. in : Garrard. A.,and Gebel.

H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan.** Bar. Intern. Series 396 : 67 - 100 . Oxford. B. A. R.

١٢ - Kirkbride, D., 1966 Five Seasons at the Pre - Pottery Neolithic Village Beidha IN Jordan. **PEQ** 98 : 8 - 72 .

Gebel. H. - G.,AND Starck. J. M., 1985 Investigations in to The Stone Age OF THE Petra Area (Early Holocene Researchg). A Preliminary Report on the 1984 Campaignes. **ADAJ** 29 : 89 - 114.

Gebel, H. - G., 1988 Lateepipalaeolithic - Aceramic Neolithic Sites in the Petra Area. IN : Garrard. A.,AND Gebel H. - G., (Eds.): **The Prehistory of Jordan.** Bar. Intern. Series 396 : 67 - 100. Oxford. B. A. R.

Schyle, D.,and Uerpmann. P. - H., 1988 Palaeolithic Sites in the Petra Area in : Garrard. A.,and Gebel H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan.** Bar Intern. Series 396 : 39 - 65 . Oxford. B. A. R.

١٣ - Mac Donald, B., 1980 The Wadi El Hasa Survey . 1980 A Preliminary Report. **ADAJ** 24 : 169 - 183 .

١٤ - Rollefson, G.,and Kafafi. Z., 1985 Dhirbet Hammam: ; A PPNB Village in the Wadi EL Hasa. Southern

Jordan **Bulletin of the American Schools of Oriental Research** 258 : 63 - 69 .

Najjar, M., 1994 Ghuwair I. A Neolithic Site IN - ١٥

Wadi Feinan. IN : Kerner, S., (Ed.) : **The Near East in Antiquity.** German Contributions to THE Archaeology OF Jordan. Palestine. Syria, Lebanon.and Egypt. Vol. III : 75 - 85.

Bennet. C., 1980 Soundings at Dhra, Jordan. **Levant** - ١٦

12 : 30 - 39 .

Raikes T. D., 1980 Notes ON Some Neolithic AND Later Sites IN Wadi Araba and the DEAD Sea Valley . **Levant** 12 : 40 - 60 .

Hauptmann. A.,and Wwisgerber, G., 1987 — ١٧

Archaeometallurgical and Mining Archaeological Investigations in the Area OF Feinan, Wadi Araba (Jordan.) **ADAJ** 31 : 419 - 437 .

Najjar. M., Abu Dayya A., Suleiman. E., — ١٨

Weisgerber, G.,AND Haubtman. A., 1993 Tell Wadi Feinan The First Pottery Neolithic Tell in the Southern of Jordan. **ADAJ** 34 : 17 - 56 .

Najjar, M., 1992 The Wadi Feinan / Wadi Araba: A New Pottery Neolithic Site FROM Jordan in Kerner, S., (Ed.) : **The Near East IN Antiquit.** German Contributions TO THE Arachaeology of Jordan. Palestine, Syrian Lebanon AND Egypt. Vol. III : 19 - 28 .

Khalil, L., 1987 Preliminary Report On The 1985 –٦٩
Seaseon of Excavation at El - Maqass Aqaba . **ADAJ** 31 : 481 - 84 .

Khalil. L., 1988 Excavation at EL Maqass - Aqaba 1985 . **Dirasat** 15/7: 77 - 117 .

Khalil, L., 1992 Some Technological Features FROM A Chalcolithic Site At El Maqass Aqaba **SHAJ** 4 : 143 - 48 .

Vianello E., 1985 LA Preistoria NEL Deserto **L'** –٧٠
Unverso 56/1 : 71 - 89 .

Adams R.AND Genz II., 1995 Excavations at Wadi -٧١
Fidan 4 : A Chalcolithic Village Complex in the Copper Ors District OF Feinan, Southern Jordan. **PEQ** 172 : 8 - 20 .

إشكالية مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك

الخاص

بتحطيم الأيقونات ومدى تأثيره في سياسة

الامبراطور ليو الثالث اللاأيقونية

د. عبد الرحمن محمد العبد الغني

جامعة الكويت

تذهب بعض الروايات التاريخية إلى أن الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥هـ / ٧١٩ ـ ٧٢٣م) ، قد أصدر مرسوماً بتحطيم الأيقونات[1] في الكنائس والأديرة الواقعة في داخل الدولة الإسلامية .

وانقسم الباحثون المعنيون بهذه المسألة إلى فريقين ، الأول يشك في صدور مثل هذا المرسوم ، ويعد مثل هذه الروايات وهماً لا أساس تاريخي لها . أما الفريق الثاني فيكتفي بالقول إن هذا المرسوم حقيقة تاريخية لايرقى الشك إليها ، بل يذهب إلى أنه كان لهذا المرسوم تأثير كبير في بيزنطة بحيث تبنى أحد الأباطرة المعاصرين ليزيد وهو ليو الثالث الأيسوري (٧١٧ ـ ٧٤١م / ٩٩ ـ ١٢٤هـ) سياسة معادية للأيقونات .

أما وقد تضاربت الآراء حول هذا الموضوع المثير الذي يغري بالبحث والدرس فقد ولجناه لابهدف القطع الحاسم اثباتاً أو نفياً ، بقدر ما نطمح إليه من طرح الإشكالية وتوصيفها توصيفاً علمياً رصيناً ، لذلك سنقوم على رصد كل النصوص المتاحة ومناقشة مضمونها بما يحقق غرض الباحث .

أشارت المصادر التي تناولت عهد الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك إلى قيامه بتحريم وضع الأيقونات في الكنائس في الدولة الإسلامية . ومن المعروف أن الإسلام وقف واضحاً من مسألة التصوير كما سيتضح بعد قليل ، ولكن الأمر الذي يثير الحيرة هو ، لماذا أصدر خليفة من خلفاء المسلمين مرسوماً بتحريم تقليد منتشر في الكنيسة المسيحية ؟ ولماذا كل توقيت هذا المرسوم في عهد يزيد ، ولم يصدر قبل ذلك؟ وما أثر هذا المرسوم في مرسوم آخر مماثل له صدر في عهد الامبراضور البيزنطي ليو الثالث ؟ وهو المرسوم الذي بدأت به الحركة اللاأيقونية في عصر الأسرة الايسورية. إن التوصل إلى اجابات شافية عن هذه التساؤلات تشكل القضية الأساسية لهذه الدراسة .

ذلك أن الامبراضورية البيزنطية شهدت في القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) حركة إصلاحية دينية واسعة استهدفت تحريم عبادة الأيقونات . وأطلق

على هذه الحركة اسم الحركة اللاأيقونيــة Iconoclasm ــ أي سياســة تحريــم الأيقونـات[١] . ويرجـع بعـض الدارسـين إلى أن هنـاك أسـباباً ودوافـع اقتصاديــة واجتماعية أدت إلى هذه الحركة ، ومنها رغبة أباطرة تحطيم الأيقونات إلى تقليم أظافر المؤسسات الدينية والأديرة التي كانت قد أثرت ثراء فاحشاً . وخشيتهم من تحول البيزنطيين إلى عبادة الأصنام والرموز الوثنية [٢] . وعلـى الرغـم مـن أن المؤرخين اهتموا بهـذه الحركـة ــ الـتي امتـدت مـابين ٧٢٦ ــ ٨٣٤م / ١٠٨ ــ ٢٢٩هـ ــ اهتماماً كبيراً ، فإنهم لم يهتموا كثيراً بالربط بينها وبين المرسوم الـذي أصدره يزيد بن عبد الملك قبل ذلك بسنوات قليلة ، بل لم يحظ المرسوم نفسه إلا بقليل من الاهتمام من جانب المؤرخين الحديثين [٣] . وسنحاول في هذه الدراسة الربط بين هذين الأمرين في ضوء موقف الاسلام مـن التصوير ، وذلـك قبـل أن نتتبع ماجاء في المصادر من نصوص ذات علاقة وثيقة بهذه القضية ، بغية مقارنـة ماجاء فيها مع بيان أثر الإسلام في سياسة تحريم الأيقونـات في عهـد الامـبراطور ليو الثالث .

ذلك أنه من المعروف أن الإسلام وقف موقفاً معارضاً من تصوير الكائنـات الحية أو عمل تماثيل لها . ومع أننا لانجد نصاً صريحـاً في القـرآن الكريـم ينهـى أو يبيح تصوير الكائنات الحية آدمية كانت أم حيوانيـة ، إلا أننـا يجـب أن نـأخذ في الحسبان ماجاء في الأحاديث النبوية بشـأن موقـف النهـي عـن التصويـر . حيـث وردت بعض الأحاديث النبوية التي تنفر من تصويـر الكائنـات الحيـة وتنهـى عـن عمل تماثيل لها [٤] .

ومن هذه الأحاديث ماورد في البخاري « أن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامـة المصـورون » [٥] . لـذ صـار المصـورون مغضوبـاً عليهـم مـن الفقهـاء .

وعرضة لسخطهم وسخط المجتمع [٦] .

وكانت بعض هذه الأحاديث تخص صوراً وجدت داخل الكعبة ، حيث أن بعضها عبرت عن صور لبعض الأنبياء والشجر والملائكة ، من هذه الصور صورة للسيد المسيح عليه السلام وأمه السيدة العذراء [٧] . لذلك أمر الرسول الكريم بإزالة جميع الصور المعلقة واعتبرها من التي حاربها الإسلام ونهى عن عبادتها .

وقد جاء في السيرة النبوية لابن هشام « أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح ، فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم .. فأمر بتلك الصور كلها فطمست»[٨]. أما الأزرقي فيذكر رواية تفيد أن الرسول ﷺ قد أبقى على صورتي المسيح عليه السلام وأمه السيدة العذراء[٩] .

على أية حال ، لم يذهب المسلمون في أول عهدهم بالإسلام بعيداً في كراهيتهم للتصوير ، والدليل على ذلك الحديث الذي أورده البخاري ، من أن السيدة عائشة قالت : « قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سترت بقرام[١٠] لي على صهوة[١١] لي فيها تماثيل فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه ، وقال أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله ، قالت فجعلناه وسادة أو وسادتين[١٢] ونرى هنا أن غضب رسول الله ﷺ يسكن عندما صنعت السيدة عائشة من القرام وسادة أو وسادتين استعملها النبي الكريم نفسه و لم يبال بالصور التي فيها ، وذلك لأنها غير محرمة لذاتها[١٣] .

ويبدو أن مبررات النهي عن التصوير لم يقصد بها منع رسم مايشابه خلق الله ، وإنما كان للنهي هدف آخر وهو حماية المسلمين ــ الذين كانوا في أوائل عهدهم بالإسلام ـ من شبهة الوثنية وعبادة الأصنام .

وعلى هذا فإن التصوير في حد ذاته غير ممنوع ، إلا إذا تعرض لشيء فيه روح ، والدليل على ذلك أن ابن عباس أجاز التكسب من صناعة التصوير[١٤] .

ونستخلص مما سبق : أن الإسلام لم ير في التصوير شيئاً محرماً ، إلا إذا تعرض لشيء فيه روح ، أو لصناعة تماثيل بغرض عبادتها دون الله ، أو مضاهاة ماخلق الله من مخلوقات . وقد اتفق رأي كثيرين من المفسرين والفقهاء على أن الهدف من النهي عن التصوير هو ابعاد المسلمين عن عبادة الأصنام التي كانت منتشرة بين العرب قبل الإسلام ، وجوازه إذا قصد به الزينة المباحة[١٥] .

وهناك من يقول : إن النهي عند المسلمين قد تأثر بموقف الديانة اليهودية التي تحرم هي الأخرى الصور في المعابد اليهودية ، وأن المسلمين قد تأثروا ببعض اليهود الذين أسلموا[١٦] . ولكن من الثابت أن المسلمين لم يرسموا أو يزينوا مساجدهم بشيء من هذا القبيل ، و لم يعرفوا الصور المقدسة منذ مجيء الاسلام وحتى وقتنا الحاضر .

وننتقل في ضوء ماسبق لنتتبع ماجاء في المصادر على اختلافها عن مرسوم يزيد بن عبد الملك الذي نص على تحريم الأيقونات في الكنائس والأديرة الواقعة داخل الدولة الإسلامية .

والواقع أنه في دراستنا للمصادر البيزنطية لابد من الإشارة إلى رسالة البطريرك جرمانوس Germanus ، لأنه كان معاصراً للحركة اللاأيقونية ، إذ تولى كرسي بطريركية القسطنطينية في الفترة ٧١٥ إلى ٧٣٠م (٩٧ ــ ١١٢هـ) وقد كتب جرمانوس رسالة إلى توماس أسقف كلاديوس Thomas of Cloudis Polis وهو أحد الاساقفة اللاأيقونيين في آسية الصغرى ، وذلك حوالي سنة ٧٢٤م / ١٠٦هـ .

وترجع أهمية هذه الرسالة التي وصلتنا ضمن أعمال وقرارات المجمع المسكوني السابع الذي انعقدت جلساته في نيقية عام ٧٨٧ / ١٧١هـ[١٧] . إلى أنها تتضمن هجوماً على اليهود لموقفهم المعادي للصور ، فضلاً عن انتقاد المسلمين للسبب نفسه ، رغم تقديسهم للحجر الأسود على حد قوله[١٨] .

وهكذا عبّر البطريرك في هذه الرسالة عن موقفه المعادي للسياسة اللاأيقونية للامبراطور ليو الثالث ، حتى أنه رفض التوقيع على مرسوم التحريم الذي أصدره هذا الامبراطور عام ٧٣٠م / ١١٢هـ ، مما أدى إلى عزله من منصبه[١٩] .

على أن أهم مصدر في التاريخ البيزنطي يتناول جذور الحركة اللاأيقونية في الامبراطورية البيزنطية والتأثيرات اليهودية والإسلامية فيها ، هو تقرير الأسقف يوحنا المقدسي John of Jerusalem الذي كان نصيراً للأيقونات ، وممثلاً لاسقفيات آسية الصغرى في المجمع ، والذي قرأه في الجلسة الخامسة للمجمع المسكوني السابع السابق ذكره[٢٠] . وقد بدأ الأسقف يوحنا تقريره بالإشارة إلى أن انتشار تيار تحريم عبادة الأيقونات في الامبراطورية البيزنطية إنما يرجع إلى انتقال « وباء التحريم » من الدولة الاسلامية إلى بيزنطة ، وذكر في تقريره أن الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك كان طائشاً يفتقر إلى الحكمة وبعد النظر ، وأن أحد العرافين اليهود ويدعى بذي الأربعين ذراعاً قد جاءه في أحد الأيام ليقرأ له طالعه ، فقال له : « سوف تبقى في ملكك ثلاثين عاماً إذا اتبعت نصيحتي ، فانفرجت اسارير الخليفة وأجابه أنه على استعداد تام للعمل بما يقترحه عليه ، فقال له العراف اليهودي : « أصدر الأوامر في الحال واكتب منشوراً إلى جميع أرجاء الخلافة تنص على تحريم وتحطيم كل شكل من اشكال التصوير سواء أكان على ألواح خشبية أم على حوائط مزينة بالفسيفساء ، أو على آنية مقدسة

أو على النسيج الذي يغطي الهياكل المقدسة في الكنائس » . ويمضي التقرير قائلاً أن الخليفة يزيد استجاب للعراف ، وأرسل مبعوثين بمرسوم لتحطيم وإزالة الأيقونات من الكنائس القائمة في أقاليم الخلافة(٢١) .

وهكذا نجم عن نصيحة هذا العراف اليهودي أن تم تجريد الكنائس المسيحية من كل ما فيها من الأيقونات . وقد حدث كل هذا قبل أن ينتشر تيار تحريم وتحطيم الأيقونات في الامبراطورية البيزنطية(٢٢) . ويوضح التقرير أن المسيحين اضطروا إلى الهرب من كنائسهم فقام الولاة بتكليف اليهود والمسلمين بالقيام بمهمة تحطيم وإزالة الأيقونات كما قاموا بطلاء جدران الكنائس وكشط ماعليها من صور .

ويفهم من هذا التقرير ايضاً أن التيار المناهض لعبادة الأيقونات انتشر بعد ذلك بسرعة في الامبراطورية البيزنطية ، ولقى تأييد بعض رجال الكنيسة مثل أسقف ناكولية في شرقي آسية الصغرى . وأشار الأسقف يوحنا في ختام تقريره إلى أن الخليفة الأموي يزيد توفي بعد عامين ونصف لتعود الأيقونات إلى مكانها الأصلي في الكنائس والأديرة القائمة في الدولة الإسلامية .

ويتضح من هذا التقرير المقدم إلى المجمع والذي عادت بموجبه عبادة الأيقونات في الامبراطورية البيزنطية بشكل مؤقت عام ٧٨٧م / ١٧١هـ ـ أن الأسقف المذكور ألقى باللوم في انتشار الحركة اللاأيقونية في بيزنطة على تأثيرات يهودية واسلامية . كما يؤكد التقرير على صدور مرسوم للخليفة يزيد في عام ١٠٣هـ / ٧٢١م تم بموجبه تحريم عبادة الأيقونات في الكنائس والأديرة الموجودة في أنحاء الدولة الاسلامية وتحطيمها . كذلك يعد هذا المرسوم سابقاً للمرسوم الذي أصدره الامبراطور ليو الثالث الأيسوري سنة ٧٢٦م / ١٠٨هـ للغرض

نفسه[٢٣] .

وكانت الافادة التي تقدم بها الأسقف ميسانا Messana إلى المجمع نفسه ، دليلاً آخر على صدور مرسوم يزيد بن عبد الملك . فمن المعروف أن هذا الأسقف قد شارك في جلساته وأكد في إفادته على أنه كان موجوداً في بلاد الشام زمن صدور مرسوم الخليفة يزيد القاضي بتحطيم الأيقونات[٢٤] .

ومن ناحية أخرى ، تعد حولية المؤرخ ثيوفانس Theophanes (ت ٨١٨م / ٢٠٣هـ) من المصادر البيزنطية المعاصرة للفترة موضوع البحث ، فقد كتب حوليته في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ، وأكد فيها على أن يزيد بن عبد الملك أصدر مرسوماً ضد الأيقونات بسبب تأثره بساحر يهودي وفد إليه من مدينة اللاذقية ، وتنبأ له بحكم يطول أربعين عاماً إذا قام بتحطيم أيقونات الكنائس الواقعة في دولته . وبالفعل أصدر الخليفة مرسوماً بذلك ، ولكنه توفي في العام نفسه . ويوضح ثيوفانس أن وفاة يزيد بن عبد الملك بعد صدور المرسوم وبالتالي ايقاف تنفيذه كان سبباً في أن معظم السكان في أمصار الدولة الاسلامية لم يكونوا على دراية بهذا المرسوم[٢٥] . ويضيف ثيوفانس أن فحوى هذا المرسوم اللاأيقوني للخليفة الأموي قد انتقلت إلى الامبراطور البيزنطي ليو عن طريق رجل يدعى بسر Beser أو بشر Bishr . ويذكر ثيوفانس أن هذا الرجل كان مسيحياً ثم اعتنق الاسلام ، وأنه هرب من بلاد الشام (ربما بعد وفاة يزيد بن عبد الملك) متجهاً إلى القسطنطينية حيث اتصل بالامبراطور البيزنطي واكتسب ثقته ونال الحظوة لديه لما تمتع به من قوة جسمانية ، وميول هرطقية على حد قول ثيوفانس[٢٦] . ومن قراءة هذه السطور التي أوردها الأخير، يمكننا أن نستخلص أن الخليفة يزيد أصدر مرسوماً بتحطيم الأيقونات تحت تأثير عراف

يهودي . وهكذا يتضح ـ كما يرى الأستاذ فازيلييف أن بسر أو بشر المذكور في رواية ثيوفانس ، هو العراف اليهودي ذي الأربعين ذراعاً الـذي ذكـره الأسـقف يوحنـا المقدسـي في التقريـر الـذي قـرأه في الجلسـة الخامسـة للمجمـع المسـكوني السابع(٢٧) .

وتعد كتابات نقفور بطريرك القسطنطينية (٨٠٥ ــ ٨١٦م) مـن المصـادر البيزنطية التي أشارت إلى المرسوم موضوع الدراسة ، إذ ينسب لنقفور هذا ثلاث رسـائل بلاغيـة كتبهـا ضـد الامـبراطور قسـطنطين الخـامس رداً علـى الأسـس اللاهوتية والأدلة التي استند عليها الامبراطور المذكـور في الدعـوة لسياسـة تحريـم عبـادة الأيقونـات(٢٨) . فقـد أشـار في احـدى هـذه الرسـائل إلى قـدوم العـراف اليهودي من مدينة طبرية ، وأنه كـان يحمـل لقـب ذي الأربعـين ذراعـاً طـولاً . ويكرر البطريرك نقفور الرواية نفسـها الخاصـة بنبـوءة طـول العمر والعهـد الـتي ذكرها العراف اليهودي للخليفـة يزيـد إذا قـام بتحطيـم الأيقونـات . ويقـول إن المرسوم أنتهك حرمة المقدسات بتحطيـم الأيقونـات في الكنـائس الواقعـة داخـل الدولة الاسلامية . ويتهم نقفور اليهود والمسلمين بتنفيـذ المرسـوم المذكـور ، ولم يمض وقت طويل حتى امتـد تأثير الحركـة اللاأيقونيـة مـن الدولـة الاسـلامية إلى الامبراطورية البيزنطية(٢٩) . ويقول في هذا الصدد « ومـا أن وصلـت بـذور هـذا الشر (معاداة الأيقونات) إلى الامبراطورية البيزنطية ، وبلغت الامبراطور الجالس علـى العرش ويدعـى ليـو ، الـذي كـان فاسـقاً قـاصراً مثـل ذلـك المتـبربر (يقصد يزيد) ، حتى قام بانتزاع الأيقونات من الكنائس المسيحية »(٣٠) .

وهناك رسالة رابعة لنقفور حول هذه المسألة ، ومفادها أن اليهـودي التقـى الخليفة يزيد وهو على فراش المرض ، وأنه بشره بالشفاء إذا ما أقـدم علـى تحريـم

الأيقونات وازالتها من كنائس دولته ، ويكـرر البطريـرك نقفـور اتهامـه في هـذه الرسالة لليهود والمسلمين ، بأنهم كاوا أصـل الـداء ، وأن تيـار التحريـم المعـادي للأيقونات إنما انطلق من بلاد الشام وانتشر في آسية الصغرى التابعة للامبراطورية البيزنطية[٣١] .

و لم تقتصر الاشـارة إلى مرسـوم الخليفـة يزيـد بـن عبـد الملـك على حوليـة ثيوفانس وكتابات البطريك نقفور ، وإنما أشـار إليـه أيضـاً جـورج الراهـب في حوليته . والمعروف أن هذا الأخـير كتـب في عهـد الامـبراطور ميخـائيل الثـالث Michael III (٨٦٧ ـ ٢٥٣هـ) تاريخاً للعالم ، من بدء الخليفة حتى عام ٨٤٣م / ٢٢٨هـ[٣٢] . وكان جورج الراهب قاسياً في حكمه على اليهـود ودورهـم في تحريض الخليفة يزيد بن عبد الملك على اصدار المرسوم المذكور . ويكرر جـورج الراهب قصة تأثر الخليفة الأموي بأقوال العرافـين ، ولكنـه يوضـح أن التحريـض على تحطيم الأيقونات قام به أثنان مـن العرافـين اليهـود ، وليـس عرافـاً واحـداً . ويضيف إلى الرواية المألوفة ، أن هذين العرافين تملكهما خوف شديد عندما مات يزيد مما دفعهما إلى الهرب إلى أقليم أيسورية في شرق آسية الصغرى[٣٣] .

وتتكرر الاشارة إلى مسؤولية اليهود والمسلمين عـن انتشـار التيـار المنـاهض لعبادة الأيقونات في الامبراطورية البيزنطية في سير القدسيين . وتعد سيرة القديس ستيفن St. Stephen (المعروف بالصغير) من أهم سير القديسـين الخاصـة بفـترة الحركة اللاأيقونية في بيزنطة . والمعـروف أن القديس قـد قتـل في سنة ٧٦٥م / ١٤٨هـ في عهد الامبراطور قسطنطين الخـامس ، أمـا سـيرته فقـد تم تدوينهـا في سنة ٨٠٦م / ١٩١هـ[٣٤] . ورغم أن كـاتب سـيرته لم يشـر إلى يزيـد بـن عبـد الملك ، إلا أنه يتهم المسلمين باثارة التيار المعادي لعبادة الأيقونات[٣٥] .

وبالنسبة للمصادر البيزنطية اللاحقة ، يلاحظ أنها اشارة أيضاً إلى المرسوم موضوع هذه الدراسة ، ويبدو أنها اعتمدت على الحوليات البيزنطية الباكرة ، والتي سبقت الاشارة إليها . ولكنها أضافت لها أو حذفت منها بعض التفاصيل. فالمؤرخ كيدرينوس Cedrenus (عاش في القرن الثالث عشر الميلادي / السادس الهجري) يتحدث عن عدد من يهود اللاذقية الذين حضروا إلى الخليفة يزيد وقرأوا له الطالع ، وتنبأوا له بحكم يطول أربعين عاماً إذا قام بتدمير الأيقونات في الكنائس الواقعة في أمصار دولته . ويبين أن يزيد أصدر المرسوم ، إلا أنه توفي بعد ذلك بقليل أي قبل أن يتم ابلاغ ولاة الأقاليم وتنفيذه . وعندما هم خلفه بالانتقام من أولئك اليهود على النبوءة الكاذبة فرّوا إلى إقليم ايسورية[٣٦] .

أما المؤرخ زوناراس Zonaras (عاش في القرن الثاني عشر الميلادي « السادس الهجري ») فيبدو أنه اختزل في حوليته القصة ذاتها التي رواها جورج الراهب، وإن كان قد احتفظ بعناصرها الرئيسة ، فهو يتحدث عن قيام اثنين من اليهود بقراءة الطالع للخليفة يزيد بن عبد الملك ، ويشير إلى صدور مرسومه الخاص بتحطيم الأيقونات ، كما يذكر هروب العرافين إلى إقليم ايسورية بعد وفاة الخليفة الأموي[٣٧] .

ويتضح من هذا العرض للمصادر البيزنطية المعاصرة للفترة موضوع الدراسة واللاحقة على حد سواء ، أن الخليفة يزيد بن عبد الملك قد أصدر مرسوماً بتحطيم الأيقونات في الكنائس الواقعة في داخل الدولة الاسلامية . وإذا كانت التفاصيل التي تضمنتها الروايات التاريخية تشير إلى أن اليهود لعبوا دوراً في تحريض الخليفة ، فإن الباحث يرى أن كراهية تقديس الصور كانت تقليداً

معروفاً عند المسلمين ، ولم تكن قاصرة على اليهود .

أما عن المصادر اللاتينية فإنها تخلو من أية اضافة هامة بالنسبة لمرسوم يزيد بن عبد الملك موضوع هذه الدراسة ، لأن هذه المصادر كررت ما أوردته المصادر البيزنطية ، وخاصة رواية المؤرخ البيزنطي ثيوفانس دون أن تأتي بجديد . هذا على الرغم من أنها أشارت إلى تقارير أعمال المجمع المسكوني السابع(٣٨) .

وأما المصادر السريانية المعاصرة ، فإنها أشارت بوضوح إلى قيام الخليفة يزيد بن عبد الملك بإصدار المرسوم الآنف الذكر(٣٩) . ولكن تكمن أهميتها بالنسبة لهذا الموضوع في أنها تقدم اضافتين جديدتين ، الأولى أوردها ميخائيل السرياني Michel le syrien (عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر والثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلاديين « السادس - السابع الهجريين ») واعتمد فيها على مصادر باكرة لم يحددها ، ومفادها أن الامبراطور ليو عندما بدأ سياسته اللاأيقونية إنما فعل هذا سيراً على نهج الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك(٤٠) .

أما الاضافة الثانية فقد قدمها مؤرخ سرياني مجهول(٤١) ومفادها أن يزيد بن عبد الملك كلف أخاه مسلمة بن عبد الملك بتنفيذ المرسوم الذي أصدره بتحطيم كل الصور الموجودة في الكنائس والأديرة أو النقوش على الجدران أو الموجودة في المنازل أو المرسومة في الكتب . ويعد هذا المصدر الوحيد الذي يشير إلى تكليف مسلمة بن عبد الملك بتنفيذ المرسوم موضوع الدراسة(٤٢) .

كذلك أشارت المصادر الأرمنية إلى مرسوم يزيد . والمصدر الأول الذي يجب الوقوف عنده في هذا الصدد ، هو كتاب جيوفند Ghevond الذي يحمل

عنوان « تاريخ حروب وفتوحات العرب في أرمينية » والمعروف أن جيوفند عاش في النصف الثاني من القرن الثامن ، وبداية القرن التاسع الميلاديين (النصف الثاني من القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين) بمعنى أنه كان قريباً من الفترة موضوع الدراسة[٤٣] ، وذكر جيوفند أن سياسة يزيد بن عبد الملك اتصفت بالقسوة تجاه المسحيين الذين يعيشون في دولته ، بل قام باضطهادهم، والدليل على ذلك تلك الأوامر التي أصدرها بشأن تحطيم الأيقونات والصلبان ، وأنه دنس بذلك مقدسات المسيحية على حد قوله[٤٤] .

وعلى هذا فإن رواية جيوفند تؤكد من طرفها على صدور مرسوم من جانب يزيد بن عبد الملك حقيقة تاريخية على الرغم من أنها لاتضيف معلومات جديدة ، ولكن نقرأ في موضع آخر من كتاب جيوفند نفسه نصاً يفهم أن تياراً مناهضاً للأيقونات التي يقدسها النصارى قد اجتاح الدولة الاسلامية ، وأن هذا التيار تميز بالتشديد والعنف . ففي معرض حديثه عن الحملة الاسلامية التي قادها مسلمة بن عبد الملك ضد القسطنطينية عام ٧١٧ ــ ٧١٨م / ٩٩هـ يسجل جيوفند كلمات وجهها مسلمة إلى الامبراطور ليو ابان المفاوضات التي جرت بينهما أثناء زحف المسلمين عبر آسية الصغرى ، قال مسلمة فيها[٤٥] : « أنني أعلن لك بأنني عقدت العزم وأقسمت ألا أعود قبل أن أحطم دولتك وأزيل تحصينات العاصمة التي وضعت فيها كل ثقتك ، وأجعل من كنيسة آيا صوفيا التي تقدسونها مسبحاً لجنودي ، وأحطم على رأسك خشب الصليب الذي تقدسونه » . إذا كان هذا النص صحيحاً ، وليس من مخيلة المؤرخ الأرميني فإنه يعكس بالإضافة إلى تصميم مسلمة بن عبد الملك على فتح القسطنطينية ، روحاً معادية للرموز الدينية عند النصارى بما في ذلك الأيقونات . ولانستبعد قيام

الخليفة الأموي يزيد بعد ذلك بتكليف أخيه مسلمة بمهمة تحطيم الأيقونات كما ذكر المؤرخ السرياني المجهول[٤٦] .

والجدير بالذكر ، أن بقية المصادر الأرمينية رددت ما أورده جيوفند ، وأعادت اصدار روايته عن تحطيم الأيقونات في عهد يزيد بن عبد الملك ، ولكن بصورة مختلفة[٤٧] .

أما المصادر الاسلامية ، فإنها لم تغفل الاشارة إلى مرسوم يزيد . وليس صحيحاً ماقاله بعض المؤرخين الحديثين أن المصادر الاسلامية خلت من أية اشارة إليه[٤٨] . فالطبري[٤٩] مثلاً كان قد أشار إلى ذلك اليهودي الذي التقى بالخليفة يزيد ، وأكد له بأنه سيحكم مدة أربعين عاماً ، إلا أنه لم يربط هذه النبوءة بضرورة تحطيم الخليفة للأيقونات الموجودة في كنائس دولته . كما قال الكندي[٥٠] (ت ٣٥٠هـ / ٩٦١م) في أحداث سنة ١٠٤هـ / ٧٢٢م وكتب يزيد في سنة أربع ومائة بكسر الأصنام فكسرت كلها ومحيت التماثيل وكسر فيها صنم حمام زبان بن عبد العزيز ...

كما تناول سفيروس بن المقفع المصري القبطي[٥١] (عاش في آواخر القرن العاشر الميلادي « الرابع الهجري ») في كتابه تاريخ بطارقة كنيسة الأسكندرية القبطية في عهد يزيد بن عبد الملك ، وأشار إلى مرسومه الخاص بتحطيم الأيقونات ، بل رسم بقلمه صورة قاتمة لنمو مشاعر العداء ضد النصارى قبل عهد يزيد ، والتي انتشرت بشكل خاص في ولاية مصر الأموية ، ويعدد صور الاضطهاد الذي عانى منه النصارى . ويجب توخي الحذر عند قراءة وصفه لصور الاضطهاد التي تعرض لها النصارى في مصر لأن كلماته يغلب عليها السخط والانفعال .

كما أشار إلى هذا المرسوم أثنان من المؤرخين الثقات ، وإن لم يكونا معاصرين أو قريبين من الأحداث التاريخية . ولكن تكمن أهميتهما بأنهما قد يكونا اعتمدا على مصادر معاصرة لم تصلنا . سجل الإشارة الأولى المقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) بقوله[٥٢] : « هدمت الكنائس وكسرت الأصنام بأجمعها وكانت كثيرة في سنة أربع ومائة والخليفة يومئذ يزيد بن عبد الملك فلما قام هشام بن عبد الملك في الخلافة كتب إلى مصر بأن تجري النصارى على عوايدهم وما بأيدهم من العهد .... » . أما الإشارة الثانية فقد وردت عند المؤرخ أبى المحاسن بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤١٩ م) عندما قال:[٥٣] ثم ورد عليه (يقصد واليه على مصر حنظلة بن صفوان في ولايته الأولى) كتاب الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان بكسر الأصنام والتماثيل فكسرت كلها ومحيت التماثيل من ديار مصر وغيرها في أيامه.

مهما يكن من أمر ، فانه يبدو أن عهد يزيد بن الملك شهد نمو مشاعر معادية للنصارى في دولته ، بدأت قبل عهده وبلغت الذورى في أيامه ، إلا أن ذلك يجب ألا يتخذ منه البعض ذريعة على الحسم بإصدار يزيد مرسوماً في هذا الصدد . وعلى هذا فإن ماجاء في المصادر البيزنطية بخصوص تحريض اليهود للخليفة الأموي من أجل اصدار هذا المرسوم يصبح غير ذات موضوع خصوصاً وأن هذه المعلومة لاسند لها في المصادر الاسلامية .

وتترك هذه المصادر انطباعا لدى القارىء بأن هناك فترات زمنية مرت في تاريخ المسلمين ازدادت فيها مشاعر العداء ضد النصارى ورموزهم الدينية ، وعلى هذا فإن ماجرى في عهد يزيد بن عبد الملك لم يكن حدثا فريدا بل يعبر عن ظاهرة تكررت مرات . مما يؤكد وجود علاقة بين سياسة يزيد بن عبد الملك

المتشددة ازاء النصارى وبين ماجرى في الامبراطورية البيزنطية من اصدار مرسوم الامبرطور ليو الثالث في عام ٧٣٠ / ١١٢هـ . أن صدور هذا المرسوم الأخير لم يكن متزامنا مع صدور المرسوم موضوع دراستنا . تلك الحقيقة تنفي بما لايدع مجالا للشك ظنون بعض المؤرخين الذين يربطون بين اندلاع ذلك النزاع الذى مزق الامبراطورية البيزنطية والذي ثار حول عبادة الأيقونات ، والذي بدأ رسميا بمرسوم الامبرطور ليو الثالث آنف الذكر ، وبين مرسوم يزيد بن عبد الملك موضوع الدراسة .

والواقع أن الدوافع التي حددت سياسة الامبراكطور البيزنطي اللاأيقونية كانت متعددة الأصول ، ويصعب أن نفترض دافعاً واحداً وراء تلك السياسة العنيفة ، التي استهدفت تحطيم الأيقونات في الامبراطورية . ولم يخطىء المؤرخون الحديثون في آرائهم ازاء دوافع تلك السياسة اللأيقونية .

لقد كانت الدوافع السياسية واردة فضلاً عن دوافع أخرى دينية ، واجتماعية ، واقتصادية . كما أن وجود تأثيرات شرقية وافدة عبر الحدود الاسلامية البيزنيطية ، وتأثيرها على فكر الامبرطور ليو الثالث أمر لايمكن القطع فيه بحكم .

ومن المرجح أن تأثير الولايات الشرقية من الامبراطورية البيزنطية بالمسلمين الذين كانوا يطبّقون في معارضتهم لتقديس الأيقونات تعاليم دينهم . فالمسلمون نظروا إلى عبادة الأيقونات على أنها شكل من أشكال الوثنية ، لكن ذلك لايعنى رغبتهم وقدرتهم على تطبيق تعاليم دينهم داخل « دار الحرب ».

والمعروف أن الامبراطور ليو الثالث نشأ في مدينة مرعش ، حيث قضى طفولته في شمال الشام وشرق آسية الصغرى . وكانت هذه المدينة قد سقطت في

قبضة المسلمين سنة ١٦ هـ /٦٣٦ م . ولذا تأثرت حياة ليو في شبابه بالمسلمين بحكم الاتصال الدائم بهم في مرعش . ثم أمضى ليو معظم حياته جنديا وقائدا للثيم (البند) الأناضولي الذي كانت مهمته التصدى للجيوش الاسلامية الزاحفة عبر آسية الصغرى(٥٤) .

وقد تردد في بعض الروايات أن ليو كان على معرفة جيدة بالمسلمين ، كما كان يعرف العربية ، لكن ذلك لايتخذ ذريعة البتة لزعم ثيوفانس أن كراهية الامبراطور ليو الثالث لعبادة الأيقونات قد نشأت من اتصاله بالمسلمين(٥٥) . ورغم ماقاله ثيوفانس ، يرى فازيلييف أنه لاتوجد أدلة كافية للقول بأن ليو الثالث قد تأثر بالإسلام مباشرة(٥٦) .

قد يحتج البعض بوصول تيار المعارضة لعبادة الأيقونات إلى الولايات الشرقية من الامبراطورية البيزنطية ، على أساس أن تلك الولايات كانت تجاور الدولة الإسلامية ، ومع ذلك ، من المجازفة القول بأن مأأقدم عليه الامبراطور ليو الثالث من تحطيم الأيقونات في امبراطوريته كان نتيجة عامل ثانوي مفاده تأثره بالثقافة العربية الاسلامية ، خصوصاً وأن هذه الثقافة لم تكن قد تبلورت بعد خلال الحقبة الأموية . بل أن عصر التأسيس والتدوين للثقافة العربية الاسلامية لم يحدث إلا خلال الحقبة التالية في العصر العباسي الأول . إذن لم يكن التأثير الفكري الإسلامي هو الوحيد وراء الاتجاه اللاأيقوني ، رغم وجوده ، ووضوحه وفعاليته في تلك الولايات الشرقية من الامبراطورية . ومع ذلك فإن تحري حقيقة الأمر مناط بظروف تتعلق بالجانب البيزنطي . صحيح أن الاتجاه اللاأيقوني في الولايات الشرقية كان موجوداً قبل الإسلام ، كما أن ظهور الإسلام والاتصال الحضاري بين الدولة الاسلامية وتلك الولايات والتأثير الفكري الذي ترتب على

هذا الاتصال ماكان بوسعه أن يسهم في تنشيط الاتجاه اللاأيقوني فيها . فلابد إذن من وجود ثمة عوامل أخرى وراء ذلك الاتجاه اللاأيقوني الذي انتشر في الولايات الشرقية للامبراطورية البيزنطية ، مثل المواقف المعادية لعبادة الأيقونات التي كانت تتبناها بعض المذاهب المسيحية كالبيالصة (اتباع بولص **Paulicians**) في المنطقة الوسطى من الحدود البيزنطية الاسلامية ، وكانت هذه الطائفة تعارض عبادة الأيقونات(٥٧) . وربما كان وجود اليهود في تلك الولايات الشرقية عاملاً آخر خاصة وأنهم هاجموا بشدة عبادة الأيقونات .

على أن العامل الفاعل في تفسير سياسة ليو الثالث اللاأيقونية إنما يرجع إلى التدهور الاقتصادي الذي حل بالامبراطورية آنذاك في وقت تصاعدت فيه أخطار القوى المتربصة بيزنطة ، ومنها الجانب الاسلامي ممثلاً في حملة مسلمة بن عبد الملك سنة ٩٩هـ / ٧١٧م . لذا لم يكن هناك مناص لمواجهة هذه الأخطار من التعويل على ماتحويه الكنائس والأديرة البيزنطية من كنوز كانت تشكل الحافز الفعلي لمصادرتها باتباع سياسة لا أيقونية . وهذا يشكك على الأقل بوجود تأثير ديني اسلامي في سياسة بيزنطة الدينية . إن الزعم بصدور أول مرسوم سجلته بعض المصادر البيزنطية ضد عبادة الأيقونات في الدولة الاسلامية سنة ١٠٣هـ / ٧٢١م في عهد يزيد بن عبد الملك أمر محفوف بالشك العلمي .

وخلاصة القول ، إن النصوص والإشارات التي وردت في المصادر التاريخية، البيزنطية والسريانية والأرمينية والاسلامية ، دفعت معظم المؤرخين الحديثين إلى القول بأن مرسوم يزيد حقيقة تاريخية ثابتة . فيرى أسد رستم(٥٨) أن الخليفة يزيد الثاني قد أمر سنة ١٠٥هـ / ٧٢٣م بتحطيم الأيقونات في كنائس النصارى، كما ترى السيدة اسماعيل كاشف(٥٩) الرأي نفسه ، وذلك نقلاً عن سير الآباء

البطاركة . وتؤكد على أن هذا القرار قد شمل جميع بلاد الدولة الاسلامية . فمصر مثلاً ، لم تنج من حركة تحطيم التماثيل والصلبان وبعض الآثار الفرعونية. أما السيد الباز العريني[٦٠] فيقول إن مرسوم يزيد صدر قبل قرار ليو الثالث بإزالة الأيقونات ، وذلك نقلاً عن ثئوفانس . ويؤكد وسام عبد العزيز[٦١] على أن مرسوم الخليفة الأموي قد صدر فعلاً في عام ١٠٦هـ / ٧٢٤م ، وأن لليهود أثراً في تحريض يزيد على اصدار هذا المرسوم . ويؤكد كل من أوستروفورسكي Ostrogorsky ، وفازيلييف Vasiliev[٦٢] وهما من المؤرخين الثقات في التاريخ البيزنطي ، على أن مرسوم يزيد قد صدر فعلاً ، وأن قرار الامبراطور ليو الثالث قد تأثر بالمؤثرات الإسلامية بل واليهودية المعادية لعبادة الأيقونات .

وفي ضوء ماتقدم ، نستطيع القول إن صدور مرسوم يزيد الثاني المتضمن إزالة الأيقونات من دور العبادة المسيحية الواقعة في حماية الدولة الإسلامية ، غدا أمراً لايقبل الشك . ولكن المسائل الفرعية المتعلقة ، بشكل أو بآخر ، بهذا المرسوم لاتزال مسائل جدلية ولم تحسم بعد ، منها مثلاً : هل صدر هذا المرسوم بتأثير أحد اليهود كما ذهبت بعض المصادر البيزنطية ؟ وهل تم تنفيذ هذا المرسوم على ارض الواقع ؟ وهل نفذ في كل الأمصار الإسلامية ؟ وماهو رد فعل الرعايا المسيحيين ؟ ثم هل وصل هذا المرسوم إلى أسماع الامبراطور البيزنطي ليو الثالث، وجعله يصدر بدوره مرسوماً مماثلاً بعد ثلاث سنوات يحرم فيه عبادة الأيقونات في امبراطوريته ؟ والواقع أن الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها مما قد تثيره هذه الإشكالية غير ممكنة في ضوء المعطيات التاريخية المتاحة . بل أن المؤرخين الحديثين اختلفوا . فإذا كان البعض قد انساق وراء المصادر البيزنطية واعتقد بتأثير يهودي في صوغ قرار يزيد الثاني[٦٣] . فإن البعض الآخر ينفي ذلك نفياً قاطعاً ، ويؤكد

على أن الخليفة لم يكن دمية بأيدي العرافين اليهود ، بل لانلمس أي تأثير يهودي في سياسة بني أمية وقراراتهم . وإذا كـان بعض المؤرخين البيزنطيين المعاصرين ذهبوا إلى التأكيد على أثر اليهود في هذه المسألة ، ربما كان السبب في ذلك هو لأن اليهودية قد حاولت عبادة الأيقونات قبل الإسلام ، وظن هؤلاء المؤرخون أن الموقف الإسلامي من الأيقونات هو في حقيقته استمرار للموقف اليهودي في هذه المسألة[٦٤] .

أما فيما يتعلق بإشكالية تأثر الامبراطور ليو الثالث الأيسوري بمرسوم يزيد. فإن هناك من يرى أن القضيتين مستلقتان عن بعضهما استقلالاً كاملاً ، فلكل منهما ظروفها الخاصة . فمرسوم يزيد له ظروفه ويرتبط بالعقيدة الإسلامية وتقاليد المجتمع العربي الإسلامي بل والتراث الشرقي قاطبة ، أما مرسوم ليو الثالث فهو يرتبط بظروف بيزنطة والتراث الاغريقي ، وأحوال الامبراطورية كافة. ولهذا فإننا لانستطيع الافتراض ـ كما ذهب بعضهم ـ إلى أن مرسوم ليو الثالث جاء استمراراً أو تحت تأثير قرار الخليفة الأموي . فإن لكل منهما ظروفه الخاصة وإن صدرا في وقتين متقاربين[٦٥] . بل لماذا لانفترض أن يكون الإمبراطور البيزنطي قد احتج احتجاجاً شديداً على قرار الخليفة يزيد ، وماتبعه من اجراءات ضد المسيحيين في الدولة الاسلامية ؟ ولماذا لانفترض أن تكون بيزنطة قد اعتبرت مثل هذا القرار الإسلامي هو انتهاك لحقوق المسيحيين في البلدان الاسلامية ؟ لاسيما وأن كل الاتفاقات التي وقعت بين الفاتحين المسلمين وسكان المدن المسيحيين في الشام ومصر تضمنت تعهد المسلمين بحماية حقوقهم وعقيدتهم وأرواحهم وأملاكهم ؟

أمـا والأمـر كذلـك ، لايمكـن للبـاحث أن يقطـع بـرأي يرجـح أو ينفــي ، وحسبه أنه طرح الاشكالية لباحثين تاليين ربمـا يكونـون أحسـن حظـاً في العثـور على نصوص جديدة تحسم القول في هذه الإشكالية .

والله ولي النعمة والتوفيق

هوامش البحث

١ ـ الأيقونات لفظ يوناني معناه الصور أو الرسم ، ويستعمل في المصطلحات الدينية للإشارة إلى صور القديسين . أنظر : أسد رستم : **الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب** (بيروت ، ١٩٥٦) ج١، ص٣٠٢ .

٢ ـ أسد رستم : **الروم** ، ج١ ، ص٣٠٥ ، وسام عبد العزيز فرج : **دراسات في تاريخ حضارة الامبراطورية البيزنطية** (الاسكندرية ، ١٩٨٢) ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

٣ ـ من المؤرخين الحديثين الذين اهتموا بهذا الموضوع فازيلييف ، انظر
Vasiliev, A., A., **" The Iconoclastic Edict of the Caliph Yazid, A. D.** 721 " , DOP, 9 - 10 (1956), pp. 25 - 47 .

٤ ـ نعمت اسماعيل علام : **فنون الشرق الأوسط في العصور الاسلامية** (القاهرة ١٩٨٢) ص٤٢، عفيف بهنسي : **الفن والاستشراق** (بيروت ، ١٩٨٣) ص٢٢٨ .

٥ ـ البخاري : **صحيح البخاري** (بيروت ، بدون تاريخ) ، ج٧ ، ص٢١٥ .

٦ ـ حسن الباشا : **التصوير في الإسلام في العصور الوسطى** (القاهرة ، ١٩٧٨) ص٤٢ .

٧ ـ حسن الباشا : **التصوير في الإسلام ، ص١٠** .

٨ ـ ابن هشام : **السيرة النبوية لابن هشام** (بيروت ، بدون تاريخ) ، ج٤ ، ص٥٥ .

٩ ـ الأزرقي : **أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار** (مكة ، ١٩٢٣) ،

ص١٠٦-١٠٧ .

١٠ - القرام : الستر الأحمر أو ثوب ملون من صوف فيه رقم ونقوش أو ستر رقيق كالمقرم . الفيروز آبادي : **القاموس المحيط** (بيروت ، بدون تاريخ) ، مادة « القرم » .

١١ - السهوة : الرف والطاق يوضع فيه الشيء ، أو بيت صغير شبه الخزانة الصغيرة . للمزيد أنظر : الفيروز آبادي : **القاموس المحيط** ، مادة « سها ».

١٢ - البخاري : ج٧ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

١٣ - أبو صالح الألفي : **الفن الإسلامي** (القاهرة ، بدون تاريخ) ، ص٨٤ .

١٤ - حسن الباشا : **التصوير في الإسلام** ، ص٤٢ .

١٥ - الألفي : **الفن الإسلامي** ، ص٧٩ .

١٦ - من المعروف أن اليهود حرموا عبادة الصور . أنظر :

Vasiliev, **History of Byzantine Empire** (Madison, 1958), I, p. 255.

١٧ - Mansi, J. D., Sacrorum Conciliorum nora et Amplissia Collectio (Florence, 1967 ff.) Vol. XIII, Col. 109 B - E .

١٨ - يسمى البطريرك جرمانوس Germanus الكعبة باسم حبر Khober ويدعى بأنها حجراً في الصحراء يقدسه المسلمون . أنظر :

Mansi, Vol. XIII, Col. 109 B - E.

١٩ - Ostrogorsky, G., **Byzantine State** (Oxford, 1968), P. 149; Vasiliev, **Byzantine Empire** vol. I. p. 258 .

٢٠ - انظر نص تقرير الأسقف يوحنا المقدسي في :

Mansi, Vol., XIII, Cols. 196 - 200. B - E.

٢١ - أيضاً انظر : وسام عبد العزيز فرج : **دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية** من ٣٢٤ ـ ١٢٠٥م (الاسكندرية ، ١٩٨٢) ،

ص١٨٠ـ ١٨١ .

٢٢ - **Cambridge Medieval History,** part IV, 2nd ed. (1966), p. 66 .

انظر : السيد الباز العريني : **الدولة البيزنطية** (بيروت ، ١٩٨٢) ، ص٢٠٤.

٢٣ - انظر نص كلمات الأسقف ميسانا Mansi أمام المجمع المسكوني السابع في: **Mansi**, Vol. XIII, Col. 200 B - E .

٢٤ - Theophane, I., **The Chronicle of Theophanes**, Eng. tr. H. Turthedove (Pennsylvania, 1982), p. 93.

٢٥ - Theophanes, p. 93.

٢٦ - Theophanes, **Ibid**.

٢٧ - ويلاحظ أن ثيوفانس يذكر اسم بسر أو بشر مرتين بعد ذلك . ذكر في المرة الأولى أنه كان رفيقاً « لليو المرتد » حسب قوله ، وساعده الأيمن في سياسته « الخرقاء » يعني السياسة اللاأيقونية . وفي المرة الثانية يشير ثيوفانس إلى البطريق بسر ب « ذي الميول الإسلامية » ويوضح أنه قتل في حرب قسطنطين الخامس Constantine V (٧٤١ ـ ٧٧٥م / ١٢٤ ـ ١٥٩هـ) ضد زوج أخته أرتفازدوس Artavasdos عام ٧٤١-٧٤٢م/ ١٢٤ - ١٢٥هـ Theophanes, p. 97 and pp. 105 - 106; Vasiliev, Iconoclastic, p. 31. .

٢٨ - عن كتابات البطريرك نقفور انظر :

Blake, R., " Note sur L'activite' Litte'raire de Nicephore Ist Patriarche of Constantinople' , B, 14 (1939), pp. 1 - 15 .

٢٩ - عن رسالة البطريرك نقفور في الرد على الأسس اللاهوتية التي استند عليها الامبراطور قسطنطين الخامس في تحريم الأيقونات ، انظر :

S. Nicephori Antirrheticus, II, in; Migne, PC, vol. 100, Cols. 528 - 532 .

٣٠ - Ibid., Col. 532 .

٣١ - Ibid., Cols. 201 - 202; Vasiliev, Iconoclastic, p. 32 .

٣٢ - George Monachus Hamartolus, Chronicle, ed. Boor (Leipzig, 1904) 2 vols .

ويلاحظ أن الجزء الأول وشطر من الجزء الثاني نقل جورج الراهب مادتهما من حولية ثيوفانس . أما بقية الجزء الثاني الذي يغطي الفترة بين عامي ٨١٣ ، ٨٤٢م (١٩٨ ، ٢٨٨هـ) فله أهمية خاصة :

Ostrogorsky, Byzantine State, p. 147.

٣٣ - George Monachus, Chronicle, vol. 2., 735 - 76 .

٣٤ - للمزيد عن نص سيرة القديس ستيفن Stephen (المعروف بالصغير) انظر:

Stephani Junioris Vita, in : Migne, PG, vol. 100, Cols. 1067 - 1186 .

وانظر أيضاً : وسام **دراسات** ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ حاشية ٧٨ .

٣٥ - **Ibid**., Col. 1116.

٣٦ - Cedrenus, I., **Compendium Historiarum**, ed. I. Bekker (CSHB, Bonn, 1838 - 1939), vol. I. p. 788 .

٣٧ - Zonaras, I., **Epitomae Historiarum**, e. M. Pinder and Th. Buttmerr - Wobest (**CHSB**, Bonn 1481 - 1897), vol. 3., pp. 257 - 258 .

٣٨ - Vasiliev, **Iconclastic**, pp. 35 - 36 .

٣٩ - Denys de Tell - Mahr, **La Chronique**, tr. J. B. Chabot (Paris, 1895) p. 17: Michel le Syrien, **Chronique**, tr. J. B. Chabot (Paris, 1899 - 1905), Vol. II, p. 489 .

٤٠ - Michal le Syrien, II. p. 491 .

٤١ - عن هذه الحولية السريانية التي كتبها مؤرخ مجهول ، انظر :

Tharossian, H., **Histoire de la Litteature Arménienne. Des Origines Jusqu a nos Jours** (Paris, 1951), pp. 108 - 109 .

وانظر :

فايز نجيب اسكندر : **أرمينية بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني جيوفند** (٦٣٢ - ٦٦١م / ١١ - ٤٠هـ) ، مكتبة نشر الثقافة (الاسكندرية ، ١٩٨٢) ، ص ٣ - ١٣ .

Histoire des Guerres .

٤٤ - Ghevond, Historie des Guerres et des Conquêtes Arabes en Arménie, trad. G. V. Chahnazarian (Paris, 1856) p. 98 .

٤٥ - Ghevond, **Histoire des Guerres**, p. 98 .

٤٦ - انظر حاشية : ٤١ و ٤٢ .

٤٧ - Asolik, S., **Historie Universelle** (Iere Partie) , trad. E. Dulaurier (PARIS, 1883) , p. 158: Vardan, **La Domination Arabe en Arménie** trad. J. Muyldermans (Paris, 1927) , p. 104 .

٤٨ - ذكر أحد مؤرخي الفن البيزنطي الفرنسيين ، أن المصادر الاسلامية خلت من أي ذكر لمرسوم يزيد ، وهذا بالطبع خطأ . انظر :

De Vaux, R., ‘ Une Mosaique Byzantive a Main (Trans jordanie) “, RB, 47 (1938), p. 256 .

٤٩ - الطبري : **كتاب تاريخ الرسل والملوك** (القاهرة ، ١٩٦٧) ، ج٧ ، ص٢٢ .

٥٠ - الكندي : **كتاب الولاة وكتاب القضاة** (بيروت ، ١٩٠٨) ، ص ٧١ - ٧٢ . وللمزيد عن حمام زبان . أنظر :

Arnold, T., **Painting in Islam** (Oxford, 1928) , p. 85 .

٥١ - سفيروس بن المقفع : **تاريخ بطارقة كنيسة الاسكندرية القبطية** ، قام

افت B. Evett بنشر النص العربي للحوليه مع ترجمة انجليزية في الجزء الخامس من Patrologia Orientalis . انظر :

History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria (ed. Evetts), pp. 326 - 327 .

٥٢ - المقريزي : **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقريزية)** (بيروت ، ١٩٧٢) ، ص٤٩٣ .

٥٣ - ابن تغري بردى : **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** (القاهرة ، ١٩٧١) ج١ ، ص٢٥٠ .

٥٤ - عن الثيمات ، انظر : . Ostrogorsky, State, pp. 80 - 149 وانظر : أسد رستم : **الروم** ، ج١ ، ص٣٠١ ومابعدها .

٥٥ - وسام عبد العزيز فرج : **العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي** الهيئة العامة للكتاب (الاسكندرية ، ١٩٨١) ، ص٣٩٤ .

٥٦ - Vasiliev, **Byzantine Empire**, I, p. 255 .

٥٧ - Ostrogorsky, Byzantine State, p. 221 t; Vasiliev, Byzantine Empire, p. 256 .

٥٨ - أسد رستم : **الروم** ، ج١ ، ص٣٠٦ ، يوليوس فلهوزن : **تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية** (القاهرة ، ١٩٦٨) ، ص٣١٤ .

٥٩ - **السيدة اسماعيل كاشف** ، مصر في فجر الإسلام (بيروت ، ١٩٨٦) ، ص١٩٤ - ١٩٥ .

٦٠ - السيد الباز العريني : **الدولة البيزنطية** ٣٢٣ ـ ١٠٨١ (بيروت ، ١٩٨٢) ، ص٢٠١ - ٢٠٢ .

٦١ - وسام عبد العزيم ، **دراسات** ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

٦٢ - Ostrogorsky, **State**, pp. 161 ff; Vasiliev, **Byzantine Empire**, p. 257 ff.

٦٣ - Vasiliev, Iconoclastiv, pp. 25 ff; Ostrogor sky, **State**, pp. 161 ff;
انظر : وسام عبد العزيز : **دراسات** ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ، السيد الباز : **الدولة البيزنطية** ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

٦٤ - Ostrogorsky, state, pp. 161 ff; Jenkins R., Byzantium, The Imperial Centuries AD 610 - 1071 (London, 1966), pp. 82 ff. .

٦٥ - Jenkins, **Imperial, p. 82** ; **Cam . Med. Hist**. vol. 4, pp. 66 ff.

أولا : المصادر العربية

(١) ـ ابن غري بردي (ت ٨٧٤ هـ /١٤١٩م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي : **النجوم الزاهره في ملوك مصر والقاهرة** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، ١٩٧١) .

(٢) ـ ابن هشام (ت ٢١٨ هـ /٨٢٣ م) عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري : **السيرة النبوية لابن هشام** ، دار احياء التراث العربي (بيروت ، بدون تاريخ) .

(٣) ـ الأرزقي : الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٤٤ هـ / ٨٥٨م) **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار** ، المطبعة الماجدية (مكة ، ١٩٣٣) .

(٤) ـ البخاري (ت ٢٥٦ هـ /٨٦٩ م) محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ابن المغيرة بن بردزبة البخاري : **صحيح البخاري** ، دار احياء التراث العربي (بيروت ، بدون تاريخ) .

(٥) ـ الفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـ /١٤١٤ م) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي : **القاموس المحيط** ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر (بيروت ، بدون تاريخ) .

(٦) ـ الكندي (ت ٣٥٠ هـ / ١٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف : **كتاب الولاة وكتاب القضاة** ، مطبعة الآباد اليسوعين (بيروت ، ١٩٠٨) .

(٧) ـ المقريزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) تقي الدين أحمد بن علي : **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقريزية)** ، جزءان ، دار صادر (بيروت ، ١٩٧٢) .

ثانياً : المصادر البيزنطية والارمينية والسريانية

(1) Asolik (Stephen De Taron) ,**Histoire Universelle** (Iere Partie), Trad . E .Dulaurier (Paris , 1883) .

(2) Cedrnus , I., **Compendium Historiarum** Ed. I. Bekker (Chsb , Bonn, 1838 - 1839) .2vols .

(3) Denys De TELL - MAHRE (ou ANONYME De Zugnin) La Chronique , Tr . J . B Chabot (Paris,1895) .

(4) De Vaux, R, «**Une Mosaique Byzantine A Ma, in Transjordanie**» Revue Biblique, 47 (1938) .

(5) George Monachus Hamartolus,**Chronicle**, Ed De Boor (Leipzig, 1904) 2vols .

(6) Gregorius Bar - Hebraeus, **The Chronography**, Tr. E. Budge (London, 1932),2Vols.

(7) Ghevond, **Histoire Des Guerres ET DES Conquêtes Arabes En Arménie,** Trad, G. V. Chahnazarian (Paris, 1856).

(8) Severus Ibn - Al - Muqapfa, **History Of The Patriarchs Of The Coptic Church Of Al Exandria**, Ed. And Eng. Tr. B. Evetts, In Po, (1947),pp. 254 ff.

(9) Michel Le Syrien , Chronique, Tr. J.B.Chabot (Paris 1899 - 1905) 3Vols.

(10) S.Nicephori Antirrheticus iii, In :Migne, **Pg,Vol.** 100,Cols. 528 - 532.

(11) **Stephani Junioris Vita** In : Migne Pg, Vol. 100. Cols. 1067-1186.

(12) Theophanes, I., **Chronicle Of Theophanes**, 1982 Eng. Tr H.Turledov.(Pennsylvania,1982).

(13) Vardan **La Domination Arabe en Arménie** Trad. J.Muyldermas (Paris, 1927).

(14) Zonaras , I. , **Epitomae Historiarum** , Edd.M.Pinder And Th. Buttner - Wobst (CSHB,Bonn 1841-1897), 3Vols.

ثالثا : المراجع العربية والمعربة

١ ـ اسد رستم : **الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب** ، ط١ ،دار المكشوف (بيروت ، ١٩٥٦) .

٢ ـ أبو صالح الألفي : الفن الاسلامي أصوله ، فلسفته ، مدراسه ، ط٣ ، دار المعارف (القاهرة ، بدون) .

٣ ـ حسن الباشا : **التصوير الاسلامي في العصور الوسطى** ، ك٢ ، مكتبة النهضة العربية (القاهرة ، ١٩٧٨) .

٤ ـ السيد الباز العريني : **الدولة اليزنطية ٣٢٣ ـ ١٠٨١م** ، دار النهضة العربية (بيروت ، ١٩٨٢) .

٥ ـ عفيف بهنسي : **موسوعة تاريخ الفن والعمارة** ـ الفن والاستشراق ، المجلد الثالث ، ط٢ (بيروت ، ١٩٨٣) .

٦ ـ فايز نجيب اسكندر : **أرمينية بين اليزنطيين والخلفاء الراشدين في ضوء كتابات المؤرخ الارمني جيوفند** (٢٣٦ _ ١٦٦ م/١١ ـ ٤٠هـ) ، مكتبة نشر الثقافة (الاسكندرية ، ١٩٨٢) .

٧ ـ نعمت اسماعيل علام : **فنون الشرق الأوسط في العصور الاسلامية** ، ط٣ ، دار المعارف (القاهرة ، ١٩٨٢).

٨ ـ وسام عبد العزيز فرج : **دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية** من ٣٢٤ ـ ١٠٢٥ م ، مطبعة مصنع اسكندرية (الاسكندرية ، ١٩٨٢) .

٩ ـ وسام عبد العزيز فرج : **العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (الاسكندرية ن ١٩٨١) .

١٠ ـ يوليوس فلهوزن : **تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام إلى نهاية الدولة الأموية** ، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ، ١٩٦٨) .

رابعاً : المراجع الأجنبية

(1) - Arnold, T., **Painting in Islam** (Oxford, 1928) .

(2) - B. Byzantion .

(3) - Blake, R., " Note sur L'activite' litteraire de Nicephore Ĭ Patriarche de Constantinople " , B, 14 (1939), pp. 1 - 15.

(4) - Bury, J. B., **A History of the later Roman Empire** A. D. to 800 A. D. (London, 1889) .

(5) - **Cambridge Medieval history**, IV: The Byzantine Empire, Part I; Byzantium and its Neighbour, Ed. by J. M. Hussey (Cambridge, 1966, 1967) .

(6) - Creswell, K., " **The Lawfalness of Painting in Early Islam** " A. I. 11 - 12 (1946) .

(7) - Crowfoot, J., " **The Christian churches (at Gerasa)" in : Gerasa city of the Decapolis**, ed. C. Kraeling (New Haven, 1938) .

(8) - Finaly, G., **History of Greece** (Oxford, 1877) .

(9) - Heinz, G., **Die Syrischen Wustwschlosser** (Wiesbaden, 1979) .

(10) - Jenkins, R., Byzantium, **The Imperiae Centuries** AD 610 - 1071 (London, 1966) .

(11) - Mansi, J. D. Mansi, **Sacrorum Conciliorim Nota** et Amplissima Collectio (Florence, 1769 ff.) .

(12) - Musil, A., **Kusejr' Amra** I, Textband (Vienna, 1907) .

(13) - Ostrogorsky, G., **A History ot the Byzantine State**, tr., J. M. Hussey (Oxford, 1968) .

(14) - Ostrogorsly, G., " **Les de'buts de la querelle des Images** ", Melanges Charles Diehl, (Paris, 1930) , pp. 235 - 255 .

(15) - PO **Patrologia Orientalis** .

(16) - Thorossian, H., **Histoire de la litte'rature** arme'nienne. Des Origines jusqu'à nos jours (Paris, 1951).

(17) - Vasiliev, A. A., **History of the Byzantine Empire** (Madison, 1958) .

(18) - Vasiliev, A., A., Justin the First : **An introduction to the Epoch of Justinian the Great** (Cambridge, Mass., 1950).

(19) - Vasiliev, A. A., " **The Iconcolastic Edict of the Caliph Yazid II,** A. D. 721 " , DOP, 9 - 10 (1956), pp. 25 - 47 .

التجارة بين مصر والشام

في العصر الفاطمي

د. محمد زيود

جامعة دمشق

يعد موضوع العلاقات بين مصر والشام قديماً قدم التاريخ ، وربطت بين البلدين أواصر التعاون والقربى ، ودعمتها علاقات حضارية وعززتها علاقات تجارية قديمة[١] .

والعلاقات بين مصر والشام في العصر الفاطمي من الموضوعات المهمة والجديرة بالبحث . فعلى الرغم من الأبحاث العديدة التي تناولت الحديث عن البلدين خلال الحقبة الفاطمية[٢] إلا أنها لاتزال بحاجة إلى المزيد من الدراسات والأبحاث التي تلقي الضوء على جوانبها المختلفة، لاسيما العلاقات التجارية التي توضح عمق العلاقات الحضارية بين البلدين وتكشف النقاب عن مزاياها وطبيعتها[٣] .

من المعلوم أن الشام ومصر قد أصبحتا منذ بداية الفتوحات العربية الاسلامية ولايتين تتبعان مركزاً سياساً واحداً، حتى قيام الدولة الطولونية في أواسط القرن الثالث الهجري ، حيث اندمجتا كلياً وشكلتا دولة واحدة . ولاشك أن هذه التطورات السياسية وهذا الوضع الجديد للبلدين قد ساعد على توثيق أواصر الروابط القديمة بين هذين الاقليمين ودعّمها على جميع الصعد الحضارية[٤].

لقد أدرك الطولونيون ومن بعدهم الاخشيديون أن موقع مصر والشام ومواردها الاقتصادية والبشرية تشكلان قوة كبيرة يهابها الأعداء والأصدقاء على السواء، فيما إذا أحسن استخدامها، لهذا لم يترددوا في الافادة من امكانات البلدين وتوظيفها لحماية استقلالهما السياسي وازدهارهما في مختلف مظاهر الحياة الحضارية والاجتماعية منها والثقافية والاقتصادية بخاصة، وقاد ذلك كله لوضع عسكري مهيب وقوة فعالة[٥] ، لكن سرعان ما كانت هذه القوة تنهار أثر

سياسة الصراعات الاقليمية والأطماع الشخصية وضعف الرؤى للحكام في البلدين ، ودليلنا على ذلك ماسجله المؤرخون في العصرين الطولوني والأخشيدي من تقدم حضاري مرموق ونشاط تجاري ملحوظ[٦] .

ولاشك أن العلاقات بأشكالها المختلفة غدت في العصر الفاطمي أكثر عمقاً وشمولاً ، بحيث قامت خلافة فاطمية مستقلة كل الاستقلال عن الخلافة العباسية في بغداد ، وكان لها أهداف وتطلعات عقائدية وفكرية دفعتها إلى التوجه إلى الشرق وبخاصة إلى مصر والشام، منذ أن بزغ فجرها في المغرب العربي في عام ٢٩٦هـ / ٩٠٨م[٧] . ودفع الفاطميين نحو الشرق ، الضرورات الاستراتيجية والفكرية والايدلوجية واقامة خلافة فاطمية تقود العالم العربي الاسلامي سياسياً وحضارياً ، وبالتالي السيطرة على امكانات البلدين الكبيرة والوصول إلى الديار المقدسة في فلسطين والحجاز ، والحصول على شرف حمايتها وحراسة وتأمين الطرق المؤدية إليها، وكسب الرأي العام العربي الاسلامي الذي زاد استياؤه وتذمره من التعديات على قوافل الحجاج ونهبها واختلال أمن الطرقات[٨] .

وما أن تم لجوهر الاستيلاء على مصر، حتى دعت الضرورات السياسية والعسكرية والاقتصادية التوجه إلى بلاد الشام ، لذلك قرر الشروع فوراً بارسال جيش لضمّها[٩] ، ولتأمين نشر الدعوة الفاطمية فضلاً عن الرغبة في تأمين حدود الدولة الفاطمية في مصر، التي باتت مهددة بأخطار كبيرة، على رأسها الدولة البيزنطية والقرامطة والخلافة العباسية وغيرهم من الطامعين. لكل ذلك جهز جوهر جيشا في أواخر عام ٣٥٩هـ / ٩٧٠م ، ولم يلق هذا الجيش مقاومة كبيرة من القوات الأخشيدية، وتمكن بفترة وجيزة من أن يسيطر على الرملة وطبرية وحوران والبثنية ، ودخل القائد الفاطمي دمشق وأقام الخطبة للخليفة المعز فيها

وقطعت الخطبة للخليفة العباسي المطيع في بغداد، من العام السابق الذكر نفسه[١٠] .

ولقد سيطر على الحكم الفاطمي لبلاد الشام ولاسيما في عهد القائد الفاطمي الأول[١١] « جعفر بن فلاح الكتامي » ، وربما كان ذلك نتيجةً للصعوبات التي واجهها الحكم الفاطمي فيها، أو نتيجة لسوء التصرف الذي حصل من القائد جعفر وجنوده وردود الفعل على اعتماده وعساكره من المغاربة، أسلوب البطش والقتل والتدمير والحرق والنهب للمدن والقرى ، واهانة الأهالي في دمشق وغيرها من المدن الشامية .

كما أنه مما لاشك فيه، أن السر في الصراع العنيف بين القرامطة والفاطميين في بلاد الشام، يعود إلى أن القرامطة قد خسروا نفوذهم الاقتصادي والتجاري في بلاد الشام، أثر امتداد النفوذ الفاطمي عليها ورفض هؤلاء دفع الأتاوة والفروض المقررة للقرامطة على المدن الشامية بموجب الاتفاقات منذ أيام الأخشيديين[١٢] .

ومع أن الفاطميين اعتمدوا أساليب متعددة لتوطيد نفوذهم السياسي والاقتصادي في مصر والشام، إلا أن الدبلوماسية والتسامح الديني[١٣] والتقرب إلى الشعب كانت من أبرز هذه الأساليب، وأعطوا سائر الفئات والطوائف ولاسيما أهل الذمة كامل التصرف والعمل ، وظهر هذا التوجه أكثر ماظهر في مصر .

ومن المعروف أن التسامح الفاطمي لم يقتصر على علاقات الفاطميين برعاياهم الذميين وغيرهم، وانما امتدّ ليشمل التجار الوافدين من العالم الغربي إلى موانيء مصر والشام ، ودليلنا على ذلك مالقيه تجار إيطالية، ولاسيما تجار (أمالفي والبندقية وجنوه) من تسهيلات، وما تمتعوا به من امتيازات تجارية

مكنتهم من ممارسة نشاطات تجارية مثمرة في كل من مصر والشام ، وجاءت بالفائدة المشتركة للجميع . ومما لاشك فيه أن هذه العلاقات التجارية كانت لمصلحة الطرفين الايطالي والفاطمي، التي استمرت حتى الحروب الصليبية . فاذا كان التجار الايطاليون قد افادوا من نقل السلع والمتاجر إلى الغرب الاوربي ، إلا أن الفاطميين افادوا بدورهم من الحصول على بعض السلع الضرورية اللازمة لمجهوداتها العسكرية من جهة ، وزيادات واردات الدولة من جهة أخرى، لقاء ماكان يؤخذ من التجار، من رسوم وضرائب وسلع مهمة على رأسها الخشب والحديد والرقيق وكانت هذه السلع مجال منافسة كبيرة بينهم وبين بيزنطة والغرب، الممثل بالبابوية والمدن التجارية الايطالية وغيرهم(١٤) .

وعلى الرغم من كل الظروف التي كانت تحيط بالدولة الفاطمية ، فلقد شهدت الحقبة الفاطمية الاولى منها تقدما اقتصاديا وتجاريا كبيرا وملحوظا، شمل جميع شعوب حوض البحر المتوسط العربية منها والاجنبية . وتؤكد الوثائق والمصادر والمعلومات التاريخية هذا النشاط الاقتصادي في العصر الفاطمي الأول وحتى الغزو الفرنجي للشام ومصر(١٥) .

عمل الفاطميون على التمسك بالشام وبذلوا جهودا مضنية للاحتفاظ بها ، وتعرضوا فيها لدسائس واعداء كثر ، وغدت الشام طريقاً لجبهتين حربيتين : العباسيون وقواهم في بغداد ، والبيزنطيون في القسطنطينية . وهؤلاء لم يغيروا استراتيجيتهم طوال العصر الفاطمي، حيث استمرت بيزنطة في شن حروبها على جميع الاصعدة السياسية منها والاقتصادية والعسكرية ضد الفاطميين، وذلك كي لاتسمح لهم بتشكيل قوة سياسية في الشام ومصر، تهدد مصالحها الاقتصادية ولاسيما التجارية منها، في بلاد الشام وحوض البحر المتوسط . وقد وصلت

الاطماع البيزنطية إلى ذروتها قبيل التوسع الفاطمي في جنوب الشام ، وتجلى ذلك بالغزو البيزنطي لشمال الشام وتطويق حاضرته السياسية والتجارية «حلب»، وفرض بيزنطة وصايتها عليها وعلى المناطق التابعة لها وذلك بفرض معاهدة أبرمتها مع بقايا الحمدانيين فيها، في صفر سنة ٣٥٩ هـ ديسمبر / يناير ٩٦٩/٩٧٠م ، وجعلت هذه الاتفاقية من حلب والمناطق التابعة لها، منطقة نفوذ بيزنطي ومجالا للتوسع الاقتصادي لهم وفتح تجارتهم مع الشرق وسلعه عبر اسواق حلب وقيسارياتها التجارية النشطة .

لهذا أخذت بينزنطة تساند القوى المحلية من حمدانية وغيرها ، ضد الفاطميين وتعمل جاهدة على منع شمال بلاد الشام من الهيمنة الفاطمية . ومما يؤكد هذا الأهتمام البيزنطي بحلب، ما ورد صراحة في نص الاتفاقية الانفة الذكر، مفاده أن يتعهد والي حلب « قرعويه » ومن يأتي بعده بحماية القوافل التجارية القادمة من بيزنطة ومن ثم أن يقوم باستلامها وحراستها(١٦) . ولاشك أن هذا التدخل البيزنطي في شمال بلاد الشام، يفسر لنا العلاقات المتوترة بين بيزنطة والفاطميين .

غيرأن القوة العسكرية والسياسية للفاطميين كانت تفرض وجودها، وتجبر بعض اباطرة بيزنطة إلى اعتماد سياسة التفاهم(١٧) . ولهذا كثيرا ما كانت بيزنطة تعقد المعاهدات والاتفاقات مع الفاطميين ، وتعيد العلاقات التجارية معهم وتتم عمليات التبادل التجاري بينهما . لكن سرعان ماكان اباطرة بيزنطة ينقضون هذه الاتفاقات عند اول فرصة تسمح لهم الظروف بذلك انسجاما، مع السياسة البيزنطية المعادية للفاطميين وغيرهم من القوى الفاعلة الاسلامية في الشام ومصر.

وتؤكد المصادر اخبار الجهود الفاطمية فيما يخص التجارة وخدمتها، وذلك بعقد اتفاقات التفاهم مع بيزنطة وغيرها ، كاتفاقية عام ٤٢٩ هـ ١٠٣٨م

و٤٣٩هـ/١٠٥٤م وغيرها. وكثيرا ما تضمنت هذه الاتفاقات بنودا خاصة تتعلق بالتجارة ، وذلك ادراكا من الفاطميين لاهمية التجارة وضرورة المبادلات التجارية ، وذلك على الرغم من موقف بيزنطة الحذر والمتذبذب في هذا الاتجاه . ولم تستجب بيزنطة للرغبات الفاطمية الا بعد أن فرض هؤلاء قوتهم العسكرية في مصر أولا ومن ثم في بلاد الشام ، وأحكموا سيطرتهم عليها على يد بعض القادة كالدزيري وغيره ، وذلك أوائل حكم المستنصر الفاطمي (٤٢٧ — ٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م). لهذا اضطر ميخائيل الرابع الفلاغوني (١٠٤١م) للجنوح إلى السلام ووقع الهدنة مع الخليفة المستنصر الفاطمي في عام ٤٢٩هـ/١٠٣٨م آنفة الذكر . واستمرت العلاقات الفاطمية البيزنطية حتى نهاية الحكم الفاطمي يشوبها هذا الشعور المشحون بالحذر[١٩] .

وعلى الرغم مما تعرضت له السياسة الفاطمية في بلاد الشام من معارضة عنيفة، فقد استمر الفاطميون متمسكين بحكم الشام والعمل على ابقائه تحت سيطرتهم بهدف تأمين مصالحهم وحماية حدود دولتهم . وتحملوا الكثير من المتاعب وصرفوا الأموال الطائلة ، واشتروا الاتباع من أجل أحكام السيطرة على الشام، ولاسيما محور فلسطين دمشق (محور عسقلان الرملة طبرية دمشق)، الذي يؤمن لهم الطرق التجارية بين البلدين ويحميها من جهة ويؤمن طريق التجارة بخاصة مع الغرب الأوروبي والمدن الايطالية التجارية من جهة أخرى . كما يؤمن لهم الطرق التجارية في شرق البحر المتوسط وانعاش الطريق تحت نفوذهم من الشام حتى أقصى افريقية[١٩] ، وعلى هذا الاساس أدرك الفاطميون أهمية بقاء الشام بأيديهم ، بأسواقه وموانئه المليئة دائماً بالبضائع والسلع الشرقية الاتية براً وبحراً بوساطة منافذ الخليج العربي وغيره من الموانىء الشامية ومنها في

اتجاه أوروبة . وهذا مايفسر لنا موقف الفاطميين من ثورة الملاّح «علامة» في مدينة صور، ودعم البيزنطيين له عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م، والتشدد الفاطمي في القضاء على هذه الثورة والمؤيدين لها من زعماء بني طي في فلسطين، والقسوة في عقاب هذا الثائر وغيره(٢٠) . ولاشك في أن فظاعة هذا الانتقام تعطي الدليل على خطر صور وغيرها من المدن الساحلية الشامية ومكانتها في دولة الفاطميين . ولقد استمر الوضع في بلاد الشام في الميدان السياسي والعسكري مضطربا ، وظهرت آثار الحروب والصراعات العسكرية في القرى والمدن الشامية، حيث تعرضت للنهب والتدمير خلال تلك المنازعات، وشكّل ذلك عاملا معيقا ووقف حائلا أمام التطور الاقتصادي بشكل عام والنهوض التجاري بشكل خاص، وخسرت البلاد الكثير من مواردها وامكاناتها ، وصرفت الأموال الباهظة لاخماد الثورات والفتن والحروب(٢١) .

العوامل التي اسهمت في النشاط التجاري :

كان على الفاطميين بعد أن اتخذوا القاهرة حاضرة لخلافتهم الفتية وبعد تحقيق الكسب السياسي الكبير، أن يعملوا على حماية هذا النجاح ويدعموه بتقدم وتفوق اقتصادي، يتناسب مع المشروع الفاطمي الكبير وأهدافهم وحجم المسؤولية الخطيرة، بعد السيطرة التي فرضوها على أهم ولايتين واقليمين في الدولة العربية الاسلامية . ومن خلال استعراض الاحوال الاقتصادية لمصر والشام في العصر الفاطمي الأول، يتضح أن هناك عوامل كثيرة كانت الى حد كبير وراء الازدهار التجاري ويمكن أن يأتي في مقدمتها :

أولا : الموقع الجغرافي والاستراتيجي الهام للبلدين ، هذا الموقع الذي أهلّها لان تكون طوال هذه الحقبة، تلعب دورا مهما ورئيساً في التجارة الدولية، ساعدها على زيادة فعاليتها ونشاطها التجاري. وحظيت معظم المدن الساحلية

بهذا النشاط أمثال : طرابلس وبيروت وصيدا وصور الاسكندرية ودمياط وغيرها ، هذا فضلا عن أهمية كل من البحرين المتوسط والأحمر وأهميتهما في التجارة الدولية وتحكمهما بمنافذهما طوال العصور الوسطى . كما واستمرت المدن الداخلية محافظة على نشاطها التجاري، نتيجة لهذا الموقع الهام، فامتلأت بالسلع الشرقية الاتية من الهند والصين، وشكلت اسواقها مراكز تخزين هامة ومناطق عبور لهذه السلع المتجهة منها وعبر موانيء الشام ومصر إلى أوروبة . ويكفي أن نتذكر كل من حلب ودمشق والفسطاط وتينس والقاهرة وغيرها من المدن الشامية والمصرية، لنؤكد مدى النشاط التجاري الذي وصلته خلال هذه الحقبة الفاطمية(٤٢) .

ثانيا : التوجهات الاسلامية والسياسية العامة للحكام الفاطميين المستندة على التعاليم الاسلامية ومبادئه وقيمه ، هذه المبادىء والدعائم القائمة على العدل والكسب الحلال والعمل الجاد ، ومنع الاستغلال والجشع المادي . كما كانت السياسة العامة للحكام والخلفاء الفاطميين، تقوم على العناية بالتجارة والحث على عوامل النهوض بها ومتابعة رعايتها، من خلال الاهتمام بطرق القوافل التجارية وحفر الأبار لتأمين مياه الشرب ، وتشييد الرباطات والاسواق والفنادق والوكالات، ورفع المنارات في الموانىء والثغور الحربية والتجارية وبناء الأساطيل لحماية الشواطىء من غارات الاعداء والمتربصين بالارض وبالاموال والممتلكات، واقامة الجسور والقناطر على الانهار وتعمير الطرق وصيانتها وتقسيمها إلى مراحل ووضع الاشارات الخاصة عليها، للدلالة وتخصيص النفقات الباهظة لحراسة الطرق وخفارتها إلى غير ذلك من اجراءات كثيرة قامت بها السلطات الفاطمية بهدف خدمة التجارة والعمل التجاري. واشار إلى كل ذلك الرحالة

والجغرافيون والمؤرخون والعلماء المهتمون بالحضارة العربية الاسلامية[٢٣] .

ثالثا : الموارد الاقتصادية، حيث انبتت أرض مصر والشام موارد زراعية وصناعية وانفردتا بخيرات ومواد أولية وسلع صناعية، كان لها من الأهمية بحيث لايمكن الاستغناء عنها واستمرار الحضارة البشرية من دونها ، ولاسيما أنهما انفردتا بمحاصيل متميزة كاالشب ، والنطرون والبلسان وماء الورد والسكر والورق والبردى والاترج والنارنج وغيرها من مواد وسلع لاتتوفر الا في مناطقهما . وقد ساعدت هذه الموارد الزراعية والصناعية ـ فضلا عن المواد الخام الطبيعية التي كانت دفينة في أرض البلدين ، والتي أفاضت بذكرها المصادر ـ على قيام صناعات زراعية وتحويلية متنوعة ومتقدمة، وساهمت في تقديم بعض السلع والموارد التي صدرت للغرب والشرق ، بحيث كان من العسير الاستغناء عنها، نظرا لأهميتها، ونخص بالذكر من هذه الصناعات التي لاقت رواجاً وتقدماً في العصر الفاطمي في كل من مصر والشام : الصناعات النسيجية المختلفة الحريرية والكتانية والقطنية ، ثم صناعة السكر والعسل والحلوى والصابون الزيوت ، وماء الورد ، ومن ثم صناعة الزجاج والخزف وصناعة الورق والصناعات البحرية الهامة كالسفن والمراكب الحربية والتجارية[٢٤] ، وغير ذلك من صناعات كثيرة هامة ومتطورة . ولقد كان للحياة الاجتماعية المترفة والتي رافقت التطور العام في العصر الفاطمي الأثر الكبير على التقدم الصناعي من حيث الكم والكيف ، ومن ثم استخدموا اساليب جديدة في المجال الصناعي والتجاري، لتلبية الحاجة الاجتماعية الراقية والمترفة وبخاصة في البلاط الفاطمي والفئات الحاكمة والغنية .

سياسة الفاطميين الاقتصادية :

اعتمد الفاطميون سياسة اقتصادية ساعدت على النهوض الاقتصادي والتجاري منذ قيام دولتهم وقد قامت هذه السياسة على الأسس التالية :

آ ـ محاولة نشر الأمن ومحاربة الفوضى والخارجين على النظام[٢٥] والمرتشين وانهاء الرشوة واسقاط الضرائب الجائرة ، وعدم نشر المعلومات عن ارتفاع النيل وانخفاضه، وحصر ذلك بسلطة القصر، كي لا يستغلها التجار والمحتكرون. واسناد أمر تنفيذ هذه الاوامر إلى المحتسب الذي اختير من الثقات الخلّص للفاطميين وممن يدين بالولاء الكامل لهم ، وأعطي صلاحيات واسعة تتناسب مع مهماته وأعماله .

ب ـ التسامح الديني الكبير مع سائر الطوائف والعناصر التي خضعت للنفوذ الفاطمي في معظم مراحل تاريخ الدولة، وفتح الباب أمام الجميع للنهوض بالوضع الاقتصادي وبالعمل التجاري[٢٦] دون قيد ، وذلك اذا استثنينا فترة حكم «الخليفة الحاكم » الفاطمي المضطربة ، وتعرّض بعض اسواق الفسطاط للنهب والاعتداء .

جـ ـ العناية بالزراعة وبوسائل نهوضها وتأمين الزراع ومعاملة الفلاحين باللين والرحمة، وعدم تركهم تحت رحمة المتقبلين أو المقتطعين لتقدير فرض الضرائب كما يشاؤون ، بل تدخل الفاطميون فحددوا فئات هذه الضرائب وكانوا يراجعونها من حين إلى آخر[٢٧] على الرغم من قيام بعض الحكام بنقض هذا التوجه العام .

د ـ تحديد الدولة للاسعار والتدخل اثناء الازمات الاقتصادية وارتفاع الاسعار، وذلك لمحاربة الاحتكار . وكان المحتسب يشرف على الغلال وينظم عملية بيعها بأسعار منخفضة مناسبة ، وتحديد سعر عام للسلع، حماية للمصالح

العامة[٢٨] . وكانت الدولة تتدخل للخروج من الازمات الاقتصادية، التي كثيرا ما كانت تتعرض لها البلاد ، وتقف بحزم ولا تتراخى[٢٩] وتعتبر التجار وبائعي الحبوب والسماسرة مسؤولين عن نقص الاقوات . وكان المحتسب يقوم بردع المخالفين والمحتكرين ، ولم يتردد باستخدام الاساليب الكفيلة بتسوية الأمور والقضاء على الاختناقات ، ولاسيما في العصر الفاطمي الأول عندما كان الخلفاء مصدر السلطة[٣٠] .

هـ ـ المخازن السلطانية : اعتمد الفاطميون سياسة شراء بعض السلع وتخزينها « بالمخازن السلطانية ». ومن أهمها القمح ، وطرحها بالاسواق اثناء الشدائد وبيعها بسعر معقول، للمساهمة في عمليات الافراج في الاسواق ومنع الاختناقات والاحتكارات والازمات، التي كثيرا ماكانت تظهر على اثر انخفاض مياه النيل أو زيادتها عن الحد الأعلى وحدوث الاستبحار وفي كلتا الحالتين تهدد الزراعة في الدلتا[٣١] .

و ـ المعاهدات والتسهيلات التجارية : من المعروف ان الفاطميين لم يترددوا في الانفتاح على العالم الخارجي وفي عقد الاتفاقات والمعاهدات واعطاء التسهيلات وتقديم المزايا للتجار الاجانب، وذلك بغية الحصول على السلع المهمة والضرورية، كالخشب والحديد والرقيق اللازمة للصناعات الحربية والتجهيزات البحرية والعسكرية والتجارية والمواد الاخرى التي تساهم في المجهود العسكري وغيره، والتي لايمكن الاستغناء عنها[٣٢] . وكل ذلك أدى إلى زيادة التبادل التجاري وكثرة ورود التجار والسفن من الغرب الاوروبي وغيره بكثرة إلى مصر والشام ، وظهرت مؤسساتهم التجارية في الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس ، وغيرها من المدن والمرافىء المصرية والشامية ومراكزها التجارية .

ز ـ ثروة الفاطميين من الأموال والذهب « المتجر الفاطمي » :

جلب الفاطميون إلى مصر كميات هائلة من ذهب المغرب وافريقية وجاءتهم بأساليب مختلفة ، وقد استغلوا هذه الثروة الهائلة بالتجارة وبخاصة الشرقية وشجعوها . ثم تطور دور الحكومة الفاطمية في العمل التجاري، عندما اقدموا على احتكار العديد من السلع الضرورية والكمالية. وقصد الفاطميون من ذلك تحقيق هدفين : **الاول** زيادة استثمار اموال الدولة والوزراء وكبار رجال البلاط والاغنياء والحصول على ارباح من وراء ذلك، بما لايسبب أية اضرار حيث كانت الدولة تبيع السلع بالسعر العادي والمناسب ، أما الهدف **الثاني** فهو القضاء على الاحتكار التجاري بالأسواق، وعندما تشتد وطأة الاحتكارات كانت الحكومة تخرج من مخازنها الغلال وتوزعها على الاسواق وتقضي بذلك على الأزمة(٣٣) .

ولقد احتكرت الدولة صناعة المنسوجات وبخاصة الطراز ، والمناجم والاخشاب ومحصولي الشب والنطرون . وكانت الدولة تبيعها لتجار الروم في الاسكندرية، وكانت تدر ارباحا كبيرة لبيت المال . كما وكانوا يقايضونها مع تجار المدن الايطالية ، بالخشب الضروري ، والهام للصناعات المصرية . وكان المتجر يعرض محصول الشب فيشتريها الصناع والصيّاغ والحرفيون اللبوديون ، وأما النطرون فيباع لصناع النحاس ومبيضي الأواني ... وقد استمر نظام المتجر الفاطمي يؤدي دروه ويحقق الارباح والاستثمارات ، وكانت أهم سلع المتجر ، هي الحبوب والاخشاب ، والحديد ، والصابون والعسل والرصاص ، اضافة إلى الشب والنطرون وغيرها من المواد التي احتكرتها الدولة الفاطمية(٣٤) .

ح : الحج : كان الحج إلى الاماكن المقدسة في فلسطين وغيرها، بما في ذلك الحج الاسلامي والمسيحي، من العوامل المهمة في تنشيط التجارة وزيادة حجمها بين الغرب والشرق . ويورد « بنيامن التطيلي » في رحلته عن قافلة حج تعد أكبر قافلة عن الحجاج قبيل الحروب الصليبية، وهي التي رأسها أربعة اساقفة كبار. وكانت في سنة ٤٥٧ هـ/١٠٦٤م/١٠٦٥م .

ط ـ الاهتمام بالأسواق : واخيرا هناك عوامل كثيرة اعتمدها الفاطميون وأسهمت في النهوض التجاري، منها الاهتمام بالاسواق وعدم السماح بنشر الفوضى فيها وحمايتها حتى اثناء الخطوب والازمات السياسية . ونتيجة لاهتمام الدولة بأمن التجار ومتاجرهم، فقد بلغ من الحد لدرجة أن البزازين « تجار القماش » وتجار الجواهر والصيارفة كانوا لايغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر ، ولم يكن يجرؤ أحد على مد يده إلى شيء منها[٣٥] . كما كان التجار بالسوق أن الخليفة لايظلم أحدا ولايطمع بمال أحد . وكان زعماء الدولة والقادة العسكريون لايتجاسرون على مصادرة أموال التجار نتيجة لقوة نفوذهم في البلاط الفاطمي .

وهناك رواية في غاية الأهمية، يرويها صاحب (سيرة البديعة المقدسة) توضح ما كان التجار يتمتعون به من أمان، وما كان القضاء عليه من عدل واحترام. فقد أورد قاضي ابن النعمان القول : « أنه وصل إلى مصر رجل ببضاعة وهي زبيب وعسل للاكل وعمل الحلوى وانها احرقت فأتى القاضي فجاء بالحاكم فساواهما بالجلوس في المحكمة والتمس التاجر ماله وقيمته ثمن البضاعة الف دينار بعد أن اقسم التجار على صدق قوله فرد الحاكم ثمن البضاعة له »[٣٦] .

ومما ساعد على التجارة أيضاً، قيام الحكومة الفاطمية بتأمين الحوانيت والمخازن والقياسر وغيرها من المؤسسات التجارية وتأجيرها بأسعار مناسبة . كما ساد في العصر الفاطمي نظام تأجير الاربطة التجارية، مثل رباط الوزير وكذلك تأجير الدور ووجد بمدينة الفسطاط مائتا رباط مستأجرة طيلة العصر الفاطمي(٣٧) .

كما اهتمت الدولة في العصر الفاطمي باقامة الوكالات التجارية، مساهمة منها في خدمة التجارة وتشجيعها . ومن أهم الوكالات في مصر في العصر الفاطمي وكالة الحراني في الفسطاط ، ثم الوكالة الأميرية التي شيدها المأمون البطائحي(٣٨) وزير الخليفة الآمر بأحكام الله، سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م، في القاهرة، للتجار القادمين من الشام والعراق ، وكذلك وكالة ابن ميسر التي أنشأها سنة ٥٣١هـ / ١١٣٧م، وغيرها الكثير من الوكالات والفنادق والقياسر والخانات مما أشارت إليها المصادر ، وكثرة اشادتها في العصر الفاطمي يؤكد النشاط التجاري الخارجي في البلدين ، وزيادة التبادل الداخلي بين البلدين: الشام ومصر .

العوامل التي أسهمت في ضعف النشاط التجاري :

يمكن أن نوجز هذه العوامل التي أعاقت النشاط التجاري بعاملين اثنين وهما: العوامل السياسية ، والعوامل الطبيعية .

أما فيما يتعلق بالعوامل السياسية، فهي الحروب والصراعات التي اندلعت بين القوى المختلفة على النفوذ والحكم في كل من الشام ومصر ، وعملت على نشر الفوضى وتخريب المحاصيل ونهب الأموال والممتلكات وقطع الطرق وفقدان الأمن، الذي يعد أهم ركن من اركان النشاط التجاري . وفي هذه الحقبة

الفاطمية، تعرضت الشام ومصر لأحداث كثيرة عملت في نشر الفوضى ، فمن ثورات داخلية وأزمات سياسية ، وحركات قرمطية ، وتنافس على السلطة وتهديد بيزنطي واجتياح تركي سلجوقي ، ثم غزو صليبي . ومن ثم التنافس بين الخلافتين الاسلاميتين: العباسية في بغداد ، والفاطمية في القاهرة . كما وتعرضت طرق القوافل التجارية وطرق الحج لهجمات قبائل البدو وقطاع الطرق سواء في البر أو في البحر ، وأفادت مصادر تلك الفترة اشارات كثيرة إلى هذه الجوانب(٣٩) .

ثم جاءت العوامل الطبيعية ، وماترتب عنها من محن وكوارث وزلازل اجتاحت المنطقة في هذه الحقبة ، وكانت من العوامل التي أسهمت أيضاً في الحد من النشاط الاقتصادي(٤٠) في كلا البلدين . وقد أشارت المصادر إلى العديد من هذه الكوارث الطبيعية التي حدَّت من النشاط التجاري في العصر الفاطمي(٤١) .

الغزو الصليبي للشام وأثره على تجارة البلدين :

تأثرت الشام ومصر تجارياً بهذا الغزو ، حيث عمل الصليبيون على قطع طرق المواصلات التجارية البرية والبحرية بين البلدين(٤٢) ، وتحقق لهم ذلك بحرياً باحتلالهم أهم الموانىء الشامية البحرية التجارية في شرق البحر المتوسط .

كان من أهم آثار هذا الغزو، وقوع جميع موانىء الساحل الشرقي للبحر المتوسط تحت السيطرة الأوروبية الصليبية، وذلك حتى ٥٨٣هـ / ١١٨٧. كما نتج عن هذا الغزو، تعاظم الدور الايطالي في التجارة الدولية، وذلك على حساب التجارة العربية الاسلامية . فحتى قيام الحركة الصليبية، كانت التجارة بين

الشرق والغرب تسير وفق اتجاه واحد لصالح التجار العرب المسلمين في الشام ومصر[٤٣] . لكن على أثر هذا الغزو، تم ابعاد التجار الشاميين من النشاط التجاري في عالم المتوسط .

وفي الواقع، لم يكن النشاط التجاري في بلاد الشام مقتصراً على المدن الساحلية فحسب بل شهدت بعض مدنها الداخلية كحلب ودمشق نشاطاً تجارياً ملموساً[٤٤] . لكن هذا النشاط التجاري اجمالاً كان لصالح التجارة الأوروبية والمدن الايطالية، بخاصة حيث نما على حساب التجارة الشامية والمصرية[٤٥] .

أمافيما يتعلق بالاتصال التجاري البري بين الشام ومصر، فقد كانت الضرورات الاقتصادية والعسكرية تفرض على الصليبيين أن يتحكموا بها وبطرقها، بهدف تشديد الخناق على مصر وقطع سبل الاتصال البري مع كل من الشام والحجاز واضعافها اقتصادياً وعسكرياً . لهذا أنصبت الجهود الصليبية، ولاسيما في مملكة بيت المقدس، على السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبي البحر الميت وحتى خليج العقبة، وهي المنطقة المعروفة باسم وادي عربة[٤٦] . وكان هدف هذا المشروع الصليبي، هو تحقيق التحكم الصليبي في الطريق البري بين مصر والشام والحجاز والعراق، وتهديد القوافل التجارية . ولم تمض سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م، إلا وكانت سيطرتهم قد تمت على هذا الوادي، وأقاموا عدة حصون وقلاع أهمها: الشوبك والكرك، واتخذوها مراكز للهيمنة على الطرق ومهاجمة القوافل المتجهة من مصر إلى فلسطين، ومنها لبقية مدن الشام وغيرها . ثم أكمل الصليبيون عملهم باحتلال العقبة، وتمكنوا من الاشراف على شبه جزيرة سيناء ، وتحكموا بكل اتصال بري مابين الشام ومصر بعد ذلك . ثم قادهم طمعهم لاستكمال تنفيذ مخططهم الاستعماري الاقتصادي وتوسيع هذا

المشروع الصليبي، بالتوجه إلى مصر واحتلالها. لهذا حاول بلدوين الأول (ت ٥١٢هـ) (١١١٨م) تنفيذ هذا المشروع بالهجوم على الفرما في سنة ٥١٢هـ - ١١١٨م ودفع حياته ثمناً لذلك ... وحاول الصليبيون بعد ذلك احتلال مصر والسيطرة عليها ودخلوا بذلك في سباق مع نور الدين زنكي (ت ٥٧١هـ - ١١٧٤م)، صاحب دمشق وخسروا السباق . وهذه الخسارة جعلتهم يشددون قبضتهم على طريق الكرك /الشوبك/ العقبة ، وظهرت أطماع الأحمق ، أرناط، صاحب الكرك الذي حاول النفوذ إلى البحر الأحمر وتجارته وتهديد التجارة المصرية هناك، بعد أن غدا الطريق الرئيسي والوحيد لمصر في هذه الحقبة(٤٧) .

كل ذلك أثر في الحركة التجارية المصرية وتكدست السلع التجارية بأسواق الفسطاط والاسكندرية ، وذلك لتوجه التجارة إلى الموانيء الشامية الصليبية. وأخذت مع الأيام حركة الموانيء المصرية بالضعف ، ولم تجد السلع المصرية أسواقاً لها للتصريف واستمر ذلك بعض الوقت ... ورافق ذلك الاضطرابات الأخيرة التي أخذت تعصف بالدولة الفاطمية وأحدثت فيها الهزات العنيفة. وفُقِدَ الذهب والفضة في مصر. وأشارت المصادر إلى ذلك وندر الذهب في ٥٦٧هـ / ١١٧١م، وهي السنة التي سقطت فيها الخلافة الفاطمية في مصر(٤٨) . لهذا كان على الحكام في القاهرة أن يفتشوا عن مخرج لتخطي هذه الأزمة ، وذلك عن طريق تشجيع التجارة إلى الشرق في البحر الأحمر من جهة ، واعطاء امتيازات تجارية لتجار المدن الايطالية من جهة أخرى، بهدف جذبهم إلى الأسواق المصرية.

وعلى الرغم من الحروب بين الصليبين والمسلمين، فإن العمليات التجارية لم تنقطع بين الشام ومصر من جهة وبين مدن الشام الداخلية والساحلية الواقعة

تحت النفوذ الصليبي والخارجة عنه . واستمرت التجارة بلا توقف، إلا في أثناء الحروب ، حيث كانت تعود إلى النشاط بعد توقف القتال ، وذلك ادراكاً من القوى المتصارعة بأن المصلحة تقتضي الاستمرار في هذه التجارة[٤٩] . وفي الواقع، كان المستفيد الأول من هذه التجارة ونشاطها تجار المدن الايطالية، الذين كانوا قد حصلوا على امتيازات تجارية منذ بداية الحركة الصليبية[٥٠] . وكان الوازع الديني لتجار المدن الايطالية ضعيفاً أمام الحس التجاري والجشع المادي ، وكان شعار البنادقة في عصر الحروب الصليبية واضحاً ، وهو أنهم بنادقة أولاً ثم مسيحين ثانياً ... وتوضح المصادر أن الحروب الصليبية لم تؤثر كثيراً على الحركة التجارية، ولاسيما في الشام . وقد لفت ابن جبير الانتباه إلى ذلك ، حيث أوضح أن النشاط التجاري بين دمشق وعكا الصليبية ظل قائماً دون توقف في عصر الحروب الصليبية، حيث يقول : « ومن عجيب مايحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج من بلاد الافرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد الشام .. وأهل الحروب مشغولين بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب »[٥١] .

وعلى الرغم من أن ارناط ، صاحب الكرك والشوبك، قام أكثر من مرة باعتراض القوافل التجارية، الاسلامية ونهبها، وهي في طريقها مصر إلى الشام وبالعكس ، غير أن القوافل لم تتوقف بين الطرفين ... كما أشار ابن الأثير إلى هذه العلاقات التجارية في معرض حديثه عن تهريب الغلال إلى انطاكية لبيعها بأسعار مرتفعة بسبب ندرتها هناك ... كما تحدثت مصادر كثيرة عن هذه العلاقات التجارية بين المسلمين والصليبين ، ولفتت الانتباه إليها والاهتمام المتبادل بها والاشتراك في حراستها وتأمين حمايتها، كل في محيطه ومناطق نفوذه وسيطرته[٥٢] .

كما نشطت التجارة وتطورت عن طريق البحر الأحمر، وازدهرت الطرق المؤدية إليه، البرية منها والبحرية، ونشطت مراكزه التجارية وذلك تحقيقاً للأهداف والمصالح الفاطمية . ووصلت التجارة الفاطمية في البحر الأحمر إلى قمة الازدهار، زمن الصليحيين ومن جاء بعدهم من بني زريع في اليمن .

هذه الأهمية التجارية لهذا الطريق التجاري الشرقي البحري يمكن أن تفسر الاهتمام الفاطمي باليمن وشبه الجزيرة العربية، منذ أيام الدعوة الاسماعيلية المبكرة واستمرارها بهذا الاهتمام وقيامهم بارسال الدعاة . وقد نجح هؤلاء باقامة الحكم الصليحي باليمن، والذي استند على النشاط الدعوي الفكري و لم يدعم بأية قوة عسكرية. واستمر النفوذ الفاطمي باليمن بعد ذلك مايزيد عن مائة سنة، بعد عام ٤٥٥هـ / ١٠٤٧م وإلى نهاية الدولة الفاطمية في مصر . وعن طريق الصليحيين، امتدت الدعوى الفاطمية إلى الشرق واسندت بالدعاة إلى الهند والتي كان الحكام الصليحيون كثيراً مايقومون بتعينهم هناك ، كما كانوا عوناً للفاطميين في نشر نفوذهم في مكة والمدينة[٥٣] . وأدت التجارة الشرقية هذه دورها في نشر الدعوى الفاطمية في بلاد الهند وارتبطت معها على يد هؤلاء التجار الكارميه ، حتى أن أهالي الهند لم يكونوا يفرقون بين الدعاة والتجار ، وكان يطلقون على الاسماعيلي منهم اسم « البُهرة » أي تاجر البهار. وقد امدتنا وثائق الجنيزة بمعلومات هامة عن التجارة الكارميه[٥٤] ، في البحر الأحمر وأهم مراكزها التجارية وطرقها وسلعها وعلاقاتها بالوطن الأم مصر وببلاد الشرق الأقصى. واتضح منها أن عدن وعذاب وقوص والفسطاط ، كانت من أهم المراكز البرية والبحرية على هذا الخط التجاري الشرقي الكارمي. ونشطت في هذه الحقبة التجارة الكارمية في البحر الأحمر ، وكانت محل اهتمام الحكومة الفاطمية وتقوم

بحمايتها ، وكانت تجارة الكارم محط انظار الجميع في مصر، حيث كان الشعب ينتظر قدوم سفن الكارم من الشرق بشغف وهي تحمل السلع والبضائع التي كانت مطلباً للجميع ومحط أنظارهم(٥٥) ... والكارمية كما تحدثت عنها وثائق الجنيزة هم فئة من كبار التجار، اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى وفي تجارة التوابل بخاصة وما إليها من سلع. وكان مركز نشاطهم التجاري الأول في المحيط الهندي وقد أصاب هذه الحركة التجارية الكثير من الركود بسبب الغزو الصليبي والمقاطعة الصليبية للتجارة المصرية ، التي قادت كما اشرنا إلى كساد تجاري في الموانيء المصرية ، وزاد تفاقماً في نهاية الدولة الفاطمية. لكن سرعان ما فشل هذا الحصار الصليبي نتيجة لسيطرة وقوة المصالح الاقتصادية والتجارية بخاصة ، وهيمنتها على تجار المدن الايطالية ، إذ وجد هؤلاء أنه ليس من مصلحتهم أن يضحوا بمصالحهم التجارية لمساندة دعوة باطلة، ولاشك أنها خاسرة في النهاية . لهذا اتجه تجار المدن الايطالية صوب مصر والتجارة معها ، وتبين أن هذه المدن التجارية وبخاصة البندقية أنها بندقية أولاً وأخيراً ... وقد شجع هذا التوجه نحو مصر ، أيضاً رغبة الحكام في مصر من فاطميين وغيرهم لكسر طوق هذه العزلة بالانفتاح التجاري وزيادة التسهيلات والمعاملات التجارية والاكثار من تقديم المزايا للتجار وحمايتهم في ارض مصر . وقد انتقد كل من الفاطميين وصلاح الدين ، لسلوكهم هذه السياسة في خضم المعارك العسكرية والعداء بين الشرق والغرب. وظهر ذلك في خطاب موجه من صلاح الدين في مصر إلى الخليفة العباسي المستضيء في سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤من نقله صاحب كتاب الروضتين وبين فيه وجهة نظر صلاح الدين ودفاعه عن موقفه من المدن الايطالية وتجارها ومبرراته التجارية مع الغرب الأوروبي(٥٦) .

وهكذا سرعان ما رفع الحصار الاقتصادي عن مصر، وذلك ادراكاً من تجار المدن الايطالية أن الصفقات مع مصر أكثر ربحاً وأقل كلفة ومجازفة وأوسع سلعاً من موانىء الشام ، لهذا اتجهوا نحو مصر وبدأت ترجح كفة الاتجار مع مصر وموانئها، وأخذت الاساطيل الايطالية وغيرها ترد إلى الاسكندرية بكثرة قبل معركة حطين[٥٧] . ولقد كان هذا التوجه لصالح تجارة مصر أيضاً وظهرت ثمرات ذلك فيما بعد في العصرين الأيوبي والمملوكي .

التجارة الخارجية لمصر والشام :

أما فيما يتعلق بالتبادل التجاري بين الشام ومصر والعالم الخارجي فقط، اتضح أنه كان للشام ومصر علاقات كبيرة مع الدول والأقوام العربية والمناطق القريبة والبعيدة .

وكانت الشام تصدر إلى مصر الأخشاب والحديد لبناء السفن وتطوير الأسطول الفاطمي ، ثم الحرير الذي استعمل في صناعة الملابس الفاخرة، والذي كان يؤخذ من دودة القز التي كانت تنسج على نفسها هذا الخام، وكان يطلق عليه القرمز الأحمر ، وهو من المنسوجات الحريرية الراقية الصنع . كما صدرت الشام إلى مصر الزيت والصابون الجيد ، وكذلك السيوف الدمشقية المشهورة ، والزجاج المطلي بالمينا ، والورق النقي الجيد ، وبعض الحاصلات الغذائية ، كالفستق والحلوى ، وقمر الدين[٥٨] ثم التفاح الشامي الفاخر . وذكر ناصر خسرو أنه كان يؤتى إلى مصر من الشام يومياً بقوافل الثلج إلى القصور الفاطمية، والتي قدرت باربعة عشر حملاً من أحمال الجمال ، كما كانت ترد من دمشق ، الأواني والقدور النحاسية التي أطلق عليها اسم الدمشقية بأسواق مصر، ومن شهرة طلائها تحسبها من الذهب الخالص . كما جاء تجار الشام إلى مصر

بالتحف والنفائس والستور وغيرها ، من مواد أكدت عمق العلاقات الاقتصادية والتجارية بين البلدين[٥٩] .

وكانت مصر بالمقابل تصدر المنتجات المصرية الفاخرة ، من الأقمشة والملابس وبخاصة المنسوجات المذهبة والمطرزة بالطراز الذي تقدمت صناعاته في العصر الفاطمي . ثم الكتان والمنسوجات الكتانية ، وكان هذا يصدر إلى الشام كمواد خام أيضاً لكثرته في مصر وقلته في الشام . ونظراً لشهرة مصر بالصناعات الجلدية ، فكانت تصدر إلى الشام أنواع الأنطاع والأكمار وخرائط الجلد والستور والقسي وغيرها من مواد وسلع جادت بها أرض مصر ، ومدنها الصناعية المشهورة كالفسطاط وتنيس وديبق وغيرها في العصر الفاطمي لاسيما دهن البلسان والحوت البوري من دمياط والتحف الفاخرة وغيرها من المواد والسلع[٦٠] .

وكانت أهم واردات الشام ومصر من عمان اللؤلؤ العماني ، كما استوردت مصر والشام من الجزيرة العربية الخيول العربية الأصيلة والجمال ، ومن اليمن البر والدروع والقات واللبان والاسلحة وبعض المعادن النفيسة مثل العقيق من صنعاء ومن عدن وعمان العنبر واللبان والبخور[٦١] .

وكانت العلاقات التجارية مع أوروبة أقوى أوبخاصة مع جزر البحر المتوسط كصقلية وقبرص ، وكريت والمدن التجارية الايطالية: كامالفي وجنوه والبندقية وبيزا . وكانت أهم السلع التي تركزت عليها التجارة مع هذه المناطق الخشب والمعادن (الحديد والنحاس والفضة والذهب) ، ثم الرقيق بمختلف ألوانه وأجناسه ، وكان الجبن أكثر ما تطرحه السفن الأوروبية في أسواق مصر. كذلك كانت بيزنطه تصدر إلى أسواق مصر والشام المنسوجات والملابس

الحريرية وبخاصة ملابس النساء[٦٢] .

وأما قبرص وكريت، فكانت أكثر ما تصدران العسل والشمع ... وبالمقابل كانت الشام ومصر تصدران إلى هذه المناطق الزيوت مثل دهن القوطم والبلسان وزيت السلجم والخروع والاهليلج والخيار سنبر والشب والنطرون ، ثم الزجاج بأنواعه وأشكاله والأرز والصوف والفواكه النادرة، أمثال الليمون والرمان والتفاح والأترج ، وغير ذلك من صناعات شامية مصرية كثيرة متنوعة[٦٣] وجيدة ... اضافة إلى السلع الشرقية الواردة إلى أسواق كل من مصر والشام ، التي كانت تشغل أسواقها مخازن كبيرة ومهمة لها ومناطق عبور أيضاً تصل إلى أوروبة، عن طريق البر والبحر بوساطة التجار والوسطاء التجاريين من بيزنطيين وشاميين ويهود وأفارقة وغيرهم من تجار المدن الايطالية[٦٤] .

أما هدف التبادل التجاري المصري والشامي مع الهند والصين وجزر الهند الشرقية وغيرها من بلاد الشرق الأقصى ، فكان الحصول على مواردها الهامة والكثيرة وفي مقدمتها: الحرير والكافور والقرنفل وخشب العود والصندل وجوز الهند والحديد والمسك والكاغد والهيل والزنجبيل وجوز الطيب والدراصيني والفخار والخزف الصيني والسيوف المطعمة والجواهر النادرة والسروج المذهبة والياقوت والمرجان من الهند والعقيق والماس من جزيرة سيلان فضلاً عن التوابل والعطور والأفاويه وكان بعضها يستهلك من الداخل وبعضها يصدر إلى أوروبة[٦٥] وكان الفلفل يرد بكميات هائلة إلى مصر ، وكان الكافور يصل من ساحل زنجبار والصبر من جزر الهند ومن جاوه وخشب الساج المستخدم بصفة أساسية في صناعة السفن من شبه جزيرة الملايو، واللوز والجوز من بلاد الهند، ثم البخور والجواهر والأحجار الكريمة فضلاً عن العقاقير الطبية والأدوية مثل

الأطريفل والهليليج والبلاذر وغيرها من مواد كثيرة[٦٦] .

بالمقابل، كانت الشام ومصر تصدران إلى الشرق السكر والقطن والأقمشة والزجاج والورد المستخرج من المزة « بدمشق » والذي كان يسمى هناك الزهر، والعسل ، ثم البلسان ودهن الخروع والكتان والزمرد والعاج[٦٧] .

أما من بلاد فارس، فكان يؤتى بالفضة من مدينة كرمان وكابل وفرغانة ومن بخارى أيضاً ، كما صدرت هذه المدن النحاس الأصفر أيضاً ، وصدرت بلاد فارس كذلك ماء الورد ولاسيما إلى مصر[٦٨] وكان يضع فيها من زهور الورد والقيسوم والزعفران . وكانت الشام ومصر تصدران إلى بلاد فارس منتوجاتها وأهمها المنسوجات الجيدة بجميع أنواعها الحريرية والقطنية والكتانية[٦٩] .

الخلاصـــة :

- أكدت المصادر عمق العلاقات بين الشام ومصر وأوضحت مدى الروابط القوية بينهما وتشابك هذه الروابط السياسية والاقتصادية ، ومدى أهمية كل من البحرين المتوسط والأحمر بالنسبة لتجارة البلدين ، عبر العصور وكذلك على التجارة العالمية . لهذا كانا مصدر نزاع وصراع القوى للسيطرة عليهما، وعلى منافذهما الهامة[٧٠] . كما أوضحت المصادر أن الخطر الداهم بالنسبة لمصر كان يأتيها دائماً عبر الشام، لهذا اهتمت الحكومات المصرية بأمر الشام واعتبرت أمنه من أمنها .

- أدرك الصليبيون وغيرهم من الغزاة أهمية العلاقات التجارية بين الشام ومصر ومدى تأثيرها على امكاناتها السياسية والاقتصادية، لذلك عملوا على قطع وفصم عرى هذه الصلات التجارية لاضعاف البلدين ، واستخدموا ذلك ورقة ضغط على الفاطميين وغيرهم لاسقاط دولهم في الشام ومصر[٧١] .

- نظراً لأهمية كل من الشام ومصر وتحكمهما بمعظم النهايات للطرق التجارية البرية منها والبحرية، والتي كانت تتحكم بالتجارة العالمية وعملياتها طوال العصور الوسطى الاسلامية وقبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، لهذا فقد اكدت المصادر على أنه من يمتلك هذين البلدين يمكنه الامساك بعجلة الاقتصاد العالمي . وبالتالي التحكم بالتجارة الدولية .

الهوامش

١ ـ عن هذه العلاقات انظر :

ـ احمد فخري : **الاهرامات المصرية** : ص١١١ / ١١٣ / ١٢٦ (القاهرة ١٩٦٣م) .

ـ سليم حسن : **مصر القديمة** : ج٦ ص٣٧ (القاهرة ١٩٤٨م) .

ـ رشيد الناضوري : **أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان** ص٦ ومابعدها (مجلة كلية الآداب ـ الاسكندرية ١٩٦٨) .

ـ لوكاس : **المواد والصناعات عند قدماء المصريين** ص٧٠١ / ٧٥٥ (ترجمة زكي اسكندر ، ومحمد زكريا غنيم « القاهرة ») .

ـ محمود عبد الحميد أحمد : **سلسلة العلاقات السورية المصرية عبر العصور** ص ١١ / ٢٦ (دمشق ١٩٨٥م) .

ـ عبد القادر عبد المنعم : **علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهاية عصر الدولة الحديثة** ص ٣٤ ـ ٣٥ (الاسكندرية ١٩٦١) .

٢ ـ انظر :

ـ حسن ابراهيم حسن : **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر والشام وبلاد العرب** ص ١٠٠ ومابعدها (القاهرة ١٩٥٨م) .

ـ عبد المنعم ماجد : **ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها** ص١٠٩ ومابعدها (القاهرة ١٩٩٤م) .

ـ محمد جمال الدين سرور : **تاريخ الدولة الفاطمية** ص ٢٦٩ / ٢٧٠

ومابعدها (القاهرة ١٩٩٥م) .

ـ أيمن فؤاد سيد : **الدولة الفاطمية في مصر** ص ١٢٥ / ١٢٩ / ١٤٣ / ٢٠٧ ومابعدها (القاهرة ١٩٩٢م) .

ـ حسن أحمد محمود ، وسيد اسماعيل كاشف : **حضارة مصر، العصر الطولوني** ص١١ ومابعدها (القاهرة ١٩٦٠م) .

٣ ـ انظر المصادر والمراجع السابقة في (١ ـ ٢) .

٤ ـ عادل رضا : **التاريخ لاتحركه الصدفة** : ص.ص ٤٦٦ / ٤٦٧ / ٤٩٦ (القاهرة ١٩٩٣م) .

ـ محمد عبد الهادي شعيرة : شا مصر (المغرب) في عصور الاسلام ص١٩ ومابعدها الاسكندرية مكتبة سعيد رافق ١٩٧١م .

ـ سيده كاشف وحسن محمود : **حضارة مصر في عصر الطولونيين والاخشيدين** ص ١١ / ٤٩ / ٥٠ / ٢٧١ (القاهرة ١٩٦٠م) .

ـ سيده كاشف : **مصر في عصر الأخشيدين** ص ٧٥ ـ ٣٧٣ (القاهرة ١٩٧٠م) .

وانظر : البلوي : **سيرة أحمد بن طولون** ص ٤٢ / ٤٨ ـ ١٠٩ / ١١٠ ومابعدها تحقيق محمد كرد علي ـ دمشق ١٩٣٩م .

وابن سعيد : **المغرب في حلي المغرب القسم الخاص** بمصر ج١ تحقيق : زكي محمد حسن ورفاقه ، (القاهرة ١٩٥٣م ص ٧٣ / ١٦٧ ـ إلى ٢١٠) .

ـ محمد زيود : **العلاقات بين مصر والشام في العهدين الطولوني والاخشيدي** ص ٥٦ / ٥٩ / ٦٠ / ٢٨٦ (دمشق ١٩٨٩) .

٦ ـ سيده كاشف : **مصر في العصر الأخشيدي** ص ٢٨٩ / ٢٩٣ / ٣٠٢ / ٣٠٤ / ٣١٠ / ٣١٤ ... الخ .

ـ حسن أحمد محمود وسيده الكاشف : **المرجع السابق** ص ٨٩ / ١٢٣ / ٢٢٨ / ٢٣٥ / ٢٤١ .. الخ .

ـ أرشيبالد : **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط** (٥٠٠ ـ ١١٠٠م) ص ٢٥٦ / ٢٥٨ ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة محمد شفيق غربال القاهرة ١٩٦٠ .

ـ محمد زيود : **المرجع السابق** ص ٥٥ / ٣٥٥ ـ **والنشاط التجاري والصناعي لبلاد الشام في القرنين الثالث والرابع للهجرة** ص ٢١٢ / ٢٢٤ مقال مؤتمر بلاد الشام الخامس، عمان ١٩٩٠م .

٧ ـ **النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة** ص ٣٩ / ٤٠ تحقيق حسين نصار، القاهرة ١٩٧٠ (وفيه اشارة واضحة للمعز وتخطيطه لحكم الشرق كله) .

ـ المقريزي : **اتعاظ الحنفا** ج١ ص ٩٩ / ٩٨، تحقيق الشيال، القاهرة ١٩٦٧م .

٨ ـ انظر :

ـ **كتاب الأمان لأهالي مصر من القائد جوهر في اتعاظ الحنفا** ج١ ص١٠٣ / ١٠٤ / ١٠٥ ومابعدها .

٩ ـ وعن التوجهات الفاطمية إلى بلاد الشام وعواملها يمكن العودة إلى :

ـ ابن القلانسي : **ذيل تاريخ دمشق** ص١ ومابعدها (بيروت ١٩٠٨م) .

ـ المقريزي : اتعاظ، ج١، ص ٩٩ / ١٠٢ / ١٠٧ / ١١٠ / ١٢٠ / ١٢٣ / ١٢٧ ، عبد المنعم ماجد : **ظهور** ص ٦٢ / ٦٣ ـ وابن الأثير : الكامل ج٨ ، ص ٩١ / ٥٩٢ واحداث سنوات (٣٥٩ / ٣٦٣هـ) ، وابن خلدون : العبر ج١ ص ٤٨ / ٩٠ ـ **النجوم الزاهرة** ج٤ ص ١١٠ ـ وايمن فؤاد سيد الدولة ص٨٥ / ٨٧ ـ خاشع العاضدي : **الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي** ص ٢٢ / ٢٩ بغداد ١٩٧٥م ـ درويش النخيلي : **فتح الفاطميين للشام ومصر في مرحلته الأولى** ص٢٢ / ٣٠ (بغداد ١٩٧٦م) .

ـ انظر المصادر والمراجع السابقة .

١١ ـ المقريزي : اتعاظ ج١، ص ١٢٢/١٢٣ / ١٢٤ / ١٢٥ / ومابعدها.

ـ ابن القلانسي : **ذيل** : ص١ / ١ / ٤ ـ ابن الأثير : **الكامل** : ج٨، ص٩١ أحداث سنة ٣٥٩هـ .

ـ سرور : **المرجع السابق** ، ص ٢٧٤ / ٢٧٥ ـ ومابعدها .

١٢ ـ ثابت بن سنان : **اخبار القرامطة** ص٦٢ ـ ابن الجوزي : **المنتظم في تاريخ الملوك** والأمم ج٧، ص٨٢ ـ المقريزي : **اتعاظ** ج١، ص ١٧٨ / ١٨٩ .

ـ أبو المحاسن : **النجوم** ج٤، ج١، ص٧٥ .

ـ محمد جمال سرور : **المرجع السابق** ، ص٢٧٩ ـ أيمن فؤاد : **المرجع السابق** ص٨٦ .

١٣ ـ عن التسامح الفاطمي وسياستهم حيال شعب مصر انظر :

ـ المقريزي : **اتعاظ** ج١، ص١٠٣ / ١٠٧ / ١١٩ / ٢٢٥ ـ ابن سعيد : **المغرب** ص١٨٣ ص١٨٤ ـ النويري : **نهاية الأرب** ج٢٦ ص٤٠ .

ـ راشد البراوي : **حالة مصر الاقتصادية في العصر الفاطمي** ص١٥٣ / ٢٢١ القاهرة ١٩٤٨م .

ـ حسن ابراهيم حسن : **تاريخ الدولة** ص ١٤١ / ٢٠٤ ـ سرور : المرجع السابق ص٨١ ومابعدها .

١٤ ـ صابر دياب : **سياسة الدول الاسلامية في حوض البحر المتوسط** ص٢٤٥ / ٢٤٦ (القاهرة ١٩٧٣م) .

ـ المقريزي : **الخطط** ج١ ص١٠٩ .

ـ ابن صماتي : **قوانين** ص٢٣ ـ ابن جبير : **رحلته** ص٢٦٠ .

ـ هايد : **تاريخ التجارة** ج١ ص ١١٤ / ١٢٨ / ١٢٩ / ١٣١ / ١٤٥ .

ـ احمد دراج : **أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة** ج١ ص١٢٦ / ١٢٧ (القاهرة ١٩٧٥م) **والمماليك والفرنجة** ص٧٠ (القاهرة ١٩٦٠م) .

ـ مصطفى حسن محمد الكناني : **العلاقات بين جنوه والشرق الأدنى الاسلامي ، أضواء جديدة على الحركة الصليبية** القاهرة ١٩٨١ ص٣٩٦ وماقبلها ومابعدها .

ـ راشد البراوي : **حالة** ص٢١٢ / ٢١٣ / ٢١٥ / ٢٢٤ .

ـ عطية القوصي : **مصر وعالم البحر المتوسط** ص١١٦ / ١٢٠ / ١٣٧ .

١٥ ـ محمد جمال الدين سرور : **تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق** ص١٤٥ / ١٥٠ / ١٥٨ .

ـ كلود كاهن : تجار القاهرة الأجانب في العهدين الفاطمي والأيوبي من أبحاث التدورة الدولية لتاريخ القاهرة ج٢ ص٨٧١ .

ـ أرشيبالد : **القوى البحارية والتجارية** ص٣٢٦ / ٣٢٧ / ٣٢٨ .

- عطية القوصي : **المرجع السابق** ص١١٦ / ١٢٠ .

- أحمد دراج : **الوثائق العربية** ص١١٨ / ١٢٦ .

- آدم متز : **الحضارة الاسلامية** ج٢ ص٣١٤ .

- سليمان مصطفى زبيسي : **الملامة عن أحوال القاهرة وعلاقاتها مع الخارج في عهد الفاطميين** ، من أبحاث الندوة الدولية القاهرة ج١ ص٥٢٩ .

١٦ - انظر :

- ابن العديم : **زبدة الحلب** ج١ ص١٦٣ / ١٦٤ .

- بيبرس الدوادار : **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة** مخطوط جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٦ / ٢٤٠٢٧ .

- زيود : **حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي** ص٣٠ (دار الفكر بيروت ١٩٩٢م) .

١٧ - الروزراري : **ديل تجارب الأمم** ص١٨٥ (القاهرة ١٩١٤م) .

- أبو المحاسن **النجوم** : ج٤ ص ١٥١ / ٢٥٢ - المقريزي : **الخطط** ج٢ ص١٦٩ .

- عبد المنعم ماجد : **ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها** ص١٢٣ / ١٤٠ / ١٤٥ / ١٤٧ (القاهرة ١٩٦٨م) .

- شاكر مصطفى : **فلسطين مابين العهدين الفاطمي والأيوبي** ص ٣٥٥ ومابعدها (الموسوعة الفلسطينية) .

١٨ - المقريزي : **الخطط** ج٢ ص١٣٧ - **اتعاظ الحنفا** ج١ ص ١٦٦ / ١٦٨ .

- أبو المحاسن : **النجوم** : ج٤ ص١٩٢ .

- ابن الأثير : **الكامل** ج٨ ص١٦ / ٢٩ / ٤٦ / ٥٩ .

- ماجد : **ظهور** : ص١٥٠ / ١٥٤ .

ومجموعة الوثائق الفاطمية ج١ ص١٩٢ - زيود : **حالة** : ص٢٩١ / ٢٩٢.

١٩ - ابن القلانسي : **ذيل** ص١٥ / ١٩ / ٢٠ / ٤٦ ومابعدها .

- ابن العديم : **زبدة** ج١ ص١٨٥ - ابن الأثير : **الكامل** ج٨ ص٦٦١ .

- مسكويه : **تجارب** ج٢ ص٤٠٢ - شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٣٥٥ / ٣٥٦ .

- زيود : **حالة** : ص٣١ / ٣٤ .

- أيمن فؤاد : **المرجع السابق** ص٢٩٨ ومابعدها .

٢٠ - وتجدر الاشارة إلى أن الفاطميين بعد هزيمة هذا الثائر واسره أُحضر إلى القاهرة وسلخ جلده حيا ثم صلب ، بعد أن حشي جلده تبناً وقتل أصحابه.

انظر : ابن الفلانسي : **ذيل** ص٥٠ / ٥١ .

- ابن خلدون : **العبر** ج٤ ص٢٦ / ٢٧ .

- شاكر مصطفى : **المرجع السابق** : ص٣٥٦ .

- زيود : **حالة** : ص٤٢٧ .

٢١ - ابن الجوزي : **المنتظم** ج٧ ص٢٤٣ / ٢٤٤ .

- البوزراوي : **ذيل** مجلد ٣ ص٢٢٣ / ٢٢٦ .

- مسكويه : **تجارب** ج٢ ص٤٠٢ .

- يحيى بن سعيد الانطاكي **تاريخه** ج٢ ص٥٠٤ .

- زيود : **حالة** : ص٣٥ / ٥٩ .

٢٢ - محمد زيود : **حالة** : ص٣٢٦ / ٣٣١ .

ـ أمينـة أحمـد امـام الشـوربجي : **رؤيـة الرحالـة المسـلمين للأحـوال الماليـة والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي** ص٣١٠ / ٣٣١ (الهيئـة المصريـة العامـة القاهرة ١٩٩٤م) .

ـ وانظر المصادر التي كتبت عن هذه المدن وبخاصة الرحالة والجغرافيين كابن خرداذبه ، والمقدسي ، وابن جبير وناصر خسروا وابو الفداء ، وابن بسام التنيسي ، وابن حوقل وياقوت الحموي من خلال وصفهم المدن .

ـ راشد البرادي : **حالة مصر** : ص١٩٩ ومابعدها .

ـ عطية القوصي : **تجارة مصر في البحر الأحمر** ص١٣١ .

٢٣ ـ أنظر المقريزي : **اتعاظ** ج١ ص١٠٧ / ١١٧ .

ـ **الخطط** ج١ ص٨٢ / ١١١ .

ـ **اغاثة الأمة** ص١٣ / ١٤ .

ـ ابن زولاق : **فضائل مصر** ورقة ٤٧ظ .

ـ زيود : **حالة** : ص٢٨٧ .

ـ ابن اياس : **بدائع الزهور** ج١ ق١ ص١٩١ .

٢٤ ـ انظر المقدسي : **أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم** ص١٧٩ / ١٨٠ / ١٨١ / ١٨١ ومابعدها .

ـ الثعالبي : **لطائف المصارف** ص١٦٠ .

ـ ابن حوقل : **صورة الأرض** ص١٥٢ .

ـ ابن حماتي : **قوانين** : ص٢٣٠ / ٢٣١ .

ـ زكي محمد حسن : **كنوز الفاطميين** : ص١١١ / ١١٢ / ١١٦ .

ـ المقريزي : **الخطط** : ج١ ص٤٦٤ .

- دائرة المعارف الاسلامية : **مادة طراز** .

- ارشيبالد : **القوى** : ص٣٢٨ .

- امينة أحمد امام الشوربجي : **المرجع السابق** ص٢١٦ / ٢٧٠ .

- راشد البراوي : حالة مصر ص١٢١ / ١٢٤ / ١٢٧ / ١٤٤ / ١٩٤ / ١٩٧ / ١٩٨ / ٢٠٤ / ٢٢٦ / ٣١١ / ٣١٣ .

- زيود : **حالة** : ص١٢٣ / ١٣٠ / ١٣٧ / ١٣٨ .

- أيمن فؤاد سيد : **الدولة الفاطمية** ص٢٩٦ .

٢٥ - المقريزي : **المقفى** : ص٣٤٣ .

- **أتعاظ** ج١ ص١١٧ .

- **الخطط** ج١ ص١١١ .

- أيمن فؤاد سيد ص٨٠ / ١٤٣ / ١٤٤ / ١٤٥ .

٢٦ - ساويرس بن المقفع : **تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية** ج٢ ق٢ ص٩٦ / ٩٧ .

- ابن سعيد : **المغرب** ص١٨٣ / ١٨٤ .

- أبو شجاع : **ذيل تجارب الأمم** ص١٨٦ .

- ابن الأثير : **الكامل** ج٩ ص٤٩ .

- ابن الجوزي : **المنتظم** ج٧ ص١٩٠ .

- ابن اياس : **بدائع الزهور** ج١ ق١ ص١٩٦ - المقريزي : **اتعاظ** ج١ ص٢٢٥ / ٢٩٧ .

- جمال سرور : **الدولة الفاطمية** ص٨٦ - أيمن فؤاد سيد : **الدولة** ص٨٩ / ٩٢ .

٢٧ ـ المقريزي : **الخطط** ج١ ص٦١ / ٨٢ / ٩٩ ـ **اغاثة الأمة** ص٢٠ / ٢١ .

ـ ابن زولاق : **فضائل مصر** ورقة ٤٧ ظهر ـ أبو المحاسن : **النجوم** : ج٤ ص٤٦ و ج٥ ص٣١٦ .

ـ أيمن فؤاد سيد : **الدولة** ص٨١ ـ البراوي : **حالة** ص١٠٢ وص١٠٥ / ١٠٦ / ١٠٧ .

٢٨ ـ المقريزي : **اغاثة** ص١٣ ز ١٤ / ٢٧ / ٢٨ ـ **اتعاظ** : ج١ ص١٢٠ ـ الخطط ج٢ ص٣٤٠ .

ـ محمد بركات البيلي : **الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر الاسلامية** ص١٩ / ٨١ / ٩١ (القاهرة ١٩٨٦) ـ البراوي : **حالة** ص٣٤٨ / ٣٤٩ ـ بدر عبد الرحمن محمد : **النشاط التجاري في مصر في العصر الفاطمي** (٤٩٤هـ ـ ٥٨٣هـ) (١٠٩٩ ـ ١١٨٧م) جامعة القاهرة رسالة دكتوراه ص٥٣ لم تطبع بعد .

ـ ممدوح عبد الرحيم الريطي : **أسواق الفسطاط والقاهرة في العصر الفاطمي** من (٣٥٨هـ ـ ٥٦٧هـ) (٩٦٩ ـ ١١٧١م) رسالة دكتوراه جامعة المنيا لعام ١٩٩٢ : ص٣٢٧ / ٣٢٨ .

٢٩ ـ المسبحي : **اخبار مصر** ص٤٥ / ٤٧ .

٣٠ ـ وعن المحتسب ومهماته انظر :

ـ الماوردي : **الأحكام السلطانية** ص٢٢٧ / ٢٣٠ (مطبعة الوطن ١٢٩٨هـ) .

- دائرة المعارف الاسلامية **مادة حسبة** - ابن الأخوة : **معالم القربة** ص٢٤٠
- ابن خلدون **المقدمة** ص٢١٣ - المقريزي : **اغاثة** ص١٦ / ١٧ / ١٩ ــ الخطط ج٢ ص٢٩٧ - الشيزري : **نهاية الرتبة** ص٣٠ ــ المسبحي : **أخبار مصر** ج٤ ص٣٦ .

- القلقشندي : **الأعشى** : ج٣ ص٤٨٧ - زيود : **الحسبة ونظام المحتسب في الاسلام** : مجلة دراسات تاريخية العددان ٢٩ / ٣٠ آذار (دمشق ١٩٨٨م).

٣١ - المقريزي : **اغاثة** ص٢٧ / ٢٨ ــ محمد بركات البيلي : **الأزمات** ص٨١ / ٩١ .

- ابن حماتي : **قوانين** : ص٣٦٧ .

٣٢ ــ أبو المحاسن : **النجوم** ص٤ ص١٩٢ ــ المقريزي : **اتعاظ ج١** ص١٣٨ / ١٦٦ / ١٦٩ / ٢٩٠ ــ **والخطط** ج٣ ص١٤٤ ــ ناصر خسرو : سفر نامة ص٨٨ - ابن الأثير : **الكامل** : ج٨ ص١٦ / ٢٩ / ٤٦ .

- هايد : ج١ ص٣٨٨ . ماجد ، **ظهور** ص١٥٠ / ١٥٤ - دراج : **الوثائق** ج١ ص١٢٦ / ١٢٧ ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

- القوصي : **مصر وعالم البحر المتوسط** ص١٦٠ / ١٦٥ - بنيامين التطيلي : **الرحلة** ٢٢/٢٠ ، ١٧٨ / ١٧٩ ، الكناني : **العلاقات** ص٣٨٩ ــ البراوي : **حالة** ص٢٠٩ / ٢١٠ .

٣٣ - المقريزي : **اغاثة** ص٢٨ ــ سليمان مصطفى زبليس : **المامة عن أحوال مصر الاقتصادية وعلاقاتها مع الخارج في عهد الفاطميين** : ص٨٨د (مقال الندوة الدولية لتاريخ القاهرة) ج٢ لسنة ١٩٦٩م .

٣٤ ـ المقريزي : **الخطط** ج١ ص١٠٩ / ١١٠ ـ **اغاثة** ص١٨ / ١٩ ـ ابن ميسر : **اخبار مصر** ص١٣٥ .

٣٥ ـ ناصرخسرو : **سفر** ص٦٤ / ٦٥ ـ بدر عبد الرحمن : **النشاط التجاري في مصر في العصر الفاطمي** (رسالة دكتوراه جامعة القاهرة ١٩٧٠).

٣٦ ـ المقريزي : **اغاثة** ص٢٦ **الخطط** ج٢ ص٤٤ ـ خسرو : صفر ص٦١ / ٦٢ .

ـ ابن ميخائيل : **ذيل سيرة الأباء البطارقة** ج٣ ورقة ٢٤ مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٦٤٣٤ ح.

٣٧ ـ خسرو : **سفر** ص١٢٦ / ١٢٧ ـ جرو هلمان : **أوراق البردى** ج٦ ص١٧٥ / ١٨٢ .

٣٨ ـ ابن ميسر : **أخبار مصر** ص٦٢ / ٨٠ ـ ابن الأثير : **الكامل** ج٨ ص١٧٢ .

٣٩ ـ وعن الفتن والأحداث العسكرية والاضطرابات يمكن العودة إلى :

ـ ابن ميسر : **تاريخ مصر** ص١٢ / ١٣ / ٢١ / ٢٢ / ٣٠ (القاهرة ١٩٩١م) .

ـ المقريزي : **اتعاظ** ج١ ص١٢٠ / ١٢٣ / ١٢٧ / ١٤٢ / ٢٠٥ ـ ابن القلانسي : **ذيل** ص١ / ٢ / ١٨ / ٢١ .

الكامل : ج٥ ص٩١ / ٩٢ / ٦٦ ـ ابن خلدون : **العبر** ج٤ ص٤٨ / ٩٠

ـ النويري : **نهاية** ج٢٨ ص١٨٠ / ١٨١ / ١٨٥ ـ سرور : **سياسة الفاطميين الخارجية** ص١٣٧ ـ **الدولة الفاطمية** ص١٠١ / ١١٠ .

ـ المعاضدي : **الحياة السياسية** ص٢٠ / ٧٨ ـ أيمن فؤاد : **الدولة** ص١٣٧ / ١٧٣ / ١٩٥ .

ـ البراوي : **حالة** ص٢٤٦ .

ـ النجوم الزاهرة : ج٤ ص٦٠ / ٧٠ / ١١٠ .

٤٠ ـ الفارقي : **تاريخه** ص١٦١ ـ عبد اللطيف البغدادي : **الافادة والاعتبار في المشاهد والحوادث المعانية بأرض مصر** ص٤٥ القاهرة رقم ١١٢٣٦ نسخة خطية بمكتبة جامعة القاهرة .

ـ ابن سعيد : **الاعتياظ في حلي مدينة الفسطاط** ص٢ ـ حجير الدين : **الأنس الجليل** ج١ ص٣٠٤ .

ـ المقريزي : **نفح الطيب** ج٨ ص١٧٧ ـ شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٤٦٤ / ٤٦٥ .

ـ البراوي : **حالة** ص٧٩ / ٨٢ ـ زيود : **حالة** : ص٥٥ / ٥٦ / ٥٧ / ٥٨ .

وتجدر الاشارة إلى أن هناك نص عن دمشق يعود لهذه الحقبة أورده كل من سبط من الخوري ، وابن القلانسي عن دمشق وماحلقها من أذى وتضرر لقاء ما تعرضت له من أحداث وخطوات آثرنا ايراده على الرغم ماقد يحمل من مبالغة لكنه يقدم الدليل الكافي على الضرر الذي حدث أثر هذه المحن والخطوب بعد الاجتياح الغزي للشام .

ـ النص يقول : « بلغت دمشق نتيجة لهذه الحروب حافة الانهيار و لم يبقى لها » دمشق من أهلها سوى ثلاث آلاف انسان بعد خمسمائة الف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء ... وكان بها مائتان وأربعون خباز فصار بها خبازان والأسواق

خالية والدار التي تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها بعشرة دنانير فلا يشتريها أحد والدار الذي كان يساوي ألف دينار ماتشتري بدينار وكان الضعفاء يأتون إلى الدار الجليلة ذات الاثمان الثقيلة فيضرمون فيها النار فتحترق ويجعلون أخشابها فحماً يصطلون به ، وأكلت الكلاب والسنانير (القطط) وكان الناس يقفون في الأزمة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم وكان لا مرأة داران قد أعطيت قديماً في كل دار ثلاثمائة دينار أو أربعمائة ولما ارتفعت الشدة عن الناس ظهر الفأر فاحتاجت إلى سنور فباعت أحد الدارين بأربعة قيراطاً واشترت به سنوراً .

ـ وفي التاريخ نفسه يورد ابن الفلانسي في احداث سنة ٤٦٠ / ١٠٦٧م أنه حدثت زلزلة عظيمة في فلسطين هدمت أكثر دور الرملة وسورها وتضعضع جامعها ومات أكثر أهلها تحت الردم ، وحكي أن معلماً كان في مكتبه مايقدر بمائتي صبي فوقع المكتب عليهم وما سأل أحد عنهم من أهاليهم لهلاكهم جميعاً وأن الماء تدفق من أفواه الابار لعظم الزلزلة ، كما وهلك في بانياس تحت الردم كثيرون وكذلك حدث في بيت المقدس) .

ـ انظر : ابن القلانسي : **ذيل** ص٩٤ .

٤١ ـ انظر المصادر والمراجع التي وردت في ٣٩ / ٤٠ .

٤٢ ـ هايد : **التجارة** ج١ ص١٣٢ / ١٥١ / ١٥٢ / ١٥٦ / ١٥٧ ـ جوزيف نسيم يوسف : **تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق في العصور الوسطى** ص٣٧ / ٣٨ الاسكندرية ١٩٣٨م .

ـ سعيد عاشور : **الحركة الصليبية** ج١ ص٣١٨ / ٣١٩ / ٢٦٣ / ٢٦٤ / ٢٦٥ ، وشخصية الدولة الفاطمية ص٣٥ / ٣٦ ـ عطية القوصي : **مصر**

الفاطمية وعالم البحر المتوسط اعداد وتقديم رؤوف عباس (القاهرة ١٩٨٥) ص١٣٧ / ١٣٩ .

- ارشيبالد : **القوى** ص٣٦١ و ٣٦٢ - مصطفى حسن الكناني : **العلاقات بين جنوه والفاطميين في الشرق الأدنى** ج١ ص٨٥ / ٨٦ / ١٤٠ (١٠٩٥ — ١١٧١م **أضواء جديدة على الحركة الصليبية** الهيئة المصرية العامة ١٩٨١) .

— شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٣٧١ / ٤٨٤ — محمود محمد الجويري: **الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر** ص١٠٧ (القاهرة ١٩٧٩م) .

- راشد البراوي : **حالة** ص٢٤١ .

٤٣ - ارشيبالد : **القوى** : ص - شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٤٨٠ / ٤٨٢ / ٤٨٣ - قاسم عبده قاسم : **ماهية الحركة الصليبية** ص٢١٦ .

٤٤ — ابن جبير : **رحلته** ص١٨٠ / ١٨٣ / ٢٠١ / ٢٠٢ / ٢١١ / ٢٢٣ / ٢٢٦ / ٢٢٧ / ٢٣٤ / ٢٦٠ / ٢٦٩ / ٢٧٦ / ٢٧٧ / ٢٨١ .

- أبو شامة : **كتاب الروضتين** : ج١ ص٤٤٣ - أسامة بن منقذ : **الاعتبار** ص١٢٧ (تحقيق حتي ١٩٣٠) ناصر خسرو : **سفر** ص١٣ — هايد : **تاريخ التجارة** ج١ ص١٨٠ / ١٨١ / ١٨٢ / ١٨٥ / ١٨٦ / ١٨٨ / ١٩٢ / ٣٦٠ - ابن شاهين : **زبده كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك** ص٤٧ / ٤٨ (بيروت ١٩٨٢) .

— شاكر مضطفى : **المرجع السابق** ص٤٨٥ — ابن شداد : **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** (تحقيق الشيال) ط١ القاهرة ١٩٦٤م ص٦٦ / ٣٣٦ .

ـ المقريزي : **السلوك** ج١ ص٩٤ / ٢٦٠ ـ الكنـاني : **العلاقـات** ج١ ص٢٧٢ ص٨٦ / ١١٧ / ١٢٣ / ٢٨٧ / ٢٩٠ وج٢ ص٨٣ / ٨٤ / ٨٨ .

٤٥ ـ قاسم عبده قاسم : **ماهية الحركة الصليبية** ص٢١٧ ـ عبد الحافظ عبد الخالق يوسف : **الأسواق في المناطق الصليبية في بلاد الشام في الفترة من** ٤٩٥ـ ٦٨٧هـ (١٠٩٩ ـ ١٢٩١م) رسالة ماجستير لم تطبع بعد جامعة الزقازيق ص١ / ٥٨ .

ـ قاسم عبد الرحمن هاشم الطحاوي : **الحياة الاقتصادية في المستعمرات الصليبية في بلاد الشام** (٤٩٤ ـ ٥٨٣هـ) (١٠٩٩ ـ ١١٨٧) رسالة ماجستير جامعة عين شمس ص١ /٦٣ / ١٣٥ .

٤٦ ـ سعيد عاشور : **الحركة الصليبية** ج١ ص٣١٨ / ٣١٩ .

ـ وانظر : شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٣٨٣ .

٤٧ ـ شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٤٨٤ .

٤٨ ـ المقريزي : **السلوك** ج١ ص٤٦ ـ شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٤٨٤ .

٤٩ ـ انظر المصادر والمراجع الواردة في هامش ٤٤ / ٤٥ .

٥٠ ـ الكناني : **المرجع السابق** ج١ ص٨٦ / ١٠٧ / ١٠٠ / ١٢٣ / ١٨٧ / ٢٩٠ وج٢ ص٨٣ / ٨٤ / ٨٨ .

ـ عاشور : **الحركة الصليبية** ج١ ص٣٥ ـ عفاف صبره : **العلاقات بين الشرق والغرب** ص١٩ / ٢١ / ٨٥ (القاهرة ١٩٨٣) .

٥١ ـ ابن جبير : **رحلته** ص٢٠٨ ومابعدها ٢٦٠ / ٢٧١ .

عن كل ذلك انظر :

٥٢ ـ ابن جبير : **رحلته** ص٢٠١ / ٢٠٨ / ٢١١ ـ بهاء الدين ابن شداد : **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** : ص٦٦ (تحقيق الشيال القاهرة ١٩٦٤) ـ ابن القلانسي : ص١٨٩ .

ـ عبد الخالق عبد الحافظ : **المرجع السابق** ص٤٩ .

ـ وليم الصوري : ج١ ص٥٨ ـ ابن الأثير : **الكامل** ج١٢ ص٣٥ .

ـ اسامة ابن منقذ : **الاعتبار** ص٧ / ١٢ .

ـ المقريزي : **السلوك** : ج١ ص٩٤ .

٥٣ ـ محمد أمين صالح : العلاقات الفاطمية الصليحية ص٧٦ مجلة المؤرخ المصري العدد ١٩٦ .

٥٤ ـ تجارة الكارم : تعود أول اشارة إلى تجارة الكارم إلى ما أورده ابن أيبك عن تأخر وصولها في سنة ٤٥٦ / ١٠٦٣م وهذه الاشارة تؤكد أنها كانت معروفة قبل هذا التاريخ ويؤيد ذلك مئات الأوراق من الجنيزة والتي تعود إلى العصر الفاطمي ، ولم يتفق على تحديد موعد للكارم ومعناها والتي ذكرت مراراً في المصادر العربية وأوراق الجنيزة انظر بهذا الخصوص : صبحي لبيب : **التجارة الكارمية وتجارة مصرفي العصور الوسطى** . المجلة التاريخية المصرية العدد (٤) مايو ١٩٥٢ ـ ص٦/٧ ـ ويذكر جويتين أن هذه الكلمة ، توجد في لغة التاميل بجنوب الهند وهي كلمة (كاريام) وتعني ضمن ما تحمل من معاني الأعمال والأشغال ، ولما كانت أعمال الشرق الأوسط الرئيسة مع ساحل الهند الشرقي هي بالأساس أعمال تجارية فمن المحتمل أن يكون ذلك الاسم قد أطلق على ملاك السفن من التجار المترددين على هذه البلاد انظر : ـ الشاطر بعيلي حيث يرى رأياً قريباً من رأي جويتين ولكنه يرجح الكلمة إلى أصل عربي وأنها تتكون

من مقطعين : كار . ويم وكار بمعنى الحرفة أو التجارة ويم بمعنى المحيط أو البحر البعيد الشواطيء وسقطت الياء فصارت كارم أي حرفة التجارة في البحار .

- الشاطر بعيلي : **الكارمية** : المجلة التاريخية المصرية العدد ١٣ سنة ١٩٦٧م ص٢٢٠ وعن الكارمية انظر :

- عطية القوصي : **تجارة مصر في البحر الأحمر** ص٩١ - والسيد عبد العزيز سالم : **البحر الأحمر** ص٣٠ - وأيمن فؤاد سيد : **الدولة** ص٣٠٨ - ومحمد بركات البيلي : **بداية الكارمية ومعناه في العصر الفاطمي** ص٨٩ / ١٠٨ بمجلة المؤرخ المصري العدد ١٣ سنة ١٩٩٤م .

انظر ابن أيبك : كنز الدرر ج٦ ص٣٨٠ - وحسنين محمد ربيع : **وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي** ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية : ج٢ ص١٣٤ (الرياض ١٩٧٩م) - جواتياين : **دراسات في التاريخ الاسلامي:** تعريب وترجمة عطية القوصي الكويت ١٩٨٠ .

٥٥ - انظر المصادر السابقة .

٥٦ - أبو شامة : **الروضتين** ج١ ص٢٣٤ - شاكر مصطفى ص٤٨٥ .

٥٧ - المصادر السابقة والصفحات .

٥٨ - المقدسي : **أحسن التقاسيم** ص١٦٠ / ١٦١ / ١٨٠ / ١٨١ - ابن حوقل - **المسالك** ص١٤٢ / ١٦٢ / ١٦٤ - ناصر خسرو : **سفر نامة** : ص٥٦ / ١٥٢ / ١٥٨ .

- ابن العديم : **بغية** ج١ ص٤١ / ٥١ / ٦١ / ٦٣ - ابن ميسر : أخبار مصر ج٤٠ ص٨٢ (تحقيق أيمن فؤاد سيد) - الثعالبي : **لطائف** من ١٥٠ / ١٥٧ - ابن الشحنة : **تاريخ مملكة حلب** : ص١٤٩ .

- المقريزي : **خطط** : ج٢ ص٢٥٢ / ٢٥٤ / ٤٥٤ .

- ياقوت : **معجم** : ج٥ ص١٤٥ - اشتور : **التاريخ الاقتصادي** : ص٩٥ /١١٤ / ٢٠٧ .

- موريس لومبار : **الاسلام في فجر عظمته** : ص١٩٤ / ٢١٢ / ٢١٣ / ٢١٨ / ٢١٩ .

- زكي محمد حسن : **كنوز الفاطميين** : ص١٨١ - محمد زيود : **النشاط التجاري والصناعي لبلاد الشام في القرنين الثالث والرابع للهجرة** : المؤتمر الخامس لتاريخ بلاد الشام (عمان ١٩٩٢م) ص٢١١ إلى ٢٤٨ .

٥٩ - المصادر والمراجع السابقة .

٦٠ - ابن حوقل : **المسالك** : ص١٠٥ - خسرو : ص٦٧ - **المقدسي** ص٢٠٣ - المقريزي : **الخطط** ج١ ص١٦٣ / ٢٦٦ / ٣٦٧ / ٢٣٠١٣ / ٤١٤ / ٤٢٤ / ٤٦٥ - ابن المأمون : **أخبار مصر** ص٦٥ / ٦٦ - موريس لومبار : **الاسلام** : ص٢١٢ / ٢١٣ - خليفة : **تاريخ المنسوجات** ص٩٩ - البراوي : حالة : ص١٣٦ / ١٤٠ و ٢٣٣ / ٢٣٤ / ٢٦٢ - حسن ابراهيم حسن : **الدولة الفاطمية** ص٥٩٠ .

٦١ - الثعالبي : **لطائف** ص١٦٦ (القاهرة ١٩٦٠) - الدمشقي : **الاشارة إلى محاسن التجارة** : ص٢٢ (القاهرة ١٣١٨هـ) - الجاحظ : **التبصر بالتجارة** ص٢١ .

- المقدسي : **أحسن التقاسيم** ص١٤٥ - هايد : **تاريخ التجارة** ج٢ ص٥٧٥.

ـ البراوي : **حالة** : ص٢٣٥ ـ نقولا زياده : **تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر العباسي بين سنتي (١٣٢ ـ ٤٥١ هـ ـ ٧٥٠ / ١٠٥٩م)** مؤتمر بلاد الشام الخامس (عمان ١٩٩٢م) .

٦٢ ـ ابن حوقل : **المسالك** ص١٣٧ / ١٥٠ ـ الادريسي : **نزهة المشتاق** ص٢٧ ـ **المقدسي** : ص١٤٥ / ١٤٦ / ١٤٨ ـ **خسرو** : سفر ص١٣ / ٤٥ .

ـ النويري : **الالمام بما قضت به الأحكام** ص١٢٣ ـ كلود كاهن : **تجارة القاهرة الأجانب في عهد الفاطمين والأيوبيين من أبحاث** الندوة الدولية لتاريخ القاهرة لعام ١٩٧٦ ص١٧١ .

ـ البراوي : **حالة** ص٢١٣ / ٢٢٢ / ٢٣٠ .

ـ القوصي : **تجارة** ص٢٠٨ ـ حامد زيان : **العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ابان الحروب الصليبية** ص١٦٢ / ١٦٥ ـ رسالة دكتوراه جامعة القاهرة لم تطبع لعام ١٩٧٣م ..

٦٣ ـ ابن حوقل : **المسالك** ص١٠١ ـ ابن زولاق : **فضائل مصر** : مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٨١٦ ورقة ١٣٥ .

ـ ابن اياس : **نشق الأزهار في عجائب الأقطار** مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٢٠٧ ورقة ١٦٦ .

ـ راشد البراوي : **حالة** ص٢١٥ / ٢٣٠ ـ القوصي : **تجارة مصر** ص٢٠٩.

٦٤ ـ عطية القوصي : **تجارة مصر** ص٢٠٧ / ٢٠٨ ـ شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٤٨٠ / ٤٨٧ .

ـ البراوي : **حالة** ص٢١٣ .

٦٥ ــ ٦٦ ــ ابن خرداذبة : **المســالك** ص١٥٣ / ١٥٤ ــ **المقدســي** : ص٣٤.

ــ اليعقوبي : **البلـدان** ص٢٣٤ (نشرفييت القـاهرة ١٩٣٧) ــ هــايد : **التجارة** ج٢ ص٢٨٠ و ٥٦١ / ٦٥٩ / ٥٧٥ سلمان التـاجر : **أخبـار الصين والهند** : ص١١ / ١٢ .

ـ ابن جبير : **رحلتـه** ٤٠ / ٤٢ ص٤٣ / ٦٧ / ٢٥٦ ـ أشتور : **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** : ص١٢٨ / ١٢٩ ـ **ابن سينا الطبيب الصيني** : مجلة تاريخ الطب الصيني العدد الثامن يونيو ١٩٥٢ بكين ـ البراوي : **حالـة** ص٢٥٥ / ٢٥٦ .

ـ نعيم زكـي سليفان : **طـرق التجـارة الدوليـة بـين الشـرق والمغـرب في العصـور الوسـطى** ص١٧١ / ١٩١ / ٢٥٤ ــ سـليمان ابراهيـم العسـكري : **التجارة والملاحـة في الخليـج العربي** ص٤٩٦ ــ فهـمي هويـدي : **الاسـلام في الصين** ص٥٠ / ٥١ .

٦٧ ــ ابـن خرداذبه : **المسالك** ص١٥٣ / ١٥٤ ــ المقدسي : **أحسـن** : ص١٨٠ / ١٨١ .

ـ ابن الفقيه : **البلدان** ص٢٧٠ ـ ابن العديم : **بغية** ج١ ورقة ٥٠ظ و٥١ .

ــ سـليمان التـاجر : **أخبـار الصـين والهنـد** : ص٢٣ / ٢٤ / ٢٩ / ٤٨ ــ لومبار : الاسلام ص٢٤٦ / ٢٤٧ .

ــ سـليمان ابراهيـم العسـكري : **التجـارة والملاحـة في الخليــج العربــي** : ص١٣٧ ـ البراوي : **حالة** ص٢٣٨ / ٢٣٩ / ٢٤٠ .

٦٨ ـ المقدسي : **أحسن** : ص٢١٢ / ٤٣٣ / ٤٣٤ (ليدن ١٩٦٧م) .

- جرو هلمان : **أوراق البردى العربية** ج٦ ص١٠٤ / ١٨١ دار الكتب المصرية .

٦٩ - جمال سرور : **الدولة الفاطمية** ص١٥٥ — **وتاريخ الحضارة الاسلامية** ص١٣٦ .

- عثمان الكعاك : **الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط** ص١٠٤ .

٧٠ - رؤوف عباس : **مصر وعالم البحر المتوسط** : ص١٤٣ / ١٦٤ — عطية القوصي : بحث **مصر الفاطمية وعالم البحر المتوسط** (القاهرة ١٩٨٦) - **وتجارة مصر في البحر الأحمر** ص١٢٣ / ١٣١ .

- أرشيبالد : **القوى البحرية** ص٨٩ / ٩٠ / ٩٥ - السيد عبد العزيز سالم : البحر **الأحمر في التاريخ الاسلامي** ص١٢ وما بعدها - جورج فضلو حوراني : **العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى** : ص٥٣ / ٩٠ ./ ١٩٠ / ٢٢٨ .

- علي حسن الخربطلي : **الاسلام في حوض البحر المتوسط** : ص٩ / ١٥ / ١٦ .

٧١ - أرشيبالد : **القوى** : ص٣٥ / ٨٧ / ١٥٧ / ١٦٢ / ١٨٤ / ٢١٦.

- الروضتين ج١ ص٣٣١ / ٣٣٣ - ابن شداد : **النوادر السلطانية** ص٣٦.

- المقريزي : **اتعاظ** ج٣ ص٢٦٤ - **الخطط** ج١ ص٣٣٨ — النجوم : ج٥ ص٣٣٨ / ٣٨٧ .

- أيمن فؤاد سيد : **الدولة** ص٢٢٢ / ٢٣٩ .

اليهود في الأندلس والمغرب
خلال العصور الوسطى

د. علي أحمد

جامعة دمشق

مقدمـــة :

في أندلس الأمس ومغرب اليوم ، عاشت مجموعة من اليهود عيشة طيبة رافهة ، يكتنفها الهدوء وتعززها الثقة والأمان ، لأن العرب في كل مكان وفي كل أيام مجدهم، كانوا ينظرون إلى جميع سكان بلادهم نظرة واحدة ، تقوم على أساس أنهم مواطنون في دولة واحدة ، تنظم شؤون حياتهم مجموعة قانونية واحدة ، تطبق موادها على الجميع ، بغض النظر عن الجنس واللون والدين .

في هذا الجو الممتاز ، وجد اليهود بيئة صالحة مناسبة للعيش ، استغلّوها لصالحهم إلى أبعد حدود الاستغلال ، مستفيدين من جو الحرية العامة ، التي تمتعوا بها تحت مظلة الدولة العربية ، فوصلوا إلى مراتب ادارية عالية ، كان ذلك على حد سواء في عصر القوة العربية في الأندلس خلال عصر الامارة والخلافة ، أو في عصر السقوط في زمن دول الطوائف بالأندلس ايضاً . وهذا إن دلّ على شيء ، إنما يدل على سعة الصدر العربي ، الذي تمكن من استيعاب الجميع تحت قيادة عربية واحدة قوية ، وهو بالتالي يشير إلى مدى قدرة العرب على قيادة الناس قيادة حازمة ، تجمع بين العلم والرحمة وبين الحزم واللين .

وعلى الرغم من ذلك الواقع الطيب للعرب ، فإن اليهود لم يقدّروا لهم هذه المعاملة ، وتلك النظرة الانسانية العظيمة ، ولاسيما أن العرب هم الذين خلصوهم من كوابيس الظلم والاضطهاد والعذاب ، التي لحقت بهم خلال فترة طويلة سبقت وصول العرب إلى الأندلس ، فقاموا بتحريرهم وعتقهم واطلاق سراحهم في كل مجال من مجالات الحياة . ومع ذلك فقد وقفوا ضد العرب ، حتى في أيام قوتهم ، عندما كانوا يحاولون اعطاء زخم جديد للمسائل اليهودية، وبخاصة الدينية منها ، مستغلين بذلك روح التسامح العربية ، التي سادت

الأندلس والمغرب وقتاً طويلاً . أما في أيام تراجع العرب وسقوط هيبتهم ، وضعف قوتهم ، فحدِّث ولاحرج . فقد انتقلوا إلى جانب الأسبان ، يقومون بخدمتهم ، والدفاع عن حقوقهم العامة ضد العرب ، الذين أعطوهم كل شيء . وكانوا في كثير من الأحيان اشد ظلماً وعدواناً من الأسبان على العرب، برغم أنه لولا ثقافة العرب وعلومهم ، التي درسوها واستفادوا منها ، لما تمكنوا من الوصول إلى المناصب الادارية والاقتصادية الرفيعة ، التي شغلوها في الجانب الاسباني المعادي للعرب .

تفاصيل هذه الأمور ستظهر واضحة من خلال تتبع مضمون الصفحات التالية ، التي قصدنا من كتابتها الوقوف على جانب هام من جوانب حياة اليهود في ظل دولة العرب المتقدمة في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى ، ذلك لأن الوقوف على هذا الجانب التاريخي الهام من حياة اليهود ، يمكّن المرء من معرفة أكيدة ، في أن الشعب اليهودي ، لايمكن أن يرقى إلى المستوى الانساني، الذي يجعله يظر إلى الآخرين نظرة عادلة ، تعتمد في أصولها على حقوق جميع البشر في التمتع بحياتهم العامة والخاصة ، بحيث لايكون ذلك على حساب الآخرين . كما أنهم دوماً يجعلون من أنفسهم سادة غيرهم ، وحتى تستقيم الحياة برأيهم (الظالم) فلابد من أن تكون البشرية تحت سيطرتهم الثقافية والمادية والمعنوية .

نبدأ بالتساؤل عن الأصول الغابرة لليهود في المغرب والأندلس . للإجابة على ذلك نقول : إننا لن نذهب بعيداً في التحري والبحث عن الأماكن ، التي رحل منها اليهود إلى الأندلس والمغرب ، لأن في ثنايا ذلك أوهام وأغلاط وآراء لاطائل منها ، وبالتالي لايمكن للمرء أن يلور فكرة راسخة حولها . وكل مايمكن

ذكره في هذا المقام ، أن قسماً مهمّاً من اليهود في اسبانية والمغرب ، يعود في أصوله إلى العصر الروماني . أما القسم الآخر المتبقي من اليهود ، منهم من أصل أوروبي شرقي ، ومن ثم من اصل خزري ، وهذا يعني أن أسلاف معظم اليهود المعاصرين ، لم يأتوا من وادي الأردن وإنما من الفولغا ، و لم ينحدروا من كنعان، وإنما من القفقاس . وأنهم أوثق انتماءً وراثياً إلى قبائل الهون والمجر منهم إلى ذرية ابراهيم واسحق ويعقوب[١] .

ومن ذلك يُستنتج أن اليهود كانوا طارئين على شبه الجزيرة الايبرية (اسبانية) مثلهم في ذلك مثل جميع اليهود في كل مكان . و لم يكن لهم صلة جنسية أو دينية بسائر سكان الأندلس ، وكانت الحياة الاقتصادية في أيديهم وتحت سيطرتهم ، يقدمون القروض والأتاوات والاغراءات للطبقات الحاكمة ، ويبتزون الأموال من الطبقات المحكومة دون تفريق بين غني أو فقير ، أو بين محتاج ومتخم ، ثم كانوا يقرضون المال للجميع بالربا والفوائد ومايتصل بذلك[٢] .

وكما كانت الدولة تضطهد اليهود، كان الأشراف ورجال الدين الاسبان يضطهدونهم أيضاً . وقد جعل رجال الدين اضطهاد اليهود سياسة صريحة لهم، وحملوا الدولة على تبني تلك السياسة ، وكانوا لايبايعون ملكاً على اسبانية إلا إذا تعهد بتنفيذ هذه السياسة . وحجة رجال الدين في اضطهاد اليهود ، هي أن اليهود قتلوا المسيح ، وأنهم يأخذون الربا ، وأنهم يعملون في النخاسة . وأقرت الكنيسة سياسة الاضطهاد هذه سنة (٦١٦م)في أيام الملك سيسيبوت (٦١٢ - ٦٣١م) وكان روماني الهوى وكاتباً باللغة اللاتينية ، وكذلك في أيام الملك سيسيناندو ، الذي عُقد المجمع الرابع الكنسي في عهده في مدينة طليطلة سنة

(٦٣٣م) ، والذي اتخذ بحق اليهود قرارات مجحفة غير انسانية[٣] .

وقد أدت هذه السياسة الجائرة وماآلت إليه من أحوال سيئة باليهود ، أن يطلبوا التخلص منها ومن عواقبها ، فراحوا يتآمرون على الدولة الايبيرية بشتى الوسائل ، دون أن يفكروا في أمر وماهية الدولة المقبلة ، التي تخلصهم من هذا الواقع الصعب . وهذا ماجعلهم يميلون إلى الترحيب بقدوم العرب ، لاحبّاً بهم ولاإيماناً بجدارتهم ، لأنهم لايحبّون أحداً في الأرض ، بل لأنهم كانوا يأملون بالتخلص من ظلم الاسبان ، الذي شمل كل جوانب حياتهم ، وأن العرب اتصفوا في ذلك الحين بعدلهم وتسامحهم ومحبتهم وإنصاف المظلومين برفع الظلامات عنهم ، من أي الناس كانوا ومن أي الانتماءات . والحقيقة فإن الذي حدث بالفعل ، هو أن العرب لما وصلوا إلى الأندلس ، لم يضطهدوا اليهود دينياً ولاكانوا يأخذون منهم أموالاً بغير حق ، كما كان يفعل القوط ، وبذلك ارتفعت مكانتهم في ظل الحكم العربي[٤] . ومنذ ذلك الحين تمتع اليهود بنعمة الهدوء والاطمئنان والعيش الكريم ، ولم يتعكر صفو حياتهم لحظة واحدة ، إلا عندما كانوا يقومون بأعمال شائنة ، تثير حفيظة العرب ، الذين منحوهم العطف والرحمة ، وقدموا لهم جميع ألوان المساعدة[٥] .

وقد تركز الوجود اليهودي في الأندلس في كل المناطق مع اختلاف في كثافة هذا الوجود ، حيث كان كثيفاً في المناطق الجنوبية العامرة في الحياة والغنية في الأرزاق والايرادات والامكانات المتنوعة ، مثل مدينة غرناطة ، التي دعيت بغرناطة اليهود[٦] ومدينة اشبيلية التي اكتظت بأعداد غزيرة منهم . لكن أكبر مراكز وجودهم في الأندلس ، كان في بلدة اليسانة القريبة من قرطبة ، التي اختصت باليهود دون غيرهم[٧] ، وقد كان وجودهم في هذه البلدة مميزاً ، لأنهم

كانوا أكثر ثروة ومالاً وبحبوحة اقتصادية من سائر اليهود في الأندلس[٨] .

وأهم مناطق اليهود في الأندلس ، كانت مدينة طليطلة عاصمة اسبانية القديمة التي كانت تعرف في العصور الوسطى بالثغر الأوسط . وقد كان اليهود فيها كثيري العدد ، وأصبحوا ذوي شأن رفيع في ظل الحكم العربي المتسامح ، الذي سمح لهم بالامتلاك والبيع والتصرف ، كما لو أنهم من العرب المسلمين ، ودليل ذلك وجود كثير من الصكوك البيع والشراء ، كانت تحتوي على أسماء رجال لهم مقام اجتماعي رفيع ، مثل الصك الذي ذكر فيه ماكان يمتلكه أبو هارون موسى بن الشحات الاسرائيلي [٩] .

وبالجملة فإن وجود اليهود في الأندلس ، تركز في المدن الكبرى ، وبعض التجمعات السكنية الكثيفة ، التي يكثر فيها النشاط الاقتصادي ، ولاسيما النشاط التجاري ، الذي برع اليهود في مضماره ، كما سنرى في الفقرات التالية.

وقد ظل اليهود إلى جانب الفئات الأخرى غير العربية ، لم يعيشوا في أحياء خاصة بهم في المدن سابقة الذكر . ولم يكن لهم زي خاص بهم ، يتميزون به عن سواهم خلال القرون الأولى من حكم العرب في الأندلس والمغرب على الأقل ، كما كانت العادة في المشرق العربي[١٠] وكانت بيوتهم في أحيائهم قريبة من بعضها ، تتصل فيما بينها بدروب ضيقة وساحات صغيرة ، وفي هذه الأحياء يوجد بعض الحمّامات والمعابد[١١] .

وفي المغرب العربي كغيره من بلدان العالم ، وجدت بعض الجاليات ليهودية، التي انتشرت في عدد كبير من مدنه وبلداته ، من حدود بلدة شالة في

المغرب الأقصى حتى تاهرت في المغرب الأوسط ، ومن بداية افريقية (تونس) حتى نهايتها . وكانت هذه الجاليات تتوضع بشكل خاص في المدن الكبرى ، مستغلة في ذلك وقبل كل شيء روح التسامح العربية ، ومقدرة العرب على استيعاب جميع السكان والمساواة فيما بينهم ، إذا التزموا في حدود القانون والنظام العام . فمنذ القديم ضم المجتمع القرطاجني ، الذي شمل رقعة واسعة من ارض المغرب العربي ، ولاسيما الأقسام الشمالية منه ، ضم بعض الجاليات اليهودية ، التي بدأت بالمجيء إليه منذ سنة ٥٨٨ ق.م، على أثر قيام الملك البابلي بختنصر بتنقية مجتمع مدينة بيت المقدس في فلسطين من الشرور اليهودية[١٢] . ولايستبعد أن تكون مجموعة مهمة من يهود اسبانية ، قد انتقلت إلى المغرب قبل وبعد الفتح العربي الاسلامي للاندلس والمغرب . فقد ظهر اليهود قبل الفتح على صعيد التدخل في الشؤون السياسية لكلا البلدين ، مثال ذلك أنهم قاموا بمساعدة الفاندال في اسبانية ، وكذلك في المغرب عندما احتله الفاندال ، وذلك انتقاماً من المسيحيين الإسبان ، الذين كانوا يعاملونهم بقسوة[١٣] . وبقي اليهود يتمتعون بحرية الإقامة والإنتقال في كل أقطار المغرب العربي ، عندما فتح العرب جميع أقطاره ، وازداد استقرارهم تدعيماً وقوة في عهد الدول الانفصالية، التي قامت في القرن الثاني الهجري ، كدولة الأغالبة في تونس ، والدولة الاباضية الرستمية في تاهرت بالمغرب الأوسط (الجزائر اليوم) ، ودولة بني مدرار في سجلماسة بالمغرب الأقصى ، حيث باشر اليهود أعمالاً متعددة الوجوه ، ولاسيما التجارة التي نشطت خلال القرن الثالث الهجري بين أقطار المغرب وافريقية من جهة ، وبين الاندلس من جهة ثانية ، وبخاصة تجارة الذهب ، التي تميز اليهود بها ، وعرفوا اسرار نجاحها وطرقها المربحة .

ويبدو أن عدد الجالية اليهودية في المغرب ، كان كبيراً إلى حد ما ، يدل على ذلك ، أن اليهود كانوا أكثر من المسيحين في المغرب. فمنذ الأيام الأولى لبناء مدينة فاس المغربية ، شكل اليهود فيها جالية كبيرة ، فيذكر ابن أبي زرع في كتابه (الأنيس المطرب بروض القرطاس) أن إدريس الثاني فرض الجزية على يهود فاس ، فكان مبلغ جزيتهم في كل سنة ثلاثين ألفاً[١٤] . ويذكر ابن حوقل في عدة مواضع من اراضي الفاطميين ، كانت تجبى ضريبة تسمى (الجوالي)، ويكاد يكون من المؤكد أن هذه الضريبة هي الجزية نفسها ، التي كانت تفرض على غير المسلمين[١٥] .

وعلى الرغم من التسامح العربي شبه الكامل مع اليهود في المغرب العربي ، فقد يبدو من الواضح في تاريخ المغرب والأندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، أنه لاوجود لليهود في ميدان الادارة العامة على الاطلاق ، وإن وجد استثناء لذلك ، فهو قليل ونادر جداً ، وربما يعود سبب ذلك إلى قوة الوجود العربي على هذا الصعيد ، حيث الكوادر العربية الادارية متوافرة بصورة كافية ، وهذه الكوادر تتفوق على غيرها بالعلم والمعرفة والخبرة والتوجه ، هذا بالاضافة إلى تماسك الدولة وقوتها وزخمها الحي ، وبخاصة خلال عصر الامارة والخلافة الأموية في الأندلس ، وبالتحديد خلال فترة حكم الخليفة الناصر لدين الله وولده الحكم المستنصر ، والتي استمرت من سنة ٣٠٠ - ٣٦٦هـ / ٩١٣ - ٩٧٧م ، حيث وصل يهودي واحد إلى شغل منصب الوزارة، ساعده على ذلك تعمقه في أصول وأنواع الثقافة العربية ، وكذلك التسامح العربي في عصر الخلافة، الذي ترافق مع تقدم البلاد على كل الصعد ، ولاسيما منها الاقتصادية والعلمية . هذا الوزير هو أبو يوسف حسداي ابن اسحق بن عزرا بن شبروط

المتوفى سنة ٣٥٩هـ / ٩٧١م ، الذي اشتغل عند الخليفتين سابقي الذكر في ميدان الادارة والطب على حد سواء ، وقد كانا يشاورانه في كثير من الأمور الكبيرة الخاصة بالدولة[١٦] .

أما فيما بعد هذه الفترة الذهبية ، فقد اختلف الأمر بصورة جذرية ، ولاسيما خلال عصر دول الطوائف بالأندلس ، عندما سقطت الخلافة الأموية ، وظهر عدد كبير من الدول ، كان التناحر والتقاتل هو القاسم المشترك فيما بينها، الأمر الذي أدى إلى استخدام العناصر غير العربية ، ليس في مجال الادارة فحسب، بل في جميع المجالات . وبرز من بين هذه العناصر ، العنصر اليهودي ، الذي استطاع بذكاء وحسن تدبير من الدخول إلى أعماق وكيان حكام دول الطوائف ، الذين تغافلوا عن كل شيء يتعلق بحقوق الوطن ، وراحوا يركضون خلف مصالحهم الشخصية والعائلية والقبلية .

وقد اعتمد حكام الطوائف على اليهود في بعض الأعمال المهمة في مجال الادارة ، وحاول هؤلاء اليهود من خلال المناصب التي شغلوها ، إلى الاساءة للعرب ، وذلك بالوقوف ضد مصالحهم الوطنية . وفي تاريخ الأندلس الكثير من الأمثلة على ذلك ، نسوق بعضها على سبيل التمثيل لواقعهم الحقيقي في الأندلس. فحينما استقر الحكم للزيريين في غرناطة ، وأصبحت واحدة من دول الطوائف في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، قام باديس بن حبوس ، أحد حكامها المشهورين بتعيين اسماعيل بن نغريلة اليهودي وابنه يوسف وزراء في بلاطه . وخلال فترة قصيرة من الزمن ، اشتهر أمر اسماعيل ، فأصبح المتصرف الوحيد والرئيس في جميع الأشغال والأعمال في دولة باديس ، وفاز بالجاه والمال ورفع إلى أعلى منزلة ، فاتخذ عمالاً ومتصرفين في الأشغال من ابناء

جنسه (اليهود) فاكتسبوا المال والمراتب ، وتطاولوا على العرب . وفيه يقول الشاعر الأندلسي عبد العزيز بن خيرة القرطبي المعروف بالمنفتل :

قرن الفضائل والفواضل ... فشأى الأواخر والأوائل

سقطوا برفعة فضله ... كالشمس في شرف المناقل

متقلد سيف العلا ... والمكرمات له حمائل

وقد أثارت هذه الأبيات وغيرها حفيظة وغضب ابن بسام الشنتريني فعلق في أواخر القصيدة قائلاً : « ... وأبعد الله المنفتل فيما نظم فيه وفصل وقبحه وقبح ما أمل »[١٧] .

وكان من عظمته في دولة الحبوسيين بغرناطة ، أن قبل فيه بعد أن شوهد في قرطبة مع سيده باديس بن حبوس حاكم غرناطة : « ولم أفرق بين الرئيس والمرؤوس وتشابهت المناكب والرؤوس » . وقال عنه ابن السقاء الوزير القرطبي المعاصر : « إنه نسي اليهودية وكان منهمك في نظر الكتب ، ونشد أشياء من علم العرب ، وكان آخر أمره أن حجب صاحبه عن الناس ، وسجنه بين الدن والكاس ، ملحاً في أمره مبرماً لأسباب غدره ... »[١٨] .

ولم يرض بهذه المكانة الرفيعة ، التي شغلها في دولة الحبوسيين بغرناطة ، بل راح يتآمر على سيده ، الذي جعله أهم شخصية بعده ، وذلك بالاجهاز على السلطان الزيري كله واستبداله بسلطان بني صمادح أصحاب المرية ، واتخذ الترتيبات المناسبة لتحقيق انتصارهم ، واحتلال مدينة غرناطة . وقد أفلح هذا اليهودي في إخراج القواد الأقوياء من غرناطة بحجة حمايتها من غزو ابن عباد صاحب اشبيلية ، وأثار طمعهم بالأموال المخصصة لهم ، بينما أغفل الحصون الشرقية المجاورة لدولة المرية ، وأغفل تزويدها بالعدد والمؤن الضرورية ، حتى

خلا الكثير منها ، وفكر القائمون عليها أنه لم يعد هناك دولة ولاسلطان . وحيثما وجد الفرصة مناسبة ، أشار على ابن صمادح بالتقدم ، واستطاع احتلال وادي آش بسهولة ، وتقدم نحو غرناطة ، حيث تظاهر اليهود بالخوف كالآخرين ، وانتقل من المدينة إلى القصبة . وفي الليلة المتفق عليها لفتح الأبواب لابن صمادح أفشى أحد العبيد الضالعين في المؤامرة بالسر ، وصاح بذلك بين الناس محذراً ومشيراً إلى مدبرها ، فقامت العامة على اليهودي وهاجموه في محبسه وأحرقوه بالفحم ، ولوحق اليهود على أثر ذلك ، فقتل منهم أكثر من أربعة آلاف شخص في غرناطة(١٩) . وكان هذا اليهودي معداً اعداداً تاماً للقيام بأعباء الوزارة ، حيث كان يمتلك جميع المؤهلات العلمية والتثقيفية ، إلا أنه كان يحتاج إلى لين الجانب والتواضع ، وراح يظهر بمظهر أميرهُ باديس ممتطياً جواده إلى جانبه ، وشارته في الملبس كشارته ، حتى أن الناظر اليهما ، لايفرق بين الأمير ووزيره بل كان هو المسيطر المتسلط على باديس(٢٠) .

إلى جانب آل النغريلة ، فقد اشتهر في غرناطة خلال عصر الطوائف أيضاً، اليهودي صموئيل هاليفي وكان يدعى عباد بن نغدلة ، الذي ولد في قرطبة ، ودرس التلمود على الربان هانوخ الرئيس الروحي للجالية اليهودية . ثم انصرف بجد ونجاح إلى دراسة الأدب العربي ، وتثقف بأكثر العلوم ، التي كانت معروفة إلى ذلك العهد ، ثم اشتغل في مجال التجارة مدة طويلة في قرطبة ومالقة، ثم ضحك له الحظ ، وانتشلته بعض الفرص السعيدة من هذا المركز الوضيع ، ذلك أن حانوته كان قريباً من قصر أبي القاسم بن العريف وزير حبوس ملك غرناطة. وكان على رجال القصر في الغالب ، أن يراسلوا مولاهم فيما يعرض لهم من الشؤون . ولكونهم جهلاء بفن الكتابة لجأوا إلى صموئيل هذا ، فكتب لهم

ماتمس إليه الحاجة من تلـك الرسـائل ، الـتي أثـارت اعجـاب الوزيـر ، إذ ألفاهـا مكتوبة بأبلغ وأجزل أسلوب عربي ، مما حمل الوزير عنـد عودتـه إلى مالقـة ، أن يسأل عن المنشىء لتلك الرسائل ، ولما علم أنه اليهـودي اسـتقدمه إليـه وخاطبـه بقوله : « وليس خليقاً بك أن تبقى صاحب حـانوت ، ومـا أجـدرك أن تكـون كوكباً يسـطع لألاؤه في بـلاط الملـك ، فـإذا توافـرت علـى ذلـك رغبتـك فـإني متخذك لي ناموساً خاصاً فتقبل منه هذه المنة شاكراً ، وصحبـه الوزيـر معـه عنـد عودتـه إلى غرناطـة وازداد اعجابـه بـه ، عندمـا أخـذ يبادلـه الحديـث في شـؤون الدولة، إذ وقف منه على رجل نادر الذكاء بـين الرجـال ، بعيـد النظـر ، سـديد الرأي ، حتـى قـال بعـض المؤرخـين اليهـود : « إن النصـائح الـتي كـان يسـديها صموئيـل كـانت بمثابـة أقـوال صـادرة عـن إنسـان ملهـم يسـتوحي كـلام الله ويستفسره » ولهذا كان الوزير يـأخذ بهـا ، ويخصـه بجميـل الثنـاء . ولمـا أحـس الوزير بدنو الأجل في مرضه ، الذي مات فيه ، جاء الملـك يعوده ، وقـد داخلـه حزن عميق علىوزيره وخادمه الأمين ، فانتهز الوزير هذه الفرصة وقال للملـك: « ولم تكن النصائح والآراء الرشيدة التي كنت أبديها لـك أيهـا الملـك في العهـد الأخير صادرة مني ، بل كانت وحياً أتلقاه من صموئيل ذلـك اليهـودي ، الـذي آثرت أن يكون ناموسي الخاص ، فاقصر نظرك عليـه واتخـذه أبـاً لـك ووزيـراً ، أخذ الله بيدك وشدّ به أزرك » .

وقد عمل الملك الغرناطي حبوس بهذه النصيحة ، وأحـلّ صموئيـل بـالقصر محلّ وزيره الراحل ، وصار ناموس الملك ومستشاره ، وهي الفرصة الأولى ، الـتي توصل فيها اليهود إلى الوزارة في الأندلس ، علماً أن بعض اليهـود قـد تمتـع علـى الأرجح بشيء من الاعتبار والحظوة لدى بعض حكام الأندلس العرب المسـلمين،

الذين كـانوا يسـتعملونهم غالبـاً علـى وزارة الماليـة . ولكـن التسـامح العربـي في الأندلس ، لم يبلغ إلى حد أن يتولى يهودي رئيس الوزراء ، وإذا جاز هـذا الأمـر في جهات أخرى ، فلم يكن ليجوز في غرناطة ، تلك المدينة التي كثر عدد اليهود المقيمين فيها . ولما كانت في أيديهم معظم الثروة ، فقد كانوا يتدخلون غالبـاً في شؤون الدولة .

ويصح أن يفسر سمو صموئيل إلى هذا المنصب بأسلوب آخر ، فإنه لم يكـن من السهل على ملك غرناطة ، أن يعثر على من يقلده منصب الوزيـر الأول ، إذ من المحقق أنه لم يكن باستطاعته أن يسند هذا المنصب الخطير ، لا إلى رجـل مـن المغاربة ، ولا إلى آخر من العرب من غير المغاربـة ، لأنـه لم يكـن يثـق بـاي مـن الطرفين ، و لم يبق أمامه سوى اليهود[٢١] .

وهكذا اتخذ من هذا الرجل وزيراً له . فعلى الرغم من أنـه بقـي علـى دينـه، كـان لاينحـرف وهـو يكتـب لأسـاطين المسـلمين عـن أن يسـتعمل في رسـائله ومكاتباته الصيغ والنصـوص والعبـارات الدينيـة المألوفـة عنـد كتـاب المسـلمين . فلابدّ أن يكون هذا الرجل قد أحرز من البلاغة العربية كنزاً ثميناً ، كان ينفق منه كلما أراد الكتابة ، ولهـذا لم يشـعر الملـك وقـد رفعـه إلى منصـة رئاسـة الـوزراء بخجل، والعرب أنفسهم قد ارتاحوا إلى هذا الاختيار ووافقـوا عليـه ، أمـا لأنهـم كـانوا يشـعرون أنـه نتـاج الثقافـة العربيـة الواحـدة ، أو أنهـم أرادوا تـأييد ارداة الحاكم على المستوى الظاهري على الأقل .

وقد استغل مكانته ، فقـام يسـهر علـى المصـالح اليهوديـة ، ويعنـى بالشـبيبة اليهودية عناية أبوية ، ويتفقد فقراء الحال منهم ، ويمدهم بما يسد حـاجتهم علـى كل صعيد ، وكان في خدمته كتاب ينسخون (المشـنا والتلمـود) فكـان يـوزع

نسخها جوائز على التلاميذ ، الذين لايستطيعون شراءها . ولم تكن مكارمه وخيراته واحساناته ، لتقتصر على أتباع دينه في اسبانية فحسب ، بل كانت تتعداهم إلى أمثالهم في افريقية وصقلية والمشرق . وقد أصبح اليهود في كل صقع وبلد ، يعتمدون عليه كمصدر للمعونات والرزق . لذلك فقد قام يهود غرناطة بمنحه لقب (ناغد) أي زعيم أو أمير يهود غرناطة[٢٢] .

وفي غرناطة أيضاً ، عُرف بعض الاداريين اليهود الآخرين . وكانت مناصبهم الادارية التي شغلوها من أهم المناصب لحساسيتها ودقتها وتأثيرها على الصعيد الاقتصادي . فقد استلم أبو الربيع اليهودي منصب الخازن في دولة غرناطة . والخازن كما هو معروف في ذلك العهد ، كان يقوم بوظيفة الاشراف على عدد من المهمات الكبيرة ، فقد كان مسؤولاً عن خزانة الأموال العامة ، من حيث جمعها وتوزيعها في شتى الوجوه والسبل ، كما كان مسؤولاً عن ادارة المستودعات العامة لمواد التموين المختلفة من غذاء وكساء ومرافق . وقد كان أبو الربيع اليهودي سالف الذكر مسؤولاً عن خزانة الأموال في دويلة غرناطة في عهد حاكمها باديس بن حبوس ، الذي اشتهر كأعظم حاكم أندلسي ومغربي اعتمد على اليهود في مجال الادارة العامة[٢٣] .

ولم تكن دويلة غرناطة وحدها ، التي اعتمدت على اليهود في الميدان الاداري ، كما لم يكن الغرناطيون وحدهم ، الذين انفردوا بايصال اليهود إلى مرتبة الوزارة ، بل حدث الشيء نفسه في بلاط بني هود بولاية سرقطة (الثغر الأعلى) في شمال شرق الأندلس . حيث وصل إلى وزارتهم اليهودي أبو الفضل بن حسداي ، الذي تحول من اليهودية إلى الاسلام ، وكان من مشاهير الأدباء في الأندلس[٢٤] . وفي عصر دول الطوائف أيضاً ، استخدم اليهود بكثرة لجمع

الضرائب والمكوس من العرب وأهل الذمة ، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً[٢٥] .

وقد استخدمهم الجانب الاسباني في المجال الاداري ، وبخاصة في الادارة المالية ففي سنة ٤٧٥هـ / ١٠٨٢م قام الفونسو السادس بإرسال وفد إلى حاكم اشبيلية المعتمد بن عباد ، يطالبه بدفع الجزية المترتبة عليه ، وكان رئيس هذا الوفد يدعى ابن شاليب اليهودي ، الذي رفض عيار الذهب المقدم كجزية إلى الفونسو، وهدد الاشبيليين بكل وقاحة وجرأة ، بأن الجزية ستؤخذ في العام القادم على هيئة أراضٍ ، مما أثار حنق وغضب المعتمد بن عباد ، الذي شعر بالذل والمهانة من خلال هذا التهديد ، الذي يعني في أبسط اشكاله ، أنه لاقيمة لحكمه ولا لشخصه ولا لوجوده ، فأمر بسجن الوفد وصلب ابن شاليب اليهودي منكساً[٢٦] ، وهذا يشير إلى حقيقة هامة ، تتجلى في أن اليهود في الأندلس في ذلك العصر ، كانوا يشعرون أنه لاقيمة للعرب ، بعد أن تفرقوا على هيئة دول مدن هزيلة ، ولن يكون بمقدورهم عمل شيء ، مهما كانت الأذية بالغة الضرر، الأمر الذي شجع ابن شاليب على القيام بتصرفه سابق الذكر . ويشير من ناحية أخرى إلى أن اليهود في الأندلس ، كانوا دوماً مع الجانب القوي والمنتصر . ويبدو أن الإسبان في عهد الطوائف ، حاولوا استقطاب اليهود في صراعهم ضد العرب في الأندلس ، فسمحوا لهم بإقامة اشياء لم يكن مسموحاً بها في العصور الماضية ، الأمر الذي كان يستهوي قلوب اليهود ، ويجعلهم يفضلونه ، من منطلق أن كفة الرجحان كانت تميل لصالح الاسبان . فقد قام الإسبان في مدينة طليطلة باعتماد صموئيل اللاوي وزيراً في بلاطهم خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي . وعلى عادة اليهود فقد استغل

منصبه هذا ، فبنى كنيساً لليهود على نفقته الخاصة . وأطلق عليه تسمية كنيس (الانتقال) وظل قائماً حتى قام كاثوليك اسبانية بطرد اليهود ، وحولوا هذا الكنيس إلى كنيسة باسم (سان بنيتو)(٢٧) .

وفي المغرب العربي وجد اليهود تشجيعاً قوياً من قبل الحكام ، حتى ماقبل نهاية القرن الخامس الهجري بسنين قليلة ، ذلك لأن عرب المغرب كانوا كأخوتهم في الأندلس خلال عهود القوة العربية الواحدة ، ولاسيما خلال عصر الامارة والخلافة الأموية ، كانوا يعاملون اليهود معاملة طيبة ، وذلك انطلاقاً من نظرتهم الانسانية الرائعة، هذه النظرة التي لاتفرق بين الناس ، طالما هم ملتزمون بمسيرة الحكم العامة .

ففي عصر الفاطميين في المغرب ، تمتع اليهود بحرية واسعة في ممارستهم لأعمالهم العادية والضرورية ، الأمر الذي مكنهم من شغل مناصب إدارية عالية في الدولة . نذكر على ذلك مثلاً يعقوب بن كلس اليهودي ، الذي دخل في خدمة المعتز الفاطمي سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م ، واعتمد عليه في أمور خطيرة جداً، منها أنه قام بتشجيعه على الهجوم على مصر(٢٨) .

وكان المعتز الفاطمي يعتمد اعتماداً كبيراً على آراء الحاخام اليهودي بلطيل ابن شفاطيا ، الذي كان يقوم بتقديم معلومات فلكية وتنجيمية للمعز ، حينما كانت قواته تحاصر منطقة أوريا ORIA في جنوب ايطالية ، فبشره بالخير بخصوص نجاح هذه القوات في أعمالها الحربية ، فاعتمده مستشاراً خاصاً به ، ووزيراً لمملكته في المغرب عند اقامته بمدينة القيروان ، وكذلك بعد انتقاله إلى مصر(٢٩) . وفي عصر دولة بني مرين في المغرب الأقصى ، اشتهر كثيرٌ من اليهود، الذين كانوا يعيشون في مدينة فاس. وقد تمكنوا من الوصول إلى البلاط المريني،

ولاسيما في فترة حكم يوسف المريني، فكانوا يرافقونه في حله وترحاله ويقومون بخدمته، وذلك منذ طفولته، وكانوا يتولون ادارة شؤون بيته، ويقضون أموره الخاصة به، ويجالسونه في خلواته وينادمونه في ساعات أنسه ولهوه. وبشكل عام فقد عظم شأن اليهود عند سلاطين بني مرين، فاستخدموهم في أعمال كثيرة، من أمثال خليفة بن وقاصة وأخوه ابراهيم، وصهره موسى بن السبتي، وابن عمه خليفة الأصفر وغيرهم. وقد استمروا على ذلك فترة من الزمن، إلى أن قام السلطان يوسف المريني سنة ٧٠١هـ / ١٣٠٢م بقتل هؤلاء جميعاً، ماعدا خليفة الأصفر، الذي قتله بعد مدة[٣٠].

ولما مات الخليفة يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، خلفه ابنه أبو الربيع سليمان ابن يوسف بن يعقوب، فرفع من شأن الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مرين. كما كان في أيام والده. وكان بنو وقاصة اليهود، يرون أن سبب نكبتهم أيام السلطان يوسف، كانت بسعاية أبي محمد بن أبي مرين، وكان خليفة الأصفر اليهودي منهم، وقد أفلت من الموت، وتمكن من استلام بعض أعمال السلطان أبي الربيع، بجعل محور عمله التآمر على أبي مرين والانتقام منه. فبلغ السلطان بأن أبا مرين قام بإنشاء بعض خصوصيات السلطان، ولاسيما موعد خلوته مع نساء حاشيته، فأمر بقتل أبي مرين. ولم تمض فترة وجيزة حتى اكتشف أمره، فجاء باليهودي خليفة بن وصافة الأصفر وحاشيته فقتلوا جميعاً[٣١].

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد عاد السلاطين المرينيون فيما بعد إلى استخدام اليهود في الادارة، وفي أماكن حساسة للغاية، كما فعل السلطان عبد الحق المريني، عندما قتل وزيره يحيى بن يحيى الوطاسي وحاشيته، وعين مكانه

رجلين من اليهود، قاما بمعاملة أهل فاس معاملة قاسية، مما أثار حفيظة أهلها على السلطان فقاموا بقتله سنة ٨٦٩هـ / ١٤٦٥م[٣٢] . وهكذا فإن اليهود، الذين عملوا في الميدان الإداري في المغرب والأندلس، لم يلتزموا بحدود الخطة التي رسمت لهم من قبل حكامهم، فراحوا يسعون لتحقيق مصالحهم ومصالح الجالية اليهودية في كل من المغرب والأندلس، وأدى بهم الأمر إلى التطاول على العرب من خلال قوة مناصبهم الادارية.

وشغل اليهود في الحياة السياسية في المغرب والأندلس دوراً هاماً للغاية ، الأمر الذي يجعلنا نقف عنده وقفة متأنية ودقيقة ، لأنه مؤشر ثابت في عمق الحياة اليهودية في كل زمان ومكان عاش فيها اليهود على الأرض .

قام العرب الفاتحون في الأندلس باستخدام اليهود في حاميات المدن، التي كان يفتحها الجيش العربي، حتى يتمكنوا من المحافظة على قوة الجيش كاملة. وكان اليهود يريدون من خلال وقوفهم في الصف العربي، نسف الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية، وكذلك الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية والممالك الفرنجية بأسرها، وبشكل خاص قهر الإسبان، والتخلص من الظلم الإسباني، الذي عكر صفو حياتهم العامة[٣٣] . ويؤكد هذه الحقيقة أيضاً لويس برتراند عضو الأكاديمية الفرنسية في كتابه (تاريخ اسبانية) بقوله : « إن موقف اليهود عبر القرون لم يتبدل، إنهم حلفاء الافريقيين ضد الإسبان وحلفاء الإسلام ضد المسيحين، وحلفاء المسيحين ضد المسلمين عندما تبدل نجمهم. إنهم يفرقون بين أعدائهم ليسيطروا عليهم[٣٤] . ولم يقتصر دورهم على التفريق بين العدو والصديق، بل قاموا بالتفريق بين الصديق وصديقه، وبين الأخ وأخيه، مثال ذلك، أنه كان عند عبد الرحمن بن حبيب والي افريقية رجل يهودي ، هو الذي

شجعه على طرد عبد الرحمن الداخل من المغرب، حينما أخبر عبد الرحمن بن حبيب، بأن الداخل ينوي اقامة دولة أموية في المغرب[٣٥] .

ويبدو أن اليهود منذ قديم الزمان، تعودوا على استخدام طريقة شائنة ومخزية في القضاء على الخصوم السياسيين، تتجلى في استخدام النساء كأداة للتنفيذ. ففي عصر الإمارة الأموية بالأندلس وخلال فترة حكم الأمير عبد الله بن محمد الأموي، اشتهر أمر الثائر سعيد بن جودي، الذي التجأ إلى عمر بن حفصون، زعيم الثائرين في هذه الفترة على الأمويين، وبقي عنده فترة من الزمن، و لم يتمكن الأمير الأموي من التخلص منه، إلا من خلال التآمر مع عيشقة له من اليهوديات، حيث قتل في دارها[٣٦] .

مع ذلك فقد اعتمد العرب على اليهود في مسائل بالغة الخطورة والحساسية. فقد اعتمدوا عليهم في تحضير وإعداد الأطعمة. فكان للمنصور محمد بن أبي عامر رجل من اليهود، لاعمل له سوى البحث عن توضع النحل في الكهوف والشعاب الجبلية في الأندلس، وذلك من أجل استخراج العسل الخاص، الذي يتألف كما هومعروف من رحيق الأزهار المتنوعة في بيئة الأندلس[٣٧] .

وفي عصر الإزدهار العربي في الأندلس، الذي صادف عصر الخلافة الأموية فيها، قام أشهر خليفة أندلسي، وهو عبد الرحمن الناصر لدين الله بإرسال سفير من اليهود، هو حسداي بن شبروط إلى جليقية لعقد صلح مع رذمير الثاني في سنة ٣٢٩هـ / ٩٤١م وإطلاق سراح محمد بن هاشم التجيبي ، القائد الذي أسر في وقعة الخندق سنة ٣٢٧هـ / ٩٣٩م . وقد نجحت السفارة في اطلاق سراح التجيبي وعاد مع السفير اليهودي حسداي بن شبروط[٣٨] .

واستخدم اليهود في مدينة قرطبة في بعض الأحداث السياسية، التي كان وقعها كبيراً في نفوس الأندلسيين، من ذلك استخدام أحد اليهود، الذي كانت فيه بعض نواحي شبه بشخص الخليفة هشام المؤيد الأموي، على أنه هو الخليفة، فقد أمر محمد بن هشام بن عبد الجبار، أن يشهد بعض من حضر وفاته من أصحابه، على أنه هشام المؤيد الأموي، وأحضر القاضي ابن ذكوان والفقهاء مجموعة من عامة الناس، فصلوا عليه وقاموا بتقديم العزاء لاقربائه كما هي العادة(٣٩) .

وفي بعض بلاطات حكام الأندلس، اعتمد اليهود كمنجمين، يتوقعون ويستنبطون بطرق سحرية عجيبة، ماسيكون عليه الأمر في المستقبل. يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الحكام رأوا اليهود في أحلام نومهم، فاستبشروا ببعض الأمور المفجعة، كما جرى مع أحد أمراء المنصور محمد بن أبي عامر خلال الربع الأخير من القرن الرابع الهجري، حينما رأى في أحلام نومه يهودياً يمشي في أزقة مدينة الزاهرة(٤٠) ، وهو يحمل خرجه على عنقه وينادي بعبارة (خروبش) فسأل المفسر عن ذلك ، فأخبره باقتراب خراب الزاهرة(٤١) .

أما في عصر الطوائف بالأندلس، فقد كثرت فيه مشاكل اليهود، وأخذت شكلاً أكثر خطورة وتأثيراً في الحياة السياسية العامة، مستغلين بذلك حالة الإنقسام، التي وقعت في صفوف العرب في الأندلس، فراحوا يتدخلون في كل أمر يستطيعون من خلاله إثارة نار الفتنة والخلاف بين حكام دول الطوائف، وبينهم وبين بعض رجال إدارتهم. فعلى الرغم من الصداقة، التي بدأت بين المعتمد بن عباد، وبين الوزير ابن عمار في إشبيلية منذ أن كانا صغيرين، فقد تمكن الواشون من الوقيعة بينهما، وكانوا من اليهود الذين حصلوا على نسخة من

قصيدة لإبن عمار يهجو فيها المعتمد، وأرسلوها إلى حاضرة المعتمد، فتوترت الأموز بين الرجلين، حتى غدا الإصلاح بينهما ضرباً من المحال[٤٢] . وقام بعض اليهود بالتدخل في الصراع بين زعماء إشبيلية وزعماء طليطلة، حينما هاجم المعتمد بن عباد مدينة قرطبة سنة ٤٦١هـ / ١٠٦٩م ، وتمكن من السيطرة عليها، وجعل فيها ابنه سراج الدولة عباد بن محمد، ومعه القائد العسكري ابن مرتين. وفي سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م، هاجم حاكم طليطلة ابن ذي النون قرطبة بوساطة قائده حكم بن عكاشة الذين تمكن من الدخول إلى المدينة وقتل ابن عباد، وفر ابن عكاشة دون مقاومة، ولما وصل إلى القنطرة[٤٣] ، في مدينة قرطبة ، قتله رجل يهودي من سكان قرطبة[٤٤] .

ولما بدأت كفة الإسبان ترجح في الأندلس، تحول اليهود عن العرب، بعد أن وجدوا ذلك ضرورياً جداً لتحقيق مصالحهم العامة، وعملوا عند الإسبان في الكتابة والوزارة وشتى أنواع وفروع الخدمة العامة. وقد أشار إلى ذلك بوضوح حاكم قشتالة وليون قبل معركة الزلاقة بوقت قصير بقوله : « الجمعة لكم ، والسبت لليهود، وهم وزراؤنا وكتابنا، وأكثر خدم العسكر منهم، فلا غنى لنا عنهم ... »[٤٥] . وحينما كانوا يظفرون بالعرب، أو تسمح الفرصة لهم بالتحكم بهم، فإنهم كانوا يعاملونهم معاملة قاسية. فعلى سبيل المثال، تمكن الاسبان من السيطرة على بلنسية سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٢م، ووضعوا على رأس ادارتها رجلاً من اليهود. ذكر ابن علقمة في رواية له ينقلها ابن عذاري في كتابه (البيان المغرب) يقول : « ؟؟؟؟؟ اليهودي لعنه الله من المسلين مبلغ الغاية في العذاب، وسلط اليهود على الاسلام، فبلغوا النهاية في النكال والنكاية، ومنهم الأمناء الموكلون، والمتصرفون وأصحاب الرسوم، وخدام البر والبحر. وجلس

اليهودي للقبض بباب المدينة من الغرب بالعصا والسوط »[٤٦] .

أما في الفترة التي جاءت بعد انتهاء عصر الطوائف، والتي دامت حتى سنة ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م، فإن وضع اليهود في المغرب والأندلس تحول إلى شكل آخر غير الذي كان في العصور السابقة. فقد ضيق المرابطون على اليهود بحجة أنهم أقاموا بأعداد كبيرة في منطقتين، هما سجلماسة وأغمات الواقعتين في جنوب المغرب الأقصى كبوابتين لتجارة الذهب عبر الصحراء مع بلاد الأندلس وما يليها من البلدان الأوروبية الأخرى، ومع بلدان أفريقية السوداء. فقام يوسف بن تاشفين بممارسة ضغط كبير على اليهود في مراكش عاصمة المرابطين القريبة من أغمات. وكانت أشد وسائل الضغط، تلك التي تمثلت باجبارهم على اعتناق الاسلام بالقوة، لكنهم قاوموا ذلك بوسائل مختلفة، كمحاولتهم دفع مبالغ مالية طائلة في سبيل إعفائهم من أمر اعتناق الإسلام، وإعطائهم الحرية والخيار في هذه المسألة الحساسة في حياتهم[٤٧] .

وخلال دخول يوسف بن تاشفين إلى الأندلس في المرة الرابعة سنة ٤٩٥هـ / ١١٠٢م ، توجه إلى اليسانة، وكانت مركز التعامل الرئيس بالذهب، وبعد مفاوضات مع يهود هذه البلدة، توصل الفقيه ابن حمدين إلى اتفاق معهم، يدفعون بموجبه مبلغاً مالياً محترماً، مقابل أن تترك لهم الحرية بممارسة طقوسهم الدينية كاملة[٤٨] .

وفي عصر الموحدين، الذي استمر لفترة طويلة إلى حد ما[٤٩] ، بقي أمر عدم الاعتماد على اليهود قائماً، حتى أنه كان أشد مما كان عليه في عصر المرابطين، لأن الموحدين لم يختلفوا عن المرابطين في مسألة حشر العقيدة الدينية في قضايا الحكم. ففي زمن أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، فرض

على اليهود أن يرتدوا لباساً خاصاً يميزهم عن غيرهم. ويتكوّن هذا اللباس من قماش ذي لون كحلي، وأكمام مفرطة السعة، تصل إلى قريب من الأقدام، وبدلاً من العمائم، كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع، تبلغ إلى تحت الأذنين (٥٠) .

وكانت نتيجة هذه السياسة بشكل عام سلبية، لأنها أثارت حقد اليهود على العرب المسلمين. فقد كانوا يتحينون الفرصة للإنتقام، وقد أتيحت لهم فرصة في عصر الموحدين، كانت في غرناطة، حينما أعلن ابراهيم بن همشك عصيانه على الموحدين، لأنه كان يتطلع إلى السيطرة علىغرناطة. وفي نهاية الأمر لجأ إلى المكر والخديعة، وتوجه إلى اليهود، وعقد معهم مؤامرة، يقومون بموجبها بمساعدته على دخول غرناطة، والقاء الحصار على قلعتها، التي كان المدافعون من الموحدين قد تجمعوا فيها. وعلى أثر ذلك جرت معركة في مرج الرقاد بالقرب من غرناطة، انهزم فيها الموحدون وتكبدوا خسائر كبيرة في النفوس والأموال والسلاح. وكان ذلك سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م(٥١) .

ولما تقلصت رقعة السيطرة العربية في الأندلس، وانحصرت في ولاية غرناطة تحت حكم بني الأحمر أو بني نصر ، عادت المعاملة الطيبة إلى الظهور والتطبيق بشكل لم تعهده الأندلس إلا في زمن القوة، ولابد أن ذلك يعود إلى النضوج الذي اشتهر به النصريون على الصعيد السياسي والحضاري، فقد عدوا اليهود في بلادهم مواطنين، يمكن ضبطهم وتحويل أكثر أعمالهم إلى الصالح العربي العام(٥٢) ورغم هذه المعاملة الطيبة، التي عبّرت عن رقي العرب وأهليتهم لقيادة غيرهم، فقد راح اليهود يحشرون أنفسهم في الأمور السياسية العامة للدولة الغرناطية. فعندما توفي الحاكم الغرناطي الغني بالله بن الأحمر سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩١م،

خلفه في الحكم ابنه أبو الحجاج يوسف بن الأحمر، فقام بأمره رجل اسمه (خالد) مولى أبيه، وقبض على إخوته سعد ومحمد ونصر، فكان آخر العهد بهم، ولم يوقف لهم بعد على خبر. وبعد فترة وجيزة، سعي عنده في خالد هذا، واتهم على أنه يعد السم لقتله، ويبدو أن ذلك كان صحيحاً، لأن الطبيب يحي بن الصائغ اليهودي طبيب الدار السلطانية، قد داخله في ذلك، فقتل خالد، ثم حبس الطبيب ابن الصائغ، وذبح فيما بعد في محبسه حتى الموت[٥٣] .

وفي ميدان العلوم العامة أيضاً، شغل اليهود في الأندلس والمغرب مكانة خاصة، ذلك لأن الأندلس بخاصة، أزدانت بالمؤسسات التعليمية في كافة الاختصاصات، وكان باستطاعة أي انسان طلب المعرفة في الاختصاص الذي يتناسب مع ميوله الشخصية. فاليهود موضوع هذا البحث، لم يقدموا عبر تاريخ الإنسانية الطويل مساهمات مؤثرة في تقدم الحضارة العام، وأكثر مدوناتهم مأخوذة عن الثقافات القديمة وعن النصوص، التي خلفها السومريون والكنعانيون والأكاديون والبابليون والآشوريون وأخيراً الأندلسيون والمغاربة. ويؤكد ذلك الدكتور اليهودي اسرائيل ولفنسون بقوله : « إن يهود بلاد العرب ، لم يظهروا شيئاً من النبوغ والعبقرية مطلقاً. ولم يشتهر من بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقي الفكري »[٥٤] .

ويؤكد هذه الحقيقة غوستاف لوبون بقوله : « لم يكن لليهود فنون ولاعلوم ولاصناعة، ولا أي شيء تقوم به حضارة. واليهود لم يأتوا قط بأي مساعدة مهما صغرت في إشادة المعارف البشرية. واليهود لم يجاوزوا قط الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ[٥٥] .

وإذا كان اليهود قد برعوا في علم من العلوم خلال فترة هذا البحث، فالفضل في ذلك يعود إلى العرب، الذي انتقلوا بإسبانية من عهود الظلام إلى عهود النور والتقدم. وما أنتجوه من ثقافة وماترجموه من كتب إلى اللاتينية والعبرية، فقد حصل من جراء اهتمامهم بعلوم العرب، كمواطنين في دولتهم، كان عليهم اكتساب المعارف العربية لتحسين أوضاعهم العامة. وهذا ماحدث بالفعل على أرض الواقع، لأنهم كانوا أدرى من غيرهم في حقيقة هذه الأمور. وباختصار فإن المحصلة اليهودية العلمية، هي في النهاية محصلة عربية خالصة، ذلك لأن اليهود ماكان لهم أن يتعلموا علوم العرب لولا دخولهم إلى الأندلس وبقاؤهم فيها لفترة طويلة. كان في مقدمة العلوم التي برعوا فيها إلى حد ما، العلوم الطبية، التي عمت الأندلس عن طريق العرب، وكان اليهود يفضلونها على غيرها، لأنها أقرب مصدر لتوفير المال والجاه في زمن كان الأطباء فيه قليلين جداً. ومع ذلك فإن الأطباء اليهود، اقتصروا في معظم الأوقات على مسألة المداواة، بعكس الأطباء العرب، الذي جمعوا بين ممارسة الطبابة والمداواة، وبين التأليف المبدع القائم على التجربة وبعض التقانات، التي كانت من أرقى ماعرفه العالم خلال العصور الوسطى.

ومن الأطباء اليهود، الذين اشتهروا خلال هذه الفترة، الطبيب حسداي بن شبروط، الذي عاصر الخليفة الناصر لدين الله الأموي المتوفى سنة ٣٥٠هـ / ٩٦٢م. واهتم هذا الطبيب بشكل خاص بتفسير عقاقير يستوريدس[٥٦]. وكذلك الطبيب مروان بن جناح، الذي كان أفضل من ابن شبروط بصناعة الطب، ذلك لأنه قام بتأليف حسن في الأدوية المفردة[٥٧]. ومثلهما الطبيب اسحق بن قسطار في طليطلة ومناحيم بن الفوال في سرقطة[٥٨]. وحسداي بن

يوسف السرقطي، وابن بكلارش وغيرهم من الذين عملوا عند الإسبان، مثل ابراهيم بن الفخار، الذي اشتغل في طليطلة في عصر الموحدين، وابراهيم بن زرزر الغرناطي، الذي التجأ إلى حاكم قشتالة في أواخر عمره[٦٠] ويوسف بن وقار الطليطلي في قشتالة[٦١] .

إلى جانب علم الطب، فقد أثرت الثقافة العربية الاسلامية في ظهور بعض اليهود في ميدان علم الفلك والرياضيات. ففي الفلك، اشتهر بعض تلامذة مسلمة المجريطي، مثل أحمد بن عبد الله الغافقي اليهودي المتوفى سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م . وقد وضع زيجا مختصراً على مذهب السندهند سماه (مختصر الزيج) وكتب رسالة الإسطرلاب والأسماء الواقعة عليها[٦٢] .

أما في مجال الفلسفة، فقد تفوق اليهود فيه من خلال اهتمامهم الجاد بالفلسفة العربية، التي كان لها رجالها المعروفين بآرائهم الجدية وأفكارهم الواقعية، التي تعتمد على الطريقة العقلانية، والفكر المبني على التسلسل المنطقي، الذي يجانب في معظمه الغيبيات والأوهام، التي لاقيمة لها في حياة البشر العامة.

كان من فلاسفة اليهود في الأندلس، سليمان بن جابيرول المتوفى سنة ١٠٥٨م في بلنسية، وهو يشبه سلفه ابن مسرة، الذي أدخل إلى الغرب نظاماً باطنياً للكتابة، حيث تتخذ الكلمات معنى داخلياً غامضاً لايفهمه إلا العارفون بالأسرار. وله من الكتب (ينبوع) وكتاب (إصلاح الأخلاق)[٦٣] . ومنهم مناحيم بن الفوال، الذي تفوق على ابن جابيرول بوضع مؤلفات هامة منها (كنز المقل) رتبه على المسألة والجواب، وضمنه جملاً من قوانين المنطق وأصول الطبيعة[٦٤] . ومنهم أيضاً يوسف بن صديق ديان اليهود (قاضي اليهود) المتوفى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٩م، الذي ألف كتاباً في المنطق، وآخر في الفلسفة الدينية

سماه (الكون الأصغر)، وكلاهما باللغة العربية، وكان ابن صديق مطلعاً على كتابات أفلاطون وأرسطو ورسائل إخوان الصفا[٦٥] وبشكل عام فالفلسفة اليهودية في الأندلس، هي تلميذة الفلسفة العربية، ولاسيما فلسفة ابن رشد، التي كانت دعامة الفكر الفلسفي اليهودي حتى عصر النهضة[٦٦] .

يضاف إلى اهتمام اليهود في العلوم، اهتمامهم في الترجمة، التي بدأت في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي. كان في مقدمة من اهتم بالترجمة ابراهيم بن عزيز الطليطلي المتوفى سنة ١١٦٧م، الذي نقل كتباً ألفها اليهود باللغة العربية، ومنهم يهوذا بن شاول بن ثيون المتوفى سنة ١١٩٠م، الذي قام بنقل كتاب (إصلاح الأخلاق) لابن جابيرول وغيرهم كثيرون[٦٧] .

ومن اللافت للإنتباه في هذا المضمار، أن اليهود الذين عملوا في الترجمة، استهوتهم ترجمة أعمال العرب أنفسهم في مجال علوم اللغة العربية، التي كانت أداة الفكر في ذلك العصر .

أما في حقل التجارة، فقد كان الأمر يختلف اختلافاً جذرياً، حيث برز نشاط يهود الأندلس بشكل واضح. فقد كانت لهم في كل مدينة أو بلدة حوانيتهم الخاصة، التي كانت مصدر أرباح كبيرة بالنسبة لهم. لكن اللافت للانتباه، أنهم تفوقوا على جميع فئات السكان في الأندلس والمغرب في التجارة العامة، وبشكل خاص في تجارة العبيد، التي كانت من التجارات المزدهرة في ذلك الوقت في عدد من البلدان في الشرق والغرب، ومنها الأندلس التي شغلت مكانة مرموقة على هذا الصعيد. فقد كان العبيد الصقالية، الذين يشترون للخدمة العامة في الجيش والقصور وغير ذلك، يجلبون من يوغسلافية وبلغارية وصقلية وسردينية وغيرها، وكان اليهود هم الذين يقومون بهذه المهمة. وقد ذكر أنهم

كانوا يخصونهم في معامل خاصة أقيمت لهذه الغاية، كمعمل فـردون في فرنسـة، وغالباً ماكانوا يأتون بهم وهم صغار[٦٨] .

ولعل أهم الأدلة على ممارسة يهود الأندلس لهذه التجارة الرابحة، أنهم كانوا يذهبون إلى مواقع حدوث المعارك، وينتظرون بترقب نتـائج المعـارك بـين العـرب والإسبان، حتى يشتروا أسرى الطرف المهزوم بأبخث الأثمان وأقلها، وبعـد ذلـك يقومون بعرض هؤلاء الأسرى على جهتهم الأصلية. وحينما كـانت هـذه الجهـة تقرر شراء أسراها، كانوا يفرضون الثمن الذي يريدونه دون شفقة أو رحمة[٦٩] .

ووصل اليهـود في تجـارتهم إلى العديـد مـن المنـاطق الأوروبيـة، مثـال ذلـك التاجر الرحالة ابراهيم بن يعقوب الطرطوشي الإسرائيلي، الذي تركـزت أعمالـه في أوروبة علـى الرقيـق وبعـض البضـائع الأخـرى. فوصـل في تجارتـه إلى فرنسـة وألمانية وهولندة وبولندة وبلغارية وتشكيوسلوفاكية وغيرها[٧٠] .

و لم يتورع يهود الأندلس والمغرب عن استخدام أية وسيلة، كـانوا يـأملون من ورائها تحقيق منفعة ما أو ربح معين، لأن التجارب والأيام علمتنـا أن اليهـود لايأبهون إلا بمصالحهم الخاصة، حتى ولو أنها جاءت علـى حسـاب غـيرهم مـن فقراء الناس. من هذه الوسائل القبيحة، أنهم كانوا يرهنون الأسـرى مقـابل مبلـغ مالي معين إلى أمد معين، يجعلهم أحراراً في التصرف بالأسـرى، إذا لم يسـترجعوا المال المودع عند أصحاب الرهـائن. وكـانوا اضافـة إلى ذلـك، يقومـون بـإقراض أموال معينة إلى آجال محددة مقـابل فوائـد مختلفـة[٧١] . وتـدل علـى هـذا الواقـع المخزي الوثائق الكثيرة، التي لاتعد ولاتحصى في مدينة طليطلة وضواحيها، حيـث شكل اليهود مجموعة كبيرة من المرابـين النشـيطين، فمـن يذهـب حتـى اليـوم إلى هناك، يقف على شواهد ماثلة، تدل بوضوح على ماكان لهم مـن أهميـة بالغـةفي

مجتمع طليطلة[٧٢] .

إضافة إلى كل ذلك، فقد كان اليهود في قشتالة وغيرها من أماكن السيطرة الإسبانية، ينعمون باحترام كبير، لخبرتهم المالية والتجارية، ويظهر ذلك جلياً من خلال استخدام الإسبان لهم في مسألة تخمين وتقدير أثمان وقيم الاراضي، التي كانت تعرض للبيع. فقد كانت تشكل لجنة تخمينية خبيرة من أربعة أشخاص، اثنين من الإسبان، واثنين من اليهود، يقومون بتقدير قيمة الأرض ويتقاضون على ذلك أجراً معيناً أو نسبة ما، لايعرف مقدارها على وجه التحديد[٧٣] . كما عملوا في بعض المجالات الصناعية الهامة في ذلك العصر وبخاصة صناعة الحرير، التي اشتهر فيها يهود البوجارا بشكل خاص[٧٤] .

وفي الختام نقول، إن كل ماتقدم من معلومات وأخبار عن حياة اليهود في المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى، لايشكل إلا جزءاً يسيراً من تلك الأعمال المتعددة، التي قاموا بها تحت المظلة العربية الإسلامية، التي وفرت لهم كل أسباب الحياة والحرية. ورغم ذلك فقد ضربوا بكل هذا عرض الحائط، فلم يتأخروا بانزال الضرر بالعرب، في كل مناسبة ساعدتهم فيها الظروف منذ بداية عهد العرب في الأندلس، مثال ذلك أن دخول العرب إلى شمال أفريقية، هو الذي جدد آمال اليهود في إستعادة مكانتهم المنهارة، عن طريق تحريض العرب للدخول إلى أوروبة، التي كانت مركز ثقل للمسيحية. وكان هدف اليهود الاستراتيجي من وراء ذلك، هو اطالة أمد الصراع بين المسيحية، التي كان اليهود يضمرون لها أقبح النيات، وبين الإسلام الذي أدى ظهوره وانتشاره في المشرق العربي إلى تقليص نفوذهم على كل الصعد، فيخرج الطرفان من النزاع منهوكي القوى، فينقض عليهما اليهود بسهولة، ويقررون مايرونه مناسباً لمستقبلهم العام .

هذه هـي صـورة اليهـود، الـتي لم تتغـير طـوال حكـم العـرب في الأندلـس، ولانظن أنها ستتغير في مستقبل الأيـام. فقـد كـان اليهـود في الأندلـس والمغـرب وسيظلون إلى الأبد مجموعة بشرية، لاتعـرف الوفـاء والأمـان، ولاتلـتزم بـالعهود والمواثيق .

هذا مايجب أن ندرسه نحـن العـرب بعنايـة فائقـة، لأن أخطـر مايواجهنـا في الحاضر والمستقبل، أمر وجود اليهود قريـين منـا. فقـد تمكنـوا أن يسـتغلوا دولـة العرب القوية في الأندلس لصالحهم، في وقـت كان العـرب سـادة العـالم، فكيـف سيكون الأمر في هذا الزمن، والعـرب يعـانون مـن داء التدابـر والضعـف في كـل الميادين .

الحواشي

١ ـ يوسف فرحات ـ **غرناطة في ظل بني الأحمر** طبعة أولى، دار الجيل ١٩٩٣ ص٩٧. **امبراطورية الخزر وميراثها** ـ صدر عن مكتب دراسات فتح ١٩٨٠ ص٢٢ وانظر روجر أرنالديز ـ **مجلة المغرب الاسلامي والمتوسط** ، العدد الأول، ١٩٧٣، ص٤١ .

٢ ـ عمر فروخ ـ **العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط** طبعة ثانية، بيروت دار الكتاب العربي، ١٩٨١ ص١٧٩ .

٣ ـ عمر فروخ ـ **المرجع السابق** ص٧٧ ـ ٧٨ .

٤ ـ آرنولدتوينبي ـ **مختصر دراسة للتاريخ** ج٣ ترجمة فؤاد محمد شبل طبعة القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعة أولى، ١٩٦٤ ص٣١٩ ـ ٣٢٠ .

٥ ـ عمر فروخ ـ **تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية** ، طبعة رابعة، بيروت دار العلم للملايين، ١٩٧٩ ص١٥٤ .

٦ ـ الحميري (محمد بن عبد المنعم) **الروض المعطار** تحقيق ليفي بروفنسال ، طبعة القاهرة، لجنة التأليف ١٩٣٧ ص٢٣ .

٧ ـ الإدريسي (محمد بن محمد) **صفة المغرب** . تحقيق دوزي ودي خويه ـ ليدن بريل ١٩٦٨ ص٢٠٥ .

٨ ـ مؤلف مجهول ـ **الحلل الموشية** ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، الدار البيضاء دار الرشاد الحديثة ١٩٧٩ ص٨٠ .

٩ - شكيب أرسلان - **الحلل السندسية** ج١ طبعة أولى، فاس المكتبة التجارية الكبرى ١٩٣٦ ص٣٩٥ - مؤلف مجهول - **الحلل الموشية في الأخبار الأندلسية** ص٥٧ .

١٠ - عمر فروخ - **العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط**، ص١٨٦ .

١١ - ليفي بروفنسال - **الإسلام في المغرب والاندلس** - ترجمة السيد سالم وصلاح حلمي، طبعة النهضة مصر ١٩٥٦ ص٦٤ ، ابن الفرضي (عبد الله بن محمد) **تاريخ علماء الأندلس** ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦، ج١ ص١٢٧ . وانظر أيضاً روجر أرنالديز - **مجلة المغرب الإسلامي والمتوسط** العدد الأول ١٩٧٣، ص٤١ - ٤٨ حيث اضاف أن لليهود وجود في باجة وقادس .

١٢ - د.م دنلوب - **تاريخ يهود الخزر** - ترجمة الدكتور سهيل زكار طبعة ثانية دمشق دار حسان ١٩٩٠ ص١٧٩ .

١٣ - علي أحمد - **تاريخ المغرب العربي الإسلامي** ، طبعة جامعة دمشق ١٩٩٢ ص٣٩ .

١٤ - ابن أبي زرع - **الأنيس المطرب بروض القرطاس** ، ص٨٥ .

١٥ - ابن حوقل (محمد الموصلي) **صورة الأرض** قسم ٢طبعة ثانية، ليدن ١٩٣٨ ص٧٠ ، وانظر أيضاً ج. ف. ب. هوبكنز - **النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى** ترجمة أمين توفيق الطيبي - طبعة ليبية وتونس الدار العربية للكتاب ١٩٨٠ ص٦٩ .

١٦ ـ صاعد الأندلس **طبقات الأمم** . تحقيق حياة بوعلوان طبعة بيروت ١٩٨٥ دار الطليعة ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ . آنخل جنثالث بالنثيا ــ **تاريخ الفكر الأندلسي** ، ص٤٩٨ .

١٧ ـ ابن بسام (الشنتريني) **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** ، قسم ١ مجلد٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٢ ص٢٦٦ ـ ٢٧ .

١٨ ـ ابن بسام ـ **المصدر السابق** ص٢٧٠ .

١٩ ـ الأمير عبد الله ـ **مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان** تحقيق ليفي بروفنسال، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٥ ص٤٨ ــ ٥٥ ، ابن بسام **المصدر السابق** ص٢٧١ ـ ٢٧٤ ، ابن عذاري (المراكشي) **البيان المغرب** ج٣ ، اعتنى بنشره ليفي بروفنسال طبعة باريس، ١٩٣٠ ص٢٣١ .

٢٠ ـ ابن الخطيب (لسان الدين) **الاحاطة في أخبار غرناطة** ، ج١ تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٥٥ ص٤٣٧ ، وانظر أيضاً للمؤلف نفسه **تاريخ اسبانية الاسلامية أو أعمال الأعلام** تحقيق ليفي بروفنسال، طبعة ٢بيروت ، دار المكشوف ١٩٥٦ ص٢٣٠ ـ ٢٣١ .

٢١ ـ ابن بسام ـ **الذخيرة** ج١ ص١٢٢ .

٢٢ ـ دوزي ـ **ملوك الطوائف** ــ ترجمة كامل الكيالي ، طبعة أولى القاهرة ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٩٣٣ ، ص٣٩ ـ ٤٧ .

٢٣ ـ الأمير عبد الله ـ **كتاب التبيان** ص١٣٠ .

٢٤ ـ ابن سعيد (علي) **المغرب في حلي المغرب** ج٢ تحقيق شوقي ضيف طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٥ ص٤٤١ ـ ٤٤٤ .

٢٥ ـ أحمد بدر ـ **تاريخ الأندلس** طبعة دمشق ص١٧٤ .

٢٦ - المقري (التلمساني) **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، ج١ تحقيق احسان عباس، طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٨ ص٤٣٩ ، مؤلف مجهول - **الحلل الموشية** ص٤١ - ٤٢ . وانظر ابن الخطيب **تاريخ اسبانية أو أعمال الاعلام** ص٢٤٤ - ٢٤٥ ودوزي **ملوك الطوائف** ص٢٦٧ - ٣٦٨، وقد طلب ابن شاليب اضافة لذلك السماح لزوجة الفونسو بالاقامة في مدينة الزهراء بعد أن تضع مولودها في جامع قرطبة .

٢٧ - شكيب أرسلان، **المرجع السابق** ج١ ص٤٢٠ و٤٢١ و٤٣٤ ، وانظر الأمير عبد الله **كتاب التبيان** ص٣٦ ومابعدها .

٢٨ - ولتر ج. فيشل - **يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الاسلامية في العصور الوسطى** ، ترجمة سهيل زكار، طبعة بيروت دار الفكر ١٩٨٨ ص٧٨-٧٩ .

٢٩ - ولتر .ج. فيشل - **المرجع السابق** ص٩٤ - ٩٥ .

٣٠ - الناصري - **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى** ج٣ تحقيق جعفر ومحمد الناصري، طبعة الدار البيضاء دار الكتب ١٩٥٤ ص٨٠ - ٨١ .

٣١ - الناصري - **المصدر السابق** ج٣ ص١٠٠ .

٣٢ - الناصري - **المصدر السابق** ج٤ طبعة الدار البيضاء دار الكتاب ١٩٥٤ ص٩٨ - ١٠٠ .

٣٣ - خير الله طلفاق - **حضارة العرب في الأندلس** ، طبعة دار الحرية بغداد ١٩٧٧ ، ص٨٨ و١٠٨ - ١٠٩ .

٣٤ - خير الله طلفاق - **المرجع السابق** ص١٣٤ .

٣٥ - الناصري - **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى** ج١ ص١١٩ .

٣٦ ـ ابن عذاري ـ (المراكشي) **البيان المغرب** ج٢ طبعة بيروت دار صادر ١٩٥٠ ، ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

٣٧ ـ ابن بسام ـ **المصدر السابق** ص٦٨ .

٣٨ ـ ابن حيان (أبو مروان) **المقتبس في تاريخ رجال الأندلس** ، ص٤٦٣ .

٣٩ ـ ابن عذاري ـ **المصدر السابق** ج٣ ص٧٧ ـ ٧٨ ابن الخطيب ـ **تاريخ اسبانية الاسلامية أو أعمال الاعلام** ص١١٢ .

٤٠ ـ تقع هذه المدينة على بعد ستة كيلومترات إلى الشرق من قرطبة ، بناها المنصور محمد بن أبي عامر تعبيراً عن مساواته للخلفاء ، ورغبة منه في إقامة مقر خاص له ، يكون مركزاً لادارته ، ومخازنه السلطانية .

٤١ ـ ابن عذاري ـ **المصدر السابق** ج٣ ص٦٥ .

٤٢ ـ دوزي ـ **المرجع السابق** ص٢٥٥ ومابعدها .

٤٣ ـ القنطرة عند الأندلسيين هي الجسر ، وقد أقيمت هذه القنطرة على الوادي الكبير في عصر الولاة .

٤٤ ـ ابن الخطيب ـ **تاريخ اسبانية الاسلامية أو أعمال الاعلام** ص١٥٨ ـ ١٥٩.

٤٥ ـ دوزي ـ **المرجع السابق** ص٢٩١ .

٤٦ ـ ابن عذاري ـ **المصدر السابق** ج٤ ص٤١ .

٤٧ ـ الحميري (محمد بن عبد المنعم) **الروض المعطار في خبر الأقطار** تحقيق احسان عباس طبعة بيروت ١٩٧٥ ص٤٦ و٣٠٦ ـ أشباخ (يوسف) **تاريخ الأندلس** ترجمة محمد عبد الله عنان طبعة القاهرة ١٩٣٩ ص١٢٠ .

٤٨ ـ مؤلف مجهول ـ **الحلل الموشية** ص٦٥ ـ ٦٦ .

٤٩ - استمر حكم الموحدين في المغرب والأندلس حتى سنة ٦٦٨هـ .

٥٠ - المراكشي (عبد الواحد) **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي طبعة أولى ـ القاهرة ١٩٤٩ ص٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

٥١ - ابن صاحب الصلاة (عبد الملك) **المن بالاقامة** تحقيق عبد الهادي التازي طبعة أولى دار الأندلس بيروت ١٩٦٤ ، ص١٨٦ ومابعدها .

٥٢ - شكيب أرسلان - **المرجع السابق** ج٢ ص٣٣٠ .

٥٣ - الناصري - **المصدر السابق** ج٤ ص٨١ .

٥٤ - أحمد سوسة - **العرب واليهود في التاريخ** طبعة دمشق ١٩٧٥ ص٣٩٦ .

٥٥ - أحمد سوسة - **المرجع السابق** ص٣٩٧ .

٥٦ - ابن جلجل (سليمان بن حسان) **طبقات الأطباء والحكماء** تحقيق فؤاد سيد طبعة المعهد الفرنسي القاهرة ١٩٥٥ ص(س) - جورج حداد - **المدخل إلى تاريخ الحضارة** ص٥٢٦ .

٥٧ - صاعد الأندلسي - **المصدر السابق** ص٢٠٤ .

٥٨ - صاعد الأندلسي - **المصدر السابق** ص٢٠٤ - ٢٠٥ .

٥٩ - صاعد الأندلسي - **المصدر السابق** ص٢٠٦ .

٦٠ - علي بن سعيد - **المصدر السابق** ص٢٣ ابن الخطيب ـ **نفاضة الجراب** تحقيق أحمد مختار العبادي وعبد العزيز الأهواني ، طبعة القاهرة دار الكتاب العربي ص١٩ .

٦١ - ابن الخطيب - **تاريخ اسبانية الإسلامية أو أعمال الاعلام** ص٣٢٢ .

٦٢ - **موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين** طبعة مؤسسة المعارف بيروت ص١٢٣ .

٦٣ - جورج **حداد المدخل إلى تاريخ الحضارة** ص٥٢٦ - ٥٢٧ .

٦٤ - صاعد الأندلسي - **المصدر السابق** ص٢٠٤ .

٦٥ - آنخل جنثالث بالنثيا - **المرجع السابق** ص٤٩٨ .

٦٦ - ابراهيم مذكور - **في الفلسفة** - بحث منشور في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية طبعة الهيئة المصري العامة للكتاب ١٩٨٧ ص١٥٥ .

٦٧ - عمر فروخ - **أثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الأوروبية** طبعة بيروت ١٩٥٢ ص٢٢ و ٣٢ .

٦٨ - المقري **نفح الطيب** ج٢ ص١٤٠ - ابن حوقل - **صورة الأرض** ط٢ ليدن ١٩٣٨ ص١١٠ - شكيب أرسلان **المرجع السابق** ج١ ص٤٦ .

٦٩ - شكيب أرسلان **المرجع السابق** ج٣ طبعة فاس المكتبة التجارية الكبرى ١٩٣٩ ص٤٨١ - ٤٨٢ .

٧٠ - **موسوعة العلوم الاسلامية والعلماء المسلمين** ص١٨٤ .

٧١ - شكيب أرسلان - **المرجع السابق** ج١ ص٤٠٥ - ٤٠٦ .

٧٢ - شكيب أرسلان - **المرجع السابق** ج١ ص٤٢٠ - ٤٢١ .

٧٣ - أشباخ - **المرجع السابق** ج١ ص١٣٥ .

٧٤ - انظر عن ذلك روجر **أرنالديز المرجع السابق** ص٤١ - ٤٨ .

المدرسة المملوكية في قلعة الكرك

د. وائل الرشدان

أستاذ مساعد

جامعة اليرموك / قسم الفنون الجميلة

- ١٩٩ -

المدرسة المملوكية في قلعة الكرك

تقوم قلعة الكرك في الجنوب الغربي للمملكة الأردنية الهاشمية ، وتبعد عن عمان حوالي ١٣٠كم . بنيت القلعة على جبل يبلغ ارتفاعه ٩٦٠م عن سطح البحر ، وتحيط بها الأودية من ثلاث جهات : الشرقية ، والغربية ، والشمالية . أما الجهة الجنوبية فقد حفر فيها خندق كبير[١] (شكل ١) ، وكان لهذه القلعة تاريخ مجيد ابتداء من الفترتين المؤابية والنبطية ، حيث أقيم فيها العديد من المعابد، كما تم العثور على بعض النقوش والتماثيل النبطية[٢] . أما في العصر البيزنطي فنرى هذه (القلعة) ممثلة في خارطة مأدبا الموجودة في كنيسة القديس جورج[٣]. وعند الفتح الإسلامي للمنطقة استسلمت القلعة للقائد أبي عبيدة عامر بن الجراح[٤] . وبعد ذلك ، بقيت القلعة تلعب دوراً مهماً في مختلف العصور الاسلامية حتى الاحتلال الصليبي للقلعة في عام ٥٣٧هـ ـ ١١٤٢م . فأضيف العديد من الإضافات ، وأصبحت هذه القلعة من أهم القلاع الصليبية في بلاد الشام ، وذلك لتحكمها مع قلعة الشوبك بطرق المواصلات التي تربط بلاد الشام والعراق بمصر ، وكذلك أيضاً لأهمية موقعها لدرب الحج الشامي والمصري . وقد كانت تستخدم مركزاً للمراقبة وجمع المعلومات عن تحركات الجيوش الإسلامية في فترة الاحتلال الصليبي لهذه القلعة[٥] . وفي عام ٥٨٤هـ ـ ١١٨٨م استسلمت حامية القلعة للقائد صلاح الدين الأيوبي ، وبذلك اصبحت جزءاً من الدولة الأيوبية[٦] . وقد قام صلاح الدين بإقطاع الكرك لأخيه الملك العادل الذي شرع بإعادة بنائها ، ونقل إليها أرباب الصناعات حتى جعلها لاتحتاج إلى غيرها[٧] . وفي عام ٦٦١ هـ ـ ١٢٦٢م قام الظاهر بيبرس

باحتلال القلعة ، وأسر الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل ، وبذلك تم القضاء على الحكم الأيوبي فيها[٨] . وبدخول الظاهر بيبرس إليها أصبحت القلعة تحت حكم المماليك وسيطرتهم . ثم دخل القلعة وأمر بتحصينها وزاد فيها العديد من الابراج[٩] . وبقيت القلعة تحتل مركزاً مهماً في العصرين المملوكيين البحري والبرجي حتى سقطت المدينة والقلعة في سنة ٩٠٢هـ ـ ١٥١٠م تحت حكم الأتراك العثمانيين ، وبقيت تحت حكمهم حتى الحرب العالمية الأولى ، حيث استخدمت مقراً لحامية قوات الحلفاء[١٠] (لوحة ١) .

وصف القلعة :

بناء ذو شكل مستطيل يبلغ طوله ٢٢٠م من الجهة الشرقية ، و٢٤٠م من الجهة الغربية. أما الواجهة الجنوبية فيبلغ طولها ٨٥م والشمالية التي يقع بها المدخل الرئيسي فطولها ٣٥م . وبناء القلعة متين جداً ، وذلك بسبب الأبراج الدفاعية التي بنيت في أركانها ، وكذلك لتغطية المنحدرات بالحجارة الملساء لعرقلة ارتقاء الأسوار والأبراج[١١] .

بنيت القلعة على مستويين ، علوي وسفلي ، فالعلوي يقع إلى الجهة الشرقية والسفلي يتجه من الشمال إلى الجنوب ، حيث يوجد في الجزء السفلي العديد من القاعات والغرف[١٢] . أما المستوى العلوي فيحتوي على العديد من المنشآت أهمها : المعصرة ، ومسكن سيد الكرك ، والكنيسة ، والحمام ، وسجن الخيالة ، والمسجد ، والمدرسة ، والعديد من القاعات ذات الأدوار المتعددة (الطوابق) . وتميز المظهر العام للقلعة باختلاف ألوان المواد المستخدمة في بناء القلعة ، حيث تنقسم إلى نوعين : الأول منها مبني من الحجارة الغشيمة غير المشذبة ومخلوطة

من الحجارة الجيرية والصوانية . هذا النوع نجده في بناء المباني التي بنيت في عصر الاحتلال الصليبي للقلعة . أما النوع الثاني فهو استخدام الحجارة الجيرية المشذبة، وهذا النوع يبدو أكثر شيوعاً من حيث صفوف البناء أو ترتيب مداميك الحجارة، وهو مانلاحظه بكثرة في القلعة سواء من الداخل أو في الأبراج التي هدمت أو أعيد بناؤها ، أو التي بنيت في العصور الإسلامية المختلفة . أما الذي يهمنا من هذه المنشآت فهي المدرسة ، والتي تقع إلى الجنوب من الكنيسة وإلى الشمال من البرج الكبير للظاهر بيبرس (لوحة ٢: شكل ١) .

وصف المدرسة :

يقع المدخل في الجهة الشمالية ، وينزل إليها بدرج يتكون من ست عشرة درجة تنتهي بباب عرضه ١،٢م وارتفاعه ٢،١ تعلوه عتبة (شكل ٢) . ويحتمل أنه كانت توجد اللوحة التأسيسية لهذه المدرسة حيث لايزال مكانها واضحاً . يؤدي هذا الباب إلى موزع طوله ٩،٩م وعرضه ١،٤م ، وفي الجدار الشرقي لهذا الموزع بابان ، الشمالي يؤدي إلى غرفتين مفتوحتين على بعضهما بعضاً مساحتهما ١١ × ٣،٥م . وفي الجدار الجنوبي للغرفتين باب يؤدي إلى موزع آخر يؤدي إلى صحن المدرسة (شكل ٣) ، وهذا صحن مربع الشكل طول ضلعه ٥،٥م مكشوف تحيط به أربعة إيوانات أوسعها الايوانان الجنوبي والشمالي (شكل ٤) . أما الإيوانان الشرقي والغربي منها ، فأقل اتساعاً ، وهما متساويان في المساحة ٢،٢٠×٢م (شكل ٥ ، ٦) . ونجد على جانبي هذين الإيوانين أبواباً تؤدي إلى ملاحق أخرى ، وأهمها الباب المؤدي إلى الغرفة رقم (٨) ومساحتها ٧،٩ × ٤،٩م وهي غرفة مستطيلة الشكل في جدارها الجنوبي

أحد المزاغل التي عدلت لتحول إلى محراب مجوف . ونرى ذلك جلياً في طاقية المحراب ، ويبلغ عرض المحراب ١،١م وعمقه ١،٠٦م (شكل ٧) .

نلاحظ في الإيوانين الرئيسيين الجنوبي (إيوان القبلة) والشمالي (الإيوان المقابل لإيوان القبلة) أن بهما امتداداً في جانبين ، وخاصة في الإيوان الجنوبي حيث نجد أن هذا الامتداد إلى الجانبين الشرقي والغربي . أما الإيوان الشمالي فنجد أن له امتداداً إلى جهة الشرق فقط (لوحة ٣) .

ويختلف الباحثون والدارسون في هذا المبنى الموجود في قلعة الكرك ، فذهب بعض منهم إلى أنه مدرسة تعود إلى العصر الأيوبي والبعض الآخر يقول إنه دور سكنية ، أو إنه قاعة استقبال في قصر ، وذلك من خلال تفسير نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في المبنى[١٣] .

والغرض من هذا البحث توضيح الصورة ، وإيجاد تفسير واضح لوظيفة هذا المبنى بالاعتماد على الدراسات المقارنة لهذا المبنى مع المباني المشابهة له والمؤرخة والمعروفة ، والتي تعود إلى نفس الفترة التاريخية ، وذلك اعتماداً على المميزات المعمارية للبناء ، وكذلك نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في هذا المبنى ، والمصادر التاريخية التي تتحدث عن قلعة الكرك في تلك الفترة . نجد أن العديد من الباحثين يطلقون على هذا المبنى تارة اسم قصر وتارة أخرى يعدونه دوراً سكنية أو مدرسة تعود إلى العصر الأيوبي[١٤] . ولهذا ، وجدت أنه من الضروري توضيح ماهية هذا البناء .

ومن خلال الوصف المعماري لهذا البناء نجد أنه مدرسة تتمتع بمميزات المدارس المملوكية التي تتكون من صحن أوسط تحيط به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة والإيوان المقابل لإيوان القبلة ، وإيوانان أصغر حجماً من الإيوانين

السابقين[١٥] . وأول هذه الأمثلة للمدارس ذات الأربعة إيوانات ، والتي تعود للعصر المملوكي البحري هي مدرسة السلطان المنصور قلاوون ، والتي تعود إلى سنة ٦٨٤هـ ـ ١٢٨٥م بالنحاسين[١٦] ، ويتبعها بعد ذلك العديد من المدارس، ومن أهمها مدرسة الناصر محمد ٦٩٥هـ ـ ٧٠٣هـ ـ ١٢٩٥ ـ ١٣٠٤م ، ومدرسة صلوغتمش ٧٥٧هـ ـ ١٣٥٦م بالحفزي ، ومدرسة السلطان حسن ٧٥٧هـ ـ ٧٦٤هـ ـ ١٣٥٦ ـ ١٣٦٢م بالقاهرة في ميدان صلاح الدين ، مدرسة أم السلطان شعبان ٧٧٠هـ ـ ١٣٦٩م بالتبانة ، مدرسة الجاي اليوسيفي ٧٧٤هـ ـ ١٣٧٣م بسوق السلاح[١٧] . وقد استمر نظام المدارس ذات الإيوانات المتعامدة على الصحن الأوسط خلال العصر المملوكي الجركسي (البرجي) أيضاً ، وإن كان المعمار بدأ بإجراء بعض التعديلات في المدرسة ، فأصبحت المدراس في هذه الفترة صغيرة الحجم نسبياً مقارنة بالمدارس التي سبقتها، حيث عمل المعمار في هذه الفترة على تصغير حجم الصحن الأوسط فأصبح بالإمكان تغطيته بسقف خشبي مسطح تتوسطه شخشيخة . وفي هذه المرحلة اختفت الفسقية أو الميضاءة التي كانت تتوسطه[١٨] . كذلك استدعى هذا التصغير لتلك المنشآت أن عمد المعمار إلى تصغير الإيوانين الجانبين، مما أدى إلى تغيير اسمائهما ، فأطلق على الإيوانين الجانبين لفظ سدلتين أو مرتبتين ، وإن كانت اللفظة الأولى أكثر انتشاراً من الثانية . كما أطلق على الصحن بعد هذا التطور لفظ دور قاعة، وبعد هذا التطور الذي رافقه هذا النظام للمدارس المتعامدة خلال العصر المملوكي البرجي . وأصبح هذا النوع من المدارس يعرف باسم المدارس المتعامدة كما يطلق على هذا النوع من المدارس اسم المدارس المتطورة . ومن أهم العناصر المعمارية لهذا النظام :

١ ـ دور قاعة وسطي ـ (صحن) .

٢ ـ الإيوان الجنوبي (القبلة) .

٣ ـ الإيوان الشمالي (المقابل لإيوان القبلة) .

٤ ـ سدلة في الجهة الشرقية من الصحن .

٥ ـ سدلة في الجهة الغربية للصحن[١٩] .

ومن أشهر المدارس التي اتبعت نظام المدارس المتطورة في العصر المملوكي الجركسي (البرجي) هي مدرسة الأشرف قايتباي ٨٧٧ ـ ٨٧٩هـ ـ ١٤٧٢ ـ ١٤٧٤م بالصحراء ومدرسته أيضاً في قلعة الكبش ٨٨٠هـ ـ ١٤٧٥م ، ومدرسة الأمير أزبك اليوسفي ٩٠٠هـ ـ ١٤٩٤ ـ ٤٩٥م ، ومدرسة الغوري ٩٠٩ : ٩١٠هـ ـ ١٥٠٤ : ٥٠٥م بالغورية ، وهناك العديد من المدارس التي تتبع هذا النظام[٢٠] .

وعند مقارنة هذه المدارس بالمبنى الموجود في قلعة الكرك ، نجد أنها تقع ضمن هذه المجموعة من المدارس ، وذلك لأسباب معمارية ، وأثرية ، وتاريخية :

١ ـ الأسباب المعمارية :

لهذا المبنى خصائص المدارس المملوكية ، وذلك لتوفر العديد من العناصر المعمارية التي تدخل هذا المبنى ضمن هذه المدارس ، وأهمها :

أ ـ صحن مكشوف مربع الشكل تحيط به أربعة إيوانات متعامدة عليه، ويمكن الاستنتاج أن هذا الصحن مكشوف ، وذلك لعدم وجود أية منافذ لهذا المبنى إلى الخارج ، وإذا غطي هذا الصحن بشخشيخة أو أية تغطيات أخرى فإنه سيكون مظلماً من الداخل ، فلذلك أرجح بأن الصحن قد بقي مكشوفاً وذلك لعدم وجود أية آثار معمارية تدل على غير ذلك حالياً، وكذلك عدم وجود

فسقية أوميضاءة داخل هذا الصحن .

ب ـ الايوانان الجنوبي والشمالي أكبر حجماً من الإيوانين الجانبيين وبهما امتداد إلى الجانبين . الإيوان الشمالي الذي يمتد نحو الشرق وذلك لوجود موزع للغرف الخلفية لهذا الإيوان، وهو يعتبر المدخل لهذه الغرف . وهذه ميزة من ميزات العمارة المملوكية البرجية ، حيث نجد أنهم قد عملوا على تصغير حجم الصحن وتغطيته في بعض الأحيان ، وقاموا بإدخال تعديلات معمارية انعكست على الإيوان الشمالي الذي يمتد نحو الشرق، وذلك لوجود موزع للغرف الخلفية لهذا الإيوان وهو يعتبر المدخل لهذه الغرف . وهذه ميزة من مميزات العمارة المملوكية البرجية ، حيث نجد أنهم قد عملوا على تصغير حجم الصحن وتغطيته في بعض الأحيان ، وقاموا بإدخال تعديلات معمارية انعكست على مساحة الإيوانات المطلة على الصحن . ولكن نلاحظ هنا أن المعمار عمل على توسيع الإيوان القبلي والإيوان المقابل له فقط بالامتداد بهما في الجانبين بشكل لايتضح من الصحن ، ولايحس بذلك اتساعهما الحقيقي مثلما كان عليه الحال في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري[٢١] . ولم يستطع المعمار تكرار هذا في الإيوانين الجانبيين وذلك لوجود العديد من العناصر المعمارية الأخرى تشارك هذين الإيوانين ، فلم يستطع أن يعطيهما الاتساع الجانبي المطلوب فاستقر وضعهما ، وانتهى بصغر مساحتهما أيضاً . حيث نجد أنه كان يوجد على جانبي كل من الإيوانين بابان يؤديان إلى ملاحق أخرى . وهنا نجد أن تسمية هذين الإيوانين قد تغيرت ، وأصبحا يعرفان باسم السدلتين أو المرتبتين[٢٢] .

جـ ـ كذلك نجد أن الجدار الجنوبي للإيوان الجنوبي بني في اتجاه القبلة ، وهو مواز لحنية المحراب الموجودة في المسجد . وبهذا استعيض عن حنية المحراب

التي كنا نشاهدها في إيوان القبلة في المدارس المملوكية في القاهرة بالجدار الجنوبي للإيوان الجنوبي ، وذلك لإن هذا المبنى منشأ في قلعة وداخل مكان محصور نسبياً بالمقارنة بالمدارس المملوكية في مصر . واستخدمت هذه الإيوانات كأماكن لإقامة الصلاة ، وهذا أيضاً من مميزات العمارة المملوكية إذ أن معظم الجدران للمدارس تتجه نحو القبلة وذلك لإقامة الصلاة فيها أيضاً(٢٣) .

د ـ وجود العديد من الغرف المحيطة بالإيوان الشمالي والإيوان الجنوبي ، وهي غرف متصلة ببعضها بعضاً . وربما كانت تستخدم لإيواء القائمين على هذا المبنى . وإذا كانت مدرسة فإنها تكون مخصصة للجنود وأهالي المنطقة، فإذن أماكن إقامتهم متوفرة أصلاً وليس من الضروري إيجاد أماكن لإيوائهم، بل يعتقد أنها كانت مخصصة للقائمين على هذا المبنى(٢٤) .

٢ ـ الأسباب الأثرية :

قامت الباحثة براون BROWN بعمل مجسات ومقاطع أثرية في هذا البناء وخاصة في الإيوان الجنوبي للبناء وذلك بقطاع رأسي باتساع متر واحد طولياً. وكانت نتيجة هذه الحفريات أن أرضية البناء تتكون من سويتين ، الأولى تعود إلى العصر العثماني ، أما السوية الثانية فيرجح أنها تعود إلى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وربما تعود إلى مابعد القرن الرابع عشر . وهذا دليل آخر على أن هذه السوية تعود إلى آواخر القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر أي أنها تعود إلى العصر المملوكي(٢٥) .

٣ ـ الأسباب التاريخية :

يورد المؤرخ المعروف ابن حجر العسقلاني في كتابه (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) بأن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بنى مدرسة في

الكرك وعهد بذلك إلى الأمير سنجر بن عبد الله الجادلي (ت ٧٤٥هـ) ، وسميت هذه المدرسة باسم المدرسة الشافعية[٢٦] .

وعند استعراض الأسباب المعمارية ، والأثرية ، والتاريخية نستدل على أن هذا البناء ماهو إلا مدرسة بنيت على نظام المدارس المتعامدة على صحن أوسط، وهي تشبه إلى حد كبير المدارس المملوكية في تصميمها المعماري ، كما هو واضح في الوصف العام للبناء ، حيث يمكن عقد مقارنة فيما بين هذا البناء والمدارس التي بنيت في العصر المملوكي ومنها :

١ ـ مدرسة صرغتمش ـ سيف الدين صرغتمش الناصري من مماليك الناصر محمد بن قلاوون . بنيت في عام ٧٥٧هـ ـ ١٣٥٦م ، وهي مدرسة مقامة على نظام المدارس المملوكية البحرية (نظام الإيوانات المتعامدة) على صحن أوسط . وهناك قبة لمدفن المنشىء[٢٧] .

٢ ـ مدرسة الجاي اليوسيفي (الأمير الجاي بن عبد الله اليوسيفي سيف الدين) بنيت عام (٧٦٧ : ٧٧٤هـ ـ ١٣٦٦ : ١٣٧٣م) تتبع نفس النظام[٢٨].

٣ ـ مدرسة أم السلطان شعبة (خوند بركة أم السلطان شعبان) بنيت في عام ٧٧٠هـ ـ ١٣٦٩م . وهي تتبع نفس النظام السابق[٢٩] .

٤ ـ مدرسة وخانقاه السلطان الظاهر برقوق بنيت في عام ٧٨٨هـ ـ ١٣٨٦م . وهي تتبع نفس النظام السابق[٣٠] (لوحة ٦) .

٥ ـ مسجد جاني بك الأشرفي بشارع المغربلين بنيت في عام ٨٣٠هـ ـ ١٤٢٧ وهذا المسجد يتبع نظام المدارس ذات الإيوانات المتعامدة على صحن أوسط . وهنا نجد أن هذا النظام استخدم أيضاً في هذه الفترة كمسجد

(لوحة) [٣١] .

٦ ـ مدرسة قايتباي بالقرافة الشرقية بنيت في عام ٨٧٩هـ ـ ١٤٧٤م . وتحتوي هذه المدرسة على العديد من المرافق ، من أهمها مدرسة ، ومدفن ،وسبل ، وكتاب[٣٢] (لوحة ٧) .

٧ ـ مدرسة بجمع مترقماس بقرافة الخفير ، وتتكون من أربعة إيوانات متعامدة على صحن أوسط (لوحة ٨)[٣٣] .

ومن خلال دراسة مخططات المبنى نجد أنها تتبع نفس التصميم المعماري لنظام المدارس المتعامدة على صحن أوسط ، وأن إيوانيها الجنوبي والشمالي أوسع من الإيوانين الجانبيين كما أوردنا سالفاً في مميزات عمارة المدارس المملوكية .

الخلاصة :

من خلال المعطيات المعمارية ، والأثرية ، والتاريخية نخلص إلى أن هذا المبنى يمتاز بنفس الخصائص المعمارية التي اعتمدها علماء الآثار الإسلامية في تصنيف المدارس التي تعود للفترة المملوكية من حيث احتوائها على الصحن الأوسط والإيوانات الأربعة المتعامدة على الصحن . ولقد أثبتت نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في المبنى بأنه يعود إلى الفترة المملوكية ، مع العلم بأن نتائج الحفريات الأثرية تعتبر من أهم الدلائل التي تثبت أن الفترة الزمنية التي تعود إليها هذه الأبنية هي الفترة المملوكية وذلك من خلال مطابقة البقايا المعمارية واللقى الأثرية ، مثل الفخار وغيرها ، والتي وجدت في أماكن أخرى . وإذا أخذنا بعين الاعتبار ماورد ذكره في المصادر التاريخية الإسلامية عن بناء مدرسة في قلعة الكرك في الفترة المملوكية البرجية فإن هذه الدلائل الأثرية والمعمارية ، والتاريخية

تدفع للاعتقاد بأن هـذا المبنـى هـو مدرسـة مملوكيـة تشـتمل علـى جميـع مميزات المـدارس المتطـورة في هـذه الفـترة ، وليـس كمـا ذكـر سـابقاً مـن قبـل البـاحثين والعلماء الذين اعتقدوا بأن هذا المبنى ربما استخدم كقصر يحتوي على العديد من الدور السكنية .

الهوامش

١ ـ غوانمة ، يوسف ، **التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي**، دار الفكر ، عمان ، ١٩٨٢ ، ص٢٥٩ .

٢ ـ المومني ، سعد ، **القلاع الإسلامية في الأردن في الفترة الأيوبية المملوكية** ، دار البشير ، عمان ، ١٩٨٨ ، ص١٦٢ .

٣ ـ المومني ، سعد ، **نفس المصدر** ص١٥٩ .

Samall, R. C, **Crusading Warfare** (1097 - 1293) Newyork, 1967, p. 219.

غوانمة ، يوسف ، **نفس المصدر** ص٢٦٠ .

٤ ـ **المرجع نفسه** ، ص٢٦٠ .

٥ ـ **المرجع نفسه** ، ص٢٦٣ .

٦ ـ **المرجع نفسه** ، ص٢٦٤ .

٧ ـ غوانمة ، يوسف ، **إمارة الكرك الأيوبية** ، دار الفكر ، عمان ، ١٩٨٢، ص١٦٨ .

المومني ، سعد ، القلاع ، ص١٦٧ .

٨ ـ ابن شداد : عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم (ت ٦٨٤هـ ـ ١٢٨٥م) **الأعلاق الخطيرة في ذكر إمراء الشام والجزيرة** في المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٣ ـ ١٩٦٣ ، تحقيق دومنيك سورديل وسامي الدهان، ص ٧٧ ـ ٧٨ .

أبو الفداء : الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين (ت ٧٣٢هـ - ١٣٣١م) **المختصر في أخبار البشر** ، الشاهاتية ، القسطنطينية، ١٢٨٦م ، جـ ٣ ، ص٢٢٦ .

- المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ - ١٤٤١م) **السلوك لمعرفة دول الملوك** ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ١٩٣٤ - ١٩٤٢ ، جـ١ ، ص٤٨٢ .

- غوانمة ، يوسف ، **إمارة** ، ١٩٨٢ ، ص ٣١٧ - ٣٢٣ .

٩ - ابن شداد ، **الأعلاق الخطيرة** ، جـ ٣، ص٧٩ .

- أبو المحاسن : يوسف ابن تغري بردي ، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، القاهرة ، ١٩٣٢ ، ج٧ ص١٩٤ .

- غوانمة ، يوسف **إمارة الكرك الأيوبية** ، ١٩٨٢، ص٣٢٧ - ٣٢٨ .

١٠ - المومني ، سعد ، **القلاع الإسلامية في الأردن في الفترة الأيوبية المملوكية** ، ١٩٨٨ ، ص١٧٢ .

١١ - غوانمة ، يوسف ، **التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي** ، عمان ، ١٩٨٢ ، ص٢٦٤ .

١٢ - المرجع السابق ، ص٢٦٤ .

١٣ - المرجع السابق ، ص٢٦٧ .

١٤ - المومني ، سعد ، **القلاع الإسلامية في الأردن في الفترة الأيوبية المملوكية** ، ١٩٨٨ حيث أورد وصفاً مقتضباً للمدرسة ، وفي النهاية يرجع هذه المدرسة إلى العصر الأيوبي . ولكن المدارس الأيوبية تختلف اختلافاً كبيراً عن تصميم هذه المدرسة . إذ تتكون المدرسة في العصر الأيوبي من صحن وإيوانين

فقط ، ومثال على ذلك المدرسة الكاملية والمدرسة الصالحية في القـاهرة ، راجـع فكري ، أحمد ، **مساجد القـاهرة ومدارسـها** ، ج٢ ، دار المعـارف ، ١٩٦٩ ، ص٥٥ - ٧٥ .

- مويلر (م) ، **القلاع الصليبية** ، Muller, M .

Castles of the Crusaders, London, 1966, p. 40 .

حيث أشار المؤلف إلى أن هذا البناء هو قصر والمباني التي تحيط به قاعـات معـدة للسكن .

ــ بـراون ، روبـين ، حفريـات في القـرن الرابـع عشـر الميـلادي ـــ **القصــر المملوكي في الكرك حوليــة دائـرة الآثـار الأردنيـة** رقـم ٣٣ ـ (١٩٨٩) ص ٢٨٧ - ٤ - ٣ Robin, Brown . حيث اشارت هذه المؤلفة إلى أن هذا المبنى هـو قاعة استقبال لقصر يعود إلى العصر المملوكي .

١٥ ــ نجيـب ، محمـد مصطفـى ، **القـاهرة ، تاريخها فنونهــا ، آثارهــا** ، مؤسسة الأهرام (**العمارة في عصر المماليك**) ، ١٩٧٠ ، ص٢٤٥ - ٢٤٦ .

- نظرة جديدة على النظام المعماري للمدارس المتعامدة وتطوره خلال العصر المملوكي البرجي ، مستخرج من الكتاب الذهبي للاحتفال الخمسين بالدراســات الآثارية بجامعة القاهرة الجزء الثاني عدد خاص من مجلـة كليـة الآثـار ، ١٩٧٨ ، ص١٩ .

- مصطفـى ، لمعـي ، **الـتراث المعمـاري الإسـلامي في مصـر** ، دار النهضـة العربية ، بيروت ١٩٨٤ ، ص١٨ .

- فكري ، أحمد ، **مساجد القاهرة ومدارسها** ، جـ ٢ ، العصـر الأيوبـي ، دار المعارف ، ١٩٦٩ ، ص١٨٣ - ١٩٢ .

- سامح ، كمال ، **العمارة الإسلامية في مصر** ، ١٩٩١ ، ص١٠٧ .

١٦ ـ نجيب ، محمد مصطفى وآخرون ، **القاهرة وتاريخها فنونها ، آثارها**، ١٩٧٠ ، ص٢٤٥ .

١٧ ـ **المرجع السابق** ، ص٢٤٥ .

١٨ ـ نجيب ، مصطفى ، **نظرة جديدة على النظام المعماري للمدارس المتعامدة وتطوره خلال العصر المملوكي البرجي** .

١٩ ـ نجيب ، مصطفى ، **نظرة** ، ١٩٧٨ ، ص٢٤ ـ ٢٦ .

٢٠ ـ **نفس المصدر** ، ص٢٧ .

٢١ ـ **نفس المصدر** ، ص١٩ ناقش المؤلف العديد من الآراء حول أسباب تصغير المدارس في هذه الفترة ، حيث يرجح بعض الدارسين ذلك إلى أسباب دينية وبعضهم الآخر إلى الوضع الاقتصادي الذي مرت به مصر في تلك الفترة .

ورغب السلاطين والأمراء في إنشاء عمائر تخدم أكثر من غرض مع حجمها. وهو يرجح هذا الرأي .

٢٢ ـ **نفس المصدر** ، ص٢٦ انظر كذلك الحواشي رقم ١ ـ ٢ ـ ٣ .

٢٣ ـ فكري ، أحمد ، **مساجد** ، ١٩٦٩ ، ص١٨٣ .

٢٤ ـ **نفس المصدر** ، ص١٨٨ ـ ١٨٩ .

٢٥ ـ براون ، روبين Robin, Brown **الحولية الأردنية** ص٢٩٤ .

٢٦ ـ ابن حجر : أحمد بن علي بن محمد العسقلاني ، **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة** ج٢ ، تحقيق محمد سعيد جاد الحق ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص٢٦٦ .

٢٧ ـ عبد الوهاب ، حسن ، **تاريخ المساجد الأثرية** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٤ ، ص١٦١ .

٢٨ ـ نفس المصدر ، ص١٩٠ .

٢٩ ـ نفس المصدر ، ص١٨٥ .

٣٠ ـ نفس المصدر ، ص١٩٦ .

٣١ ـ نفس المصدر ، ص٢١٩ .

٣٢ ـ نفس المصدر ، ص٢٥٣ .

ـ سامح ، كمال الدين ، **العمارة** ، ١٩٩١ ، ص١٠٧ .

٣٣ ـ نجيب ، مصطفى ، **نظرة** ، ١٩٧٨ ، ص٢٧ .

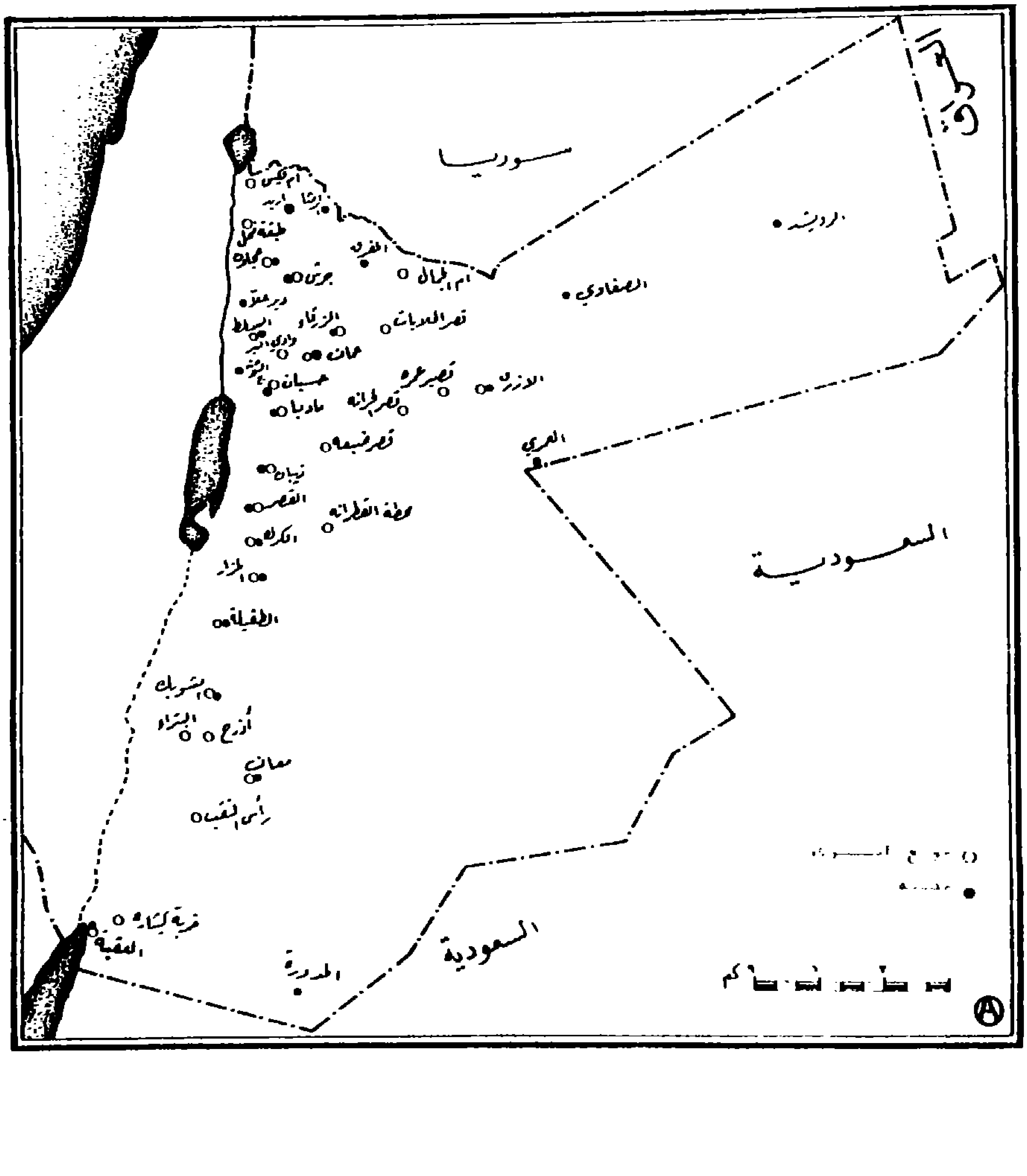

لوحة (١) خارطة المملكة الأردنية الهاشمية

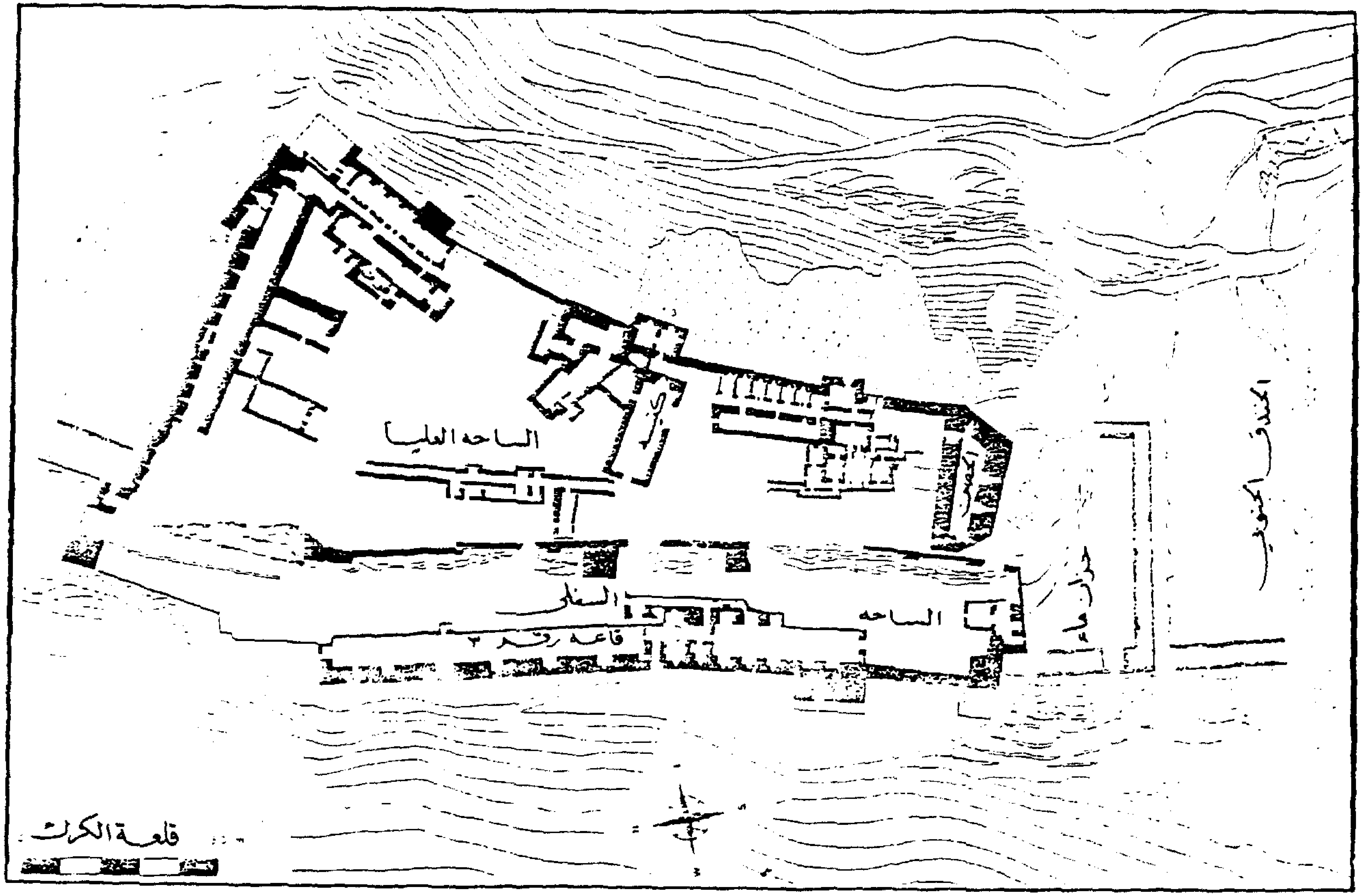

لوحة (٢) مخطط قلعة الكرك

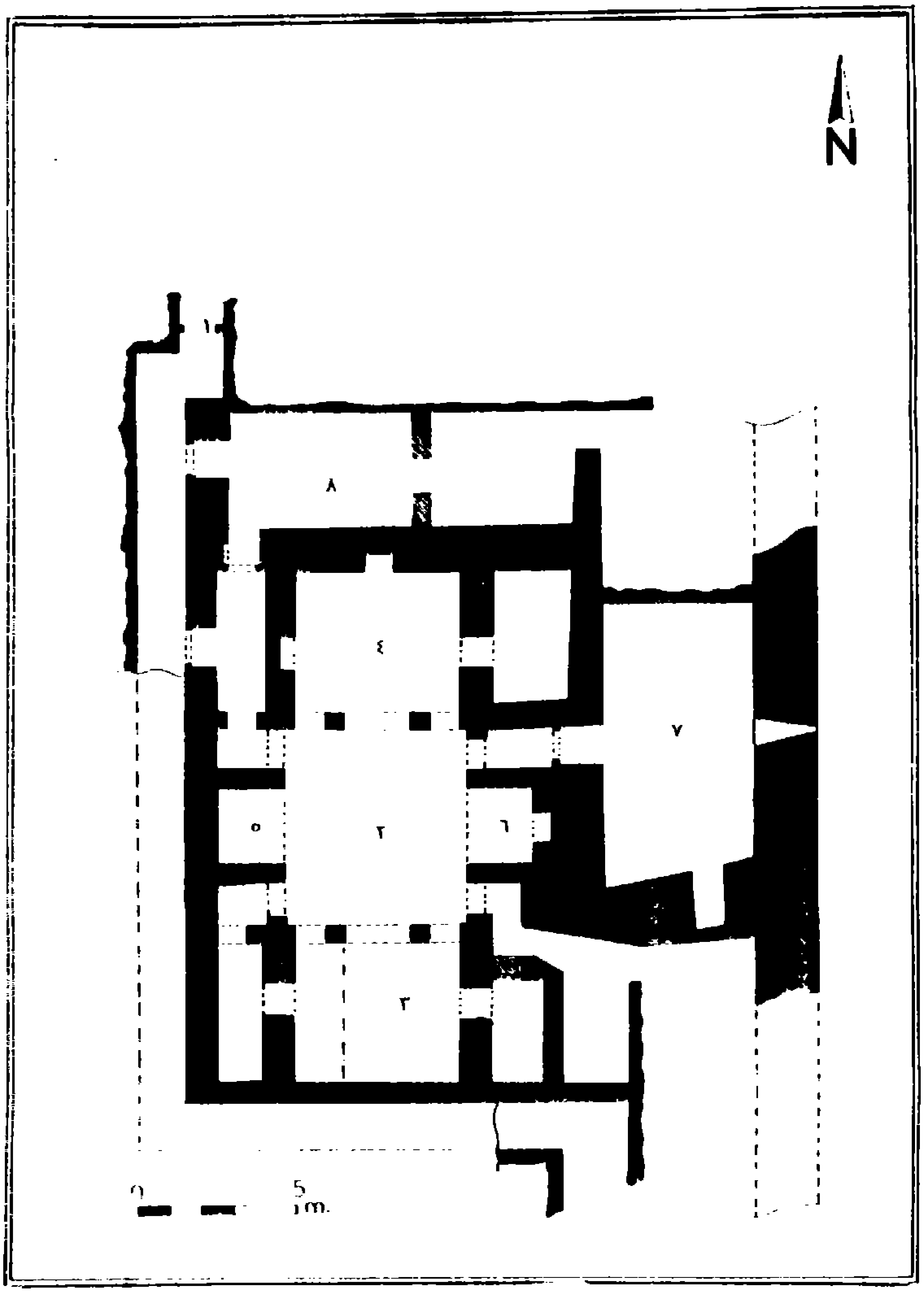

لوحة (٣) مخطط مدرسة الكرك المملوكية

١ ـ المدخل

٢ ـ الصحن

٣ ـ الايوان الجنوبي

٤ ـ الايوان الشمالي

٥ ـ الايوان الغربي

٦ ـ الايوان الشرقي

٧ ـ المسجد

٨ ـ الغرف الخلفية

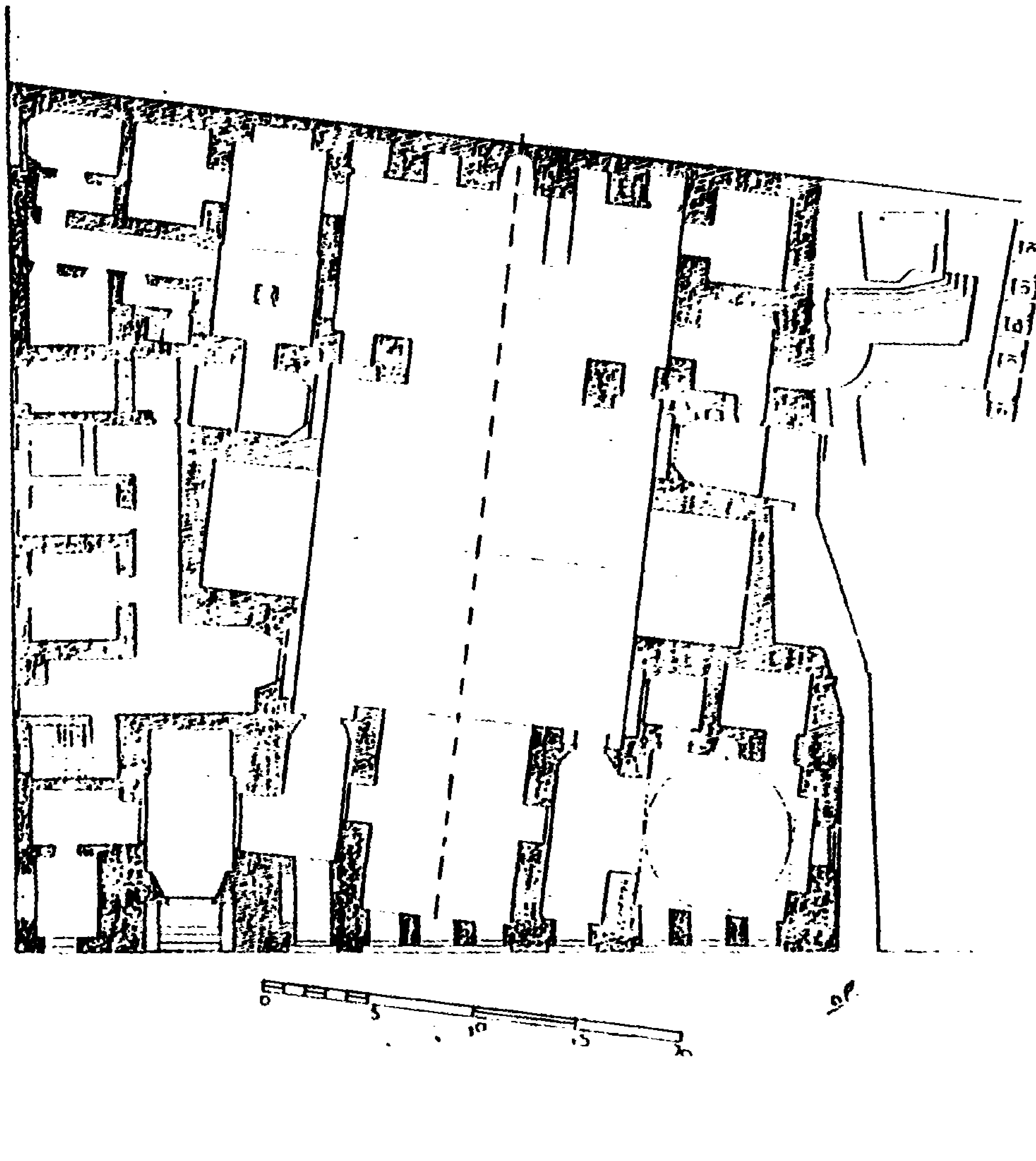

لوحة (٤) مدرسة الجاي اليوسفي (نقلاً عن حسن عبد الوهاب)

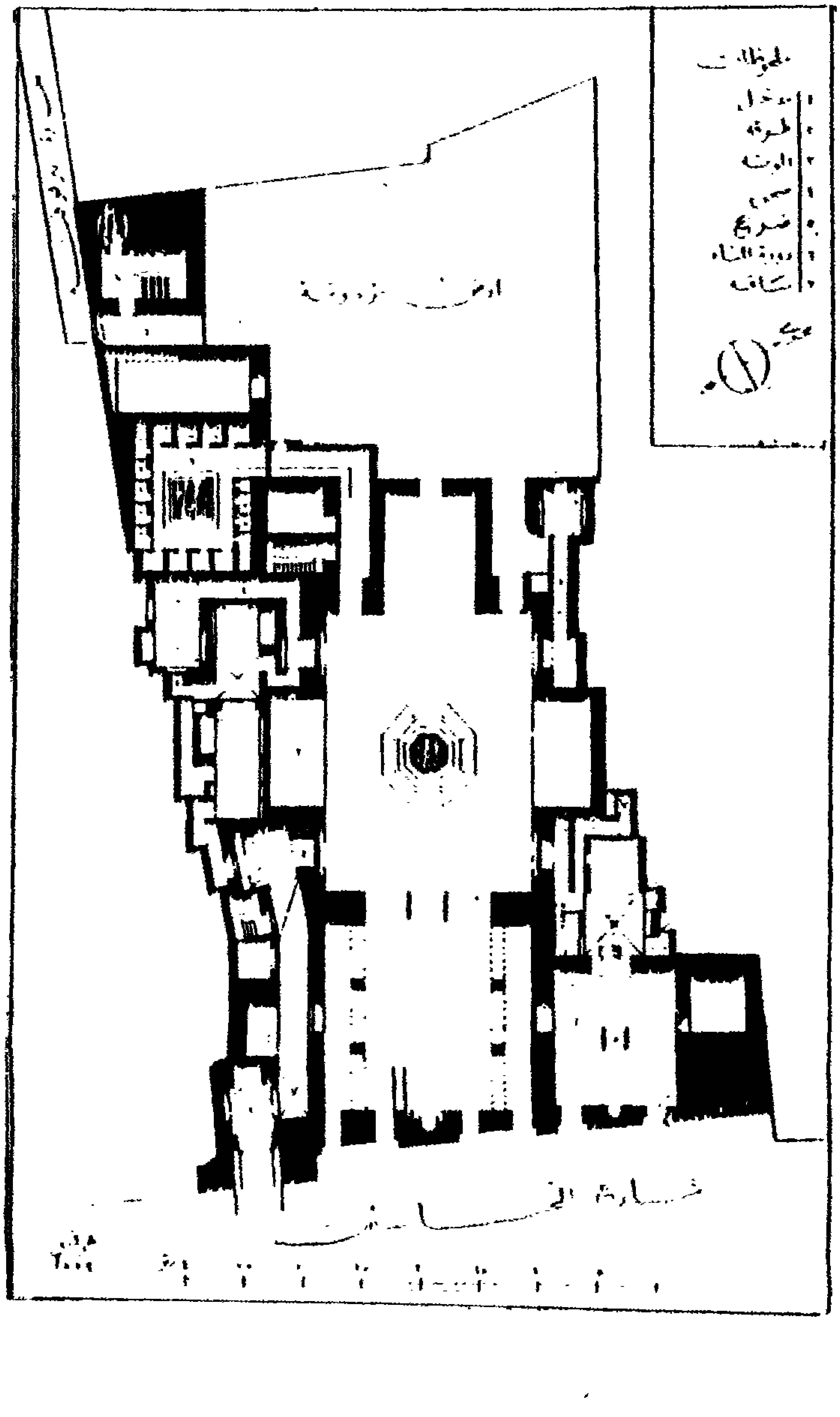

لوحة (٥) مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق (نقلاً عن حسن عبد الوهاب)

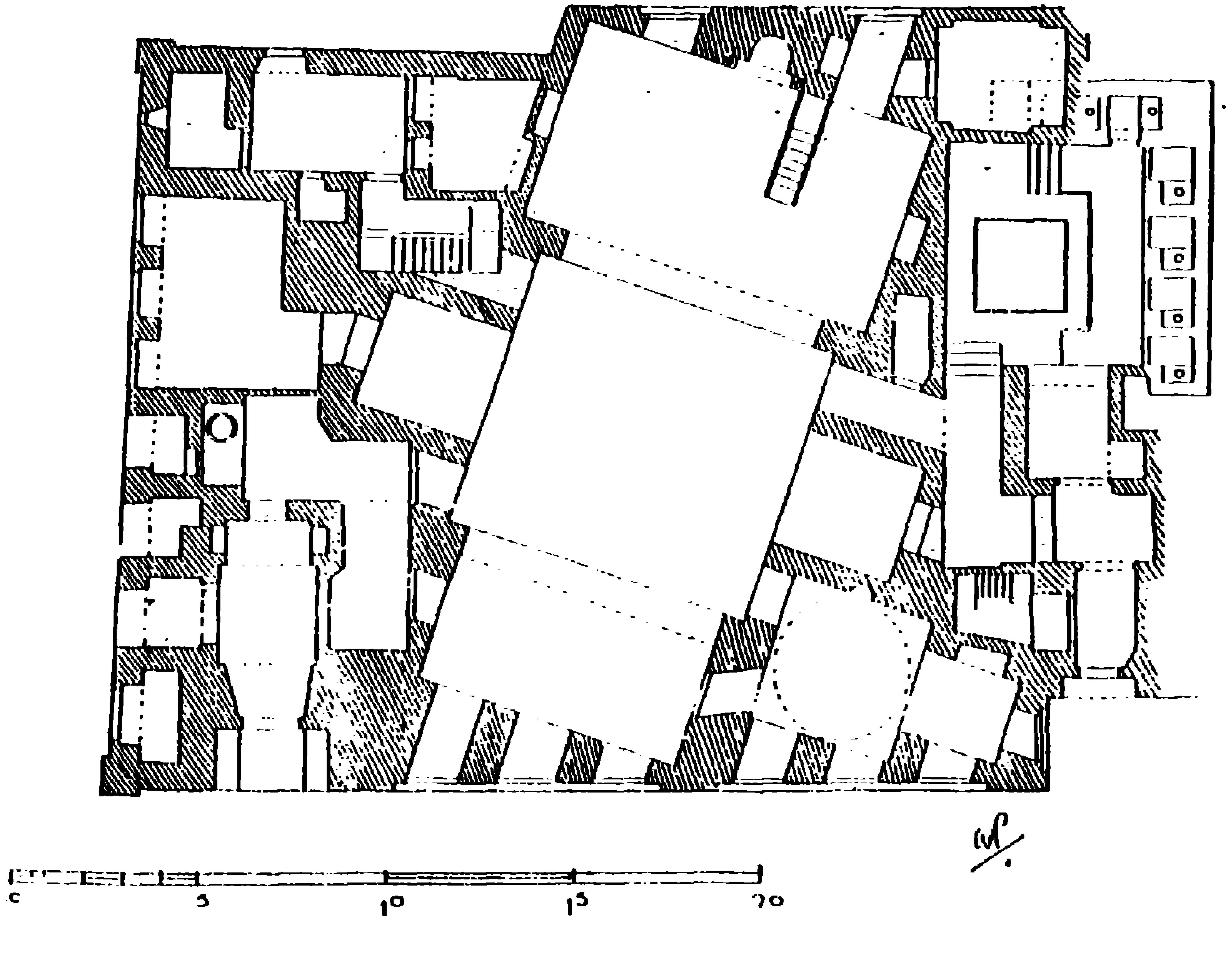

لوحة (٦) جاني بك الاشرفي (نقلاً عن حسن عبد الوهاب)

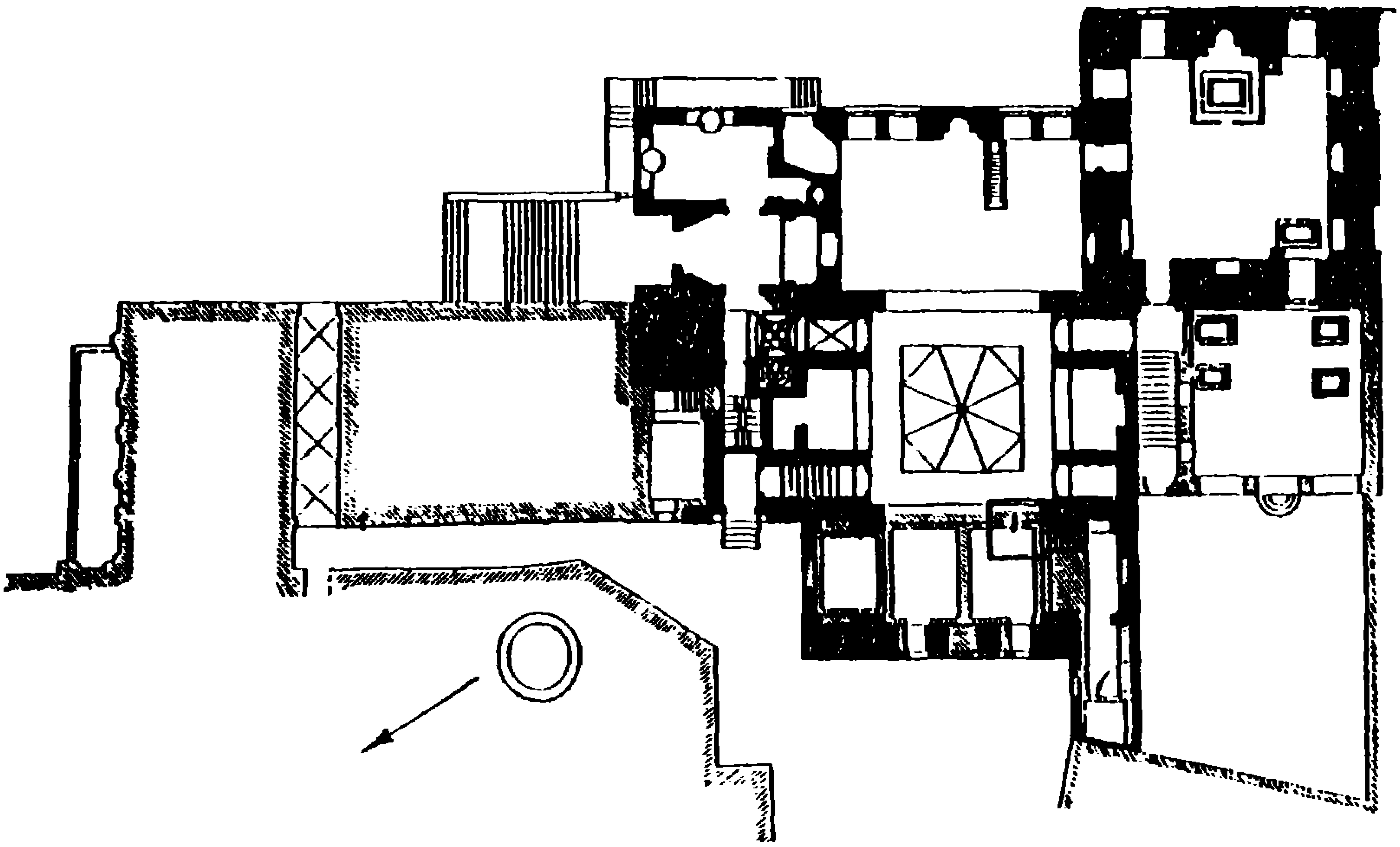

لوحة (٧) مدرسة قتيباي بالقرافة (نقلاً عن صالح لمعي)

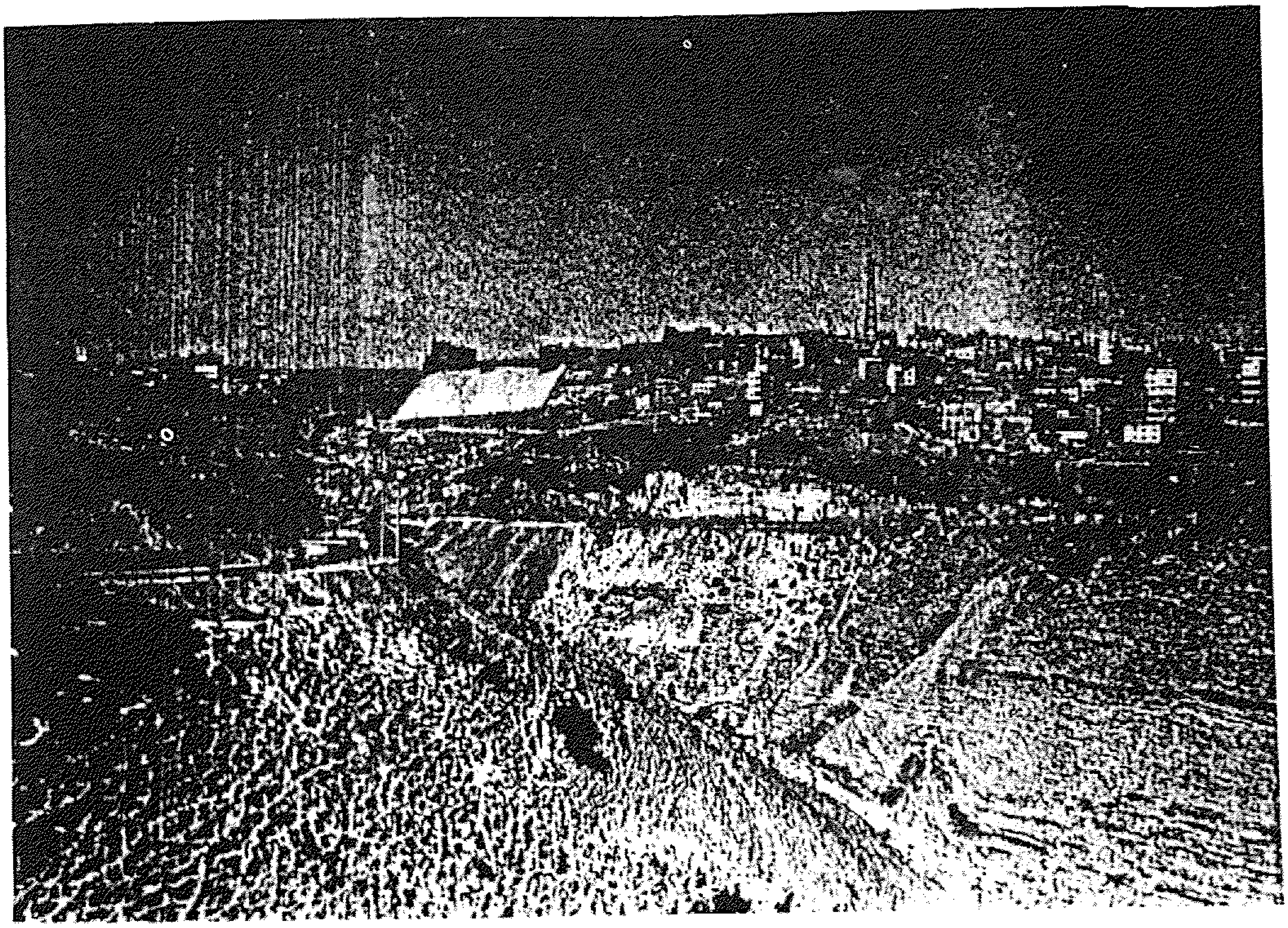

شكل (١) منظر عام للقلعة

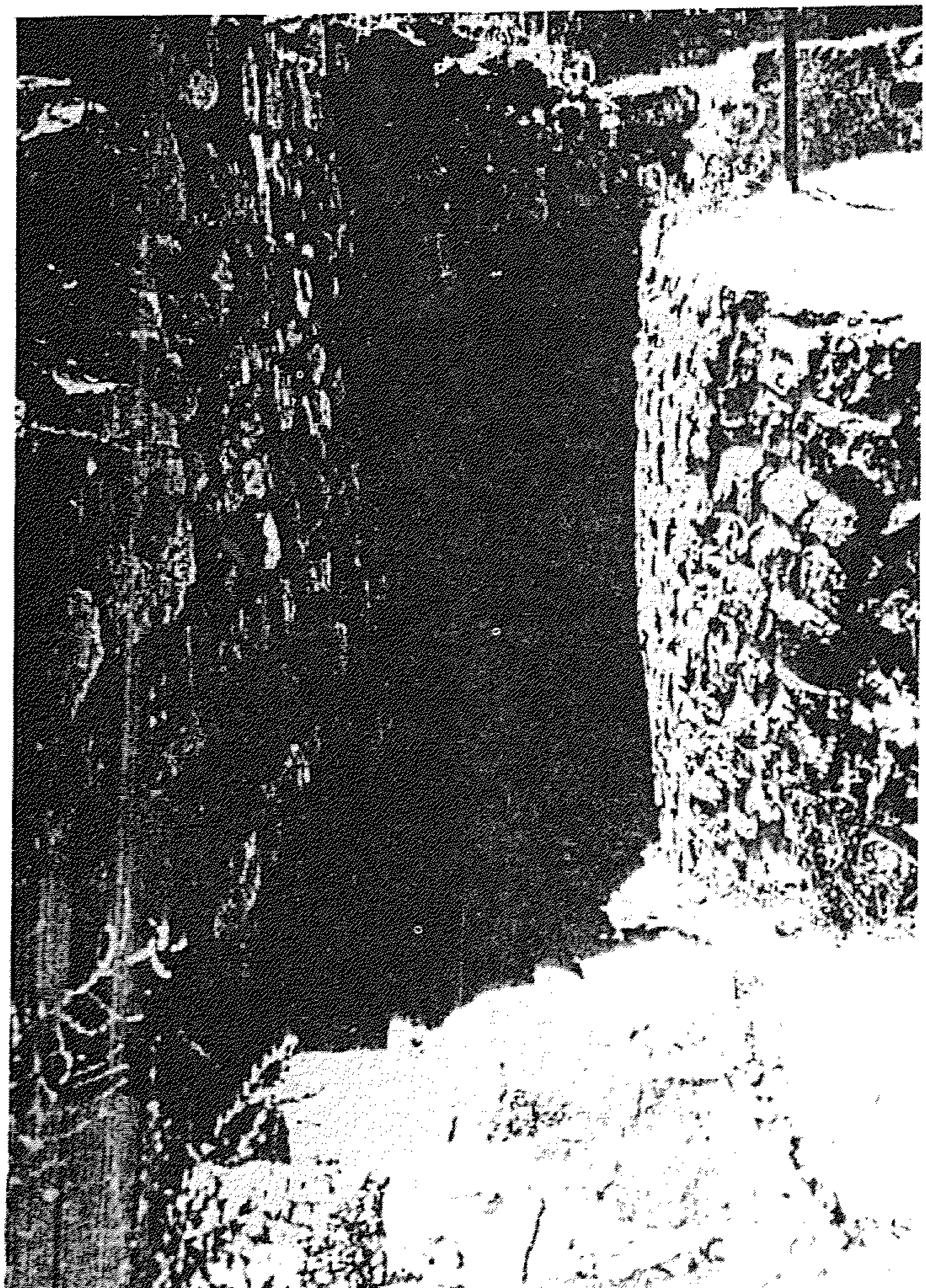

شكل (٢) منظر يمثل الدرج والباب المؤدي للمدرسة

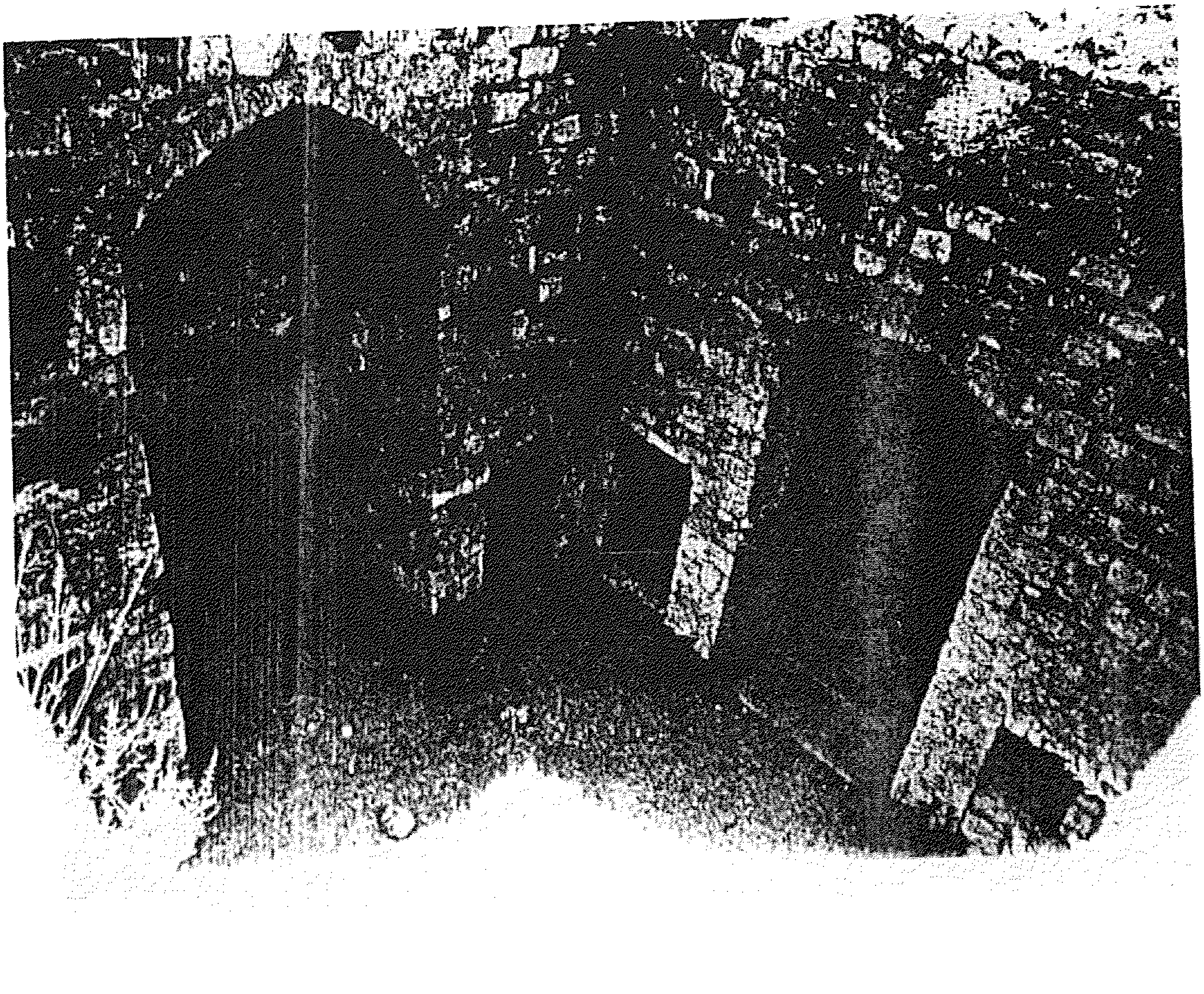

شكل (٣) منظر يمثل الصحن والايوان الجنوبي والشرقي

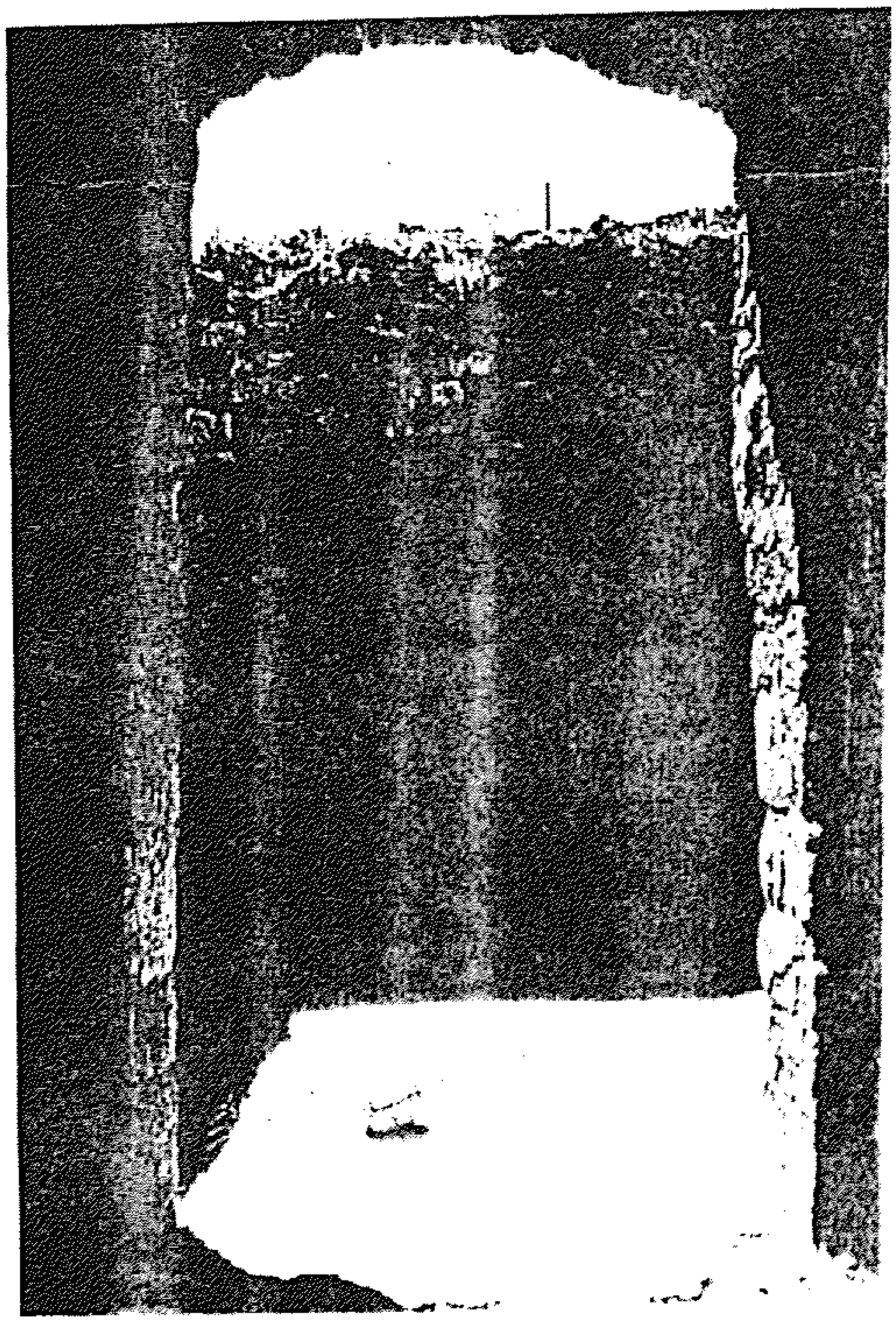

شكل (٤) منظر يمثل الايوان الشمالي

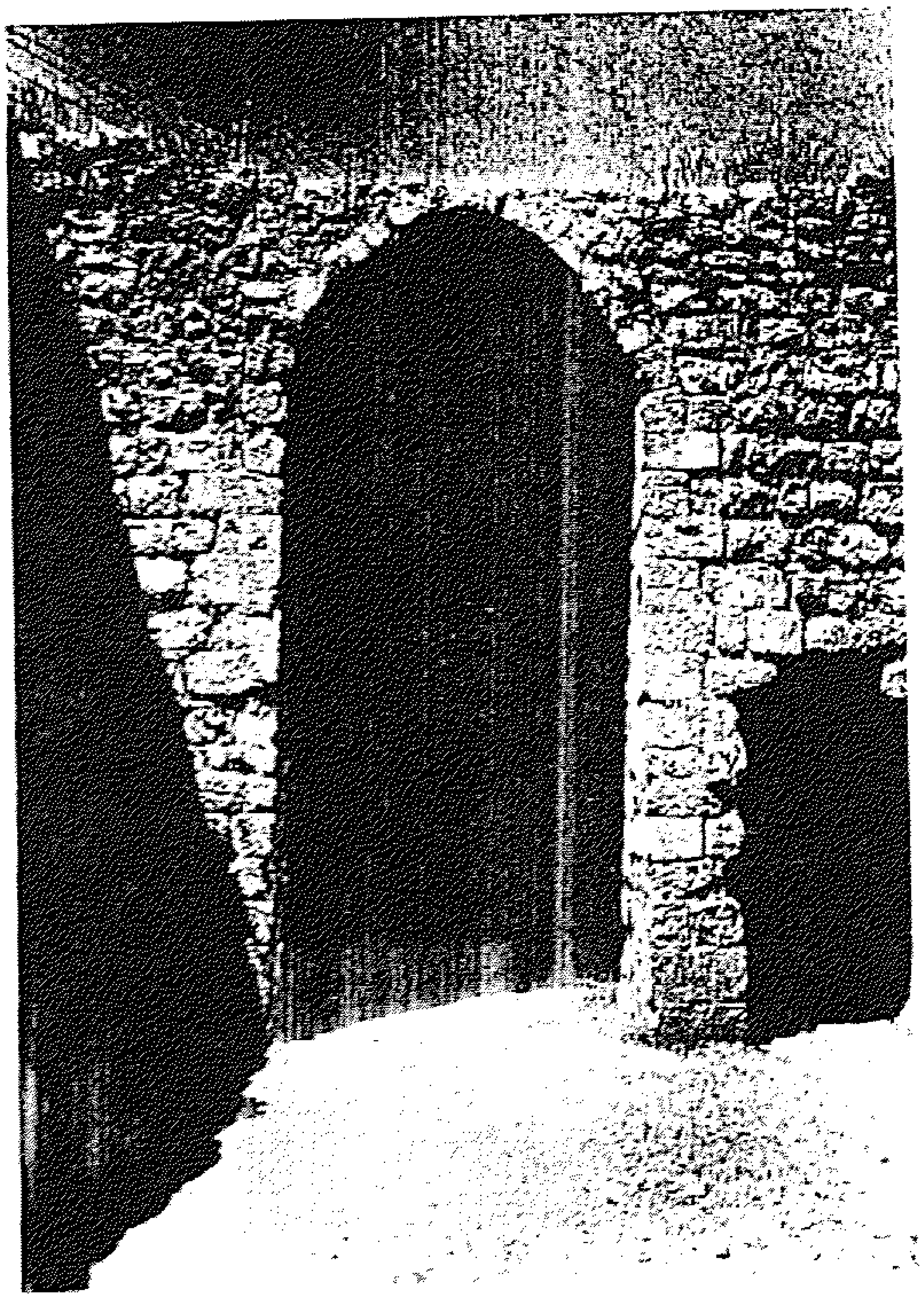

شكل (٥) منظر يمثل الايوان الغربي

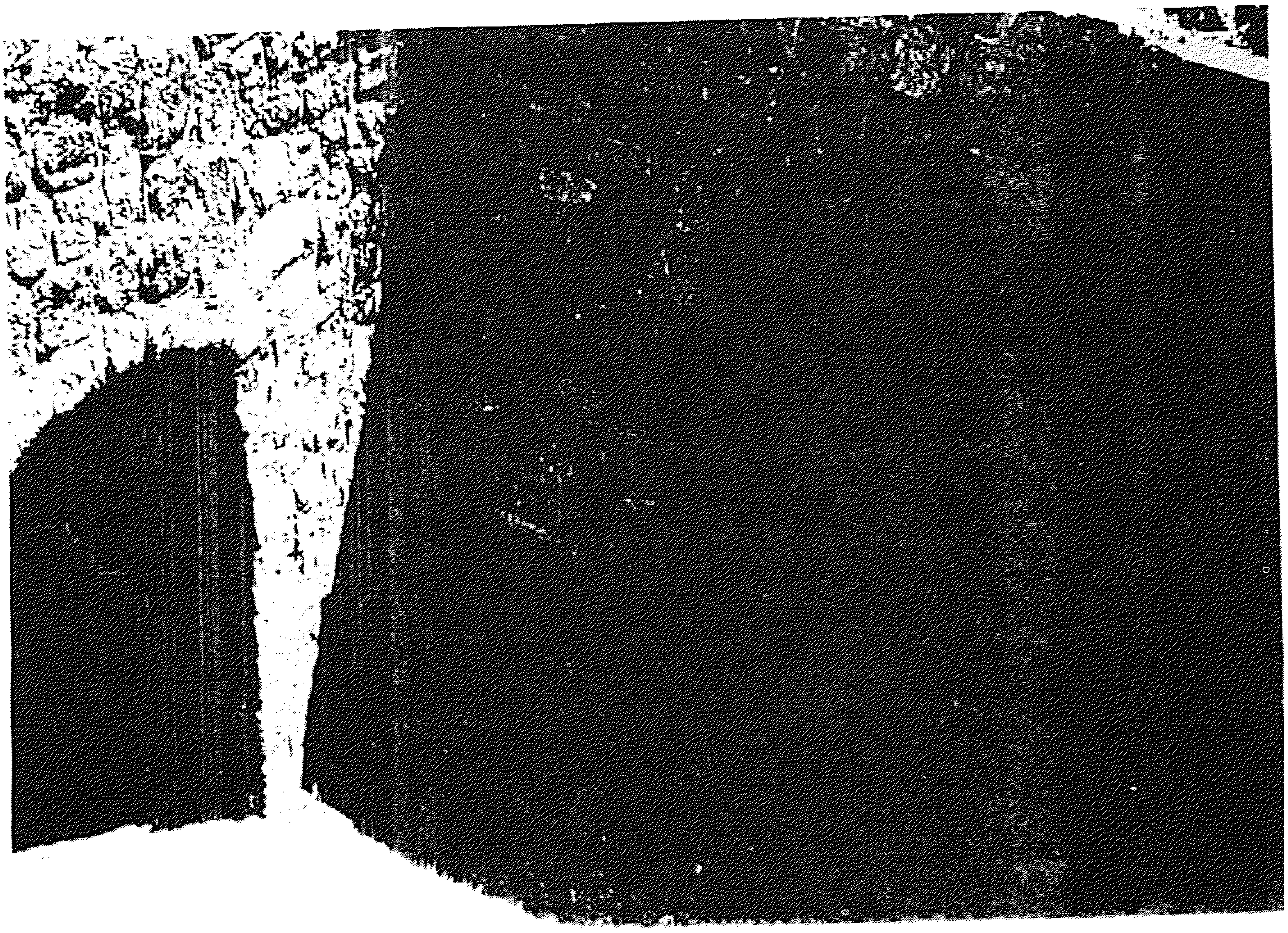

شكل (٦) منظر يمثل الايوان الشرقي والأبواب الجانبية وجزء من الايوان الشمالي

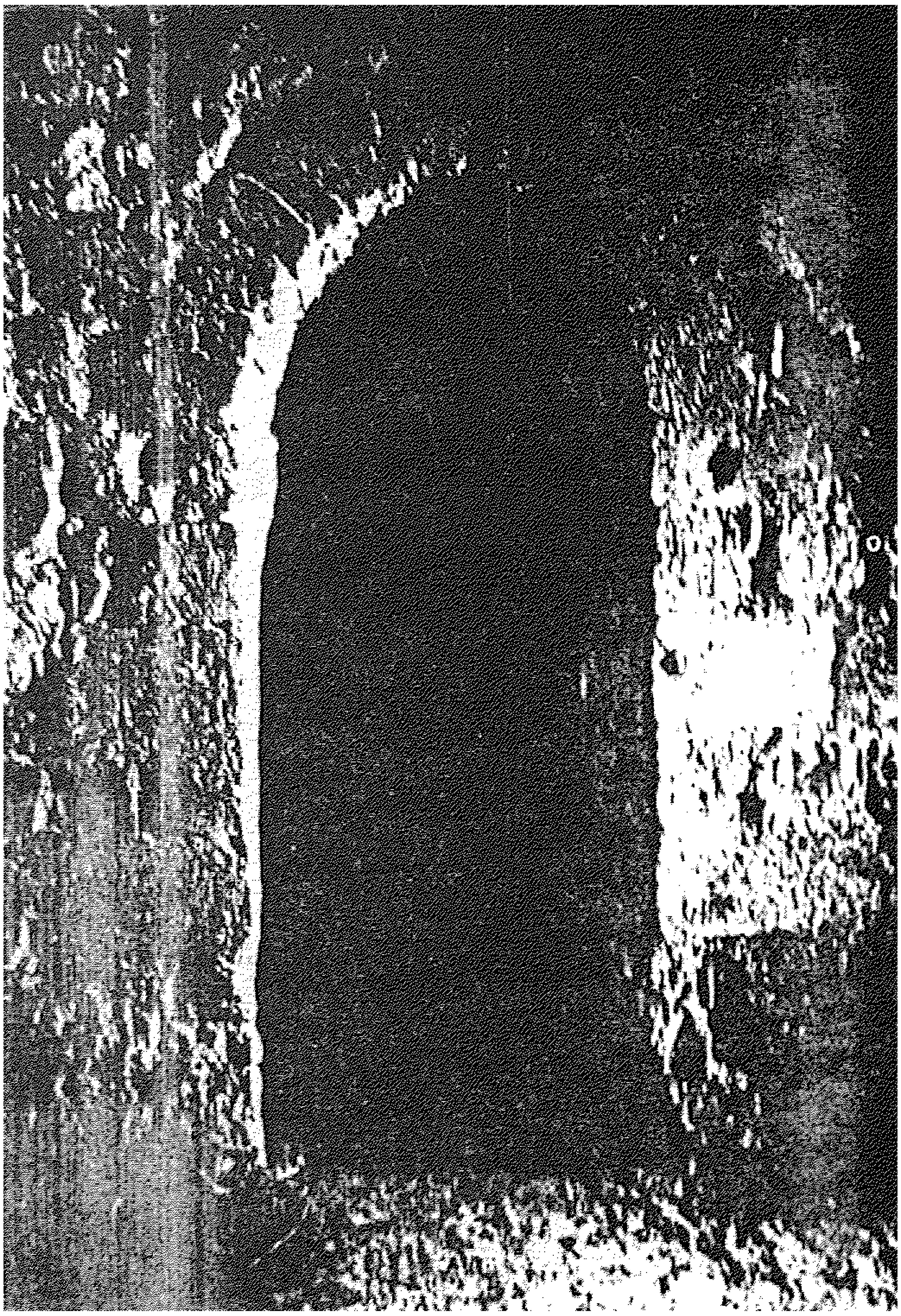

شكل (٧) منظر يمثل المحراب

أعمال الرحلة من المشرق إلى المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى

عبد الكريم علي

جامعة دمشق / مدير التحرير

مقدمـــــــة :

سبق أن كتب العديد من الباحثين والمفكرين ، عن أسباب الرحلات وفوائدها ، ولن نسهب في ذكر ذلك في هذه المقدمة .

مع أنه تجدر الإشارة إلى أن الرحلات قديمة قدم الإنسان نفسه ، ومنذ أن وجد الإنسان على ظهر الأرض ، بدأ بمحاولة التعرف على أسرار الكوكب الذي يعيش عليه .

وتنوعت أسباب الرحلات : فمنها معرفية استكشافية ، ومنها سياسية ، ومنها بدافع الهواية والمغامرة . وعلى هذا الأساس ، ذكر أن من الرحّالة من كان رجل علم أو دين أو هاوياً للسفر أو مغامراً .

وقدمت الرحلات فوائد جمة للحضارة الإنسانية بشكل عام ، حتى وصفت الرحلة بأنها عين الجغرافية المبصرة / على سبيل المثال / ، كما يراها الأستاذ الجغرافي صلاح الشامي .

ومهما كانت دوافع الرحلات ، المعلنة منها وغير المعلنة ، فقد أتصف الكثير من رجالها بدقة الملاحظة ، سواء في الوصف أو التقصي في تسجيل المعلومات والمشاهدات ، بكل دقة وأمانة .

وهناك ذكر لرحلات قدماء المصريين منذ الألف الثاني قبل الميلاد ، ورحلات يونانية ، كما يخبرنا بذلك الرحالة المؤرخ هرودوتس ولدينا اسماء كثيرة تشير إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر أمثال : ابن بطوطة وماركوبولو وفاسكو داجاما ، وكولومبس ، وتشالز داروين ، وهنري الملاح وغيرهم .

فالرحلة قديمة مستمرة في الحاضر والمستقبل ، ولن تتوقف خاصة وأنها اتخذت مساراً جديداً اضافياً هو الفضاء الخارجي .

وبما أن العديد من الرحّالة لم يكتفوا بوصف الأقاليم وطبائع السكان ، وإنما أسهموا في وصف عادات وتقاليد الجماعات في الأماكن التي زاروها[1] ، وعلى الرغم من أن مراكز الجذب والاثارة للرحلات كان المشرق ، فهناك بعض الرحلات تمت من المشرق إلى المغرب ، وسنكتفي في بحثنا هذا ، تتبع أعمال ومشاهدات وملاحظات الرحالة العرب المشارقة ، الذين زاروا بلدان المغرب والأندلس ، خلال الفترة الممتدة من نهاية القرن الأول الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي . فعلى الرغم من طول هذه الفترة وامتدادها الزمني ، لم نشهد نشاطاً ملحوظاً في ميدان الرحلة والتجوال ، بحيث يمكن مقارنة ذلك مع النشاط الذي حدث على صعيد الرحلة من الأندلس والمغرب إلى بلدان المشرق العربي . وربما يعود سبب ذلك إلى أن كثيراً من الرحالة الأندلسيين والمغاربة ، كانوا يهدفون في الدرجة الأولى من توجههم إلى المشرق ، تأدية فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة الأخرى ، ولاسيما في فلسطين . هذا بالاضافة إلى أسباب أخرى ، كانت في معظمها سياسية بحتة ، كقضية تحرير بيت المقدس من براثن الصليبيين ، التي اثارت في نفس ابن جبير الأندلسي حب زيارة الأماكن المقدسة المحررة . وهذا مايجعل الحديث عن الرحلة إلى المغرب والأندلس أكثر صعوبة ، لأن الذين زاروا المغرب والأندلس ، لم يوسّعوا دائرة تجوالهم ، فجاءت معلوماتهم قليلة ومختصرة .

وفي الوقت الذي كانت فيه أهداف الرحّالة المغاربة واحدة تقريباً ، كانت أهداف الرحّالة المشارقة متعددة الأسباب والجوانب . منها ما كان سياسياً كما

المحنا ، ومنها ما كان علمياً محضاً ، ذلك لأن الأندلس بشكل خاص ، لم تكن دائماً على وفاق مع السياسات التي قامت في المشرق العربي ، ولاسيما في العصر العباسي .

كان في طليعة الرحّالة المشارقة أبو اليسر ابراهيم بن محمد الشيباني ، الرياضي الكاتب الأديب المتوفي سنة ٢٩٨هـ / ٩١١م ، الذي انتقل من بغداد إلى القيروان ، حيث أقام طوال حياته . وقد عمل في القيروان موظفاً في ديوان الانشاء في عصر الدولة الأغلبية وبداية الدولة الفاطمية(٢) . وحينما ذهب إلى الأندلس ، كان في مراحل حياته الأخيرة ، عندما كلفه الفاطميون بالتجسس لصالحهم على الأمويين . وقد زورَّ رسالة توصية على لسان أنصار الأمويين من بلاد الشام ، ويبدو أن أمره أكتشف فغادر الأندلس إلى مصر حيث سجن . وليس هناك مايوضح كيفية خروجه من سجنه ، وعودته للعمل لدى الأغالبة ، وتوفي بعد عدة سنوات من قيام الدولة الفاطمية والعمل لديها(٣) .

ويشبهه من حيث التوجه والمهمة ، الجغرافي ابن حوقل الذي أرسله الفاطميون كذلك لرصد أحوال الأندلس في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، بعد أن قام عبد الرحمن الناصر لدين الله بإعلان الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٣١٦هـ ، رداً على إعلان الفاطميين للخلافة في المغرب . وقد قام بمهمته على أكمل وجه، فلم يترك شيئاً في الأندلس إلا وقام بتسجيله ورصده وتقويمه من جميع النواحي وبأدق التفاصيل وأعمقها ، وقد بدأ مهمته هذه ، بكتابة عابرة عن أحوال المغرب بشكل عام ، ومع ذلك فقد أحتوت كتاباته هذه معلومات في غاية الأهمية عن بلدان المغرب ، على الرغم من أن بلاد المغرب ، لم تكن رئيسة في برنامج عمله . و لم يترك مدينة مغربية أو بلدة معروفة ، إلا زارها

وأمعن النظر في أحوالها الطبيعية والمعاشية العامة ، من برقه الليبيـة إلى سلجلماسـة وأودغست في الصحراء المغربية ، فهـو يذكـر موقـع المدينـة أو البلـدة، ثـم يقـوم بدراسة تفصيلية مركّزة علـى المسـائل الاقتصاديـة وخاصـة الزراعيـة والتجاريـة ، ويبدأ بذكر أهم المحاصيل الزراعية ، وما يصـدّر منهـا إلى بـلاد المشـرق والبلـدان الافريقية المجاورة والأندلس . ولايفوتـه أن يذكـر انعكـاس الأزدهـار الاقتصـادي وأثره على حياة الناس ومعيشتهم . يضاف إلى ذلك ، اهتمامـه بذكـر المسـافات بين المدن والبلدان المغربية كلها ، وبينها وبين دول أفريقية .

فقدرهـا أحيانـاً بـالمراحل وأحيانـاً بالشـهور والأيـام وأحيانـاً بالأميـال . وأستهوته في نهاية حديثه عن المغرب ، مسألة ذكر القبائل المغربية مع ذكر بعض العادات والتقاليد الاجتماعية ، التي كانت معروفة هناك في عصره[٤] .

كان دخول ابن حوقل إلى الأندلـس سنة ٣٣٧هـ / ٩٤٩م في عصـر عبـد الرحمـن النـاصر لديـن الله ، أول الخلفـاء الأمويـين فيهـا . وقـد وصفهـا بالسـعة والبحبوحة في شتى الميادين ، وعزا ذلك إلى وفـرة انتاجهـا ، مـع وفـرة ضرائبهـا ومكوثها على الوارد والصادر منها . وتوقف عند أحوال وصفات سكانها فقـال (ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يـده مـع صغـر أحـلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم ، وبعدهم عـن النـاس والشـجاعة والبسـالة والفروسية ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال ...)[٥] .

وذكر أن معظم الأرقاء ، الذين كانوا يصـدّرون إلى المشـرق وغـيره ، كـان مصدرهم الأندلس ، حيث كـانوا يجمعـون ويؤهلـون قبـل تصديرهـم إلى بلـدان الطلب ، وكان اليهود هم الذين يقومون بهذه العملية[٦] . وقام بذكر المدينة الـتي شيدها النـاصر لديـن الله وهـي مدينـة الزهـراء[٧] . فذكـر أن أبنيتهـا كـادت

أن تتصل بأبنية قرطبة ، ونقلت إليها جميع مستلزمات ودواوين الدولة[٨] .

وقال عن مقدار جبايات الأندلس في عهد الناصر لدين الله حتى سنة ٣٤٠ / ٩٥٥م : مالم ينقص عن عشرين الف ألف دينار إلا اليسير القليل ، دون مافي خزائنه من المتاع والحلي والمصاغ وآلة المراكب . ولفت نظره وضع الجيش في الأندلس ، فقال : وليس لجيوشهم حلاوة في العين لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها ، وإن شجعت أنفسهم ومرنوا بالقتال ، فإن أكثر حروبهم تنصرف على الكيد والحيلة ، وما رأيت ولا رأى غيري بها إنساناً قط جرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه في الركابين ، ولايستطيعون ذلك ، ولابلغني عن أحدهم لخوفهم من السقوط عند بقاء الرجل في الركاب .. وما أطبقت قط جريدة عبد الرحمن بن محمد ولامن سبقه من آله وآبائه على خمسة آلاف فارس ممن يقبض رزقه ويختم عليه ديوانه ، لأنه مكفي المؤونة بأهل الثغور من أهل جزيرته ماينوبه من كيد العدو ومن يجاوره من الروم ، ولاعدو عليه سواهم ، وقلما يكترث بهم ، وربما طرقه في بعض الأحايين مراكب الروس والترك ، وقوم في جملتهم من الصقالبة والبلغار . وربما انصرفوا خائبين)[٩] .

وما يؤكد صحة ملاحظاته عن أهل الأندلس ، ماذكره ابن عذاري المراكشي عند حديثه عن استعانة المغاربة بالأسبان لمهاجمة قرطبة سنة ٤٠٠هـ / ١٠١٠م حيث يقول : « كان على رأس النصارى الأسبان رجل يسمى ابن مامة النصراني ، الذي قال عن أهل قرطبة : كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة، فإذا القوم لادين لهم ولاشجاعة فيهم ولاعقول معهم ، وإنما أتفق لهم ما أتفق من الظهور والنصر بفضل ملوكهم فلما ذهبوا انكشف أمرهم ، إلى أن يقول :

كان أصحابي يغيرون ويسرقون بدون أمر ، ثم يأتي أهل قرطبة فيشترون منهم نهبهم وأموال أصحابهم المسلمين ، فليس من القوم عقل ولاشجاعة ولادين[١٠] .

واهتم ابن حوقل بشكل خاص بالماشية التي تعيش في الأندلس، فوصفها بأنها من الأنواع المقاومة للأمراض والغزيرة الانتاج والفائدة . كما وصف بغال الأندلس بأنها من أحسن بغال الدنيا ، لأنها سريعة المشي وقوية التحمل ، بل أيضاً لأنها حسنة الشكل ، مختلفة الألوان ، مقاومة للأمراض[١١] ، ومن الأندلس انتقل إلى صقلية ، فاسترعى انتباهه هناك عدد من الأمور ، كان في مقدمتها كثرة المساجد ، التي قال عنها : إنها كثرت وتعددت بسبب حب الصقليين للمباهاة والمغامرة ، وليس بسبب التقى وكسب المثوبة أو بدافع الايمان[١٢] .

وذكر أن الأربطة كانت كثيرة هي الأخرى على السواحل ، وقال : « إنها كانت مشحونة بالرياء والنفاق والبطالين والفسّاق والمتمردين من شيوخ وأحداث ، اجتمعوا على أشياء فاسدة وكريهة .

وهنا لابد من الاشارة إلى أننا لانتفق مع ابن حوقل في هذا الموضوع، فالأربطة على السواحل كانت تؤدي أكثر من وظيفة ، فهي من جهة أماكن للعبادة ، يعيش البعض فيها بشكل دائم ، والبعض الآخر بشكل مؤقت ، ومن جهة ثانية ، فكان للأربطة وظيفة دفاعية فهي عبارة عن نقاط الحراسة والانذار ، وهي مراكز دفاعية أمامية ، تتلقى الصدمة الأولى عند مهاجمة حدود الدولة .

وليست كما ذكره ابن حوقل ، والذين يسكنون الأربطة ليسوا على المستوى الذي ذكره، فقد بالغ في الأمر أكثر مما يجب ، ولفت انتباه ابن حوقل

في صقلية أيضاً كثرة المعلمين ، وعزا ذلك إلى فرارهم من الغزو ورغبتهم في التقاعس عن أعمال المجاهدة والنضال ، لأن الولاة ، كانوا لايتركون أحداً في البلد عند قيام الغزو ، إلا الذين يعملون في التعليم ، وأولئك الذين يدفعون الفدية.

ويعلق على ذلك بحدة ومرارة بقوله : « وكان قد سبق الرسم باعفاء المعلمين قديماً بينهم وحملت عليهم المغارم ، ففرغ إلى التعليم بلههم ، وحسّنه لديهم جهلهم مع قلة الانتفاع به والجدوى منه ، فإن منهم الكثير تمر به السنة فلا يصيب من جمع صبيانه وهم كثير ، عشرة دنانير ، فأي منزلة أقبح وصورة أوقح من رجل باع ما أوجب الله تعالى عليه من الجهاد وشرفه والغزو وعزّه بأحسن منزله وأسقط ضيعة » . وذكر إنه قام بتأليف كتاب سّماه (كتاب صقلية) جمع فيه كل فضائلهم ورذائلهم وخصائصهم وطباعهم وأطعمتهم وعاداتهم إلى غير ذلك من أمور . ووصفهم بأنهم أقذر أهل الأرض بقوله : « وليس يشبه وسخهم في دورهم وسخ أقذار اليهود ، ولاظلمة منازلهم وسوارها سواد الأتاتين والأفران ، وأجهلم منزلة يسرح الدجاج على مقعده ، وتذرق الطيور على مصلاه ومخدته »[١٣] . وهكذا لم يترك ابن حوقل شيئاً في المغرب والأندلس وصقلية إلا جاء على ذكره بعين الناقد المتفحص المنصف أحياناً والمتجني أحياناً آخرى ، فقد عكست أقواله عن المغرب مصالحه التجارية، كما عكست أقواله عن الأندلس وصقلية ميوله السياسية التي من أجلها ذهب إلى الأندلس، وظهر تأثيرها على شخصيته بشكل واضح وجلي وهذا ماجعله يطيل الاقامة في قرطبة ، زمن عبد الرحمن الثالث أقوى حكامها الأمويين وأقدرهم ، فوصفها بأنها بغداد الثانية[١٤] .

وفي عصر ملوك الطوائف ، وصل إلى الأندلس قادماً من بغداد رجل يدعى أبو الفتوح ، وكان يجيد علوم الفلك والفلسفة والأدب ، وقد اشتهر أمره في هذا العصر، الذي كان السياسيون فيه يعتمدون على الشعراء كوسيلة لنشر سياسيتهم وأهدافهم العامة . وقد اتصل في بداية رحلته في الأندلس بحاكم دانية، الذي كان من علماء اللغة والأدب ، فاشتغل أبو الفتوح معه بشرح الجمل في النحو ، اضافة إلى اشتغاله بالفلسفة وعلم النجوم وحركات الكواكب . ثم رحل إلى سرقسطة في شمال شرق الأندلس ، لكن اقامته فيها لم تطل لأسباب غامضة ، فرحل إلى غرناطة ، وفيها جلس لتدريس الأدب والاشتغال في أعمال التنجيم والتنبوء مما سيكون عليه المستقبل ، وكان الحاكم في غرناطة باديس الزيري ؛ الذي تنبأ له أبو الفتوح بأن ابن عمه يطمح في ملكه ، وان باديس سيفقد حكمه وسلطته ..

ولكن هذه النبوءة لم تصدق ، رغم اعتماد ابن عم باديس لها ومحاولته التآمر على السلطة مع ابن عمه / ياسر / ولكن المؤامرة فشلت وكشف أمرهم وفرّ أبو الفتوح إلى خارج غرناطة ، وبعد أمد قصير تمكن باديس من القبض عليه ، فأودعه السجن ، وكان لباديس شقيق يدعى / بلقين / يحب أبا الفتوح ويدافع عنه في كل مناسبة ، فخشي باديس أن يتطور الأمر إلى الموافقة على العفو عنه فاستغل سكر بلقين ذات يوم ، وأمر بإحضار أبي الفتوح وقال له : وهل صدقتك كواذب الطوالع أيها المنجم الخائن الكاذب ، وماهي الفائدة التي عادت عليك الآن ؟ فلم يجبه بكلمة واحدة ، لأنه كان يأمل بعفوه والعودة لزوجته وأولاده في غرناطة إذا ما اكتشف أمره . واستغل باديس عدم اجابته فأجهز عليه بسيفه أمام كل الحاضرين دون شفقة أو رحمة[١٥] .

وخلال الربع الأخير من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وصل إلى المغرب مشرقي أوفده صلاح الدين الأيوبي ، هو أسامة بن منقذ ، صاحب الكتاب الشهير « الاعتبار » والذي يمكن أن نضعه بين هؤلاء الرحالة ، كونه ركز عمله على الشؤون السياسية ، التي لم تسفر عن نتيجة ايجابية بسبب عدم التجانس بين الحكام في المشرق والمغرب على كافة الصعد ، مع أن الأحداث المعاصرة كانت كافية لأن يسامح كل حاكم منهم الآخر . فليس هناك عداوات سابقة أو حروب أو ثأر ، وكل الذي حدث أن العلاقة بين صلاح الدين الأيوبي ويعقوب المنصور الموحّدي ، لم تكن حسنة وحتى الأحداث الجسام التي كان يتعرض لها الوطن العربي ، في ظل السياسة الصليبية الطامعة في أرض العرب ومقدساتهم في المشرق والأندلس على حد سواء ، لم تجعل العلاقة بينهما ترقى إلى مستوى المسؤولية والحاجة ، إذا صح التعبير ، فعندما يتعرض الوطن إلى خطر ما ، فهو بحاجة إلى تكاثف كل جهود أبنائه ، وكان أسامة بن منقذ مكلفاً بإبلاغ المنصور الموحّدي العمل على منع أساطيل الفرنج من الوصول إلى سواحل الشام وقطع المدد عنها . ومع أن ابن منقذ انتظر عودة المنصور من الأندلس ، فإن سفارته لم تتوج بالنجاح لأسباب عديدة ، ظاهرها إن رسالة صلاح الدين الأيوبي لم تكن تمجد الموحّدين(١٦) وباطنها يتعلق ببعض الخلافات الفكرية والتي يجب أن تنتهي أمام عظمة الموقف وحجم الخطر الذي عصف بحكم العرب المسلمين في الأندلس وإلى الأبد ، وكلف الكثير من الأموال والدماء ، حتى أمكن التخلص منه في المشرق بعد وفاة صلاح الدين.

ومن الذين رحلوا إلى المغرب ، عبد الله بن عمر بن محمد بن حموية تاج الدين أبو محمد المتوفي سنة ٦٤٢هـ / ١١٩٧م ، وأقام فيها حتى سنة ٦٠٠هـ /

١٢٠٤م بضيافة يوسف بن يعقوب بن عبد المؤمن الموحدي . ولايعرف على وجه الدقة الهدف الأساسي ، الذي ذهب من أجله إلى المغرب لكن الأقرب إلى الواقع ، والذي يبدو من ترجمته ، إن هدفه كان بقصد الرحلة والاطلاع على الأوضاع العامة في بلاد المغرب . ولكنه على الرغم من بقائه هناك أكثر من سبع سنوات ، فإنه لم يغادر مراكش خلالها ، و لم يقدم لنا معلومات موسعة عن الحياة العامة فيها[١٧] باستثناء بعض المعلومات البسيطة ، التي ذكرها ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان بقوله : « ورأيت بدمشق في أواخر سنة ثمان وستين وستمئة جزءاً بخط الشيخ تاج الدين عبد الله ابن حموية ، شيخ الشيوخ كان بها، وكان قد سافر إلى مراكش وأقام بها مدة ، وكتب فصولاً تتعلق بتلك الدولة ، فمن ذلك فصل يتعلق بهذه الواقعة[١٨] ، وينفي ذكره ها هنا فقال : لما انقضت الهدنة بين الأمير أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب غرب جزيرة الأندلس وقاعدة مملكته يومئذ طليطلة ، وذلك في أواخر سنة تسعين وخمسئة ، عزم الأمير يعقوب وهو حينئذ بمراكش على التوجه إلى جزيرة الأندلس لمحاربة الفرنج ، وكتب إلى ولاة الأطراف وقواد الجيوش بالحضور ، وخرج إلى مدينة سلا ، ليكون اجتماع المعسكر بظاهرها ، فاتفق إنه مرض مرضاً شديداً ، حتى يئس منه أطباؤه ، وحمل الأمير يعقوب إلى مراكش ، فطمع المجاورون له من العرب وغيرهم في البلاد ، وعاثوا فيها فساداً وأغاروا على المسلمين بالأندلس ، واقتضى الحال تفرقة جيوش الأمير يعقوب شرقاً وغرباً، وانشغلوا بالمدافعة والممانعة ، فازداد طمع الأذفوش في البلاد أكثر ، وبعث رسولاً إلى الأمير يعقوب يتهدد ويتوعد ، ويطالب ببعض الحصون المتاخمة له من بلاد الأندلس ، وكتب رسالة من انشاء وزير له ، يعرف بابن الفخار وهي :

باسمك اللهم فاطر السموات والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح أما بعد .... فإنه لايخفى على ذي ذهن ثاقب ، ولا ذي عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنيفية كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ماعليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل في إهمال الرعية وأخلادهم إلى الراحة ، وأنا أسومهم القهر وجلاء الديار ، وأسبي الذراري وأمثّل بالرجال ، ولاعذر لك بالتخلي عن نصرتهم إذا أمكنتك يد القدرة ، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، ونحن الآن نقابل عشرة منكم بواحد منا لاتستطيعون دفاعاً ، ولاتملكون امتناعاً . وقد حكي لي أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك عاماً بعد عام ، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فلا أدري أكان الجبن مابك أم التكذيب مما وعد ربك ، ثم قيل لي أنك لاتجد إلى جوار البحر سبيلاً لعله لايسوغ لك التقحم معها ، وها أنا أقول لك مافيه راحتك ، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان ، وترسل لي جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات(*) أو أجوز بجملتي إليك وأقاتلك في أعز الأمكنة لديك ، فإن كانت الغلبة لك ، فغنيمة كبيرة جلبت إليك وهدية عظيمة مثلت بين يديك ، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك ، واستحقّت إمارة الملتين والحكم على البرين »[١٩] .

وقد أخذ منه ابن الأبار ملاحظته التي تتعلق ببعض الأمور الإدارية في المغرب، والذي يقول فيها عن أهل الغرب : « هم في تلك البلاد يميزون فقهاء

(*) ـ المراكب والشواني والطرائد والمسطّحات : جميعها من السفن الحربية التي كانت تستخدم في البحر الأبيض المتوسط .

الجند ، فهم رؤساء ونقباء ، يراجعونهم في مصالحهم ، واليهم القسمة والتفرقة عليهم ، فيما يصل إليهم من وظائفهم ، ولكل قوم منهم موضع مقرر للجلوس بدار السلطان ، ولأكثرهم أرزاق مقرره على بيت المال ، إذ لامدارس هناك ولا أوقاف في المساجد »[٢٠] . وفي عهد الظاهر بيبرس السلطان المملوكي ، قام محمد بن سالم بن نصر الله بن واصل أبو عبد الله المازني الحموي جمال الدين المتوفي سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م برحلة إلى صقلية في سفارة إلى ملك صقلية ، الذي كان يدعى آنذاك « بالامير ومانفرد » وذلك في سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م، وهناك صنف رسالته المعروفة بالابرورية في المنطق ، وتسمى نخبة الفكر[٢١] وقد قال عن رحلته هذه : ولما وصلت إليه أقمت عنده في مدينة من البر الطويل المتصل بالأندلس وكان يحفظ عشر مقالات من كتاب إقليدس ، بالقرب من البلد الذي كنت فيه ، مدينة (لوجارة) كلها مسلمون من جزيرة صقلية ، يُعلن فيها شعار الاسلام والآذان . وكان أصحاب الامبراطور منفرد مسلمين ويُعلن في معسكره بالأذان والصلاة، وبين ذلك البلد وبين رومية خمسة ايام .

وبعد توجهي من عنده أتفق بابا الفرنج وروندافرنس على قتاله ، وكان البابا قد حرمه لميل الامبراطور إلى المسلمين ، وكذلك كان أبوه وأخوه محرمين أيضاً لنفس السبب ، وحكي لي أن قرية الامبراطور كانت قبل فردريك لوالده، ولما مات ، كان فردريك شاباً وطمع في الامبراطورية جماعة من ملوك الفرنج . وكان فردريك شاباً ماكراً وهو الماني الجنسية ، فاجتمع بكل واحد من الملوك الطامعين في الامبراطورية على انفراد وقال له : إني لا أصلح لهذه المرتبة ، فإذا اجتمعنا عند البابا فقل ينبغي أن يتقلد الحديث في هذا الأمر ابن الامبراطور المتوفي، ومن رضي به فأنا راضٍ به ، وإذا رد البابا الاختيار اليّ اخترتك أنت ،

فاعتقدوا صدقه في ذلك ، ولما اجتمعوا عند البابا برومية قال البابا للملوك : ماتريدون ومن هو الأحق بهذه المرتبة ؟ ووضع تاج الملك بين أيديهم فقال كل منهم ، حكمت فريدريك في ذلك فإنه ولد الامبراطور ، فقام فريدريك وقال : أنا أحق بتاج أبي ومرتبته والجماعة قد رضوا به ، ووضع التاج على رأسه ، وخرج مسرعاً وقد حصل جماعة من الألمان الشجعان راكبين وسار بهم على حمّية إلى بلاده ، واستمر منفرد بن فريدريك في مملكته حتى قصده البابا وراندافرنس بمجموعهما فقاتلوه وهزموه وقبضوا عليه ، وأمر البابا فذبح منفريد وملك بلاده بعده راندافرنس سنة ثلاث وستين وستمئة ظناً[٢٢] .

وعلى الرغم من أن ابن واصل هذا لم يكن رحالة بالمعنى الدقيق ، فإنه كتب أشياء مهمة عن صقلية ، ولاسيما فيما يتعلق بتأثر أهل صقلية آنذاك بالحضارة العربية الإسلامية . فقد ذكر أن الصقليين يعملون بأساليب الادارة العربية الاسلامية من خلال اعتمادهم على العناصر العربية في تنظيم شؤون البلاد ، ومنها وظائف البلاط الملكي . وبصورة عامة كانوا لايثقون إلا بالعرب المسلمين، وكان بعض ملوكهم لايتزوجون إلا المسلمات لعفتهن وفضيلتهن وكانوا من جهة أخرى يحسنون التكلم بالعربية ، وبلغ من تسامح الملك (روجار) ، أنه كان يضرب نقوده بكل لغات رعاياه ، ومنها اللغة العربية وكان بعضها يحتوي على اسم النبي محمد / صلعم /[٢٣] .

ولما عاد ابن واصل من سفارته في صقلية ، عين قاضياً للقضاة في مدينة حلب[٢٤] .

ووصل إلى المغرب الأقصى في مستهل القرن الثامن الهجري ، الشريف لبيدة بن أبي نمي نازعاً عن سلطان المماليك ، بعد أن قبض على أخويه حميضة ورميثة

أثر وفاة والدهم أبي نمي صاحب مكة ، سنة إحدى وسبعمئة ، فقام السلطان المريني أبو يعقوب بتكريمه والترحيب به ، وزاد على ذلك بأن أمر بمرافقته بعض الأشخاص ليعرفوه على مناطق المغرب ، ولانعرف على وجه الدقة ، ماهي الأشياء التي كانت تستهوي هذا الأمير خلال جولته في المغرب ، ماعدا إنه تجول وأطلع على معالم المملكة المرينية وقصورها . وكان يُقابَل خلال هذه الرحلة بالترحيب والإكرام والاحترام من جميع العمال المرينيين . ودامت هذه الرحلة حوالي خمس سنوات من سنة ٧٠١هـ / ١٣٠٢م إلى سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٦م عاد بعدها إلى المشرق(٢٥) . وحينما شعر لبيدة هذا بصدق مشاعر واحترام المرينيين له ، أشار على أحد زعمائهم وهو موسى بن رحو بتسمية اثنين من أولاده على شاكلة أسماء أهل المشرق ، فسمي الأول جمال الدين وسمي الثاني بدر الدين ، وكان قبوله لهذه الأسماء تبركاً بآل البيت ، كون لبيدة من الأشراف المنحدرين من آل بيت الرسول (صلعم) ، الذي يتمتعون باحترام وتقدير المرينيين في المغرب العربي(٢٦) . وكذلك خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي قام العمري ، صاحب كتاب مسالك الأبصار بزيارة إلى تونس ، لم يذكر الهدف منها ، وقال أنه حضر جلسة قضائية للمظالم، عقدت بصورة منتظمة وحسب أصول معترف بها . وقد ترك وصفاً وافياً لذلك(٢٧) .

وصاحب آخر رحلة من هذا القبيل ، كان عبد الباسط بن خليل الملطي الظاهري ، الذي اتجه من مصر إلى المغرب والأندلس ، وقد كان هذا الرحالة أحد كبار الإداريين بدولة المماليك بمصر . ولد في الشام سنة ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م، إلا أنه تلقى تعليمه في مصر . وأحس وهو في سن مبكرة بميل خاص

لدراسة الطب ، ولما كان المغرب متقدماً في هذا المجال وله شهرته في ميدان الطب ، فقد عقد عبد الباسط العزم على السفر لتوسيع معارفه واكمال دراسته. وتحت شعار التجارة غادر الاسكندرية على ظهر سفينة جنوية سنة ٨٦٦هـ / ١٤٦٢م ، فزار تونس وطرابلس وتلمسان ووهران .

ومن وهران أخذ سفينة جنوية إلى مالقة ومنها إلى بلش والحمة وبعدها غرناطة ، والتي كانت المركز الوحيد المتبقي للعرب والمسلمين في إسبانية ويبدو أن الطريق الذي سلكه ، كان الطريق الوحيد إلى غرناطة ، وقد سلكه قبله ابن بطوطة منذ أكثر من قرن ، وبعد ذلك بثلاثين عاماً أي في عام ١٤٩٤م أي بعد سقوط غرناطة سلكه الرحالة الألماني هيرونيم مونتر ووضعه في كتابه الرحلة الاسبانية .

ولم يتمكن عبد الباسط من تحقيق حلمه بزيارة قرطبة ، على الرغم من أن التجار المسيحيين والمسلمين كانوا يتنقلون من منطقة إلى أخرى بحرية تامة . وكان السبب الذي حال دون ذلك ، اصابته بجروح بالغة في معركة شخصية ، وحين تعافى من جراحه ، أخذ طريق العودة ، فبلغ وهران في شباط من عام ١٤٦٦م ثم مصر في العام التالي . وقد عاش عبد الباسط طويلاً ، حيث توفى قبل احتلال العثمانيين لمصر ٩٢٠هـ / ١٥١٦م بوقت قصير(٢٨) . وفي كتابه « الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم » يولي مدينة غرناطة بعض الاهتمام، فهي تذكره قبل كل شيء بمدينة دمشق ، التي كان يعرفها جيداً ، وكثيراً ما كان يعود للمقارنة بين المدينتين دون أن يورد أمثلة ملموسة لأوجه الشبه بينهما .

وعلى الرغم من كل هذا ، فإن سرده للأحداث يتصف بالأمانة والبساطة،

بل ويكتسب قيمة كبيرة لأنه ترجمة لأحاسيسه المباشـرة ، تلـك الأحاسـيس الـتي يستشعرها أي عربي قادم من المشرق ، حيث يجد نفسه أمام الآثار العربية الرائعة في الأندلس . ويمكن من خلال عرضه أن يستشف ذلك الشعور بالأسـى، الـذي يستولي على قلب كل عربي مخلـص ، وهـو يبصـر تقـدم الاسبان التدريجـي نحـو الجنوب ، ويشعر في قرارة نفسه بـأن أيـام العـرب في تلـك البـلاد قـد أصبحـت معدودة[٢٩] .

هـذه هـي أهـم الرحـلات المشـرقية إلى المغـرب والأندلـس ، والـتي لم تكـن رحلات بالمعنى الحقيقي للكلمة باستثناء واحدة منها ، هي رحلة ابن حوقل الـتي شملت المغرب والأندلس وصقلية ، وهي البلاد الـتي كـان يتطلـع للسّيطرة عليهـا الخلفـاء الفـاطميون ، الذيـن كـانوا يحلمـون بحكـم دولـة يكـون قسـمها الغربـي الأراضي التي فتحها العـرب وسـيطروا عليهـا في الأندلـس وماحولهـا ، وقسـمها الشرقي الأراضي التي كانت تحت السيطرة الأمويـة . لذلـك أرسـلوا ابـن حوقـل وكلفوه بدراسة الأندلس وصقلية دراسة مفصلة وعلى مختلف الصعد ، وقد نجـح في ذلك نجاحاً باهراً ، ويعد كتابه « صورة الأرض » الذي يضـم في ثنايـاه هـذه الدراسة ، من أهم الكتب الجغرافية المتعددة المرامي والأهداف عن الجناح الغربـي للدولة العربية الإسلامية .

أما بقية الرحلات فقد كانت قصـيرة الأمـد ، محـدودة الرقعـة ، وكثـيراً مـا اقتصرت على مدينة أو اثنتين ، بـل كـانت في معظمهـا سياسـية ، حيـث اقتصـر عمل أصحابها على تأدية مهمـة سـفارة معينـة ، أو أشـياء أخـرى كـان يهـدف إليها، ولم يتحقق أو يتفحص كما كان حال ابن واصل وابن حموية وعبد الباسط الظاهري وغيرهم .

ومهما كان واقع الحال أو صورة الأمر ، فإن هذه الرحلات تعبر عن شيء في غاية الأهمية ، هو أن الأرض العربية في المغرب والشرق ، كانت مفتوحة لكل المواطنين ، ولهم كامل الحرية والاختيار في أن ينتقلوا حيث شاؤوا وفي أي وقت ، دون أن يعارضهم أحد أو يتدخل في شؤونهم متدخل ، وذلك على الرغم من عدم وجود تجانس أو اتفاق على المستوى السياسي العام في المشرق والمغرب . فلماذا لاتعود هذه الحالة إلى الظهور من جديد وينتقل المواطنون العرب بحرية في أرجاء وطنهم العربي الكبير ؟ إنها أكثر من اشارة أو دعوة .

الهوامش

١ - حميدة عبد الرحمن، **إعلام الجغرافيين العرب**، ص.ص٦٦٤ ـ ٦٦٦ طبعة دار الفكر دمشق / ١٩٨٤ .

٢ - قامت الدولة الأغلبية في أفريقية (تونس) بتشجيع من العباسيين في المشرق. وقد استمرت هذه الدولة حتى نهاية القرن الثالث الهجري بعشر سنوات تقريباً .

٣ - مؤلف مجهول - **الأخبار المجموعة** طبعة مدريد ١٨٦٧ ،ص١٤٦ ـ ١٤٨.

ـ أحمد بدر ـ **تاريخ الأندلس** الرابع الهجري، طبعة دمشق ١٩٤٧، ص١١٠ - ١١١ .

٤ - من أجل الاطلاع على مزيد من التفاصيل أنظر ابن حوقل « النصيبي » **صورة الأرض**، طبعة بيروت دار مكتبة الحياة بدون تاريخ ص٦٤ - ١٠٣ .

٥ - ابن حوقل، **المصدر السابق** ص١١٠ .

٦ - ابن حوقل، **المصدر السابق** ص١٠٤ .

٧ - الزهراء شمال قرطبة من سفح جبل عروس ٣٢٥ - ٣٦٥ .

٨ - ابن حوقل **المصدر السابق** ص١٠٧ .

٩ - ابن حوقل **المصدر السابق** ص١٠٨ - ١٠٩ .

١٠ - ابن عذاري المراكشي **البيان المغرب** ج٣ اعتني بنشره ليفي بروفنسال طبعة باريس ١٩٣٠ ، ص٨٩ - ٩٠ .

١١ - ابن حوقل **المصدر السابق** ،١١٠ - ١١٢ .

١٢ - ابن حوقل **المصدر السابق**، ص١١٥ .

١٣ - ابن حوقل **المصدر السابق**، ص.ص١١٥ - ١١٦ - ١١٨ ـــ ١٢٠ ـ ١٢١ ـ ١٢٤ ـ ١٢٥ .

١٤ - كراتشكوفسكي « **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** » ، بـدون تـاريخ نقله إلى العربية صلاح الدين، عثمان هاشم ص٢٠٤ .

١٥ - دوزي ـ **ملوك الطوائف** ، ترجمة كامل كيـالي طبعـة أولى القـاهرة ـ مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٩٣٣ ص٦٨ ـ ٧٧ .

١٦ - الناصري ـ **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى** ج٢ تحقيق جعفر ومحمد الناصري، طبعة الدار البيضاء ، دار الكتاب ١٩٥٤ ، ص١٨٢ .

١٧ - أنظر أبو شامة المقدسي، **الذيـل علـى الروضتين** عـني بنشـره السـيد عزت العطار الحسيني، الطبعة الثانية دار الجيل بيروت، ص١٧٤ .

ـ ابن تغري بردي (الأتابكي) **النجوم الزاهرة** ، ج٦ طبعـة مصـورة عـن طبعة دار الكتب وزارة الثقافة والارشاد القومـي .بمصر /تـا بـلا/ ص٣٥٠ ، ابـن كثـير الدمشـقي ـ البداية والنهاية ج١٣ وطبعـة السـعادة .بمصر بـدون تـاريخ ص١٦٤.

ـ الذهبي ـ **سير اعلام النبلاء** ج٢٣ تحقيق بشار عواد معروف، طبعـة أولى، مؤسسة الرسالة ١٩٨٥ ص٩٦ ـ ٩٧ .

١٨ - يقصد بها معركة الأرك بين أبي يوسف يعقـوب والأذفـوش الفرنجي صاحب غرب جزيرة الأندلس ٥٩٠هـ .

١٩ - ابن خلكان ـ **وفيات الأعيان** ـ مجلد ٧، تحقيق إحسان عبـاس، طبعـة دار صادر ببيروت بلا تاريخ ص٥ ـ ٦ .

٢٠ - ابن الأبار (محمد بن عبد الله)، **التكملة لكتاب الصلة** ج١ عني بنشره عزت العطار الحسيني، القاهرة ١٩٥٦ ص٩٥ .

٢١ - ابن تغري بردى - **المصدر السابق** ج٨ ص١١٣ .

٢٢ - ابن الوردي (زين الدين عمر)، **تتمة المختصر في أخبار البشر** ج٢ تحقيق أحمد البدراوي، دار المعرفة ببيروت، طبعة أولى ١٩٧٠ ، ص٣٤٩ ـ ٣٥٠، ابن حبيب (الحسن بن عمر) **تذكرة البنية في أيام المنصور وأبيه** ، ج١ تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة طبعة دار الكتب ١٩٧٦ ، ص٢٠٦ ـ ٢٠٧ ـ المقريزي - **السلوك**، ج١ القاهرة طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ ، ص٨٥١ .

- طاش كبرى زاده - **مفتاح السعادة**، ج١ تحقيق كامل بكري - دار الكتب الحديثة بلا تاريخ ، ص٢١٧ .

- الصفدي (ابن أبيك)، **الوافي بالوفيات**، ج٣ تحقيق محمد بن الحسين ومحمد بن عبد الله، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٥٣ ، ص٨٥ .

٢٣ - الحسن السائح - **مجلة البنية** ـ العدد الثالث ـ وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الاسلامية المغرب ١٩٦٢ ص٣٨ .

٢٤ - **موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين** طبعة بيروت مؤسسة المعارف ص١٨١ .

٢٥ - الناصري - **المصدر السابق** ج٣ ص٨٣ - ٨٤ ، ابن خلدون « عبد الرحمن » **العبر وديوان المبتدأ والخبر** - ج١٣ ص٤٦٩ .

٢٦ - ابن خلدون **المصدر السابق** ج١٣ ص٧٨٣ - ٧٨٤ .

٢٧ ـ ف ـ ب ـ هوبكنز ـ **النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى**، ترجمة أمين توفيق الطيبي - ليبية - تونس الدار العربية للكتاب ١٩٨٠

ص٢٤٠.

٢٨ - كراتشكوفسكي - **المرجع السابق** ، ج١ ص٤٤٥ - ٤٤٦ .

٢٩ - كراتشكوفسكي - **المرجع السابق** ، ج١ ص٤٤٦ - ٤٤٧ .

Directeur de la Revue	**Abdul Gani Ma' Al Bared** Recteur de l' Université de Damas
Directeur de la Rédaction	Mouhammad Mouhaffel
Rédacteur en Chef Adjoint	Abdul Karim Ali

Revue Historique éditée par le Comité de Rédaction de l'histoire Arabe:

Dr. Abdul Gani Ma' Al Bared
Dr. Adel Awwa
Dr. Nour el- din Hatoum
Dr. Chaker Fahham
Dr. Mouhammad Kheir Fares
Dr. Hamed Khalil
Dr. Khairieh Quasmieh
Dr. Taib al Tizini
Dr. Soultan Mouhaissen
M. Mouhammad Mouhaffel
Dr. Souheil Zakkar
Dr. Id Mur'i
Dr. Faisal Abdulah
Dr. Ali Ahmad
Dr. Ibrahim Za' Rour
M. Abdul Karim Ali